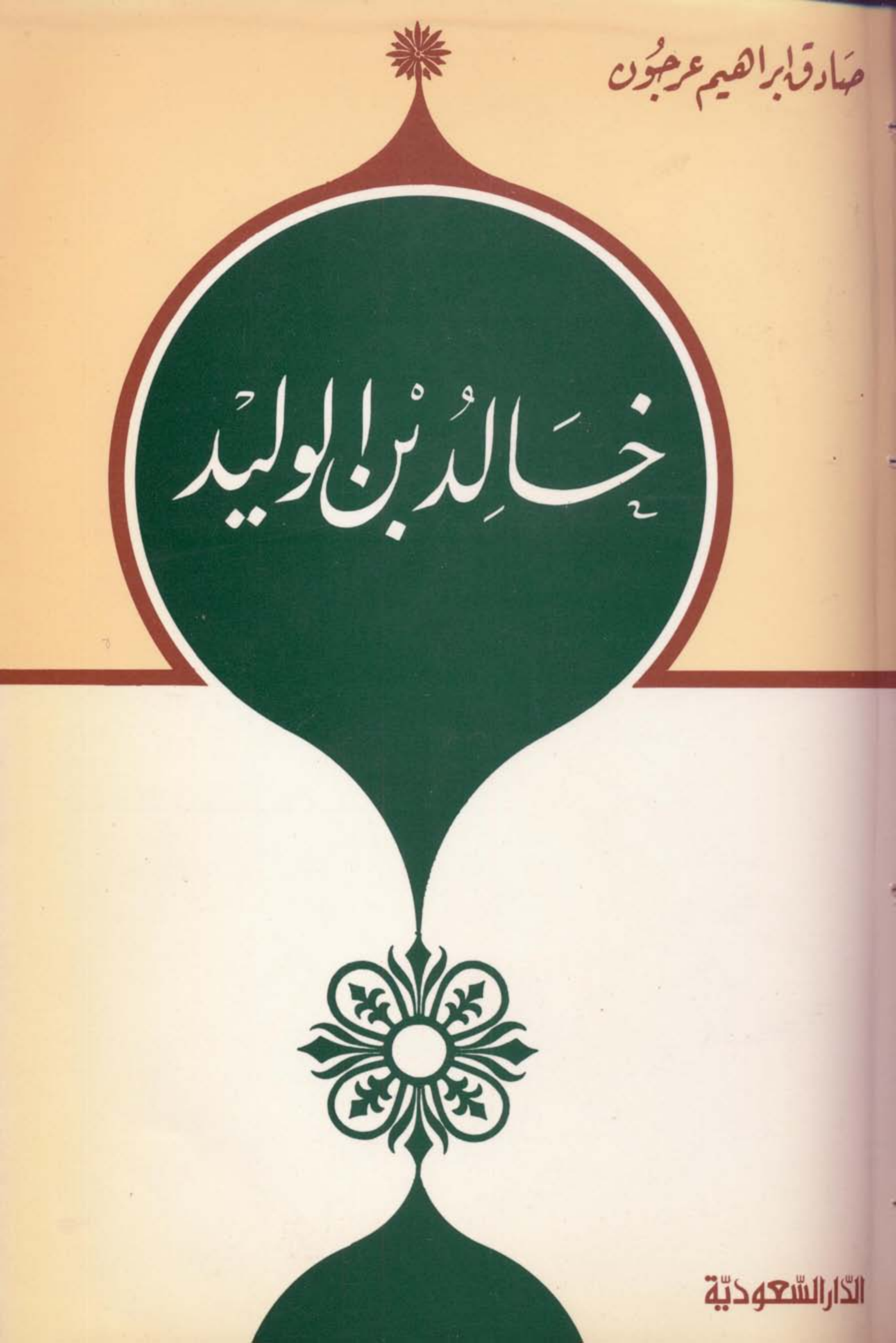

صادق إبراهيم عرجون
خالد بن الوليد
الدار السعودية

خالد بن الوليد

صادق إبراهيم عرجون

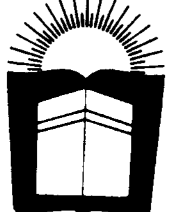


عجزت النساء أن ينشئن مثل خالد
[أبو بكر الصديق]

هل قامت النساء عن مثل خالد
[عمر بن الخطاب]



الطبعة الثالثة
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م



جدة : الإدارة - البغدادية عمارة الجوهرة الدور الثاني شقة رقم ٧ و١٢
تليفون ٦٤٢٤٠٤٣/٦٤٣٢٨٢١ ص. ب. : ٢٠٤٣ برقياً: نشر دار
الرياض : السليمانية، شارع الأربعين تليفون ٤٦٤٧٥١٥ ص. ب. : ٩٤٧٣
الدمام : الشارع العام، عمارة المنصور والعبدلي ص. ب. : ٨٩٩ تليفون
٢٣٥١٥ برقياً: نشر دار الدمام.
الطائف : حي السلامة بالبرقاوية أمام مسجد الحلواني تليفون ٦٢٤٩٠.

مقدّمة

بقلم الكاتب الإسلامي الكبير
الأستاذ سيّد قطب

يسرني أن أقدم إلى الناس هذا الكتاب عن «خالد بن الوليد» بقلم «صادق ابراهيم عرجون». . إنه يمثل طرازاً من دراسة الشخصيات الإسلامية غير مسبوق؛ ويقدم ـ ربما للمرة الأولى ـ نموذجاً من المنهج الذي ندعو إليه في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي. . ومن هنا تنشأ قيمة هذا البحث، ومن هنا كان اعتزازي بأن أقدمه للناس لأقدم لهم نموذجاً عملياً مما نعنيه بإعادة كتابة التاريخ.

إن كتابة التاريخ الإسلامي تحتاج حتماً إلى إدراك طبيعة الفكرة الإسلامية، ونظرتها إلى الحياة والأحداث والأشياء، ووزنها للقيم التي تعارف عليها الناس، وتأثيرها في الأرواح والأفكار، وصياغتها للنفوس والشخصيات.

ودراسة الشخصيات الإسلامية ـ على وجه خاص ـ تقتضي إدراكاً كاملاً لطبيعة استجابة الشخصيات الإسلامية لإيحاءات الفكرة الإسلامية. فإن طريقة استجابة تلك الشخصيات لهذه الإيحاءات، مسألة هامة في صياغة شعورها بالقيم، وسلوكها في الحياة، وتفاعلها مع الأحداث. . ولن يدرك طبيعة الفكرة الإسلامية، ولا طريقة استجابة الشخصيات الإسلامية لها إلا كاتب مؤمن بهذه الفكرة مستجيب لها في أعماقه، لكي يكون إدراكه لها ناشئاً عن تلبس ضميره بها، لا عن رصدها من الخارج، بالذهن المتجرد البارد!

لقد ازدحمت فترة تاريخية قصيرة ـ في صدر الإسلام ـ بحشد من

النماذج الإنسانية الفائقة في كل اتجاه. ولا بد من تعليل شامل لهذه الظاهرة الغريبة. ولا مناص من اعتبار الفكرة الإسلامية بكل حيويتها وبكل فاعليتها سبباً رئيسياً لهذا الانبعاث. فعنصر الفكرة الإسلامية هو الجديد على هذه البيئة التي ازدحمت بهذا الحشد من النماذج الفريدة في تاريخ البشرية كلها. وعندئذ يتحتم على الباحث في تاريخ هذه الفترة، وعلى الدارس لهذه النماذج المحشودة فيها أن يحسن إدراك الفكرة التي بعثت وجمعت هذه الثروة الضخمة من المواهب والعبقريات والكفايات. ولن يحسن إدراكها إلا من يدركها من الداخل بكيانه كله؛ وهذا لا يتأتى إلا لباحث مؤمن بها مستجيب لها كما أسلفنا.

باحث من هذا الطراز يختلف في شعوره وفي تفكيره اختلافاً بيناً عن المؤرخين الغربيين الذي تناولوا الحياة الإسلامية والشخصيات الإسلامية بالدراسة؛ كما يختلف اختلافاً بيناً عن المؤرخين المتتلمذين على المنهج الغربي في الدراسات التاريخية كذلك. ومنهم معظم من كتبوا حديثاً في التاريخ الإسلامي وعن الشخصيات الإسلامية على وجه العموم.

وهنا أقتطف فقرات من بحث لي سبق نشره في مجلة «المسلمون» لبيان طبيعة المنهج الغربي وقصوره في مجال الدراسات الإسلامية؛ وقد جاء فيه:

«التاريخ ليس هو الحوادث، إنما هو تفسير الحوادث والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان.

«ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها، ويربطها بما قبلها وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية وفكرية وحيوية، ومقومات الحياة البشرية جميعها: غيبية ومعنوية ومادية. وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة، ويستجيب لوقعها في مداركه، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد.

«فأما إذا كان يتلقاها بادىء ذي بدء وهو معطل الروح أو الفكر أو

الحس عن عمد أو غير عمد، فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية، أي أنه يحرمه عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل، ومن ثم يجعل تفسيره لها مخطئاً أو ناقصاً.

«هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية. ذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية ـ بصفة عامة ـ لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة، والحياة الإسلامية على وجه الخصوص.. عنصر الروحية الغيبية ـ وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية، والطريقة التجريبية على وجه أخص ـ وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة.

«وقد ذكرت عنصر الروحية الغيبية على وجه التخصيص لأنه أظهر ما يبدو فيه هذا النقص في الطبيعة الغربية، وفيه تكمن معظم أوجه الاختلاف بين الطبيعتين وهي شتى كثيرة.

«هذه المقدمة الصغيرة لا بد منها لبيان ما في تناول المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامي من نقص طبيعي في الإدراك، ونقص طبيعي في الفهم، ونقص طبيعي في التفسير والتصوير. فانعدام عنصر من عناصر الاستجابة للحادثة أو ضعفه، لا بد أن يقابله نقص في القدرة على النظر إلى الحادثة من شتى جوانبها. وضياع عنصر من عناصر التقويم والحكم، لا يؤمن معه سلامة هذا الحكم، أو على الأقل لا يسلم به على علاته.

«هذا النقص يعد عيباً في منهج العمل التاريخي ذاته، وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة أو تصوير حالة. ومن ثم فالمنهج الغربي في البحث يسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة، سواء كان ذلك ناشئاً عن الطبيعة الغربية ذاتها وملابسات حياتها البيئية والتاريخية. أو ناشئاً عن تعمد المؤرخ الأوربي تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معين في الدراسة. هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية، بل لتناول الحياة الشرقية على وجه العموم، ولكن عدم الصلاحية يتجلى في جانب الدراسات الإسلامية أوضح وأقوى».

ولعله من الضروري أن أوضح هنا ما قصدت إليه «بعنصر الروحية

الغيبية» ومدى تأثيره في تفسير الأحداث، وتقويم الأشخاص في الدراسات التاريخية.

إن الفكرة الإسلامية عن الحياة تختلف عن الفكرة الغربية، في أن الأولى تعتقد بأن هنالك مدداً للإنسانية من وراء المعلوم المحدود، وأن البشر ـ وأفراداً منهم بصفة خاصة ـ ليسوا متروكين لطاقتهم الظاهرية المحدودة، وأن هناك لحظات ترتفع فيها الجماعات، ويرتفع فيها الأفراد، فوق مألوف طاقتهم الظاهرة، بحكم هذا المدد اللدني الغامض، سواء كان هذا المدد كامناً في ذواتهم غير معلوم لهم على وجه التحقيق، ولكن تكشف عنه اللحظات الخاصة على غير انتظار، أو مستمداً للحظته من القوة الكبرى التي تصرف أقدار الحياة والإنسان.. بينما ترى الثانية أن الطاقة البشرية هي هذه المعروفة المعالم والحدود؛ وأن كل النتائج والعواقب كامنة في الأسباب المعلومة المقدرة المكشوفة للحساب والتقدير.

وتبعاً لاختلاف طبيعة الفكرتين، تتوقع الأولى من الجماعات ومن الأفراد في بعض الأحيان خوارق بالنسبة لمألوف الحياة، ولا تكذب بها لأول وهلة حين تتحدث عنها الروايات الوثيقة؛ لأنها تؤمن في قراراتها بأن للروح الإنساني وثبات خارقة، ويؤيدها الواقع التاريخي في هذا الإيمان. بينما تضع الثانية نصب عينيها مألوف الطاقة البشرية في فترة من فترات التاريخ، ومنطوق الحوادث الظاهرة والمقومات المحسوسة. وتستكثر على الجماعة أو الفرد لحظات التفوق الخارقة، وتكذب بها، وتحيلها إلى عالم الخرافة.

وليس معنى هذا أن الفكرة الإسلامية تؤمن بالخرافة، وتعتمد على الأسطورة، حين لا تحكم الفكر البشري وحده في تفسير الحياة بجملتها. بل معناه أنها لا تسلم نفسها إلى ذلك الغرور البشري بالفكر الإنساني الذي لم يشب عن الطوق بعد؛ وتمنحه مكانه الطبيعي في إدراك ما هو من شأنه، وما هو داخل في وسعه، ومألوف طاقته. وتدع المنافذ الأخرى إلى المعرفة مفتوحة، ما دام الواقع يأتي كثيراً بما تعجز عن تفسيره العقول!

من منطق الفكرة الإسلامية عن الحياة استمد «صادق ابراهيم عرجون» كتابه عن «خالد بن الوليد» فجاءت سيرة كتبت بروح الإسلام، واستقامت

على نهج الإسلام. لم يفتها من التحقيق العلمي شيء يعاب فوته، ولم ينقصها من الإيمان الغيبي شيء يعاب نقصه، فاستقامت بهذا وذلك على نهج الإسلام في تناول الحياة والأشياء والأشخاص. وجاءت نموذجاً قيّماً للمنهج الذي ندعو لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي على أساسه.

أما سمة المنهج الذي سار عليه المؤلف، فهي أن يبدأ برسم معالم الشخصية من أخبارها المحققة؛ ثم يأخذ بعد ذلك في عرض سائر أخبارها على ضوء تلك المعالم الثابتة؛ وفي غربلة هذه الأخبار وتنقيتها على ذلك الضوء. وفي ظل الموازنة والترجيح بين الروايات المختلفة ينتهي إلى إقرار بعضها، مما تقره الموازنة، ومما يتفق مع خطوط الشخصية المحققة؛ وإلى استبعاد بعضها، مما لا يثبت على التمحيص، ومما يتجافى مع خطوط الشخصية الأصيلة.

وهو منهج مستقيم ولا ريب ـ وإن كان خطراً في بعض الأحيان ـ فافتراض أن الشخصية الإنسانية وحدة ثابتة في جميع أطوارها وأحوالها، لا تتكسر خطوطها ولا تتعرج تحت جميع الظروف وأمام جميع الاحتمالات.. مسألة فيها نظر. وهي على الأقل قابلة للمناقشة والجدل.

ولكن صاحب هذا البحث يتوقى ذلك الخطر الذي أشرنا إليه، بأن يعمد إلى تمحيص الأخبار، والموازنة بين الروايات، وتحكيم أكثر من أداة واحدة من أدوات التحقيق العلمي. كما أنه يستعين باستشراف روحي لا أرى مفراً من الاشارة إليه والثقة به.. وهو بهذه الوسائل مجتمعة يسلك بنا طريقاً آمناً في دراسة الشخصية والأحداث والأخبار. ويستعين بكل الوسائل الميسورة للبشر المحجوبين عن إدراك الحقيقة الكاملة، إلا ومضات بعد ومضات!

ولقد خاض المؤلف بهذه العدة من تأملات الفكر وسبحات الروح، غمرات وأشواكاً في حياة البطل: خالد بن الوليد. أشفق منها بعضهم فمضى عنها ناجياً؛ وترك ترجمته لخالد ولأبي بكر ولعمر ناقصة من هذه الناحية، يطلع منها القارىء على فجوة في البحث، ونقص في الصورة، ونجوة من العناء! وواقعها بعضهم فأتى فيها بالمخزية المندية عن خالد وعن أبي بكر وعن عمر، وهبط بالخليفتين الأولين للإسلام إلى منحدر واط، إن هشت له نفسية

المداورين من هذا الجيل، إن روح الإسلام لتنفر منه نفوراً شديداً، وإن روح أبي بكر وروح عمر لتشمئزان منه اشمئزازاً!

خاض المؤلف غمار أقصوصة خالد مع مالك بن نويرة وامرأته ليلى الجميلة؛ وأقصوصته مع مجاعة وابنته الغادة الفاتنة. كما خاض أشواك الخلاف بين عمر وخالد مستجمعاً كل عدته وكل إيمانه: إيمانه بالحقيقة التي يجب أن تجلى وتبرز، وإيمانه بالبطل الذي يجب أن تتضح صورته كما خلقها الله... وفي غير عنت ولا مشقة رسم صورة لهذا كله. إن لا تكن هي الحقيقة الكاملة، فهي على الأقل أوضح وأصدق وأدق صورة رسمت حتى اليوم؛ وأولى الصور بأن يقتنع بها الفكر والضمير في غير غضاضة ولا التواء.

وميزة المؤلف هنا أنه علل الأحداث بطريقة يقرها الفكر المحقق، وتؤازرها الموازنة بين الروايات والأخبار. وفي ذات الوقت يستريح لها الوجدان المؤمن، الذي يحس أثر الإسلام في الناس، حين تخالط بشاشته قلوبهم، وما يفرضه من اليقظة الدائمة على نفوس الأفراد والجماعات، وما يثيره من الحساسية المرهفة في الضمائر الوجدانات. وذلك كله دون أن يغفل كوامن الطبع البشري، ودوافع التكوين الإنساني.. وهذه الخصائص حسب باحث في سيرة بطل من أبطال التاريخ والإسلام.

* * *

ولا يتسع تقديم كتاب لاستعراض الأمثلة على تلك الخصائص. فالكتاب نفسه هو المثال. فأكتفي إذن ـ وقد أوضحت المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ ـ بأن أقول: إن صادق عرجون، قد حقق هذا المنهج بدراسته لخالد، وأنشأ بها نموذجاً محسوساً للمنهج الجديد...

سيد قطب

مقدّمة

اللهم إني أستلهمك محامد تبلغ من شكرك ذرى نعمتك، وأستمنحك توفيقاً أستظل به في ذرى رحمتك، وأستهديك بلج الحق، وأستعينك على السداد، وأعوذ بكنفك من مساقط الهوى، وميل اليراعة عن جواد الرشاد.

وأسألك أن تصلي على محمد عبدك ورسولك وخاصتك من خلقك، صلاة ترضيك، وترضيه، ونبلغ بها من رضوانك ما أنت أهله من الطول والإحسان.

أما بعد. فهذا كتاب «خالد بن الوليد» أرفعه إلى قراء العربية طرزاً في دراسة «الشخصيات» ذات النواحي المتعددة في مياسم العظمة، ومعالم العبقرية، قائمًا على تصوير بعض تلك المياسم وتوضيح هاتيك المعالم.

لا أزعم له كمالاً في التصوير، ولا أدعي له فوقاً في التعبير، ولكنه لون من البحث يبرز مآثر التربية الإسلامية في سيرة رجالات الإسلام، وهو فن لا تستغني عنه حياة المسلمين في هذا العصر، بل ربما كانت أشد تطلباً له الآن، لحاجتها إلى الحوافز الدافعة بها إلى طريق التبصرة والإدكار.

والأمة إذا بصرت اعتبرت، وإذا اعتبرت تطلعت إلى منافذ الهداية في حاضرها، إن كان لها من وسائل النهوض رصيد، وإلا اشرأبت إلى الماضي تستوحيه إن كان لها في سجل الحياة تاريخ.

ومن عجائب التوفيق أن رصيد الأمة الإسلامية من وسائل نهوضها في حاضرها مستمد من منابع ماضيها في التاريخ. وكل ما في يدها اليوم من هذا

الرصيد يقظة مبصرة، ولكنها مبددة الأهداف، حائرة التفكير، يخدعها سراب الحياة الصاخبة من أفق الغرب «المتحلل» والشرق «الملحد» في آيـات الله الكونية، فتمشي إليهما ممجدة معظمة مشاكهة حتى إذا أدركها ظلامهما المادي الكثيف بأشباحه البشعة المخيفة، وأفكاره السوداء المدمرة، ارتدت إلى أفقها الشرقي متطلعة إلى شمس الهداية في ماضيها المشرق الزخار بآيات المجد والسؤدد، الغني بمثل الإصلاح ونماذج العبقرية.

فإذا أبصرت ظلال ذلك الماضي وقفت حيرى بين كـابوس الغرب الفاجر المغرور، والشرق الجاحد الكفور، وبين مجـد ماضيهـا المسطور في صحائف التاريخ.

وما غناء الماضي في بعث أمة طال عليها الأمد في مراقد الزمن مسلوبة الإرادة والتفكير إلا من طريق الإيحاء والتلقين، لو لم يصور لها هذا الماضي في نماذج حية تعيش معها في سيرتها؟

وما غناء الفكرة لو لم تبرز إلى واقع الوجود في نموذج حي يمثلها أصدق التمثيل؟

وما قيمة الشرائع في حياة الناس إن لم يكونوا بأعمالهم في هذه الحياة معنى لألفاظها، وقالباً لحقيقتها، ومثلاً «مكيفة» في تطبيق نصوصها؟

والنماذج الحية في تاريخ الأمة الإسلامية هي المنبع الفياض بعظمة الإسلام. وهي الآية الكبرى على أن الإسلام في حقيقته العليا عمل مؤتلف من عمل الضمير، والفكر، والجوارح، وهي شواهد ناطقة على عمل التربية الإسلامية في الأفراد والجماعات وعلى أثرها في تكوين الأمة عندما تتخذها تلك الأمة عنصر الإصلاح في نهضتها.

ومن ثم كان عرض هذه النماذج بتصوير حياتها الواقعية حاجة من حاجات العالم الإسلامي في حاضره ليجد الأسوة في ماضيه الواقعي مثلاً من مشاهد الحياة.

وبطل الإسـلام «خالد بن الوليد» نموذج من أخصب النماذج الحية في الإسلام، المليئة بالخصائص الإنسانية القوية، وشخصيتـه تمثل جـانباً من

جوانب الحياة الإسلامية في صدرها الأول، تجلت فيه آثار التربية الإسلامية، فكان في سيرته عنواناً على واقعيتها كاملة كما نزلت من السماء.

وهذا النوع من النماذج في تاريخ الإسلام حجة دامغة على من يزعم أن الإسلام دين مثالي الأهداف والمقاصد، بعيد عن الواقعية. وهؤلاء يقيسون الإسلام بحاضر المسلمين، ويحاكمونه إلى أحوالهم ومظاهرهم، ويقدرونه بأقدارهم، ويزنونه بأوزانهم، وهذا غلط أو مغالطة، وإلا فأين شهادة التاريخ الواقعي في حساب القياس والتقدير، يوم أن كان الإسلام كله مدرسة لتخريج العبقريات الإنسانية؟ ويوم أن كانت تعاليمه ممثلة في أشخاص حاملي ألويته ورافعي راياته الخفاقة في العالمين؟

كان خالد بن الوليد نموذجاً فريداً في العبقرية العسكرية والبطولة الحربية، فكانت خصيصة «الجندية» أظهر خصائصه حتى لا يستطيع من يردد النظر في سيرته باحثاً عن مجالي العظمة، إلا أن يرى تلك الخصيصة عنواناً لكل فصل من فصول حياته.

ولسنا في هذا البحث نقصد إلى الحديث عن هاته الخصيصة في خالد من وجهها الفني، فذلك حديث له أقلامه في توجيه النبوغ وإعطائه مجاله في الحياة بأوسع ما تتسع له حياة الأفراد، وإلى تصوير أثر التربية الإسلامية في إبراز كوامن العبقريات في حياة الأمم والجماعات.

فالصورة التي يراها القارىء في هذا البحث لبطل الإسلام «خالد بن الوليد» هي صورة من صنع الإسلام للنماذج الإنسانية في ميادين الجهاد والتفكير الحازم في الخروج من مآزق الحياة.

وقد سلكنا في عرض الملامح المقومة لشخصية خالد الإسلامية طريقنا في تتبع الروايات التاريخية ونقدها على ضوء الخطوط الأولى للشخصية المصورة، وناقشنا حوادث وأحداثاً اضطربت فيها الروايات، وانحرف بها التاريخ أو حملت عليه حملاً، فكانت مزلقة لبعض كبار الباحثين ممن جانبهم التوفيق في دراستها، وانتهينا بها إلى مكانها من الحق في سجل التاريخ على قدر ما وسعته الطاقة، واتسع له مدى البحث.

والناظر في هذا البحث لا يجد فيه شيئاً غريباً على معارفه التاريخية إذا

كان ممن أجال النظر في معارج التاريخ الإسلامي بشيء من التأمل الناقد، والفكر الممحص.

ومن هنا لم تكن بنا حاجة إلى ثبت من المراجع والمصادر نكثر به على القارىء، فهي مبثوثة في غضونه وثناياه، أو معروفة مشهورة لا تحتاج من أولي العلم إلى كبير معاناة.

وحسب الذين لم يعنوا بدراسة التاريخ الإسلامي أن يشعروا عند قراءة هذا البحث بدفء الصدق وبرد اليقين، وأن تنبعث فيهم رغبة الدراسة والتفقه في حوادث وأحداث ذلك التاريخ، وفهم سير رجالاته، وتعرف العوامل الأصيلة في تربيتهم تربية جعلت منهم نماذج لروح الإسلام، وحيويته على مدى الأزمان، وما بقليل في باب الجزاء أن نظفر بهذا الثواب؟

المؤلف

تمهيد

من بحوث التاريخ ما يكتب لتسجيل الماضي، يصوره حسبما اتفقت ألوانه ورسومه في إطار الزمن، وهذا الطرز من البحث لا يقصد به إلى الحقائق التاريخية التي شهدت حتمًا وجه الحياة، وإنما يقصد به في الأعم الأغلب تصوير الحياة السالفة لأمة من الأمم، أو جماعة من الجماعات أو فرد من الأفراد الذين كان لهم بروز على أقرانهم في اتجاه من أنحاء الحياة، أو عمل من أعمالها، وخاصة هذا المسلك من البحث الاستقصاء في التدوين، وتتبع الروايات المتلقاة من أفواه المتحدثين، دون تحقيق لصحة الوقائع والأحداث والأشخاص.

ومن بحوث التاريخ ما يكتب للحاضر، شحذاً لهمة راكدة أو طبيعة فاترة، أو تنبيهاً لجماعة غافلة. وهذا اللون من البحث لا يقصد فيه إلى الاستقصاء في الرواية، ولا يلزم الباحث فيه نفسه بتحقيق الحوادث التاريخية، وإنما تلتقط صوره من الألوان البراقة التي تكون أقرب إلى تحقيق المقصود منه، ومن ثم كان هذا اللون مصدراً خصيباً لنوع من الأدب الخيالي تصور فيه البطولات في صورة قصص تجسم فيها الحوادث لتكون أعون على التأثير، وأبلغ في تأدية المطلوب.

ومن بحوث التاريخ ما يكتب للمستقبل كوسيلة من وسائل التربية والتوجيه للجماعات والأفراد، وهذا النوع من البحث يعتمد:

أولاً: على تحقيق صحة الحوادث بالقدر الذي تسمح به الشؤون التي احتفت بتلك الحوادث حين وقوعها، أو الشؤون التي تحيط بالكاتب حين

يكتب ما يريد. ويعتمد:

ثانياً: على استقصاء الوقائع لربط بعضها ببعض، وموازنة المتشابهات منها، وقرن المتصلات، ووصولها بطبيعة الحوادث والأحوال التي وقعت فيها، فالاستقصاء في هذا النوع استقصاء نظر واطلاع، وليس استقصاء تدوين وتسجيل. ويعتمد:

ثالثاً: على الاستنباط، وإظهار العبرة الحافزة في صورة مشعة وضاءة، وألوان مشرقة براقة، لتكون أدفع على العمل وأدعى إلى التأسي، وهو جماع ما يبغيه الباحث من نقل صور الحوادث والأشخاص من الماضي إلى المستقبل.

وبهذا التمايز بين فنون البحث يتميز الباحثون في التاريخ، فصاحب الرواية المتكثر من القصص والأحاديث، الحاكي لكل ما يبلغه، الناقل لكل ما يسمعه، يجد سبيله معبدة في منابع التاريخ ومصادره، الناقلة لأحداثه، المبتدعة لأقاصيصه، المصورة لأشخاصه.

وصاحب الفن يجد في أخيلة الماضين، وأسلوب القصاصين مرتعاً لفنه، ومسبحاً لخياله، ومعرضاً حافلاً لما يشاء من الصور والألوان.

وصاحب التحقيق من العلماء ـ الذين لا يطمئنون إلا إذا آمنوا، ولا يؤمنون إلا إذا تيقنوا ـ يجد لعقله المحقق مجالاً وسيعاً للموازنة بين الأحداث والروايات، وتطبيقها على سنن الوجود، لاستنباط العبرة من أطوائها، حتى يلحق الآخر بالأول، ويربط الحادث بالقديم، والحاضر بالماضي، ليكون جديد الحياة من التفكير والأعمال قائماً على أساس من قديم الوقائع والأحداث، والماضي أبداً مصدر إيحاء صادق لتفكير العلماء وأعمال النابهين.

والتاريخ الإسلامي: مثل غيره من تواريخ الأمم والجماعات، والملل، والمذاهب، والأفكار، والأشخاص، مليء بما يرضي رغبات الباحثين في شتى مناحيهم، ففيه الحقائق الواقعة حافلة بالعبر والأسى، وفيه القصص البارعة التي تدخل الخيال في نسج خيوطها، دائرة حول الأشخاص والأحداث.

بيد أن هذا التاريخ انصب في مدوناته ومصادره الأولى خليطاً من هذا

وذاك، فلم تتميز فيه واقعة صادقة من حادثة مصنوعة، ولم تتبين فيه معالم الشخصيات وألوانها خالصة من شوائب الإغراق في طرفي الاستزادة والتنقيص، انقياداً لعوامل موضعية يتأثر بها التاريخ.

فالذي يقصد إلى هذا التاريخ باحثاً في أحداثه وشخصياته قد يجد عنتاً فادحاً إذا أراد تحقيقاً علمياً يصفي الحقائق ويصور الشخصيات الفارعة بألوانها الأصيلة، ولكنه يجد عيناً ثرارة إذا أراد مادة لعمل أدبي يقصد إلى الفن الذي لا يرى الصدق لازماً في تدوين وسائله ومراميه.

قد يكون جانب دراسة الشخصيات وبحوث التراجم أقل جوانب التاريخ الإسلامي حظاً من العناية في التدوين، ولا سيما الدراسات التحليلية التي تعنى برد الحوادث إلى مناشئها النفسية من الشخصيات، أو إلى بواعثها المستسرة من البيئات التي لها أثر في تكوين تلك الشخصيات.

ومن هنا كانت بحوث التراجم ودراسة الشخصيات الإسلامية دراسة لا تقف عند حد الرواية من أشق البحوث، وأحوجها إلى الأناة والرفق. وهذه البحوث أحفل ضرعاً بالعوامل التربوية التي يريد إليها الباحث لتكون طريقاً من طرائق تبصير الناشئة في مستقبل الأمة، لأن موضوعاتها مثل حية من النماذج الإنسانية التي أفرغت فيها الحياة أفضل ما تملك من قوى حسية ومعنوية؛ ولكل نموذج منها خصيصة في منحى من مناحي الوجود، تمثل أرفع مباغي الحياة في منزعها من العصر الذي كان مجالاً لتلك الشخصية تغدو في جوانبه وتروح.

فإذا اتفق لعصر من الأعصر أن يضم بين جنباته مجموعة من تلك النماذج العالية، وتربطها وشائج جنسية، أو فكرية، أو عقيدية، أو لغوية، كان ذلك العصر من التاريخ في مكان البؤرة المشعة من جرم الشمس، وعلى قدر ما في تلك النماذج من خصائص موزعة على مناحي الحياة يكون التفاوت في مقومات الأمم؛ والجماعات والأفراد.

وتاريخ الإسلام من أوفر التواريخ حظاً في هذه النماذج الإنسانية، ونماذجه من أوفر النماذج السامية حظاً في خصائص المثل العليا، التي تتمثل فيها مجموعات من الفضائل المخصبة.

وقد ضمت أوائل صحائفه سجلاً حافلاً للشخصيات اللامعة، والحوادث الواقعة، التي وثقت عروتها وحدة الزمن، والجنس، والبواعث؛ فلما اختلفت الوشائج بين المسلمين في ظل وحدة العنوان، وصار الزمن أزمنة، والجنس أجناساً، والباعث بواعث، تتابعت النماذج حاملة خصائص جديدة تختلف قليلاً أو كثيراً مع خصائص النماذج الأولى؛ ولكنها على كل حال ظلت حيناً من الدهر عنواناً على سلامة التكوين في هذا العالم الإسلامي الذي نشر أحد جناحيه على السور الأعظم في بلاد الصين، ومد جناحه الآخر على قمة البرنات من رأس أوربة الأشمط.

غير أن كثرة العناصر والأجناس التي انضوت تحت لواء الإسلام في هذا المتسع من الكرة الأرضية، والتي أصبح تاريخها جزءاً من التاريخ الإسلامي، ولم تكن كلها ممن يحمل لقاح الإخصاب في صنع النماذج الإنسانية الفاضلة؛ وليتها كانت عقيًا؛ إذن لكان أمرها أهون، وشأنها أضعف؛ ولكنها كانت تنتج نماذج كره الإسلام تبنيها، وأبى عليها أن تتخذه حاضناً لها، وكانت معه كالمعود الذي لا يطيق دسم الغذاء، فكلما أرضعها من تعاليمه وآدابه شخباً تقايأته دماً، ورجعت إلى موروثها من العقائد والتعاليم والآداب فتحلبته، فكانت في العد والحساب مسلمة، وكانت في التكيف الواقعي مختلجة مضطربة.

وهكذا زاحمت هذه النماذج الشاردة عن طبيعة الإسلام، نماذجه الفاضلة في غمرة هذا الخضم من البشرية المسلمة في حسبان «الجغرافيين» حتى فقدت خصائصها، وعادت كشيء من أشياء الناس، لا تحمل من المزايا التي تطلب للتأسي إلا كما يحمل السراب نمير الماء.

ومنذ فقد التاريخ الإسلامي هذا اللون من النماذج الإنسانية أصيب في حيويته بما يشبه العقم، فلم يشهد في فترات من الزمن مهاد العبقرية تهتز بالمثل الواحية بالتوثب إلى أمجاد الحياة.

فما عسى أن يصنع الباحث في التاريخ الإسلامي ـ وهو يشهد الأمم الإسلامية مضطربة السير في الحياة، لا تجد لها منها في حاضرها نماذج حية تأخذ بها في جواد تنتهي بها إلى غاية من السؤدد وقف على سفحها أسلافها

الأولون ـ أفضل من أن يستوحي الماضي فيبرز ما فيه من صور العبقرية الرابضة في النماذج البشرية الحية، التي حفل بها مهد التاريخ الإسلامي، فيعرضها عرضاً تحليلياً يمثل الحوادث تمثيلاً صادقاً، بالقدر الذي تسمح به أوضاع التاريخ ورواياته وطرائق تدوينه في كتب الأقدمين.

وفي الحق إن هذا المسلك يحتف بالأسف والأمل، وليس في الأسف غنية من شيء ولكنه شعور يردد صدى الطبيعة المصادمة بالألم، وفي الأمل روح للنفس يبسط لها وجه الحياة فتراه من جانبه اليانع المثمر، وهو الذي يدفع إلى العمل. وكأنما جعله الله تعالى أول طلائع الجزاء على احتمال المشاق.

بهذه الصورة الممهدة التي انتزعتها من نفسي اتجهت إلى معالجة البحث في سير رجالات الإسلام من النماذج الحية للإنسانية الفاضلة، الذين حفلت شخصياتهم بالخصائص السامية فكانوا ولا يزالون مثلاً عليا للأسوة الكاملة، وقد حبب إليّ أن أبدأ بالذين في تاريخهم لمع من الشبه، أو حوادث عميت حقائقها في غضون الروايات المتضاربة، لأحاول بقدر مستطاعي إزاحة هذه الشبه، وتحقيق الروايات بميزان الشخصيات أنفسها، وهي في طبيعتها الأولى وقدرتها الأصيلة على الصورة التي أخرجها الإسلام بآدابه وشرائعه. وتطويعه شخصيات رجالاته ونماذجه للتكيف العملي في تطبيق تعاليمه وتحقيق مقاصده وأهدافه.

* * *

مهدت البحث فيما قصدت إليه من سيرة «عثمان بن عفان»[1] رضي الله عنه. وأظهرته للناس كتاباً مبيناً، وقع من قراء البحوث الإسلامية موقعاً كريماً. فقال لي بعض قراء تلك البحوث من المثقفين: في أية شخصية سيكون بحثك بعد «عثمان» من رجالات الإسلام؟ قلت: في بطل الإسلام «خالد» فقال وعلى وجهه علائم غير معبرة: ألا ترى أن «خالداً» قد كتب عنه كثير من الباحثين؛ فما عساك تقول فيه؟ قلت: أجل؛ وما من شخصية من

(١) كتابنا «عثمان بن عفان» كتبناه قبل كتابنا خالد بن الوليد ووضعنا فيه منهجنا في البحث وقد طبع للمرة الثالثة في الدار السعودية للنشر والتوزيع بجدة.

شخصيات رجالات الإسلام الذين لهم في الحياة أثر مشهود إلا وقد كتب الباحثون عنها فأطنبوا أو أوجزوا؛ ولكن هذه الشخصيات مثلها مثل الأرض السوداء المخصبة يزورها الغيث فتزداد على كثرة التقليب إثماراً، وكلما حركتها آتتك ثمراً أخصب وأشهى، أو هي كالشمس تطلع على الناس في إشراقها كل يوم، وهم لا يزالون منها في جديد مطلوب، وأثر مرغوب.

على أن كثرة الكتابة في التاريخ، ولا سيما الكتابة في حياة الأفراد المتازين لا يلزمها أن تحيط بمقومات الشخصية إحاطة تكشف عن عوامل النبوغ كلها، إذ منها عوامل خفية لا يجلوها إلا الزمن فيستطيع الباحث البعدي أن يلتقطها وقد فاتت الباحث القبلي، ويستطيع أيضاً أن يصبها في قالب ينتزعه من مصانع الزمن الذي كشف عنها، ولكل عصر أسلوبه في التعبير، ولكل مفكر طريقته في التفكير، ونعني بالأسلوب الفكرة المدركة من الحوادث التي تقصها الرواية التاريخية؛ والعبرة قائمة بين أيدينا فيما كتب ولا يزال يكتب عن أفذاذ الشخصيات الإسلامية؛ وحسبنا ما كتب ويكتب في سيرة سيد الوجود محمد ﷺ، فقد كانت ولا تزال سيرته منبعاً فياضاً لأقلام نبغاء الكاتبين في الشرق والغرب وفي كل يوم لهم منها جديد، ولسيرة عباقرة أصحابه من سيرته نفحة الإمداد الروحي الذي يكسبها الخلود.

على هذا الوضع فهمت ما كتبه الكاتبون، من القدامى والمحدثين، وعلى هذا الوضع سأكتب مستفيداً من كتاباتهم محاولاً كعادتي أن أضيف إلى ما سجلوا فكرة مستخرجة من ثنايا الحوادث؛ أو أدفع شبهة تشبث بها جاهل أو متجاهل، أو أحقق حادثة تجاذبتها الروايات واختلفت فيها الأقاصيص.

ولست أنسى هنا تأثير الجو الذي يسود العصر الذي نكتب فيه هذه البحوث، ولا سيما هذا الشرق الإسلامي الفوار بالحيوية الوثابة، فالحرب حديثها يكتنف الناس من كل جانب، ومن الحروب ولدت بطولة «خالد»، وفي ظلالها نهدت عبقريته وعلى ذروتها تسنمت عظمته، فلتكن هي الواحي القريب بالحديث عن بطل من أعظم أبطال الحروب في القديم والحديث.

الفصل الاول

خالد قبل إسلامه

مطالع الحديث عن الشخصيات - البيئة العامة وأثرها في حياة الأفراد - موطن خالد وبلده - قبيلة خالد - بيته وأسرته - مكانة أبيه في قريش وموقفه من دعوة الإسلام - إخوة خالد ومن أسلم منهم - مكانة خالد في الجاهلية - موقفه من الإسلام - في غزوتي أحد والخندق .

مطالع الحديث عن الشخصيات

أول ما يرتقب قارىء مثل هذه البحوث، الحديث عن أولية الشخصية المحدث عنها والأطوار التي مرت فيها حتى عقد لها لواء العبقرية، ونحن إذا كنا وكان الكاتبون الذين سبقونا في جهالة غامضة من أولية «خالد» كغيره من عظماء رجالات الإسلام السابقين، فإن هذا الغموض الكثيف في حياة ذلك الجيل الذي كان مهداً لحياة «خالد» وأمثاله، لا تتأثر به الأسباب الحقيقية التي لها تأثير في تكوين الشخصية، فالبيئة العامة طبيعية أو اجتماعية، والبيئة الخاصة في الأسرة والأتراب، وهما من أهم العوامل في ذلك التكوين، لا يستطيع غموض الحياة الجاهلية أن يمحو معالمها في شخصية أصبح لها في الحياة ذكر مشهور.

البيئة العامة وأثرها في حياة الأفراد

والحديث عن البيئة العامة التي نهد «خالد» بين أحضانها يقتضي استعراض أحوال الأمة العربية، وأخلاقها وعادتها في سلمها وحربها، وأحوال منازلها من جزيرتها التي عاشت فيها أحقاباً متطاولة، والتي ألقت على أبنائها ظلًا من طبيعتها الخاصة في جوها ومناظرها، وخصبها وجدبها، ويسرها وعسرها، وهذا أمر أشبعته بحثاً كتب التاريخ العامة، ومباحث الأدب المستحدثة فهو على طرف الثمام[1] من كل مثقف أراد علم شيء منه.

ولست أدري أي الأمرين أرجح ميزاناً في نظر علماء الاجتماع؟ هل

(١) الثمام بضم الثاء المثلثة: نبت معروف في البادية، قال ابن منظور في اللسان: والعرب تقول للشيء لا يعسر تناوله هو على طرف الثمام، وذلك أن الثمام نبت لا يطول فيشق تناوله.

حياة الأفراد أصدق تمثيلاً لحياة الأمة وتصوير خصائصها العامة، أو حياة الأمة أصدق في تمثيل حياة أفرادها؟ وتوضيح هذا أنك إذا قرأت سيرة رجل من رجالات الأمة، فهل أنت مستطيع أن ترسم من ألوان تلك السيرة صورة مقاربة لمقومات الأمة واستخراج خواصها الطبيعية والعقلية والاجتماعية؟ وإذا قرأت تاريخ أمة فهل أنت مستطيع أن تضع لأفرادها خطوطاً أصيلة لا تختلف في ألوانها وإن اختلفت زواياها واتجاهاتها؟ ومعناه بعبارة أوجز: هل الفرد صورة للأمة أو الأمة صورة لأفرادها؟ ومغزى ذلك أن نتعرف هل الأفضل أن نعنى بدراسة حياة الأفراد، وبحوث التراجم؟ أو الأفضل أن نوجه عنايتنا لدراسة حياة الأمة؟ وقد يتفرع عليه أن يتساءل متسائل: هل الأجدى على الإنسانية أن تعنى بتربية الأفراد ثم تتركهم ليحددوا علاقاتهم في المجتمع؟ أو الأجدى أن تعنى برسم الروابط وتحديد العلاقات حتى لا يكون للفرد اختيار إلا أنه ذرة في جسم يجب أن تأخذ مكانها منه حسبما تقتضيه صلاحية تلك الروابط؛ لا حسبما يرى الفرد بقواه الفكرية والجسمية؟

ولعل دارسي القرآن الكريم ـ وهو دستور الإسلام ـ واجدون فيه حديثاً عجباً عن نظرية «الفرد والجماعة» لا يذهب فيه إلى جانب واحد، ولكنه يرى للفرد استقلالاً إرادياً هو منشأ الجزاء الشخصي، ويرى للجماعة وجوداً خاصاً يندمج فيه الفرد باستقلاله فيأخذ منها ويعطيها ويحمل عنها وتحمل عنه، فهو منها، ولكنه جزء عامل لا تستغني الجماعة عن عمله ولا تقوم بغيره.

ومهما يكن من اقتناع الناس بأثر الفرد في الجماعة، أو أثر الجماعة في الفرد، فإن سيرة الشخصيات الإسلامية التي عاصرت جاهلية العرب، ثم نقلها الإسلام إلى أحضانه، أقرب تمثيلاً لحياة الأمة العربية، وتصوير خصائصها العامة في نطاق تهذيبات الإسلام وآدابه، وسيرة «خالد» رضي الله عنه أصدق مثل على تحقيق ذلك..

موطن خالد

وإذا زوينا النظر إلى دائرة أضيق رأينا «خالداً» ينهد بين أكناف «مكة» بلد الله المحرم، وموطن بيته المعظم، إليها تشد رحال القبائل من أقطار الجزيرة العربية ليعظموا الكعبة التي بناها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل برفادة ابنه اسماعيل عليهما السلام، وقد كان للعرب في مكة إلى جانب هذا

الغرض الروحي غرض مادي تجاري، فقد كانت متسوقهم، وملتقى تجارتهم الرائحة والغادية، فهي ميناء بري للجزيرة العربية، تربطها بما صاقبها من الأقطار كالحبشة وفارس والشام، بل كانت ترد إليها سلع البلاد النائية كالهند فتجد فيها رواجاً، إلى ما كان يردها من أقاصي جنوب الجزيرة وسواحلها من اليمن وحضرموت وعدن وبلاد الخليج. وكانت مكة مجتمع القبائل العربية يفدون إلى أسواقها ومحافلها للمضاربة والمرابحة، وإقامة المحاكمات الأدبية والفصل في الخصومات المستعصية، وكان يأمن فيها الخائف، ويطعم الجائع، وينصف المظلوم، وترد المظالم، ويغاث الملهوف.

قبيلة خالد

وفي هذا البلد المعظم تقطن قريش سادنة البيت الحرام التي ألقت إليها العرب قاطبة زمام طاعتها ومنحتها احترامها فعزَّت وسادت، حتى أصبحت بين العرب رمز القداسة وصاحبة السلطان، تشرع للعرب ما يتواضعون عليه من الأحكام والعادات، وتضع نفسها فوق هذه الأحكام والقوانين التي تسري على الناس ولا تسري على قريش واضعة القانون، فيرضى لها العرب ويسلمون، وتقر لها القبائل، فلا يختلف عليها أحد.

ذكر ابن الأثير في كامله أنه «لما كان من أمر الفيل عظمت قريش عند العرب، فقالوا لهم: أهل الله وقطنه، يحامي عنهم، فاجتمعت بينها، وقالوا: نحن بنو إبراهيم «عليه السلام» وأهل الحرم وولاة البيت وقاطنو مكة، فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا، ولا يعرف العرب لأحد مثل ما يعرف لنا، فهلموا فلنتفق على ائتلاف أننا لا نعظم شيئاً من الحل كما يعظم الحرم. فإننا إذا فعلنا ذلك استخفت العرب بنا وبحرمنا، وقالوا: قد عظمت قريش من الحل مثل ما عظمت من الحرم. فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرى سائر العرب أن يقفوا عليها ويفيضوا منها، وقالوا: نحن أهل الحرم فلا نعظم غيره، ونحن الحمس ـ وأصل الحماسة الشدة، إنهم تشددوا في دينهم وجعلوا لمن ولد واحدة من نسائهم من العرب ساكني الحل مثل ما لهم بولادتهم، ودخل معهم في ذلك كنانة وخزاعة وعامر لولادة لهم، ثم ابتدعوا فقالوا: لا ينبغي للحمس أن يعملوا الأقط، ولا يسلؤوا السمن، وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً، وقالوا: ولا ينبغي

لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت طوافهم إذا قدموا إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة، فإن أنف أحد من عظمائهم أن يطوف عرياناً إذا لم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه ألقاها، وكانوا يسمونها اللقى، فدانت العرب لهم بذلك فكانوا يطوفون كما شرعوا لهم».

وقال الطبري: «كان رسول الله ﷺ قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر[1] منصرفه من حجة الوداع فمات رسول الله ﷺ وعمرو بعمان فأقبل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوي في الموت ثم سار عمرو حتى قدم المدينة فأطافت به قريش وسألوه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبي[2] إلى حيث انتهيت إليكم؛ فتفرقوا وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم على عمرو فمر بحلقة وهم في شيء من الذي سمعوا من عمرو، وفي تلك الحلقة عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا فقال: ففيم أنتم؟ فلم يجيبوه، فقال: ما أعلمني بالذي خلوتم عليه، فغضب طلحة وقال: تالله يا ابن الخطاب لتخبرنا بالغيب، قال: لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن أظن قلتم: ما أخوفنا على قريش من العرب، وأحلفهم أن يقروا بهذا الأمر، قالوا: صدقت؛ قال: فلا تخافوا هذه المنزلة أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش حجراً لدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم.

وقد تألف من عظماء قريش «حلف الفضول» وهو حلف تعاهدوا فيه على القيام بنصر الضعيف، وإنصاف المظلوم والأخذ على يد الظالم، ورد الحقوق على أربابها وإغاثة الملهوف، ورفد العاجز. وقد حضره النبي ﷺ قبل النبوة، فقال فيه بعد البعثة «شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما يسرني به حمر النعم، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت» وهذه مكانة لم تتم لقبيلة في العرب غيرها.

---

(١) قال في القاموس: وجيفر بن الجلندي ملك عمان: أسلم هو وأخوه عبدالله على يد عمرو بن العاص لما وجهه رسول الله ﷺ إليهما وهما على عمان.

(٢) دبي، كعلي: سوق للعرب معروفة.

بيت خالد وأسرته

وفي الذؤابة من قريش تسنمت الدوحة المخزومية ـ التي يعتزى إلى أرومتها وينسب إلى أعز بيوتها وأسمق فروعها «خالد بن الوليد» ـ مكانها بين الأغصان القرشية، وإذا كان التاريخ قد جعل بني هاشم ذروة قريش فهو لم يقعد بإخوتهم بني مخزوم عن مساماتهم في صنائع الشرف وشارات المكارم، ومن ثم فقد توثقت بين البيتين وشائج المصاهرة، وزاحمت بنو مخزوم بني هاشم في المنابه والفضائل، حتى جاء الله لبني هاشم بواحدة جدعت لها أنف الكبرياء من بني مخزوم، فحملوا لواء مناهضة الدعوة المحمدية، وكانوا ألد خصومها وأقسى أعدائها، وأعند معانديها، لا حماسة لعقيدة فاسدة أو صحيحة، ولا كراهة للدين الجديد بعد نظر فيه وتفقه في آدابه، ولكن ذلك كان منهم حمية جاهلية وعصبية قبلية موروثة.

روي أن أبا جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ابن عم خالد بن الوليد ـ وكان من غطارفة مخزوم ـ قال لبني هاشم لما اصطفى الله رسوله محمداً منهم: فلما أطعمنا الطعام وأطعمتم، وازدحمت الركب، واستقبلنا المجد كفرسي رهان قلتم منا نبيّ؟!!». وقد تمثل شرف بني مخزوم في بيت خالد، وانعقدت لهذا البيت ألوية زعامتهم حتى أرّخت العرب بموت بعضهم.

أما أسرة «خالد» فلم يفتها شرف من شرف الجاهلية إلا وقد أخذت بحظها منه. فأمه من أعرق بيوتات العرب، وهي لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية، وهي أخت ميمونة أم المؤمنين، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس ابن عبد المطلب وأم بنيه الصيد الأماجد. فخالد وبنو العباس أبناء خالات.

مكانة أبيه في قريش وموقفه من دعوة الإسلام

وأبوه الوليد بن المغيرة، الذي احتبى[1] بفناء الكعبة بعد وفاة عبد المطلب سيد قريش طلباً للرياسة بعده فلم يغير عليه أحد. وكانت تتحاكم إليه قريش، وتدعوه ريحانتها وعدلها لأنه كان يعدل قريشاً كلها وحده في كسوة الكعبة، فيكسوها من ماله خاصة سنة، وتكسوها قريش مجتمعة سنة، وكان ينهي أن توقد نار للإطعام في منى غير ناره فلا ينازع، وكان الوليد ممن حرم على نفسه الخمر قبل الإسلام، وهو الذي جمع قريشاً فقال لهم: إن الناس

(١) أصل الاحتباء أن يضم الرجل رجليه إلى بطنه بثوب يجمعها به مع ظهره ويشده عليها، ومنه الحديث: الاحتباء حيطان العرب، وكان عبدالمطلب وهو سيد قريش يحتبي بفناء الكعبة فلما مات جلس الوليد بن المغيرة جلسته فلم تنكر عليه قريش.

يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه فيقول هذا: ساحر. ويقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحداً مما يقولون، ولكن أصلح ما قيل فيه: ساحر: لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته(١).

وفي الوليد نزلت ـ على رأي جمهرة المفسرين ـ هذه الآيات الكريمات من القرآن الحكيم، قال تعالى في سورة المدثر ﴿ ذرني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدوداً، وَبَنِيْنَ شُهُوداً، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهيداً، ثُم يَطْمَعُ أن أزيدَ. كلا! إنه كَانَ لآيَاتنَا عنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً. إنه فكَّرَ وقدّر، فقُتِلَ كَيْفَ قدَّر؟ ثُمَ قُتِلَ كَيْفَ قدَّر؟ ثُمَّ نَظَرَ، ثُم عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وآسْتَكْبَر، فقال: إنْ هَذَا إلاّ سِحْرٌ يُؤثَر، إنْ هَذَا إلاّ قَوْلُ آلبَشَرْ ﴾.

وهذه كما يرى القارىء آيات تصف عنجهيته وغطرسته واستكباره وطغيانه وعتوه وعناده وفخره بماله وبنيه، وتقوله على القرآن الكريم أنه سحر مأثور، وذلك حينما استمع إلى النبي ﷺ وهو يرتل بعض آية فأخذته بلاغته، فقال فيه قولاً ظنته قريش ميلاً إلى الإيمان فاضطربت جوانبها، وقال قائلهم: «صبأ والله الوليد؛ لتصبأن قريش كلها» فأرسلوا إليه من أغراه. ذكر المفسرون وأصحاب السير واللفظ للقرطبي: «لما نزل (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) سمع الوليد النبي ﷺ يقرؤها فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبون قريش كلها. وكان يقال للوليد ريحانة قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزيناً، فقال له: مالي أراك حزيناً؟ فقال له: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة(٢) وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما؟ فغضب الوليد وتكبر وقال: أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه؟ فأنتم تعرفون قدر مالي،

---

(١) ابن الأثير في الكامل جـ ٢ ص ٢٨.

(٢) قال في القاموس: وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ: ابن أبي كبشة شبهوه بأبي كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأصنام. أو هي كنية وهب بن عبد مناف جده ﷺ من قبل أمه، أو كنية زوج حليمة السعدية.

واللات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا والله. قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهن قط؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله. وكان النبي ﷺ يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فذلك قوله تعالى (إنه فكر وقدر) إلى آخر الآيات من سورة المدثر.

وذكر المفسرون أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً فيعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتصيب مما عنده، قال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له. قال وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا؛ ووالله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى: وإنه ليحطم ما تحته!! قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال دعني أفكر، فلما فكر قال: ما هو إلا سحر يؤثر، فعجبوا بذلك».

ويقول بعض المفسرين: إنه هو المعني بقول الله تعالى في سورة «ن»: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حلَّافٍ مَّهين، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيْم، منّاع للخير مُعْتَدٍ أثِيمْ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم[1]. أنَ كانَ ذَا مَال وبنين؛إذا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ وذكروا أنه أحد عظيمي القريتين المعني بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا القرآن عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيْم ﴾.

ومهما يكن من شأنه فإنه كان من أشد الناس عداوة للدعوة المحمدية وأقساهم في مقاومتها.

(١) من معانيه: اللئيم الفاجر.

إخوة خالد ومن أسلم منهم

ومشى بنوه في شوطه، فكانوا قادة قريش وحاملي لوائها في الصد عن سبيل الله، حتى أراد الله الهداية لثلاثة منهم. فكان أسبقهم إلى الإسلام «الوليد بن الوليد» وكانت له يد مذكورة في إسلام أخيه بطل الإسلام «خالد ابن الوليد» وثالثهم «هشام بن الوليد».

وفي إخوة «خالد» رضي الله عنه «عمارة بن الوليد» كانت تراه قريش أعز فتى فيها وأجمله وأشعره، مشت به إلى أبي طالب ليأخذه ويخلي بينهم وبين رسول الله ﷺ، فسخر منهم أبو طالب ورد عليهم أبلغ رد!!

قال ابن الأثير في الكامل: «فلما علمت قريش أن أبا طالب لا يخذل رسول الله ﷺ، وأنه يجمع لعداوتهم، مشوا بعمارة بن الوليد. فقالوا: يا أبا طالب: هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش، وأشعره وأجمله. فخذه فلك عقله ونصرته، فاتخذه ولداً، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا، وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك، نقتله، فإنما رجل برجل، فقال أبو طالب: لبئس ما تسومونني. أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبداً».

* * *

مكانة خالد في الجاهلية وموقفه من الإسلام

في هذا الجو وهذه البيئة العامة والخاصة نهد «خالد» رضي الله عنه، وقد تجاوبت خصائصها مع سجاياه، فأخذ منها وأخذت منه، وأعدته ليكون على زعامتها، وحامل لوائها، فكان من فتيان قريش وذوي بيوتاتها الذين يرون في الدعوة الجديدة هدماً لمآثرهم الجاهلية، وتقويضاً لعنجهيتهم القبلية. فكان من أشد خصومها وألد أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر، ويضعون أمامها العراقيل، ويصدون الناس عن سبيلها.

وقد وجد «خالد» في أبيه وعمومته وإخوته وأبناء عمومته قوة تدفعه إلى هذه العداوة البئيسة. فليس بعجيب أن يقف من الإسلام موقف المناوىء المخاصم، وقد نشأ في بيئة جاءت الدعوة الإسلامية لهدم دعائمها وتطهير الحياة من رذائلها، وإرغام كبريائها. وكان «خالد» قد جمع في هذه البيئة بين طرفي الشرف: شرف البيت وشرف الشخصية. فقد أسند له قومه في جاهليتهم أهم مناصب الحرب: القبة والأعنة. قال عز الدين بن الأثير في

«أسد الغابة»: وكان خالد أحد أشراف قريش في الجاهلية وكان إليه القبة وأعنة الخيل في الجاهلية، أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش في الحرب» وهي عبارة ابن عبد البر في الاستيعاب ونقلها ابن حجر بتصرف في الإصابة، وتقريب هذا في عرف العصر الحاضر، ولغته، إن «خالد بن الوليد» كان يجمع في الجاهلية زمن الحرب بين منصبي رئيس الإمدادات ورئيس هيئة أركان حرب الجيش لأن الخيل كانت لها المنزلة الأولى في حروب تلك الأعصر، فقائدها هو القائد الأعلى للحرب.

في غزوتي أحد والخندق

اضطلع «خالد» بعبء القيادة الحربية لقومه في حربهم لجند الإسلام، فكان أول موقف برز فيه غزوة أحد ومنه كانت نكبة المسلمين في تلك الغزوة لأن خالداً كان من أولئك الرجال الذين يملكون أعصابهم عند تفاقم الخطوب وزحف الأحداث، فلم يطر عقله شعاعاً بالهزيمة النكراء التي أصابت المشركين في أول جولة من الحرب، ولكنه ظل قوياً جلداً يقظاً يرتقب ثغرة ينفذ منها إلى قلب الجيش الظافر.

كان خالد على ميمنة قريش وجيشها المنهزم، فأسعفته قوة جنانه وثبات جأشه بأعجب نظرات القائد المحيط بدخائل الميدان الذي يحارب فيه، وعرف كيف تنفذ الحيلة وتنجح المكيدة، والحرب خدعة.

رمى «خالد» بنظره في مؤخرة جيش المسلمين ينظر إلى الرماة الذين جعلهم رسول الله ﷺ حماة لظهرهم، وأوصاهم ألا يفارقوا مكانهم: فقال لهم: «قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا؛ فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا. وكان هؤلاء الرماة على جبل يقال له (عينين) عن يسار أحد لمستقبل المدينة، فلما رأوا هزيمة المشركين، والمسلمون يلاحقونهم، ويضعون السلاح فيهم حيث شاءوا، **تأول بعضهم** وصاة رسول الله ﷺ وأمره لهم بالثبات في مصافهم، وانطلقوا يتبعون جنود الإسلام في ملاحقة المنهزمين طمعاً في الغنيمة وثبت أميرهم في نفر قليل أطاعوه.

لم تفزع خالداً الهزيمة على نكارتها، ولم يصبه ما أصاب أقرانه من

الاضطراب والبلبلة، ولم يقف في مكانه وقفة الجريء المتهور، ولكنه ـ وهو فتى الحرب، وأبو عذرتها الناشىء بين أحضانها ـ كان عبقري الشجاعة والتدبير؟ لم يخنه عقله العظيم في ساعة تزايلت فيها عقول الغطارفة، وتزلزلت أقدامهم، ولم يرم به اليأس في مضال الفرار لينجو بنفسه لو أراد عيشة الجبناء الرعاديد.

وفي الحق إن «خالداً» كان في هذه الواقعة جندياً بأوسع وأعمق ما تحمل الجندية من معنى كريم؛ والجندية الصادقة هي التي تنسى شخصها في مواقف الوغى، ولا تعرف إلا واجبها نحو جيشها الذي نيط به عزها وشرفها. وخالد رأى جيش قومه تعركه الهزيمة عركاً، وهو أحد فرسانه فاحتال في دورة عسكرية بارعة ورمى بنظره إلى مكان الرماة في مؤخرة جيش المسلمين، فرأى كتيبتهم قد زايلت أماكنها، ولم يبق على الجبل منها إلا نفر قليل، فحمل عليهم بخيله حتى أبادهم، وركب أكتاف المسلمين فأدهشهم، وأوقع الاضطراب والخلل في صفوفهم، فتبدل الموقف، وأصيب المسلمون إصابة بالغة، وورمت آناف المشركين وانتفخت أوداجهم بأواً واغتراراً حتى صاح قائدهم أبو سفيان بن حرب: «يوم بيوم بدر» قال ابن سعد في الطبقات: «ونظر خالد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكرَّ بالخيل، وتبعه عكرمة ابن أبي جهل، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم. وقتلوا أميرهم عبدالله بن جبير رحمه الله تعالى، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم».

ولو كان لوقائع الشرك أيام في التاريخ لسمى المشركون يوم أحد بيوم «خالد بن الوليد» ولكن الله الذي اصطفى «خالداً» سيفاً من سيوفه لم يرض أن يجعل اسمه عنواناً إلا على أشرف صفحات الإيمان في تاريخ الخالدين.

وقد عتب الله على المؤمنين ما صنعوا في آيات من القرآن الكريم كانت أبلغ أدب أدَّبهم به، وانتهى بهم فيها إلى العفو الجميل، قال تعالى: ﴿ولقد صَدَقَكُمُ اللهُ وَعدهُ إذ تَحُسُّونَهُمْ بإذنِهِ حَتَىٰ إذَا فَشِلْتُم وَتَنَازَعْتُمْ في الأمر وَعَصَيْتُم مِن بَعْدِ مَا أرَاكُم مَا تُحِبُّون: مِنْكُم منْ يُرِيدُ الدُنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةِ، ثُمَ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ واللهُ ذُو فَضلٍ عَلَىٰ المُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال: ﴿إنَ الّذِينَ تَوَلّوْا مِنْكُمْ يَومَ ٱلتقَىٰ الجَمْعَانِ إنَمَا

ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

لم يكن «خالد» في هذه الوقعة من ذوي أسنان قريش ومشيختها، بل كان من فتيانها وشبابها، فقدموه على أقرانه وسودوه على فرسانهم وأسندوا إليه قيادة أغلظ كتائبهم وأعظمها في أهم الوقائع بعد «أحد» وأوسعها وأكثرها عدداً، وأجمعها للقبائل والأحزاب، وإذا كان الله تعالى قد جعل من غزوة بدر الكبرى فتحاً مبيناً للإسلام فكانت في نظر المسلمين أهم وقائع الإسلام في نشأته الأولى، فإن قريشاً وأحزاب الشرك وإخوان الغدر من اليهود قد أرادوا أن يجعلوا من واقعة الأحزاب المعروفة في كتب السيرة بغزوة الخندق، أكبر معركة يستعجلون بها نهاية ما بين الحق والباطل من تجاذب واحتدام.

* * *

بعدما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم جزاء غدرهم ونكثهم ما كان بينه وبينهم من عهود، قام نفر من رؤوسهم من أضراب سلام[1] بن أبي الحقيق، وحييّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع، فحزبوا الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ، وخرجوا إلى قريش يقولون لها: إنا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله، ثم أتوا غطفان فحرضوهم، ومنوهم الأماني وأخبروهم بما كان بينهم وبين قريش فخرجت قريش، ومن تابعها من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة في عشرة آلاف يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان ببطونها ومن تابعها من أهل نجد في مثل عدد قريش يقودهم (عيينة بن حصن الفزاري[2] والحارث[3] بن عوف المري، ومسعود بن رخيلة الأشجعي[4]) فلما بلغ خبرهم رسول الله ﷺ تجهز للقائهم، وأشار عليه

(١) سلام بن أبي الحقيق بوزن زبير أحد زعماء اليهود وشعرائهم، وكان يهجو المسلمين في شعره فأمر النبي ﷺ عبدالله بن عتيك فقتله، وأما حييّ بن أخطب فهو أبو صفية بنت حييّ أم المؤمنين وكان أشد يهود في عداوته للنبي ﷺ فقتله في غزوة بني قريظة؛ وأما كنانة بن الربيع فهو ابن أخي سلام بن أبي الحقيق وثلاثتهم من بني النضير.

(٢) كان سيداً محمقاً وهو أحد زعماء غطفان وقد أسلم إسلاماً ضعيفاً وكان من المؤلفة؛ أعطاه النبي ﷺ يوم حنين مائة من الإبل.

(٣) كان الحارث يسامي عيينة في رياسة قومه، وكان قائدهم في غزوة الخندق.

(٤) كان مسعود هذا يقود قومه أشجع وهم أربعمائة خرجوا مع قريش لحرب المسلمين في غزوة الخندق.

سلمان الفارسي بحفر الخندق فقسمه بين أصحابه وعمل فيه بنفسه تشجيعاً واحتساباً، وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، وجعل الخندق بينه وبين أحزاب المشركين، وكان بنو قريظة من اليهود يساكنون رسول الله ﷺ في بلده وكانت بينه وبينهم عهود على الموادعة وعدم الاعتداء، وقد أصبحوا ـ ورسول الله في وجه قريش وأحزابها ـ خلف ظهر المسلمين يأمنون شرهم للمعاهدات التي عقدوها معهم، ولكن اليهود قوم غدر لا يعرفون الصدق والوفاء، فخرج حييّ بن أخطب النضري إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة يحرضه كما حرض قريشاً وغطفان فأغلق كعب دونه باب حصنه وقال له: ويحك يا حييّ!! إنك رجل مشؤوم. إني عاهدت محمداً ولست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً. ولم يزل حييّ يفتل من كعب في الذرة والغارب حتى فتح له، فقال: ويحك يا كعب جئتك بعزِّ الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة[1]؛ وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى [2] إلى جانب أحد قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر بجهام[3] قد هراق ماءه يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك!!! فدعني ومحمداً وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً. فلم يزل حييّ بكعب يمسح ضرعه ويمريه حتى استنزله عند رأيه فدخلت قريظة مع الأحزاب ونبذت إلى رسول الله ﷺ عهده، وعظم البلاء على المسلمين ونجم النفاق، واشتد بالناس الخوف وزلزلوا زلزالاً شديداً حتى أنزل الله على المؤمنين نصره وخذل بين الأحزاب فانشمر[4] كل فريق منهم راجعاً إلى مقره بعد اختلافهم وافتراق كلمتهم وردهم الله بغيظهم لم ينالوا من المسلمين سوداء ولا بيضاء.

وروى أبو جعفر الطبري عن محمد بن كعب القرظي: قال: قال فتى من أهل الكوفة، لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبدالله رأيتم رسول الله

---

(١) قال ابن سيد الناس في عيون الأثر: دومة بضم الدال وفتحها وهي دومة الجندل بينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة.

(٢) ذنب نقمى كحبلى: واد من أودية المدينة قريب من أحد.

(٣) الجهام: السحاب لا ماء فيه أو هو الذي قد هراق ماءه.

(٤) انشمر: مر جاداً مسرعاً.

وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، فقال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى هويا من الليل، ثم التفت إلينا، فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ يشرط له رسول الله، أنه يرجع، أدخله الله الجنة. فما قام رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل. ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟ يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة. فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد. فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ. فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم، فانظر ما يفعلون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا قال: فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء، فقام أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤٌ جليسه؛ قال: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أني لا أحدث شيئاً حتى آتيه، ثم شئت لقتلته بسهم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط[1] لبعض نسائه مرحل[2]، فلما رآني أدخلني بين رجليه، وطرح عليّ طرف المرط، ثم ركع وسجد فأزلقته[3]، فلما سلم أخبرته الخبر.

* * *

في هذه الأعاصير القاصفة، والزعازع العاصفة، وفي هذه الجحافل

---

(١) المرط بكسر الميم: كساء من صوف أو خز.
(٢) المرحل كمعظم: برد فيه تصاوير رحل وهو مركب البعير.
(٣) أزلقه: نحاه عن موضعه.

الجرارة، والألوف المؤلفة من جيوش الأحزاب التي أعدتها قريش وحلفاؤها من اليهود، وألفاف العرب بكل ما يملكون من قوة وبطش وبطولة، مما لم تعرف مثله من قبل... كان «خالد بن الوليد» أحد أبطال العرب الذين عصبت بهم قريش أمر اقتحام الخندق، فكان يتناوب الغدو إليه على رأس الكتائب المهاجمة مع أبي سفيان في أصحابه يوماً، ويغدو «خالد» في كتيبته يوماً، ويغدو هبيرة في قومه يوماً، ويغدو ضرار يوماً، وفرق المشركون كتائبهم، ونحّوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها «خالد بن الوليد» فاقتتلوا يومهم ذلك إلى هوى من الليل، ما يقدرون أن يزولوا عن موضعهم، ولا صلى رسول الله ﷺ ولا أصحابه ظهراً، ولا عصراً، ولا مغرباً، ولا عشاءً، حتى كشف الله عنهم جنود المشركين.

وقد قص الله تعالى حديث هذه الواقعة في آيات من القرآن الكريم، صورت شأن طوائف الناس من المؤمنين والمشركين ومن ظاهرهم من اليهود والمنافقين أبرع تصوير، فقال في سورة الأحزاب: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاءُوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة؛ وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً. ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لَآتَوْهَا وما تلبثوا بها إلا يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولاً. قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً. قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة؟ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً. قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلا. أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد؛ أشحة على الخير؛ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا.

يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يـودوا لو أنهم بـادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال؛ وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضـاً لم تطأوها، وكـان الله على كـل شيء قديراً ﴾.

* * *

إن قريشاً لم تكن في مواقفها لجند الإسلام تزور عن مكانة «خالد» وبطولته التي كانت تعرفها له من قبل، بل كانت أحفل به وأعرف لحقه؛ لأن «خالداً» كان يعرف مكان نفسه من البطولة فيضعها حيث شاء من أسنمة المجد، فهي في هذه الغزوة الضخمة تضع بطلها «خالداً» على رأس أغلظ كتائبها وأقواها، وتخصه بشرف الوقوف أمام كتيبة رسول الله ﷺ، وهي تعلم أن رسول الله ﷺ لا يقوم لشجاعته أحد من البشر، وتعلم أنه يكون في أمنع الكتائب وأعظمها، فتنحية «خالد» للوقوف أمامه فيض من الثقة والتقدير لفتى مخزوم انفرد به ولم يكن لقائد عربي سواه؛ وهكذا كان ذلك كله إرهاصاً لما ينتظر «خالداً» من مجد إسلامي عريض، يملأ أرجاء التاريخ...

الفصل الثاني

خالد في طريقه إلى الإسلام

متى أسلم خالد - كتاب أخيه الوليد إليه وأثره في نفسه - رؤيا صادقة - خروجه إلى رسول الله ﷺ وإسلامه - لقاؤه عثمان بن طلحة، وعمرو ابن العاص خارجين للإسلام - احتفاء النبي بخالد، وثناؤه عليه - ألوان من العبر في قصة إسلام خالد.

متى أسلم خالد

قال أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب»: واختلف في وقت إسلام خالد وهجرته؛ فقيل هاجر خالد بعد الحديبية، وقيل: بل كان إسلامه بين الحديبية وخيبر، وقيل: بل كان إسلامه سنة خمس بعد فراغ رسول الله ﷺ من بني قريظة، وقيل: بل كان إسلامه سنة ثمان مع عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة؛ ثم قال أبو عمر؛ وكان خالد على خيل رسول الله ﷺ يوم الحديبية؛ وكانت الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وخيبر بعدها في المحرم وصفر سنة سبع، وكانت هجرته مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة؛ فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها».

فهذه أربعة أقوال؛ حكى عزالدين بن الأثير في «أسد الغابة» ثلاثة منها، وأعرض عن أولها، وكأنه رآه حديثاً عن الهجرة، لا عن الإسلام.

والهجرة إنما تعتبر بعد استقرار الإسلام في النفس واطمئنان القلب بالإيمان؛ وابن عبد البر جزم في آخر عبارته: بأن خالداً كان في الحديبية مسلمًا، وأميراً على خيل رسول الله ﷺ في هذه الغزوة التي كانت في أواخر سنة ست، وإلى ذلك جنح فريق من الرواة كما حكاه أبو جعفر الطبري وصححه أبو نصر القشيري على ما صرح به القرطبي في تفسير قوله تعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم) الآية. قال الطبري: «لما خرج النبي ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذي «الحليفة» قال له عمر: يا رسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع؟ فبعث النبي ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى

أتى «منى» فنزل بمنى، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج إليك في خمسمائة، فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: يا خالد: هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل، فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله ـ فيومئذ سمي «سيف الله» ـ يا رسول الله: ارم بي حيث شئت. فبعثه على خيل فلقي عكرمة في الشعب، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾. إلى قوله: ﴿ عذاباً أليمًا ﴾.

هذه رواية لا نستطيع أن نقبلها كما جاءت، لأن أبا جعفر الطبري الذي حكاها، ذكر قبيلها عن الزهري ما يخالفها فقال: «قال الزهري: فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي. فقال له: يا رسول الله. هذه قريش قد سمعوا بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي «طوى» يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم» وذلك يطابق الرواية الصحيحة الآتية عن البخاري.

وذكر القرطبي نحو هذا في قصة الحديبية ولم يردد فيه. وإذا كنا لا نستطيع قبول رواية أن خالداً كان في الحديبية مسلمًا وأميراً على خيل رسول الله ﷺ، فإنا نزعم أن وهماً دخل على الرواة فيها، فنقلوا حديثها من موضع كان فيه خالد على خيل رسول الله ﷺ إلى هذا الموضع، ويشبه أن يكون الموضع المنقول عنه الحديث فتح مكة، ففي هذا الفتح كان خالد ـ بإجماع الرواة ـ على خيل المسلمين.

ومهما يكن شأن هذه الرواية فإنها لم تعين وقت إسلام «خالد» فيحتمل أن يكون في نفس سنة الحديبية، أي سنة ست؛ في أولها أو وسطها، ويحتمل أن يكون في سنة خمس، ولم أر من صرح بالأول، أي بدخول خالد في الإسلام سنة ست، وأما الثاني، فهو قول صريح من الأقوال الأربعة التي ذكرها ابن عبد البر، وجزم به القسطلاني في المواهب عن ابن أبي خيثمة، ورده ابن حجر في الإصابة فقال: ووهم من زعم أنه أسلم سنة خمس، وهو حري بالرد، وعدم القبول؛ لأنه ثبت من رواية من لا يرقى إلى روايته

الشك، الإمام البخاري، أن خالداً كان في الحديبية على خيل المشركين؛ فقد جاء في صحيحه عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم أن النبي ﷺ قال: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل قريش طليعة، فخذوا ذات اليمين» ولا يمكن أن يتفق ذلك مع القول بإسلام خالد سنة خمس إلا إذا زعم زاعم أن خالداً أسلم ثم رجع، ثم أسلم، ولم يقل أحد مطلقاً بنحو هذا.

بقي قول خامس لم يذكره ابن عبد البر، وهو أن خالداً أسلم سنة سبع؛ ذهب إلى ذلك الحاكم، وجزم به ابن حجر في «الإصابة» فقال: وشهد خالد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية. كما ثبت في الصحيح أنه كان على خيل قريش طليعة، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر، وقيل قبلها.

وأرجح هذه الأقوال ميزاناً قول من ذهب إلى أن إسلام خالد كان بهجرته إلى رسول الله ﷺ سنة ثمان من الهجرة، لأن رواية البخاري، وهي أرفع الروايات، بينة في أن إسلام خالد كان بهجرته إلى رسول الله ﷺ سنة ثمان من الهجرة، لأن رواية البخاري، وهي أرفع الروايات، بينة في أن خالداً كان في آخر سنة ست زمن الحديبية طليعة لقريش وأميراً على خيلها. ولم أر من الروايات ما ذكر خالداً في وقائع سنة سبع لا مع قريش، ولا مع المسلمين. ويبعد جداً أن يكون خالد دخل في الإسلام معلناً سنة سبع، ثم لا يرد له ذكر في وقائعها بجانب جنود الإسلام، اللهم إذا فهمنا أن المقصود بإسلامه استقرار الإيمان في قلبه من غير إعلان إسلامه وهجرته للقاء رسول الله ﷺ.

ولا يبعد أن تكون معركة الإيمان بدأت بين عقل خالد وقلبه منذ الحديبية وموقفه فيها، فكان ذلك آية من آيات الله فتح بها قلب هذا البطل العبقري إلى نور الإسلام، فدلف إليه، وشع في أرجائه، وانكشفت عنه حجب الجاهلية، واستقام له الميسم، وتبينت له الطريق، وظهر له الحق، وذهبت عنه نخوة العنجهية، وتعززها بموروثها، ولم يبق عليه سوى الإعلان والجثو بين يدي رسول الله ﷺ ليتلقى منه راية الفتح ولقب البطولة.

وقد يكون من الخير أن يترك الحديث لخالد نفسه، يحدثنا ونحن نصغي إليه، ويحكي لنا كيف دخل حب الإسلام إلى قلبه؟ وكيف أسلم؟ وكيف استقبله النبي ﷺ؟.

روى ابن سعد في الطبقات عن الحارث بن هشام قال: سمعت خالد ابن الوليد يقول: ما أراد الله بي من الخير ما أراد، قذف في قلبي حب الإسلام، وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ؛ فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإني أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل قريش، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه، وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر إماماً: فهممنا أن نغير عليه فلم يعزم لنا، وكان فيه خيرة، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع، وافترقنا وعدل عن سنن خيلنا، وأخذ ذات اليمين فلما صالح قريشاً بالحديبية، ودافعته قريش بالراح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟!! أين المذهب؟

أإلى النجاشي؟ فقد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده.

أفأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية!!

أفأقيم في عجم؟

أو أقيم في داري فيمن بقي؟!!

وبينما أنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضية، وتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في تلك العمرة فطلبني فلم يجدني فكتب إلي كتاباً، فإذا فيه:

كتاب أخيه الوليد إليه وأثره في نفسه

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك!! ومثل الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ. فقال: أين خالد؟

فقلت: يأتي الله به.

فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له: ولقدمناه على غيره؛ فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة».

* * *

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله ﷺ.

رؤيا صادقة

ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إن هذه الرؤيـا حق، فلما قدمت المدينة، قلت: لأذكرنها إلى أبي بكر، فذكرتها فقال: هو مخرجك الذي هداك للإسلام، والضيق الذي كنت فيه: الشرك.

خروجه إلى رسول الله وإسلامه

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: أما ترى يا أبا وهب؟ أما ترى ما نحن فيه؟!! إنما نحن أكلة رأس، وقد ظهر محمد ﷺ على العرب والعجم، فلو قدمنا عليه فاتبعناه؟ فإن شرف محمد شرف لنا. فأبى علي أشد الإباء، وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما تبعته أبداً، فافترقنا، فقلت. هذا رجل موتور، يطلب وتراً، قتل أبوه وأخوه ببدر؟

فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، فقلت له فاطو ما ذكرت لك، قال: لا أذكره.

لقاؤه عثمان ابن طلحة وعمرو بن العاص خارجين للإسلام

وخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي تخرج إلى أن ألقى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فقلت: إن هذا لي لصديق، فلو ذكرت له ما أريد؟!

ثم تذكرت من قتل من آبائه، فكرهت أن أذكره؛ ثم قلت: وما وعليَّ وأنا راحل من ساعتي؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه وقلت إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صب عليه ذنوب من ماء خرج!!

وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه، فأسرع الإجابة، وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بـ «فج» مناخة، واتعدت أنا وهو «يأجج[1]» إن سبقني أقام، وإن سبقته أقمت عليه، وخرجنا جميعاً، فأدلجنا سحراً، فلما كنا بـ «الهده» إذا عمرو بن العاص، فقال: مرحباً بالقوم، قلنا: وبك.

---

(١) مكان على ثمانية أميال من مكة في طريق المدينة كان قرية عامرة في غابر الزمن، وبه الآن علما التنعيم ومسجد عائشة حيث اعتمرت أم المؤمنين عائشة وكان معها أخوها عبدالرحمن بأمر النبي ﷺ.

قال: أين مسيركم؟

فأخبرناه وأخبرنا أنه يريد النبي ﷺ ليسلم، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ أول يوم من صفر سنة ثمان، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا، وأخبر بنا رسول الله ﷺ فقال: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها».

وفي رواية أخرى فقال: أين سيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟

قال: فما الذي أخرجكم؟

قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد، قال: وذاك الذي **أقدمني**. فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة، ثم لبست من صالح ثيابي، وعمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي، فقال: أسرع. فإن رسول الله ﷺ أخبر بقدومك فسر به، وهو ينتظر، فأسرعت المشي، فلما طلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة. فرد علي السلام بوجه طلق، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذي** هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير».

احتفاء النبي ﷺ به وثناؤه عليه

وبايعت رسول الله ﷺ، وقلت: استغفر لي كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله، فقال: إن الإسلام يجب ما كان قبله. قلت: يا رسول الله على ذلك؟ فقال: اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك. ثم تقدم عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة فأسلما وبايعا رسول الله، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحداً فيما يحزبه.

هذه الرواية في إسلام خالد رضي الله عنه وردت في مصدر من أهم مصادر السير وتاريخ الصحابة وأقدمها، وهي من حديث «خالد» نفسه عن نفسه، وفيها تعيين وقت دخوله في الإسلام بالسنة والشهر، وفيها بيان الدواعي التي حركت وجدان البطل حتى دلف إلى ساحة الإسلام بإيمان يجمع بين رضاء العقل، وراحة الضمير، وبهذه الرواية قطعت جهيزة قول كل خطيب، وإليها ينتهي المصير في تحديد وقت إسلام «خالد» وهجرته.

* * *

ألوان من العبر في قصة إسلامه

في قصة إسلام «خالد» وحديث هجرته ألوان من النظر والاعتبار، وضروب من المناقب، والمآثر، وأفانين من مجالات العبقرية المحسة بذاتها، الشاعرة بقيمتها في الحياة، وفيها لفتات من الرعاية النبوية الكريمة أبانت عن خصائص في حياة خالد موصولة البداية بالنهاية.

وأول ما يطالع الباحث من ذلك: الشعور النفسي الذي اضطرمت به نفس البطل العظيم في مرحلة الانتقال من دين الآباء والأجداد، وعقيدة الأوثان والأنداد إلى دين الإسلام وعقيدة التوحيد، وهي مرحلة من أشد مراحل الحياة على النفوس القوية، لأنها مرحلة يتسلط فيها الشك المريب على نفس الإنسان فيذيبها على ما فيها من عقيدة وإيمان موروث، ثم يخرجها خالية من الصور والأحاسيس، حتى إذا أتاها اليقين بشواهد الحق تمثلت في مرآتها آيات الإيمان باهرة قاهرة.

كذلك بدأ إيمان بطل الإسلام «خالد بن الوليد» رضي الله عنه، فهو قد شك وألح في هذا الشك، شك فيما هو عليه من دين وعقيدة، وشك في مواقفه التي وقفها دفاعاً عن ذلك الدين الذي لا يعرف ما هو؟ سوى أنه دين الوليد، ودين قريش، ودين العرب، ثم انتقل من الشك إلى أولى درجات الإيمان، فعرف أنه كان في مواقفه كلها التي وقفها معانداً للإسلام، موضعاً في غير شيء، لأنه يمشي إلى غير هدف، فماذا إذاً؟

هذا قلبه قد خلا من الماضي، ماضي الوليد، وماضي قريش، وماضي العرب، في الدين والعقيدة، ولكنه لا يستطيع أن يخليه من عقيدة ينطوي عليها، وأي عقيدة تلك التي يرتضيها لتعمر قلبه؟ وهنا يبدأ طور جديد من الشك، ولكنه شك لعله أهدأ من الشك الأول، لأن ذاك اقتلاع لجذور متأصلة، وهذا اختيار لعقيدة جديدة، تملأ فراغ قلبه.

يصور لنا خالد رضي الله عنه هذا الطور من حياته بأبرع ما يمكن أن تصور به حياة نفس حائرة، تتنازعها عوامل متجاذبة، لا تشبه ما مضى قبلها، ولا ما هو آت بعدها، وكأنها برزخ يفصل بين فناء لا أظلال لأشباحه، وخلود لا انتهاء لمقوماته فيقول:

«فلما صالح رسول الله ﷺ قريشاً بالحديبية قلت في نفسي: أي شيء

بقي؟ أين أذهب؟ ألى النجاشي؟ فقد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده؟ أفأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية!! أفأقيم في عجم؟ أم أقيم في داري فيمن بقي؟ فبينا أنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله».

كانت هذه الحيرة النفسية تمحيصاً لعقل خالد وقلبه، وإعداداً له ليستقبل حياته الجديدة، وليواجه الحياة بوجه جديد، يعرف به بين أبطال العبقرية الإسلامية الخالدة..

لو أن باحثاً كان يدرس حياة أحد فلاسفة الإلهيات، ثم وقف من هذه الحياة على مرحلة كهذه المرحلة الشائكة الممحصة التي رأيناها في حياة «خالد ابن الوليد» أذابت من عقله وروحه موروث العقائد، لرأينا من متفلسفة الباحثين من يعد هذا اللون من الشك أعلى درجات اليقين في مراتب الإيمان، ولرأينا منهم من يعده أعمق طرائق الفلسفة للوصول إلى ذروة الإيمان، ولرأينا منهم من يعده أعظم عمل من أعمال العقل المحرر من أغلال التعقيدات الجوفاء.

* * *

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في قصة إسلام خالد ذلك الكتاب الذي كتبه إلى «خالد» أخوه الوليد بن الوليد، وكان قد دخل في الإسلام! وطلب خالداً في مكانه مع المؤمنين فلم يجده، وفيه يقول: «فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك».

وهي عبارة تصور شخصية «خالد» ومكانته وامتيازه بعقل قارح ورأي نافذ.

ومن هذا الكتاب يظهر احتفاء النبي ﷺ بخالد، وتقديره لعبقريته وعرفانه لحق بطولته، فهو يسأل عنه، ويعجب لإعراضه عن الإسلام، ويرى أن لو كان خالد جعل نكايته وحده مع المسلمين لكان خيراً له، وهو يقدمه على غيره من أبطال المسلمين، وفي ذلك من التقريظ والثناء ما ليس بعده غاية لأحد، وفيه شهادة عظمى على ما كان يحتله «خالد» من مكانة سامية، وما كان ينتظره الإسلام منه في بطولته المستقبلة.

وقد حقق الله ذاك في مستقبل حياة «خالد» التي عاشها ينافح عن الإسلام، فكان فيها القائد المظفر والبطل العبقري، ولم يشهد النبي ﷺ في حياته الكريمة من بطولة «خالد» مثل ما شهدت معجزته فيه وتنبؤه بعبقريته، فكان ذلك آية الآيات على ما خص الله به نبيه ﷺ من بصر بحقائق الرجال ووزنهم بميزان الخصائص التي تكون فيهم كالعنوان على الكتاب، ولكن لا يقرؤها إلا من أوتي نظراً نفاذاً إلى ما وراء حجب الغيب. وفي سيرة أصحابه ومناقبهم وأحاديثه عنهم تحقيق ذلك وتصديقه.

* * *

والأمر الثالث في هذه القصة: أن إسلام خالد رضي الله عنه كان عن فكر مقتنع ورأي مدبر، وكرامة موفرة، فهو إذ يلقى داهية العرب عمرو بن العاص في طريق الهداية ـ وقد بدره عمرو بهذا السؤال ليكشف به خبيئة نفسه، وهو أعلم به وبمقامه في قريش ـ «يا أبا سليمان أين تريد»؟ ولو كان غير خالد ما سأله عمرو ولا التفت إليه ويجيبه «خالد» جواب الرجل المتثبت الذي جعل عقله قائده، فلم يتأثر أحداً، ولم يخش أحداً، ولكنه آمن لأن دلائل الحق أنارت جوانب نفسه، وفتحت قلبه، وأيقظت ضميره، فقال: «والله لقد استقام الميسم وإن محمداً لنبي، أذهب فأسلم، فحتى متى؟» ويفصح عن ذلك أكمل إفصاح مقاولة عكرمة بن أبي جهل مع خالد ليصده عن الإسلام، قال عكرمة بعد أن أطلعه خالد على ذات نفسه رجاء صحبته: «قد صبوت يا خالد» فقال خالد: «لم أصب ولكني أسلمت» قال عكرمة: «والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت» قال خالد: ولم؟ قال عكرمة: «لأن محمداً وضع شرف أبيك، وقتل عمك وابن عمك ببدر، فوالله ما كنت لأسلم، ولا أتكلم بكلامك يا خالد، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله». قال خالد: «هذا أمر الجاهلية وحميتها: ولكني والله أسلمت حين تبين لي الحق».

هذا لون من التفكير لا يجوزه الباحث في سير الرجال وتاريخ الأبطال في غير تأمل، بل هو يدعو إلى التأمل، وإطالة النظر فيما انطوى عليه من اتجاهات تحدد قيم الرجال في موازين الحياة.

فهذا عمرو بن العاص داهية العرب. وأحد الأبطال الفاتحين في تاريخ

الإسلام، له من خصائص «خالد» ما يجمعها في قرن العبقرية، ولكنها عبقرية ذات ألوان وفنون، لا يستوي في كلها حظ الرجلين، فالتاريخ يعنون كتاب عمرو بالدهاء، ويطوي في صفحاته ما له بعد ذلك من مناقب ومميزات، ولكنه لا يعنون كتاب (خالد) إلا باسم خالد، فكأنه يرى أن عبقرية خالد إنما هي في خالد كله، لا في خصيصة من خصائصه، لأننا لا نعرف في خصائص (خالد) خصيصة تنفرد بطرة الكتاب في مكان العنوان، ثم يأتي غيرها بعد ذلك في الصفحات.

يلقى «خالد» عمراً في مخرجه إلى رسول الله ﷺ، وكلاهما قد أجمع في نفسه على الإسلام، وكلاهما يقدر صاحبه قدره، ويزنه بميزانه، فهل قرأ أحدهما ما سطر القدر على صفحة قلب الآخر، فانتهيا إلى غاية واحدة لم يسلكاها إلا محجة اليقين في بلج الهداية وإشراق التوفيق؟!.

وهذا عكرمة بن أبي جهل أحد الأبطال وقواد الجيوش في الجاهلية والإسلام، له من عبقرية ابن عمه «خالد» هذه الخصيصة في البطولة المجترئة، يلقاه «خالد» ـ وهو سليل بيته وفرع أسرته ـ فيحدثه «خالد» عن وقوع الإسلام في قلبه، فيرد عليه عكرمة رد رجل يعيش مع الجاهلية في حمأتها، يعتز بمعازها، ويتأثر مظاهرها، وينظر إلى «خالد» نظر من لم يرتفع عن حضيض التقاعس القبلي والعصبية الدامية، وراح يحرضه ليرده عن قصده بأسلوب كان يجتذب خالداً إليه لو ظلت شمسه في أفق الوليد وأبي جهل تدور.

ولكن الله تعالى قد خلق من خالد بن الوليد وابن عم أبي جهل، خالداً بطل المسلمين وسيف الإسلام، فما شرف أبيه الذي وضعه محمد ﷺ؟

وما عمه وابن عمه اللذان قتلا ببدر؟

هذا كله أصبح في نظر خالد سيف الإسلام «أمر الجاهلية وحميتها» وهو قد جعله في مواطىء قدميه، وأسلم إسلاماً دعاه إليه عقله، واستجابت إليه فطرته حين تبين له الحق.

* * *

والأمر الرابع في حديث إسلام «خالد» استقبال النبي ﷺ لخالد

وصاحبيه، عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة الحجبي، فإنه قال حين رآهم: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها» وهذا أول وسام من أوسمة الشرف والسؤدد، تقلده «خالد» في الإسلام، وشاركه فيه فتى سهم، وفتى عبد الدار، رضي الله عنهم، وهي كلمة من نوابغ الكلم النبوي، تأخذ بضبعي فتى مخزوم خالد رضي الله عنه إلى ما يستقبله من شرف ونبل في ظلال الإسلام، وهي إذا صورت خالداً وصاحبيه في السويداء من وجاهة مكة وعزتها ومجدها، فإنما تعني وصل هذا المجد بمجد الخلود في تاريخ الإسلام مسطوراً في صحائف البطولة الظافرة تحت سمع الدنيا وبصرها.

* * *

والأمر الخامس في حديث إسلام «خالد» تلك الرعاية التي اختص بها النبي ﷺ «خالداً» وذلك السرور الذي أشرق به وجهه الكريم فرحاً بإسلامه، وتقريبه وإظهار فضيلته في عقله وشجاعته. قال خالد: «فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي، فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسر بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي، فاطلعت عليه فما زال يبتسم إلي حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فرد علي السلام بوجه طلق». وهنا يقف «خالد» رضي الله عنه ليسمع رسول الله ﷺ يملي عليه السطر الأول من كتاب البطولة وسفر العبقرية الخالدية في مشهد من المهاجرين والأنصار، مصوراً في تلك الكلمة البارعة التي قالها لخالد بعد أن شهد شهادة الحق: «الحمد لله الذي هداك؛ قد كنت أرى لك عقلاً، رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير».

وقد تسنم خالد بهذا التاج العبقري الذي توَّجه به النبي ﷺ ذورة الحياة الجديدة، وهو لما يزل في أولى درجاتها، وما كان الإسلام وهو دين الهدى والنور وشريعة العزة والكرامة ليهدر خصائص الأفراد التي كانت لهم قبل إشراقه في أرجاء نفوسهم، ما دامت تلك الخصائص مما يسمو بالإنسانية ويعزها.

وخصيصة العقل التي أشاد بها رسول الله ﷺ بطل الإسلام «خالد» رضي الله عنه من الكمالات التي لا تحدها الأمكنة ولا تخضع لقيود الأزمنة.

فهل من حرج إذاً أن يعرف «خالد» لنفسه قيمتها، ويضعها من

الشرف والسيادة موضعها، ثم يصفح عن ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى عليه؟

قال «خالد» وهو يلقي الستار على أول فصول روايته «والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يحزبه».

ولرسول الله ﷺ أصدق الناس فراسة وأدقهم نظراً، وأنفذهم بصيرة وأصوبهم حكمًا، وأبلغهم حكمة، وأهداهم سبيلاً، وأعدلهم ميزاناً.

وفي قول «خالد» فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ إلخ. » لفتة لطيفة تطلعنا على شيء جديد من أخلاق «خالد» في مظهره، فلبسه من صالح ثيابه ليلقى النبي ﷺ وأصحابه في زي جميل، وهيئة منتقاة تعطينا صورة من نزوعه إلى الجمال وحب التجمل في المحافل، ولقاء من لم يكن قد رفع بينه وبينهم حجاب الاحتشام، وهذا لون من حياة الكملة أو المتكملين في طبقات الخاصة من الناس، وهو ليس عارية ولا تصنعاً في حياة خالد، ولكنه خلق وطبيعة يتفق مع نشأته وتربيته ومظاهر الحياة في أسرته وبيته.

لعظائم الأمور أراد الإسلام «خالداً» ولها زكى رسول الله ﷺ «خالداً» وأثنى عليه.

ومثل خالد إنما يراد للشدائد يكشفها، وللبطولة يمثلها. قال ابن عبد البر في الاستعياب، وابن الأثير في الأسد: لم يزل خالد من حين أسلم يوليه رسول الله ﷺ أعنة الخيل، فيكون في مقدمتها في محاربة العرب.

وسماه رسول الله ﷺ «سيف الله»:

روى الترمذي عن أبي هريرة قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلاً فجعل الناس يمرون، فيقول رسول الله ﷺ من هذا؟ فأقول: فلان حتى مر خالد بن الوليد، فقال: من هذا؟ قلت: خالد بن الوليد، فقال: «نعم عبدالله هذا، سيف من سيوف الله».

وفي الاستيعاب عن عبدالله بن أبي أوفى قال: اشتكى عبدالرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبي ﷺ، فقال: «يا خالد لم تؤذي رجلاً من أهل بدر، لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله؟» قال يا رسول الله إنهم يقعون

بي، فأرد عليهم؛ فقال النبي ﷺ (لا تؤذوا خالداً فإنه سيف الله؛ صبه الله على الكفار).

وروي عن ابن عباس أنه قال: وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر كلام؛ فقال عمار: لقد هممت ألا أكلمك أبداً، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا خالد مالك ولعمار رجل من أهل الجنة، قد شهد بدراً؟» وقال لعمار: «إن خالداً يا عمار سيف من سيوف الله سله على الكفار». قال خالد: فما زلت أحب عماراً من يومئذ.

وفي الإصابة: لما عقد أبو بكر لخالد على قتال أهل الردة قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (نعم عبدالله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سله على الكفار). وروى الإمام أحمد أن عمر استعمل أبا عبيدة على الشام وعزل خالد بن الوليد، فقال خالد: بعث عليكم أمين هذه الأمة. سمعت رسول الله ﷺ يقوله.

فقال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة.

وفي هذه الأحاديث من نفحات النبوة ما يؤكد الذي ألمعنا إليه من صادق النظرات النبوية في الشخصيات التي اتصلت بالنبي ﷺ اتصال تربية وتهذيب، فلكل شخصية منهم فضلها ومكانها؛ ولخالد بن الوليد من ذلك خصيصته التي عقدت بناصيته لواء العبقرية وبطولة الإسلام. وهو في كل حالة ومع كل شخص «سيف من سيوف الله» وقد كان خالد رضي الله عنه في خلائقه الإيمانية متساوقاً مع سائر خلائقه الفطرية، فهو ضرب من العبقرية الشاملة التي تستطيع أن تضع عنوان باطنها على ظاهرها، وعنوان ظاهرها على باطنها.

وإذا كانت تصاريف الحياة أملت على التاريخ سيرة خالد بن الوليد تحت عنوان «البطولة»، فذلك لأن خالداً رضي الله عنه كان في هذا الجانب من العبقرية نسيج وحده فاستجاب التاريخ في تدوين سيرته إلى ما ألقى إليه من وحي الخصائص في حياة الرجال.

وهو وراء ذلك مع الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله ﷺ في

سائر الخصائص التي تفرقت فيهم طوائف وأفراداً. . . وإن تعجب فعجب أن ترى عبقرية خالد تنفذ إلى لون من الخصائص، أبعد ما يكون ـ في الظاهر ـ عن خصيصة البطولة التي عنون بها التاريخ سيرة خالد بن الوليد بين رجالات الإسلام. ذلك هو خصيصة الإيمان القاهر الذي يبلغ في بعض وثباته حد الإعجاز، ومجاوزة قوانين الطبيعة في مشاهد الحس المحدود.

وهذا الإيمان ـ عند التحقيق ـ هو منشأ العبقرية في جانب البطولة عند الأبطال.

وإنما موضع العجب فيه موضعه من سيرة خالد، وسياقة التاريخ له في أسلوب ينأى به عن مطارح البطولة ومقوماتها، ويقف به عند حدود الخوارق والكرامات، وهو بهذا العنوان يقع هنا وهناك، فلا تقبله خصائص خالد رضي الله عنه إلا على ضرب من التأويل يرده إلى عنوانه الأصيل.

وتأويل ما يروى من هذا النحو في سيرة خالد أنه ضرب من سيطرة القوى الروحانية في الأبطال على غرائزهم وكيانهم المادي وصورهم الجثمانية فتنفعل أمامها انفعال المادة إذا أضيف عليها مزيج يذيبها، على أن أعمال البطولة لا يسوغ أن تجري عليها قوانين العرف والعادة فهي في أكثر أمرها فوق هذه القوانين، وكأنما جعل لها الله سنناً وقوانين خاصة تحكمها في حيزها الخاص وحدودها المطلقة.

وعلى هذا النحو نفهم ما جاء في بعض الآثار المقبولة من جزئيات الحوادث التي كانت مظهراً لهذا الإيمان القاهر عند بطل الإسلام خالد بن الوليد، كالذي يرويه ابن حجر في الإصابة قال: لما قدم خالد بن الوليد الحيرة أتي بسم فوضعه في راحته، ثم سمى وشربه فلم يضره، وقال أيضاً: وروى ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن خيثمة قال: أتى خالد بن الوليد رجل معه زق خمر، فقال اللهم اجعله عسلاً فصار عسلاً، وفي رواية من هذا الوجه: مر رجل بخالد ومعه زق خمر، فقال ما هذا؟

قال: خل، قال: جعله الله خلاً، فنظروا فإذا هو خل، وقد كان خمراً[1].

---

(١) قد تكون لبعض العقول وقفة في معاني هذه الأحاديث ومراميها، وهي وقفة لا تستند لشي من النظر العلمي أكثر من الخنوع للمألوف المتكرر فيما يسميه الناس قوانين =

وروى الطبري قصة السم بشيء من التفصيل فقال: إن خالداً لما أتم العهد لأهل الحيرة. نظر إلى ابن بقيلة وكان معه منصف له متعلق كيساً في حقوه، فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه في راحته فقال: ما هذا، قال: هذا وأمانة الله سم ساعة. قال: ولم تحتقب السم؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت؛ فقد أتيت على أجلي، والموت أحب إلي من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي. فقال خالد: إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، وقال: بسم الله خير الأسماء، رب الأرض ورب السماء، الذي ليس يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم.

فأهووا إليه ليمنعوه منه، فبادرهم فابتلعه؛ فقال ابن بقيلة: والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القرن، ثم أقبل على أهل الحيرة وقال: لم أر كاليوم أمراً أوضح إقبالاً . . .

* * *

إلى هنا نقف بالحديث عن أوائل خالد وإسلامه، ونفتح كتاب عبقريته

= الطبيعة، ونحن لا نعرف ما هذه الطبيعة في حقيقتها: وما هذه القوانين السرمدية التي تخضع لها عقولنا؟ فإن أرادوا - كما نفهم من الطبيعة وقوانينها - سنن الله تعالى في الوجود، قلنا: نعم، ولكن من الذي أدراكم أن سنن الله تجري دائماً على وفق مشهودكم وما ألفتم في الحياة؟ إن الله الذي خلق الطبيعة ومطبوعها هو القادر على أن يجربها في أي اتجاه شاء إذا شاء ومتى شاء؛ تحقيقاً لمقتضى الألوهية. ومن لم يؤمن بهذا فليس للإسلام به كبير حاجة.

ولم نشأ أن نذهب في تعليل نحو هذا التفكير بما ذهب إليه علماء النفسيات من سيطرة القوى الباطنة في الإنسان على قواه الظاهرة، وتأثير الإيحاء بما يجعل الإحساس خاضعاً لما هو أقوى منه، إلا تقريباً لعقول الذين أخضعوا تفكيرهم لتقليد ما سموه علماً ولم نشأ أن نذهب في تعليل مثل هذه الحوادث بما يذهب إليه الرومانيون في جميع الملل من تأثير الأرواح في الأجسام تأثيراً يقلب حقائقها، فهذه أمور لم يؤمن بها جمهور أهل العلم والمثقفين.

ولم نشأ أن نضرب الأمثال ونسوق الشواهد بما وقع على أيدي العلماء والباحثين في الكونيات بما يظن في بدء النظر أنه خرق لما يزعمون أنه قانون الطبيعة. لم نشأ أن نذهب إلى هذا أو ذاك لأننا نذهب مذهب جمهور المسلمين في اعتقاد أن الله يؤيد المصطفين من الناس بما يخضع لهم الطبيعة في بعض أحداثها. وقد اتفق أهل الأديان قاطبة على وقوع ذلك للأنبياء فمن دونهم من صالحي أممهم، والعمدة فيه عندنا صحة النقل وثقة الرواية كيفما كانت طبيعة الحادث وصورته.

الغامرة، ونملي من صفحات بطولته الباهرة أسطراً ليقرأ المسلمون فيها آيات البراعة في سياسة الحروب وقيادة الجيوش قيادة مظفرة، ليستخلصوا منها الأسوة النافعة والعظة البالغة . .

الفصل الثالث

خالد في الإسلام على عهد النبي ﷺ

مجال العبقريات ـ العرب والعبقرية ـ مكانة خالد في الإسلام ـ روح الإسلام وطبيعة خالد ـ أول وقائع خالد في الإسلام ـ إمارة خالد في غزوة مؤتة ـ القائد المفكر ـ اختلاف الروايات في هذه الغزوة ـ رأي في الموضوع ـ إمارة خالد في فتح مكة ـ خالد يحطم «العزى».

مجال العبقريات

لم تكن جزيرة العرب بقبائلها المتناثرة هنا وهناك، وحياتها الإجتماعية الضيقة المحدودة، لتتسع آفاقها لغايات العبقريات الخصيبة المكتنزة، وجولات البطولة القاهرة الماهرة، ومرامي النبوغ القوي الباهر، وحاجات الطبائع الفتية الثائرة. وإنما العبقريات في الأمم كالشمس في الحياة، ترسل أشعتها في الآفاق فيصيب ضوؤها كل موجود أدركه، حظه منه على قدر استعداده وتعرضه له بغير حجاب؛ فإذا أقيمت دونه الحواجز الكثيفة انخنس معلناً عن وجوده في صور مشعة تبدد أستار الظلام. ولكل أمة حظ من هذه العبقريات، يستثيرها الزمن إذا تكامل للأمة رشدها وتهيأت للعبقرية أسبابها.

العرب والعبقرية

وقد كان حظ الأمة العربية من هذه العبقريات حظاً وفيراً، بيد أن ذلك ظل كامناً حتى استثاره الإسلام بما أزاح من حجب، ومزق من أسدال، فانبعثت شمس العبقرية العربية تشرق في آفاق الوجود، شرقاً وغرباً بعد أن كانت حبيسة بين أودية الجزيرة ووهادها، لا تحس لها الحياة وجوداً، ولا يعلم الناس عنها شيئاً غير لمعات خافقة تأتلق حيناً وتخبو أحياناً. . . وإذا بهذه الأمة البدوية تخرج من صحرائها معلمة تحمل إلى الناس ديناً مهذباً، وتشريعاً عادلاً، وسياسة حكيمة، وأدباً فاضلاً، وفكراً سرياً، وقيادة في الحروب مظفرة، وبطولة بارعة، مما حير الأمم، وأدهش المفكرين، ولكنها العبقرية الخصيبة المكتنزة أطلقها الإسلام من قيود القبلية إلى فضاء العالمية، وفكها من أغلال العنصرية إلى ساحات الإنسانية، وخلصها من ربقة القومية الزارتة إلى دعوة الأخوة العامة، فراحت تستبق إلى الخلود حتى أنافت على ذروته غير مدافعة

ولا منازعة، و«خالد بن الوليد» مثلها المضروب، وشاهدها المذكور، فهو في جاهليته بطل من أبطال الجزيرة العربية، وفتى من فتيان مكة، وفارس من فرسان قريش، وهو في إسلامه بطل من أبطال الإسلام، وقائد عالمي من قواد الحروب لم يعرف الهزيمة قط، ومفخرة من مفاخر العرب، ورجل من رجالات التاريخ الأفذاذ.

مكانة خالد في الإسلام

أسلم «خالد» رضي الله عنه، وسمع من النبي ﷺ ـ وهو أعرف الناس بأقدار الرجال ـ من التقريظ والثناء عليه ما لم يقله لأحد سواه، ورأى من احتفائه به ما لم ير لغيره مثله، فأعد نفسه لمكانها في الإسلام، وهل لخالد في حياته الجديدة مكان غير قيادة الأبطال، في معامع الوغى والنزال؟ نعم، ولذلك وجهه الإسلام.

ألم يقل عنه رسول الله ﷺ: «إنه سيف من سيوف الله»؟

بلى! وقد شهد منه الإسلام ما أقر عينه، وأرضى دعوته، فكان في جميع مواقفه القائد المحنك، والسياسي الحكيم، والبطل الصنديد، والجندي الصادق، والشجاع المقتحم، والفارس الجريء، والمفكر الحازم، والعقل المسدد، والطود الذي لا تزعزعه الحوادث، ولا تستطير حلمه الشدائد، والمؤمن الذي لا يستفزه النصر، ولا يبطره العجب، ولا تملكه الخيلاء الجوفاء، ولا تخدعه الخدع، ولا يعجزه الابتلاء، وهذه المزايا منتهى ما يمكن أن تجتمع لرجل في أمة، وغاية ما يطمح إليها قائد ماهر من قواد الحرب في القديم والحديث، ولقد كانت في خالد حقائق هي بعض ما حباه الله به من خصائص أحكمتها الأحداث، وصقلتها الشدائد، وهذبتها التجارب، ورباها الإسلام، وسجلها له التاريخ.

روح الإسلام وطبيعة خالد

كان إسلام خالد رضي الله عنه بعد أن حمل الإسلام بيمينه السيف واشتد ساعده، واستقامت قناته، ودوّى صوته واستطاع أن يرد العدوان عن دعوته، وأعلن في الناس أن القوة يجب أن تنصر الحق، وتتولى نشر الهداية، وترفع راية العدالة الاجتماعية، وتنصف المظلوم، وتوطد دعائم الحرية الفاضلة، وتؤذن بمشيئة الله في رفع المستضعفين عن حضيض الذلة والهوان إلى مستوى العزة والكرامة: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض».

لقد نازل الإسلام خصومه، فكانت بينه وبينهم وقائع أخذ فيها وأعطى، انتصر وامتحن، وكان لا يزال أوارها يستعر حين دلف «خالد» إلى المدينة المنورة وألقى بنفسه بين أحضان هذه الدعوة الجديدة التي تجاوبت روحها المجاهدة مع طبيعته المحاربة، وبهذا الوجه الجاد الصارم استقبل الإسلام بطله الجديد، وبهذه الروح القوية أقبل البطل على دينه الجديد، ودفع هذا الدين البطل إلى الميدان فسبق، وتجلت عبقرية (خالد) في أول وقعة إسلامية حضرها، وهي وإن لم تكن به بدأت، لكنها إليه انتهت، وكان في وطيسها جندياً، وغدا بنصرها قائداً عبقرياً.

أول وقائع خالد في الإسلام

ومن عجيب صنع الله تعالى في حياة هذا القائد الموفق، أن تكون أولى مواقفه الإسلامية هي أول موقعة يقف فيها الإسلام أمام أعظم دولة في التاريخ ـ دولة الرومان ـ وجهاً لوجه. وكأنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك إرهاصاً لكبريات الأحداث التي عصبت بهذا البطل العظيم في تاريخ الجهاد الإسلامي. وأعاصير الردة التي كادت تعصف بالحياة الإسلامية لولا معجزة الإيمان الحازم من أبي بكر الصديق، وعبقرية القيادة من قائد قواده «خالد بن الوليد».

عرفت تلك الموقعة في كتب السير والتاريخ بغزوة (مؤتة) وهو اسم الموضع الذي انحاز إليه المسلمون في أرض البلقاء من أطراف الشام. وجملة القول فيها أن النبي ﷺ بعث (الحارث بن عمير الأزدي) رسولاً إلى ملك بصرى يدعوه إلى الإسلام، فلما نزل الحارث مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فعدا عليه وقتله، ولم يقتل لرسول الله ﷺ غيره، وكان النبي ﷺ قبل ذلك في ربيع الأول من سنة ثمان قد سرى سرية بقيادة كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح وراء ذات القرى قريباً من الشام ليدعوهم إلى الإسلام، فقتل جميع من كان في السرية ـ وكانوا خمسة عشر رجلاً ـ غير أميرهم، فإنه نجا بجراحاته، حتى إذا برد عليه الليل تحامل حتى قدم على النبي ﷺ فأخبره الخبر، فاشتد ذلك على النبي ﷺ، وندب الناس للجهاد، وإرهاب الأعداء، فأسرع جندالله، واجتمع مُنهم ثلاثة آلاف عسكروا خارج المدينة بموضع يقال له (الجرف) فقال لهم رسول الله ﷺ: (أمير الناس زيد ابن حارثة، فإن قتل، فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل، فعبدالله بن رواحة،

فإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم) فوثب جعفر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله ما كنت أذهب أن تستعمل عليّ زيداً، قال: امض. فإنك لا تدري أي ذلك خير؟!

كان «خالد» رضي الله عنه جندياً في هذا الجيش كغيره من المهاجرين والأنصار ورجالات الإسلام، والنبي ﷺ يعلم مكانه، ولم يعينه في القواد، فلم يعترض كما اعترض غيره، ولم يتخاوص ذهاباً بنفسه عن الجندية تحت إمرة مولى من الموالي، وبذلك وضع الإسلام أعظم مبدأ في تقدير الفضائل الإنسانية في الأشخاص؛ فهذا عتيق رسول الله ﷺ ومولاه أمير جيش فيه من رجالات قريش وأبناء البيوتات من المهاجرين والأنصار من يصلح لتولي الإمارة، ولكن القائد الأعلى ﷺ رأى أن مولاه زيداً أهل للإمارة قبل ابن عمه جعفر فأمّره، حتى يعلم الناس أن الأحساب والأنساب ليست من موازين الفضائل في الرجال، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه. فأي غضاضة على «خالد» رضي الله عنه أن يروض نفسه على أتم الرضا بهذه المقاييس الصادقة في وزن الرجال، وعنده منها ما يرتفع به إلى الذروة في الغد القريب؟

دفع النبي ﷺ اللواء إلى القائد الأول زيد بن حارثة، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما ودع عبدالله بن رواحة مع من ودع بكى. فقالوا ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً» فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فدعا لهم المسلمون، وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم، فمضوا قدماً حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع الروم ومن تبعهم من المستعربة في عدد هائل، أكثر الرواة في تقديره، وتزيدوا حتى صعد به أكثرهم إلى مائة ألف من الروم، ومثلها من لخم، وجذام، وبلقين، وبهراء، وبلى، ممن كانوا تحت حماية الرومان من العرب، وليس يعنينا كثيراً دقة التقدير في عدد هذه الجيوش الجرارة، فما نظن أن إحصاء الفرق والكتائب ومعرفة أعدادها بلغ في ذلك الوقت من الدقة والنظام حالة تمكن جيشاً صغيراً مهاجماً من معرفة عدد جيوش ضخمة هائلة العدد كالتي تحدثنا عنها الروايات في هذا الموضع؛ ولا

شك أن معرفة ذلك تحتاج إلى نظام خاص في المخابرات ومعرفة أسرار الدول، وأنظمة جيوشها وإعداد فرقها، ومقدار كل فرقة، ولم يذكر لنا الرواة شيئاً من ذلك عند المسلمين في مهدهم ومبدأ نشأة دولتهم.

والذي نطمئن إليه أن الروم كانوا قد ترامت إليهم أنباء المسلمين وانتصاراتهم على العرب في داخل الجزيرة، وكانت دعوة الإسلام قد وصلت إليهم، وثبت في صحيح الحديث أن هرقل همَّ بالاستجابة إلى الإسلام، وأنه دعا قومه إلى ذلك ليسلم لهم ملكهم، فلم يجيبوه وحاصوا عليه، فترضاهم، وأقام معهم على نصرانيته، وذلك مما يجعلهم يتوجسون خيفة من المسلمين، ويترصدونهم ويستعدون لهم، ويحرضون القبائل الموالية لهم لتكون معهم حرباً على المسلمين. وهذه القبائل كانت تخشى ما يخشاه الروم من صولة المسلمين، وقد جاءتهم النذر من قبلهم بهذه السرايا التي قتلوا بعض رجالها فكانت من بواعث هذه الغزوة، وكان الروم في حذر دائم من الفرس أعدائهم المنافسين.

فليس ببعيد أن يكون الروم على أهبة عسكرية للقاء عدوهم، فلما بلغهم مسير المسلمين إليهم استعدوا للقائهم بقوات تتفق مع ما جال في خواطرهم من تقدير قوة الجيوش الزاحفة تقديراً يعتمد على الحدس والتخمين تبعاً للأخبار التي ترامت إليهم، وأخبار الحروب محفوفة دائماً بالمبالغات الفضفاضة. فالذي لا شك فيه أن جيوش الروم وأحلافهم في هذه الواقعة كانت أضعافاً مضاعفة بالنظر لجيش المسلمين، ولا يهم بعد ذلك حصر عددها في مائتي ألف أو أقل أو أكثر.

* * *

نظر المسلمون إلى جيوش أعدائهم فوقعت كثرتها منهم موقعاً، فانحازوا إلى قرية «مؤتة» وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ ونخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا برجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فخاطبهم القائد الثالث عبدالله ابن رواحة مشجعاً فقال «والله يا قوم إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون «الشهادة» وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة» فقال الناس: صدق والله ابن رواحة. وثابت إليهم

شجاعتهم، واستقرت نفوسهم، ومضوا إلى عدوهم بإيمانهم وسيوفهم، والتحم القتال بين القوتين على تفاوت ما بينهما في العَدد، والعُدد، وحمل اللواء أمير المسلمين زيد بن حارثة فصدق الحملة، وقاتل حتى شاط في رماح الروم فأخذ اللواء أمير الناس بعده جعفر بن أبي طالب وقاتل وهو على فرس له حتى إذا لحمه القتال نزل عنها فعقرها ـ وهو أول من صنع ذلك في الإسلام ـ وقاتل راجلاً وهو يرتجز:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها عليّ إذ لاقيتها ضرابها

فقطعت يده اليمنى، فأخذ اللواء بيده اليسرى، فقطعت فاحتضنه بعضديه، وقاتل به حتى قتل، ثم أخذ اللواء أمير الناس بعدهما عبدالله بن رواحة، وكأنما فاجأته الطبيعة البشرية، وهو يرى الموت يختطف الرجال من حواليه، فأراد أن يجدد لنفسه يقيناً يدرع به إلى لقاء الموت فجعل يستنزل نفسه وينهنهها وهو رجل شاعر فيقول:

أقسمت يا نفسُ لتَنْزِلَنَّه طائعةً أو فلتُكرهِنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرنّه مالي أراك تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة في شنه(١)

ثم عدل بنفسه إلى واد آخر من أودية القريض فقال:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت قد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت
وإن تأخرت فقد سقيت

ثم نزل إلى القتال فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال له: شدّ بهذا صلبك فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، فانتهش منه نهشة، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس، فقال لنفسه: وأنت في الدنيا؟! ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه فتقدم إلى القتال وقاتل حتى قتل، وكان آخر قائد عينه رسول الله ﷺ، ثم ترك الأمر بعد لرأي الجيش، يختار لنفسه قائداً من

(١) الشنة: القربة البالية.

أهل البلاء والحنكة.

وفي الحق إن هذه أدق وأخطر ساعة تمر بجيش مشتبك في المعركة، يفقد قواده المعينين، ويصبح خالياً من قائد يسوس أمره، وينظم صفوفه، وماذا ينتظر من جيش انفرط عقد نظامه بفقد أمرائه غير التماس طريق النجاة؟ ولكن هذا الجيش الباسل إن يكن على قلة عدده قد فقد قواده الأبطال فإنه لم يفقد روحه المعنوية، وإيمانه القوي، وتذكروا قول رسول الله ﷺ، وهو يرتب القواد: فإن أصيب عبدالله بن رواحة فليرتض المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم.

وإنما قال لهم رسول الله ذلك ثقة بكفاية جندالله الذين مرنوا على الجهاد والطراد، وتدريباً لهم على سياسة الأمور إذا فاجأتهم الشدائد حتى لا يأخذهم البهر، ويقعدهم البلاء عن التماس المنافذ في مضائق الأحداث.

إن كل جندي من جنود الإسلام الذين رباهم رسول الله ﷺ، قائد جحفل وبطل أمة، وذلك هو السر في ترك الأمر بعد القواد الثلاثة شورى بين أفراد الجيش، يقيمون على قيادتهم أميراً منهم، يختارونه من أبطال الإسلام وبين أيديهم ميزان الفضائل منصوب.

* * *

إمارة خالد في غزوة مؤتة

ابتدر اللواء بعد استشهاد ابن رواحة آخر القواد الذين عينهم رسول الله ﷺ، ثابت بن أقرم العجلاني حليف الأنصار، وهو بدري من السابقين، وصاح في الناس: يا للانصار! فجعلوا يثوبون إليه، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، ثم نظر إلى خالد بن الوليد، فقال: يا أبا سليمان: خذ اللواء، قال: لا آخذه، أنت أحق به مني، لك سن، قد شهدت بدراً!!

قال ثابت: خذ أيها الرجل، فوالله ما أخذته إلا لك، أنت أعلم بالقتال مني. ثم قال ثابت: اصطلحتم على خالد؟ قالوا: نعم، فأخذ خالد اللواء وتأمر على الجيش.

وفي هذه الرواية ترى رجلاً من أهل بدر يسرع لأخذ اللواء بعد أن لم

يكن للناس أمير، ويدعو القوم إليه، وقد أصابهم من الاضطراب والفزع ما أصابهم، فاستجابوا لدعوته، وثابوا إليه فطلب إليهم أن يؤمروا أميراً منهم تحقيقاً لأمر النبي ﷺ. فقال الناس لثابت: أنت الأمير وقد رأوا من شجاعته وسابقته وسنه ما يجعله أهلاً للإمارة، فأبى عليه ثابت، ولكنه رأى أن ينتهز هذه الثقة التي أضفاها عليه المسلمون في ساعة لا تحتمل التقاول، فنظر إلى فارس قريش، فتى مخزوم «خالد بن الوليد» فقال له: يا أبا سليمان: خذ اللواء، فهل هزت هذه الكلمة أريحية الخيلاء وحركت مشاعر الإعجاب في خالد فاستجّاب لأول نداء باسم الإمارة؟ لا. ولكنه أجاب ثابتاً، والمسلمون يسمعون، بما دل على بعض ما حباه الله به من أدب رفيع، امتاز به الفرسان من المظفرين في أبطال الحروب، الذين هم في غنية عن مظاهر الاغترار، وأساليب التقريظ، فقال: أنت أحق به مني، لك سن، قد شهدت بدراً.

فخالد يذكر لثابت صفتين تجعل ميزانه أرجح للإمارة ـ في نظر خالد ـ من خالد نفسه، فمن دونه من الناس، ذكر أنه رجل مكتمل العقل، عالي السن، قد حنكته التجارب، وصقلته السنون وللسن في الحروب امتياز، فإنها حاصنة الأناة والريث، والحرب لا يصلح لها أحياناً إلا الرجل المكيث، وذكر أنه شهد بدراً، وهذا أشرف أوسمة الإسلام، وقد علم خالد رضي الله عنه مقام شهود بدر، ومكانهم من قلب رسول الله ﷺ، فخالد إذ يجري بينه وبين عبد الرحمن بن عوف تعتب يرتفع إلى سمع النبي ﷺ، فيعتب منه ابن عوف فلا يفضله عليه بأشرف من أنه رجل من أهل بدر، وهو إذ يقع بينه وبين عمار بن ياسر كلام يألم له عمار، فيبلغ النبي ﷺ، فلا ينهنه خالداً عن عمار بأكثر من قوله «مالك ولعمار؟ رجل من أهل الجنة، قد شهد بدراً». ولم يمنح الله أهل بدر هذا الشرف العظيم إلا لما خصوا به من الفضائل التي ليس أقلها ولا أهونها، معرفة الحق لأهله، وتقدير الرجال بخصائصهم، ومن هنا جاء رد ثابت على خالد، يقول له: فوالله ما أخذت اللواء إلا لك، ويذكر له أبرز خصائص القيادة الحربية التي احتاج إليها الموقف: أنت أعلم بالقتال مني. فكأنه يقول بهذه الكلمة الجامعة: ليس الموقف موقف سن عالية، ولا عرض لأوسمة الإيمان بشهود بدر، ولكنه موقف إنقاذ جيش تحالفت عليه المحن، يطلب قائداً حازماً عبقرياً، وأنت يا أبا سليمان ذاك،

لأنك سيف من سيوف الله. وهكذا توج المسلمون رأس البطل بتاج الإمارة وأصبح خالد قائداً بعد أن كان جندياً.

ومن هنا تبدأ صفحة البطولة الإسلامية في تاريخ خالد رضى الله عنه.

* * *

بدأ «خالد» رضي الله عنه حياته الإسلامية جندياً، يحارب تحت راية أمراء النبي ﷺ، وهو أطوع ما يكون جندي في جيش، وأخلص ما عرف الناس عن رجل في مكان «خالد» من العزة العربية والعبقرية الحربية والبطولة القرشية، والحرب محك الرجال، ومظهر الأبطال ومصنع العباقرة، وقد قتل في وقعة (مؤتة) ـ وهي أول وقعة إسلامية حضرها خالد ـ ثلاثة أمراء، كان النبي ﷺ قد عينهم، ورتب إمارتهم على الجيش، فالتفت المسلمـون إلى أنفسهم، وهم في أشد الحرج يعجمون عود رجالاتهم، ليقيموا عليهم من أنفسهم أميراً يقودهم في هذه الحرب الضروس، فلم يجدوا في بديهتهم من يسعفهم في محنتهم أشجع من خالد ولا أبرع سياسة في الحرب منه، فاختاروه لقيادتهم، ورضي هو بإمارتهم، فماذا عسى أن يصنع في قيادة جيش نالت منه الحرب أقسى ما تناله من جيش قليل العدد، بعيد المدد يواجه جيوشاً من الروم والعرب ضخمة متكاثفة في أهبة تامة وعدة كاملة؟!

إن قائداً في مثل موقف «خالد» أحوج إلى الفكر النافذ منه إلى السيف الصارم، وقد حبا الله تعالى «خالداً» من ثاقب الفكر ومحكم التدبير وبارع السياسة بما أغنى عن الأمداد والسلاح.

رأى القائد الجديد أن لا طاقة لجيشه في قلة عدده، وكثرة جراحه، بجيوش أعدائه المتكاثرة المستعدة في حرب فاصلة، وموقف حاسم، فماذا يصنع؟ أيطلق لهذا الجيش عنان الفرار والهرب وحسبه من الغنيمة أن يكون قد نجى كتيبة المسلمين من فناء محقق؟ أم يدفع به إلى هجوم لا يبالي نتائجه كائنة ما تكون، ما دام القائد قد استجاب لداعي البطولة والشجاعة؟ أم يلجأ إلى الفكر يستوحيه خطة لا تحمل على أكتاف المسلمين عار الفرار، ولا تدفع بهم إلى الهلاك والدمار، وترمي في قلوب أعدائهم الفرق والفزع، وتقذف في أفئدتهم الرهبة والرعب، وتحيل الهزيمة نصراً وفتحاً مبيناً؟!

اختلاف الروايات في هذه الغزوة

لقد اختلفت روايات المؤرخين وكتاب السيرة في موقف القائد الجديد ونهاية الموقعة على يديه اختلافاً بعيد الجوانب، قصي الغايات والمرامي.

والعجيب في أمر هذه الروايات أن بعض كتب السيرة والتاريخ يقصها متتابعة لا يصده ما تحمله من تضارب يبعدها عن التحقيق، فهذا محمد بن سعد يقول في كتاب الطبقات: (فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء، وانكشف الناس، فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون، فقتل من قتل من المسلمين، ورفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم، فلما أخذ اللواء خالد بن الوليد قال رسول الله ﷺ: (الآن حمي الوطيس) فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب، ويقولون: يا فرار، أفررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ: (ليسوا بفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى).

ثم يقول ابن سعد نفسه بعيد ذلك راوياً عن أبي عامر قال: (بعثني رسول الله ﷺ إلى الشام فلما رجعت مررت على أصحابي، وهم يقاتلون المشركين بمؤتة، قلت: والله لا أبرح اليوم حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهم، إلى أن قال: ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة فطاعن حتى قتل، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين جميعاً، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار، ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال: إلي أيها الناس، فأجمع الله الناس حتى إذا كثروا مشى اللواء إلى خالد بن الوليد، فقال له خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به مني، فقال الأنصاري: والله ما أخذته إلا لك، فأخذ خالد اللواء، ثم حمل على القوم، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا.

وفي تاريخ الخميس للديار البكري: «فأخذ خالد اللواء، وحمل بأصحابه ففض جمعاً من جمع المشركين» ثم قال: «وقد جاء في بعض الروايات: اصطلح الناس على خالد بن الوليد، وأخذ اللواء وانكشف المسلمون وكانت الهزيمة» ثم قال: وفي الاكتفاء: فلما أخذ خالد الراية دافع القوم، وحاشى بهم ثم انحازوا حتى انصرف الناس قفالاً ولما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدون، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: (خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن

جعفر) فأتى بعبدالله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون يا فرار، أفررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ (ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى) وقالت أم سلمة زوج النبي ﷺ لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة: ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ؟ قالت: إنه والله لا يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس، يا فرار، فررتم في سبيل الله؟ حتى قعد في بيته؟ وعن أبي هريرة أنه قال: لما قتل ابن رواحة، انهزم المسلمون، فجعل خالد يدعوهم في أخراهم ويمنعهم عن الفرار وهم لا يسمعون، حتى نادى قطبة بن عامر: أيها الناس لأن يقتل الرجل في حرب الكفار خير أن يقتل حال الفرار، فلما سمعوا كلام قطبة تراجعوا.

ثم قال الديار بكري: وروي أن خالداً لما أصبح أخذ اللواء، فبعد ما صفوا للقتال غير صفوف جيشه، فجعل المقدمة مكان الساقة، والساقة مكان المقدمة والميمنة مكان الميسرة، والميسرة مكان الميمنة، فوقع الكفار في غلط، فحسبوا أن لحق المسلمين مدد، فوقع في قلوبهم من ذلك الرعب، فانهزموا، فتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا، فغنم المسلمون من أموالهم فرجعوا إلى المدينة، وفي مقفلهم مروا بمدينة لها حصن، وقد كان أهل الحصن قتلوا رجلاً من المسلمين في مرورهم إلى مؤتة، فحاصروهم، وفتحوا حصنهم، وقتل خالد كثيراً منهم.

وهذا أبو جعفر الطبري يقول: «فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز حتى انصرف بالناس» ثم روى بعيد ذلك عن خالد بن سمير قال: «قدم علينا عبدالله بن رباح الأنصاري وكانت الأنصار تفقهه ـ فغشيه الناس، فقال: حدثنا أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ، قال: بعث رسول الله جيش الأمراء، فقال: «عليكم زيد ابن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر، فعبدالله بن رواحة» فوثب جعفر، فقال يا رسول الله، ؛ ما كنت أذهب أن تستعمل زيداً عليّ، قال: امض فإنك لا تدري أي ذلك خير؟ فانطلقوا، فلبثوا ما شاء الله، ثم إن رسول الله ﷺ صعد المنبر، وأمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس إلى رسول الله فقال «باب خير، باب خير، باب خير، أخبركم

عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فقتل زيد شهيداً واستغفر له، ثم أخذ اللواء جعفر، فشد على القوم حتى قتل شهيداً، فشهد له بالشهادة، واستغفر له، ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً، فاستغفر له ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، هو أمر نفسه، ثم قال رسول الله ﷺ: (اللهم إنه سيف من سيوفك، فأنت تنصره) فمنذ يومئذ سمي خالد سيف الله، ثم قال رسول الله ﷺ: أبكروا فأمدوا إخوانكم، ولا يتخلفن منكم أحد، فنفروا مشاة وركبانا، وذلك في حر شديد).

نقد وتحقيق

وهكذا تجري أكثر كتب التاريخ والسير ـ إن لم نقل كلها ـ في تدوين أخبار هذه الغزوة وغيرها من الحوادث الإسلامية البارزة، فهذه الروايات التي رويت في مصادر تاريخية لها عند العلماء من المؤرخين قدرها وحرمتها، وهي عندهم من أصول المراجع ودواوين التاريخ الإسلامي، لا تقف عند الاختلاف في الأسلوب والعبارة، ولكنها تتضارب وتتناقض في معانيها ومراميها وغاياتها تناقضاً لا يمكن معه التوفيق بينها في يسر واطمئنان، ولا مناص من رفض بعضها، ولسنا ندري كيف قبل هؤلاء العلماء من أئمة التاريخ هذا التناقض العجيب، فسجلوه، ولم ينقدوا هذه الروايات فيبهرجوا منها الزائف ويحققوا الصحيح؟ وكان يسيراً عليهم لو أنهم سلكوا مسلك الموازنة والنظر الفاحص، والفهم الممحص، لأنهم أخبر بحال الرواة، وأعلم بحال الوقائع والأشخاص.

ولا شك أن منهجهم في التدوين من أكبر معوقات التحقيق في روايات التاريخ أمام الباحثين، فلا يدري الباحث ماذا يأخذ، ولا ماذا يدع. وإذا كان للترجيح بين هذه الروايات مجال، فلعل التي تذهب منها إلى ما تضمنته رواية ابن سعد الثانية، وهي رواية شاهد معاين، أثقل في ميزان النقد، وأقرب إلى الوضع المعقول، لأنها ذكرت الهزيمة على المسلمين في مكانها المعقول، وهو الوقت الذي خلا فيه جيشهم من قائد يعصب أمره، بعد أن فقد قواده الثلاثة، وهذا وضع يحدث في كل جيش يصاب به أعظم الاضطراب. فلا غرابة إذا أصيب بالهزيمة حينئذ. وذكرت النصر لهم والفتح عليهم في مكانه المعقول لما اجتمع أمر الناس على قائد تسبق شهرته إلى قلوب

الجند أبصارهم إلى شخصه، فثابت إليهم أنفسهم، وقويت أرواحهم وعاودهم يقينهم، وقد يكون عدوهم شغل عنهم بعض الشيء بنشوة الظفر، فحملوا صادقين، ونالوا من عدوهم ما نال منهم.

ويؤيد هذا الترجيح ما جاء في رواية الديار بكري وغيره عن الخطة الحربية التي ابتكرها خالد في تغيير نظام الجيش مما أدخل على العدو في بداهة النظر غلطاً ظن معه وصول أمداد لجيش المسلمين، وقد يدخل في باب تأييد ذلك حديث أبي هريرة المتقدم، فإنه يمتح من معين حديث أبي عامر في رواية ابن سعد؛ وإذا صحت رواية الطبري التي تقول بإرسال مدد لجيش المسلمين بعد تأمير خالد عليه وأن الناس نفروا لإمداد إخوانهم مشاة وركباناً، كانت من أقوى مرشحات انتصار المسلمين على يد قائدهم الجديد؛ ويمكن على هذه الرواية فهم الروايات فهمًا يوفق بينها، وهي أغرب روايات جاءت في هذه الغزوة، لأن حديث الإمداد والنفر لم نعرفه في غيرها.

وقد أراد بعض المتأخرين من المؤرخين التحرر من المتابعة والتقليد، فاستبعد جداً انتصار المسلمين في هذه الواقعة لقلة عددهم وكثرة عدد عدوهم، ولجأ إلى التأويل في روايات الفتح والانتصار، وجعله مجازاً عن نجاة المسلمين، وجرى في هذا الشوط بعض الكاتبين من المعاصرين.

رأي في الموضوع

ولسنا نذهب هذا المذهب؛ ولكنا نرجح أن المسلمين انتصروا ورجعوا ظافرين، غير أنه ظفر الجولة ونصر الحملة الصادقة، لا ظفر الميدان، ونصر الموقعة الحاسم؛ أما حديث الفرار وتعيير الناس للجيش في حضرة النبي ﷺ، ورده عليهم نضحاً عن أصحابه أن يعيروا بالفرار، فذلك ما لا نستطيع أن نعتمد عليه، ولا الركون إليه، ولا نطمئن إلى قبوله، لأن استمرار الناس في التعيير بعدما سمعوا رسول الله ﷺ يدفعه عن جنود الجيش إلى حد يمنع سلمة بن هشام صهر رسول الله من حضور الصلاة معه، بعيد جداً من رضاء النبي ﷺ لأصحابه أن يعيروا بالفرار، وهو لا يراهم فراراً، وبعيد جداً من أدب الناس وطاعتهم لرسول الله ﷺ في أمر لا يرضاه ولا يحبه لأحد من أصحابه.

والاحتجاج بكثرة العدد وقلة المسلمين احتجاج لا يقوى على مواجهة

التاريخ في حروب المسلمين، لأنهم لم يحاربوا بكثرة عدد قط؛ وإنما كانوا يحاربون بقوة العقيدة وثبات الإيمان، وعبقرية القيادة، وبطولة الجنود، وحب الموت في سبيل الله، وأشهر مواقعهم مع الروم والفرس كان التفاوت فيها بين عدد المسلمين في قلتهم وعدد المشركين في كثرتهم ظاهراً جداً، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون.

وفي وصية عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بطل القادسية: (وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله وطاعتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا ننصر عليهم لم نغلبهم بقوتنا).

والقرآن الكريم جعل المسلم الواحد بعشرة رجال من الكفار في أول الأمر، ثم خفف الله عنهم فجعل المسلم برجلين من الكافرين، وهذا تسجيل للتفاوت المعنوي في القوة والجلاد، وهو الذي درج عليه المسلمون في حروبهم ومشهور وقائعهم. فالكثرة العددية لا دخل لها في النصر الحربي، وقد تؤدي مكيدة من مكايد دهاة القواد والأبطال إلى ما لم تقم له الألوف المؤلفة من الرجال والعتاد، والله تعالى يحكي عن أولي اليقين من المؤمنين قولهم «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله».

ويمكن تلخيص رأينا في هذه الموقعة بأن المسلمين لما أصيب قائدهم الثالث: عبدالله بن رواحة، وكان آخر المعينين من قبل النبي ﷺ، فزعوا لهول الخطب بإصابتهم في قوادهم الثلاثة وانفراط عقد نظامهم، فأحدث هذا الفزع اضطراباً ساعد العدو على كشفهم فانكشفوا، وانهزموا فزعين؛ حتى إذا أخذ اللواء خالد بن الوليد، وذاع الخبر في الجنود تراجعوا، وبات خالد ليلته يعمل فكره، والمسلمون من حواليه في جراحهم يقضون مضجعه، فلما أصبح كان قد واتاه الفكر العبقري بإحدى خدع الحرب. ذلك أنه أراد:

أولاً: أن يدخل في روع العدو أن مدداً جديداً قدم على المسلمين، ليضعف بذلك الروح المعنوي لدى أعدائه، ويوهن من قوتهم، ويكسر من حدة الغرور الذي انتابهم من جراء النصر الذي نالوه على المسلمين.

ثانياً: أن يقوي الروح المعنوية في جيش المسلمين بتبادل تحمل أعباء الحرب بين الجنود، وتجديد المواقف في الهجوم، وتوجيه طوائف الجيش إلى خطة جديدة بالنظر إلى خطة الأمس، فعمد إلى حيلة تغيير الوضع الأول للجيش على ما ذكرته الرواية، وهذا تدبير من أحكم التدبير، حقق ما قصده القائد العظيم من وقوع العدو في غلط، وظنه وصول مدد للمسلمين، أوقع الرعب في قلوبهم، وهو أمر قريب للفهم والمعقول، ولا سيما إذا انضم إليه شجاعة القائد الجديد، تلك الشجاعة التي يقول في مظهرها خالد نفسه في هذه الموقعة: «لقد اندق في يميني يوم مؤتة تسعة أسياف فما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية».

ويؤيد رأينا تأييداً يرتفع عن الشبهة ما جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك: «أن النبي ﷺ نعى زيداً، وجعفراً، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذ سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم».

فالنبي ﷺ قد أخبر أن الله تعالى قد فتح على المسلمين لما أخذ رايتهم خالد بن الوليد، وسمى خالداً سيف الله، ولا تسمى الهزيمة والفرار فتحاً، وإنما عرف الفتح في عرف الحروب الإسلامية بالظفر بالعدو والنصر عليه، وليس لأحد مع رسول الله ﷺ قول، وليس لراو بعد البخاري كلام.

الفصل الرابع

فَتْحُ مَكّة

أمل المسلمين في فتح مكة ـ خروج النبي في أصحابه معتمراً ـ المفاوضة مع قريش ورجوع النبي بأصحابه عن مكة ـ وقفة عمر بن الخطاب في هذا الرجوع ـ نقض قريش العهد ـ ندم قريش وإرسال أبي سفيان ليؤكد العهد ـ خيبة أبي سفيان في سفارته ـ تجهز رسول الله للفتح ـ تأمير خالد في فتح مكة ـ إسلام أبي سفيان وهيبة المسلمين في قلبه ـ خالد يحطم العزى.

أمل المسلمين في فتح مكة

كان فتح مكة أملاً تجيش به صدور المسلمين منذ أحسوا قوة الإسلام تسري في قبائل العرب، فتجذبهم إلى حظيرة قدسه أفراداً وجماعات، ثم تعاظم ذلك الأمل حتى لهجت به ألسنتهم وتحدثوا عنه في مجالسهم منذ كان العهد بينهم وبين قريش، ذلك العهد الذي أفصح عن تأييد الله تعالى لرسوله ﷺ بما حباه به من كامل العقل، ونافذ البصيرة، ومحكم التدابير، مما خفي بعضه على بعض الأكابر فكادوا. . . لولا أن منّ الله عليهم بالتثبيت فثبتوا، وأنجز الله تعالى موعوده لنبيه ﷺ، وأتم نعمته على عباده المؤمنين بذلك الفتح المبين.

خروج النبي في أصحابه معتمراً

خرج رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة معتمراً، لا يريد حرباً، وقد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي، وسلك طريقاً ينزل به على مهبط الحديبية من أسفل مكة بعيداً عن طريق قريش حتى لا يصطدم بها، فلما بلغ موضعاً يقال له ثنية المرار بركت ناقته القصواء، فقال الناس: خلأت القصواء فقال: «ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها».

وبينما رسول الله والمسلمون كذلك إذ أقبل عليهم بديل بن ورقاء الخزاعي ـ وخزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة ـ فقال: إني تركت كعب بن لؤي قد نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادّوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: إنا لم نأت لقتال أحد،

ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددناهم مدة، ويخلو بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالـذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره.

المفاوضة مع قريش ورجوع النبي بأصحابه عن مكة

بلغ بديل بن ورقاء قريشاً مقالة رسول الله ﷺ، فأرعدت فرائصها وخضعت لبعض الأمر، فندبت عروة بن مسعود الثقفي ليلقى رسول الله، فتحدث إليه، ورأى من عظمته بهيبة النبوة وتعظيم أصحابه له ما أدهشه وطامن من تنطسه، فرجع إلى قريش يقول لها: لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً.

ثم لم تزل الرسل تغدو على رسول الله حتى بعثت قريش وفداً فيه سهيل بن عمرو ليصالحوا رسول الله، فتكلم سهيل فأطال الكلام وتراجعا حتى التأم أمر الصلح بينهما على وضع الحرب بين الناس عشر سنين، وعلى أن من أتى رسول الله من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم ترده عليه، ومن أحب أن يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن يرجع النبي ﷺ بالمسلمين عامه هذا فلا يدخل مكة على قريش، فإذا كان عام قابل دخلها بأصحابه ليس معهم سلاح غير سلاح الراكب، السيوف في القرب.

وقفة عمر بن الخطاب في هذا الرجوع

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ في مخرجهم هذا لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ في نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا، فوثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟! قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟! قال: بلى! قال: أو ليسوا بالمشركين؟! قال: بلى! قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال الصديق الأعظم: يا عمر!! إلزم غرزة، فإني أشهد أنه رسول الله؛ قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله!! ثم أتى عمر رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله! ألست برسول الله؟! قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال

أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قال فعلام نعطي الدنية في ديننا؟!! قال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني» فكان عمر رضي الله عنه يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً.

* * *

نقض قريش العهد

لم يكد «خالد بن الوليد» رضي الله عنه يستقر بالمدينة وقد عاد بكتيبة المسلمين من «مؤتة» أميراً، وكان جندياً فأظفره الله على عدو كان له في قلوب العرب أعظم هيبة، جعلت غزوهم مثلاً في التندر من صناديد قريش على المسلمين؛ حتى تتابعت الأنباء بأن قريشاً نقضت ما عاهدت عليه رسول الله ﷺ، فأعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ بأشرافها: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص بن الأخيف ومن تبعهم من عبدانهم، وبيتوا خزاعة ليلاً، وهم غارون آمنون، فقتلوا منهم عشرين رجلاً، وخرج عمر بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من قومه، يستنصر رسول الله ﷺ.

وروي أن ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ قالت: «بات عندي رسول الله ﷺ في ليلتي، ثم قام وتوضأ للصلاة فسمعته يقول: لبيك، لبيك ثلاثاً. فلما خرج من متوضئه قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي!! سمعتك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟ قال: هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر؛ قالت ميمونة رضي الله عنها: فأقمنا ثلاثة أيام، ثم صلى الصبح بالناس، فسمعت راجزاً، ينشد رسول الله ﷺ وهو في المسجد بين ظهراني الناس وهو يقول: -

لا هم إني ناشد محمدا	حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فوالداً كنا وكنت ولدا	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصراً عتدا	وادع عباد اللّه يأتوا مددا
فيهم رسول اللّه قد تجردا	أبيض مثل البدر ينمي صعدا
إن سيم خسفاً وجهه تربدا	في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهـم أذل وأقـل عـددا هم بيتونا بالوتير هجدا
فقتلـونا ركعـاً وسجـدا

فقام النبي ﷺ وهو يجر رداءه، ويقول:

ندم قريش وإرسال أبي سفيان ليؤكد العهد

«لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي». ثم ثابت قريش إلى رشدها وأدركت سوء صنيعها، فأرسلت قائدها وشيخها أبا سفيان ابن حرب إلى رسول الله ﷺ ليؤكد العهد، ويزيد في مدته، فلما قدم المدينة دخل على ابنته أم حبيبة، زوج النبي ﷺ، فجاء ليجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه فقال: يا بنية. والله ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش؟ أم رغبت به عني؟ قالت: هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله! قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.

هنا لفتة روحية سامية، نسجلها ونمر بها جوازاً، تلك هي قوة الإيمان المسيطرة على العواطف والمشاعر التي لم يبق معها للأبوة ـ وهي أعلى درجات الوشائج النسبية ـ مكان في إحساس الإيمان، مما سجلته هذه المحاورة الطريفة بين الوالد وولده في صراحة جادة وحزم مؤمن؛ هذا هو المعنى في قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده».

خرج أبو سفيان من بيت ابنته بعد أن رأى أبدع فصـل في رواية بدأها، إن لم يكن قد أرضاه؛ وهو لم يرضه؛ فلا ريب أنه حرك نفسه حركة غير إرادية في اتجاه لم يقصد إليه ولم يرده، ولكنه انتهى إليه في رحلته هذه.

خرج أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، فكلمه فيما قدم عليه من أجله فلم يرد عليه رسول الله شيئاً. ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل؛ ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم! ثم أتى علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة ابنة رسول الله، وعندها الحسن بن علي، غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي: إنك أمس القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابـة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئـت خائباً؛ اشفع لنا إلى رسول الله؛

فقال: ويحك يا أبا سفيان!! والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد: هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت فاطمة: والله ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد.

هذا موقف من مواقف الاحتدام النفسي بين الغطرسة المتنطسة، والعنجهية الخانعة في ذلة المغلوب، وتضرع المتخاذل، يعجز القلم عن تصويره تصويراً يبرز معالم الالتواءات النفسية في خطوطه، وإلا فكيف يستطيع القلم أن يرسم نوازع أبي سفيان سيد البطحاء، وشيخ قريش، وقائد جحافلها في حرب محمد ﷺ، وهو يتضرع إليهم أن يمادوه، فيصكه ابن الخطاب صكة الظافر المكظوم، ويرده علي رد المهدد المستعلي، فتتصاغر طمطمة أبي سفيان تصاغراً يأخذ بيده إلى ذيل طفل يدب بين يدي أمه وأبيه، ويسأل أمه سؤال المستعطف المتهاتف أن تصعد بابنها من مهد الطفولة إلى سامقات الرجولية المسيطرة، فيجير قريشاً وغطريفها أبا سفيان من جده رسول الله؟ ولكن فاطمة عليها السلام ـ وهي بضعة رسول الله ـ أدركت ما أصاب الشيخ من تفلت الأعصاب عن مرابطها، ولعلها ابتسمت إذ تقول له: والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس!!

هنا تماسك غطريف قريش، ونفض عن يده ذيل الغلام، وأخذ بعضد أبيه ربيب النبوة، وقاهر قريش في (بدر) يكشف له عن ذات نفسه فيقول له: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، فقال له: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنياً شيئاً؟! قال: لا، والله ما أظن، ولكن لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، فقال النبي ﷺ: (أنت تقول ذاك يا أبا سفيان).

خيبة أبي سفيان في سفارته

ثم انصرف أبو سفيان قافلاً إلى مكة فتلقاه زعماؤها الذين أوفدوه، فقالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي بشيء، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، وجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته ألين الناس، فقد أشار

علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد قال: لا، قالوا: والله إن زاد على أن لعب بك علي، فما يغني عنا ما قلت. قال: لا، والله ما وجدت غير ذلك.

تجهيز رسول الله للفتح

أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بالفتح الأعظم، وأمرهم أن يتجهزوا، وأمر أهله بجهازه، ولم يعلموا به أحداً حتى دخل أبو بكر رضي الله عنه على ابنته عائشة وهي تصلح بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: يا بنية ما هذا الجهاز! قالت: لا أدري، قال: أأمركم رسول الله ﷺ بأن تجهزوه؟ قالت: نعم، قال: فأين ترينه يريد! قالت: ما أدري، قال: ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد؟!! قالت: لا علم لي.

ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها). فتجهز الناس، وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من القبائل وأهل البوادي، فأجابه منهم: أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وسليم، حتى اجتمع له منهم إلى المهاجرين والأنصار عشرة آلاف، كان الموت في سبيل الله أحب إلى أحدهم من الحياة، وسار بهم حتى بلغوا موضعاً يقال له (قديد) وهناك عقد الألوية والرايات، وسمى الأمراء والقواد، ووضع تفاصيل خطة الغزو.

تأمير خالد في فتح مكة

كانت تلك الخطة أحكم خطة حربية وضعها قائد يريد فتحاً لا تراق فيه الدماء، لأنها قامت على أساس المفاجأة وتطويق العدو في بلده، وأخذه على غرة حتى لا ينشب قتال، وكانت راية رسول الله ﷺ على كتيبته الخضراء مع الأنصار معقودة لقائدهم سعد بن عبادة، وكان على المجنبة اليسرى حواري رسول الله وابن عمته الزبير بن العوام، وكان على المجنبة اليمنى غامز قناة بني الأصفر سيف الله وسيف رسوله، خالد بن الوليد بطل الإسلام، وهذه أول إمارة (رسمية) يشرف بها رسول الله ﷺ خالداً، وكان أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح على الحسر والبيادق.

ثم أمر رسول الله ﷺ الزبير أن يدخل مكة عن (كدى) بأسفلها، وأمر

قائد كتيبته سعد بن عبادة أن يدخلها من (كداء) بأعلاها، وأمر سيف الله خالداً أن يدخلها من موضع يقال له (الليط)، وكان خالد رضي الله عنه أميراً على جميع جند القبائل ممن عدا المهاجرين والأنصار، وكان أولئك أربى من ثلث الجيش كله. وهذا بلا ريب تقدير عظيم لمكانة خالد العسكرية وبطولته الحربية وقدرته على سياسة الرجال من مختلف القبائل والبطون، وفتح مكة الذي أمر فيه النبي ﷺ عليه وسلم خالداً على هذا الجمع العظيم كان أعظم الفتوحات الإسلامية الأولى، سماه الله تعالى في القرآن الكريم فتحاً مبيناً.

فتأمير خالد على ثلث جيش يقوده رسول الله بنفسه في أعظم فتح عند المسلمين يومئذ دليل ساطع على ما لهذا البطل العبقري من البصر النافذ في سياسة الحرب وقيادة الجيوش.

إسلام أبي سفيان وهيبة المسلمين في قلبه

وقد رأى أبو سفيان بن حرب ووصف من حال جيش الفتح ما يصور حال قريش وما أصابها من الفرق والفزع، فقد قال رسول الله ﷺ لعمه العباس حين تشهد أبو سفيان شهادة الحق: انصرف يا عباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله، قال العباس فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، ومرت به الكتائب على راياتها حتى مر رسول الله في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق. فقال أبو سفيان: من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل؛ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً! قال العباس: ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذاً، قلت: الحق بقومك فحذرهم. وكان العباس حين استأمن لأبي سفيان حتى أسلم قد قال للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً يكون في قومه، فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

وهنا موطن من مواطن التأمل، فهذا لون براق من حرب الأعصاب الذي يقصد به إشاعة الفزع في قلوب الأعداء حتى تخور قواهم وتضعف معنوياتهم، ويتحلل تماسكهم، وهو ما تحقق؛ فقد دخل المسلمون البلد

الحرام دون قتال إلا ما كان من البطل الصنديد خالد بن الوليد، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى قواده وأمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، ولكن خالداً لقي بعض غطارفة قريش لا تزال حمية الجاهلية تنفخ في آنافهم، وأجمعوا على قتال المسلمين، وكان فيهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو في ناس من بني بكر، وقوم من بني الهون، وبني الحارث وبني المصطلق ممن يسمون بالأحابيش لتحالفهم بأسفل جبل يقال له «حبش» وكان من البكريين حماس بن قيس الذي أعد للمسلمين سلاحاً، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى من السلاح؟ فقال لمحمد وأصحابه، قالت: والله ما أراه يقوم لمحمد شيء، قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم. ثم أنشد:

إن تقبلوا اليوم فمالي علة ... هذا سلاح كامل وأله
وذو غرارين سريع السلة

فلما لقي القوم خالد في أصحابه، وناوشهم شيئاً من القتال وأحسوا حرارة السيوف فر حماس لا يلوي على شيء حتى دخل بيته، وقال لامرأته: أغلقي علي بابي، قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فر صفوان وفر عكرمه
واستقبلتهم بالسيوف المسلمه ... يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضربا فلا تسمع إلا غمغمه ... لهم نهيت خلفنا وغمغمه
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

خالد يدافع

ولما علا رسول الله ﷺ ثنية كداء نظر إلى البارقة على الجبل مع فضيض المشركين قال: ما هذا وقد نهيت عن القتال؟ قال المهاجرون: نظن أن خالداً قوتل وبدىء بالقتال فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله، وما كان يا رسول الله ليعصيك، ولا ليخالف أمرك. ثم قال لخالد: لم قاتلت، وقد نهيتك عن القتال؟ قال: هم بدأوا ووضعوا فينا السلاح، وأشعرونا النبل، وقد كففت يدي ما استطعت، فقال رسول الله ﷺ: قضاء الله خير.

وفي رواية أن خالداً أنال قريشاً شيئاً من القتل، فجاء رجل من قريش، فقال: يا رسول الله، هذا خالد بن الوليد قد أسرع في القتل، فقال

النبي ﷺ لرجل من الأنصار عنده: يا فلان، قال لبيك يا رسول الله، قال إئت خالد بن الوليد، قل له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن لا تقتل أحداً، فجاء الأنصاري، فقال: يا خالد إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تقتل من لقيت، فاندفع خالد فقتل سبعين رجلاً من أهل مكة فجاء إلى النبي ﷺ رجل من قريش، فقال يا رسول الله هلكت قريش، لا قريش بعد اليوم!! قال: ولم؟ قال: هذا خالد لا يلقى أحداً من الناس إلا قتله، فقال النبي ﷺ: ادع لي خالداً، فلما أتى إليه خالد، قال: يا خالد ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحداً؟ قال: بل أرسلت إلي أن أقتل من قدرت عليه؛ قال النبي ﷺ: ادع لي الأنصاري، فدعاه له! فقال: ألم آمرك أن تأمر خالداً أن لا يقتل أحداً؟ قال: بلى، ولكنك أردت أمراً وأراد الله غيره، فكان ما أراد الله.

هذه الرواية مما لا نطمئن إلى تفصيلاتها، لأننا نستبعد جداً أن يأمر رسول الله رجلاً بأمر في رسالة يبلغها إلى قائد من قواده، يعصم بها دماء الناس، وأرواحهم، ثم يخالف هذا الرسول أمر رسول الله، فيبلغ القائد أمراً آخر على نقيضه، يبيح فيه الأنفس والدماء، ويكن سبباً في قتل هذا العدد من رجال قريش معاندة لأمر رسول الله في قومه، ثم يحتج لنفسه بهذه الحجة الجدلية، فيسكت لها النبي ﷺ، ويرضى عنها رضاء لا يكون معه تأديب يرشد الناس إلى توقير أوامر النبي ﷺ وتبليغ رسالاته على أبلغ درجات الأمانة والصدق. هذا بعيد، بعيد.

وهي في جملتها ونتيجتها متمشية مع رواية مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: أقبل رسول الله ﷺ وقد بعث على إحدى المجنبتين خالد ابن الوليد، وبعث الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر، فقال لي: يا أبا هريرة اهتف لي بالأنصار فهتف بهم فجاءوا فأطافوا به، فقال: أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ ثم قال بإحدى يديه على الأخرى: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا، قال أبو هريرة: فانطلقنا فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أبحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم!! فقال ﷺ: من أغلق بابه فهو آمن. وهذا أثبت وأقوم.

وقد رويت روايات كثيرة مختلفة، وما ذكرناه أمثلها، وقد ترتب على

اختلاف الروايات في الفتح، تفريعات للعلماء والمؤرخين. ولكن موقف خالد من هذه الأحداث هو موقف البطل الذي تأبى بطولته إلا أن تكون عنواناً عليه في جميع مواقفه.

* * *

خالد يحطم العزى

أعز الله بفتح مكة دينه، ونصر جنده، وأقر به عين رسوله فأراه البلد الذي عانده، وناهض دعوته وأخرجه عنه وهو أحب بلاد الله إليه، يدخل في طاعته طوعاً وكرهاً، وأراه قريشاً واسطة عقد العرب تستجيب إليه راضية خاضعة، فيتبدل خلقها حتى كأنما كان هذا الفتح المبين ميلاداً جديداً لها، لأنه طهرها من دنس الزراية بالعقل الإنساني، وانتشلها من وهدة الوثنية البليدة، وأراها أصنامها تتفتت إلى حبات من الرمال تحت أقدام جند التوحيد، فلقد طهر النبي ﷺ حرم الله وبيته من رجس «هبل» و«اللات» و«ذراريها» من أحجار الصحراء ورضراضها، ورضيت قريش منه هذا التطهير راغمة، ولكنها لحظة في دورة الفلك حتى أدركت فتداركت، وهمت فنفذت، وعزمت فوصلت، كانت صاحبة اللواء الأعظم في فتوحات الإسلام، وكان فتيانها حماة الدعوة وأبطال الجهاد ورسل إنقاذ الإنسانية من وصمة التعبد لغير بارىء الوجود رب العالمين.

* * *

أتم الله على رسوله ﷺ نعمة الفتح وتطهير البيت من الأصنام، ونظر إلى قريش مستسلمة، وإلى مكة آمنة فلم يثنه ذلك عن متابعة الجهاد وراء حدود البلد الحرام أينما حلت قريش من الغرب، فإذا هي خضعت في بلدها وحرمها وتهافتت أوثانها رأي عينها، فليلاحقها انكسار الوثنية وتحطيمها أينما توجهت حتى تستوي لها عزة التوحيد في ظل الإسلام، وإذا هوى «هبل» من علياءالبلادة الذهنية في أدمغة عباده إلى حقيقة الترابية، فتلك هي «العزى» لا تزال قريباً من مكة رمية سهم بساعد ملفوف، معبودة معظمة من كنانة ومضر، تزورها قريش، وتحني أمام صخراتها هامتها، وتهدي إليها نفائسها، وتقرب بين يديها قرابينها، ويقوم على سدانتها بنو شيبان حلفاء بني هاشم سنام قريش وذروتها، وهذا عرق معرق من أعراق الوثنية لا يزال في قريش راسخاً، ولا يتم إشراق نور الإسلام في حنايا أفئدتها إلا باستئصاله؛ فمن

للعزى يلحقها بحضيض «هبل»؟ ذاك الفتى المخزومي سيف الله خالد بن الوليد.

أذن رسول الله ﷺ لبطل الإسلام الأول علي بن أبي طالب أن يحطم «هبل» ويري قريشاً أنها كانت في عبادته من الخاطئين، فكان ذلك شرفاً لربيب النبوة أي شرف؛ ثم التفت النبي ﷺ فرأى سيف الله وفارس الإسلام، وأمير جحفل الفتح خالد بن الوليد، وكان قد أعده للعظائم، ورشحه للخوالد، فجعله في هذا الشرف العظيم عدل علي، وعلي من رسول الله بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام؛ فكان ذلك من أعظم التكريم لفتى مخزوم.

وجه رسول الله ﷺ خالداً في ثلاثين فارساً من جند الإسلام إلى «العزى» يحطمها ويمحو عار عبادتها عن قومه، وترامى نبأ المسير الخالدي إلى سدنة «العزى» فطافوا بها وواعدوها الفتك بمن يهتك حرمها ويكشف سترها، ثم جهزها صاحبها «دبية» بن حرمي السلمي بسيف صارم علقه عليها، وتنحى عنها مصعداً في الجبل وهو يخالسها النظر، وينشدها منذراً متوعداً:

أيا عزى شدي شدي لا شوى لها ... على خالد، ألقي القناع وشمري
ويا عز إن لم تقتلي اليوم خالدا ... فبوئي بإثم عاجل أو تنصري

إي والله لقد اختارت عزاك - يا أخا شيبان - وما بها اختيار- أمر أمريك، فباءت بإثم عاجل، وبؤت معها بشر من إثمها، فحطمكما خالد تحطيمًا، وهو يسخر منك ومنها:

يا عز كفرانك، لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

ثم رجع خالد رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يحمل إليه بشرى الظفر باجتثاث جذر من جذور الوثنية المهينة.

الفصل الخامس

خالد في بني جذيمة

خالد في قصة بني جذيمة ـ روايات القصة ـ الرواية الأولى ـ مناقشة في هذه الرواية ـ رواية أخرى ـ أغرب روايات القصة ـ نقد وتمحيص ـ أمثل الروايات ـ مناقشة وترجيح ـ تأويل في رواية ـ استئناس .

خالد في قصة بني جذيمة

كان فتح مكة من أقوى الحوافز على انتشار الدعوة الإسلامية في قبائل العرب بين أودية الجزيرة ووهادها، فقد حمل أبناؤها من فتيان قريش المشعل في أيمانهم، وقبضوا على السيف بشمائلهم، وانساحوا في الأرض داعين إلى الله تعالى بالحجة النيرة والبرهان المبين، فمن قبل ورضي فهو أخو المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم؛ ومن أبى واستكبر ووقف أمام الحق منحوه السيف لينقذوا الحياة من شره المستطير.

روايات القصة

لم يكد خالد رضي الله عنه يفرغ من أمر «العزى» حتى أرسله النبي ﷺ أمير سرية من ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى بني جذيمة بأسفل مكة من ناحية يلملم، فسار إليهم حتى نزل بأصحابه على ماء لهم يقال له «الغميصاء» وكان النبي ﷺ قد أمره أن لا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً، أو سمع أذاناً.

وهنا تختلف روايات التاريخ في شأن هذه الوقعة مبتدأ وخبراً كعهدنا بها في كبريات الحوادث، وبحسب هذا الاختلاف يختلف تصوير موقف خالد في هذه القصة، وهذا الاختلاف من أقوى الأسباب التي تحملنا على التوقف في التسليم إلى هذه الروايات المتضاربة وعلى أن نعمد إلى الموازنة بينها، واستنباط ما نطمئن إليه من الرأي والمذهب.

الرواية الأولى

يقول صاحب «الخميس» نقلاً عن الاكتفاء: «لما فتح الله على رسوله مكة بعث السرايا فيما حولها يدعو إلى الله تعالى، ولم يأمر بقتال، وكان ممن

بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب، فوطئوا بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانه، فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا، فقال رجل منهم يقال له جحدم: ويلكم يا بني جذيمة!! إنه خالد، ووالله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق، ووالله لا أضع سلاحي أبداً. فأخذه رجال من قومه، وقالوا: يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب، وأمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح إجابة لقول خالد.

«فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل منهم؛ وقال لهم جحدم، حين وضعوا سلاحهم ورأى ما يصنع بهم؛ يا بني جذيمة ضاع الضرب، قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه!

«فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء؟ ثم قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» وقال رسول الله ﷺ لرجل انفلت منهم، فأتاه بالخبر، هل أنكر عليه أحد؟ فقال: نعم، قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة، فنهمه[1] خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل آخر مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتها، فقال عمر بن الخطاب: أما الأول يا رسول الله فابني عبدالله، وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة».

مناقشة هذه الرواية

فهذه الرواية تذكر أن القوم استقبلوا خالداً في أهبة الحرب آخذي سلاحهم، مستعدين للقتال، ففاوضهم خالد في وضع السلاح وأنبأهم أن الناس قد أسلموا، فأبى عليه رجل منهم، وحرض قومه على الإباء، فلم يسمعوا له، ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه مع أسلحتهم، فأمر خالد بهم فأوثقوا، وقتل من قتل منهم، وخالفه في ذلك عبدالله بن عمر، وسالم مولى أبي حذيفة، ولما بلغ الحادث النبي ﷺ برىء إلى الله مما صنع خالد بهؤلاء القوم.

ويرى الذين يأخذون بهذه الرواية أن حمل السلاح في وجه المسلمين عذر قوي لخالد فيما صنع بالقوم، ولا سيما أن نزع السلاح منهم كان بعد

(١) نهمه: زجره

مفاوضة وتخويف، فهو أقرب إلى احتمال التقية والاستتار. ولكن المعترضين لا يقبلون هذا الاعتذار، ويسندون مذهبهم بإنكار عبدالله بن عمر، وسالم مولى أبي حذيفة، وهما من خيار المهاجرين وأجلائهم علمًا وسابقة، وببراءة النبي ﷺ مما صنع خالد، ويعضدونه بما روي أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت كأني لقمت لقمة من حيس فالتذذت طعمها فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها فأدخل علي يده فانتزعه» فقال أبو بكر: «هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب، ويكون في بعضها اعتراض، فتبعث علياً، فيسهله».

ولما كان من خالد في بني جذيمة ما كان، دعا رسول الله ﷺ عليّ ابن أبي طالب فقال له: «يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك» فخرج علي حتى جاءهم، ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء، وما أصيب من الأموال، حتى إنه ليدي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم عليّ حين فرغ: أبقي دم أو مال لم يود لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبر الخبر، فقال له: أصبت، وأحسنت.

والعاذرون لخالد رضي الله عنه يردون على ذلك بأنه كان فيمن وافق خالداً ولم ينكر عليه من جلة المهاجرين والأنصار كثرة ممن لا يقل فقهاً في الدين وتقديراً للحوادث وشجاعة نفس عن عبدالله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة، وبعيد أشد البعد أن يزعم زاعم أن سائر من كان في هذه السرية من علماءالصحابة قد رأى أنكر ما ينكر في الدين من قتل قوم مؤمنين وسفك دمائهم، ثم يسكت فلا يغير على خالد، وإنما الذي نفهمه أن إنكار عبدالله ابن عمر وصاحبه سالم كان بضرب من التأويل، قد تكون العجلة من جهة خالد وازرته، ومن هنا نفهم براءة النبي ﷺ إلى الله مما صنع خالد في هذه الواقعة حين بلغه الخبر، وحاشا أن تكون براءته من أجل أن قوماً مؤمنين اعتدى عليهم قائد إحدى سراياه فقتلهم مراغمة، ثم لا يقتص منه، ولا يعزله عن الإمارة!! وأما المال الذي دفه إلى بني جذيمة على يد علي ابن

أبي طالب فليس فيه رائحة القصاص، وإنما هو من قبيل الترضية والاحتياط وتعويض من بقي منهم مؤمناً.

رواية أخرى

يقول الواقدي في المغازي: «ثم مضى خالد بن الوليد إلى حي من كنانة بالأبرق يقال له بنو جذيمة، فوجدهم يصلون صلاة الغداة فغشيهم خالد، فقال: ما أنتم؟ قالوا: نحن مسلمون، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، قال فمتى أسلمتم إن كنتم صادقين؟ قالوا الليلة ـ حين بلغنا أن رسول الله ﷺ كف يده عمن ألقى السلاح، وقال: لا إله إلا الله، فقلناها وصلينا».

هذه الرواية صريحة في أن خالداً غشي القوم وهم يصلون صلاة الغداة، وأنهم شهدوا شهادة الحق بين يديه، وأن إسلامهم كان ليلة غشيهم، وأنهم لم يحملوا السلاح في وجه سرية خالد، وكل ذلك يدل على أنه لا يجوز قتل أحد منهم بغير حق موجب، فكيف قتل خالد من قتل منهم؟، قد يجد المتأمل في رواية الواقدي احتمال التقية بهذا الإسلام الذي أحدثوه ليلة غشيهم المسلمون قائماً، وخالد قد أبدى شكاً مريباً في إسلامهم بقوله: فمتى أسلمتم إن كنتم صادقين! ومن أين لنا أن الذين قتلهم خالد من القوم هم الذين كانوا يصلون صلاة الغداة، وهم الذين أسلموا وشهدوا بين يديه شهادة الحق؟

أغرب روايات القصة

وأعجب ما روى التاريخ في شأن خالد رضي الله عنه وبني جذيمة ما ذكره ابن هشام في سيرته، وعرض له الطبري وابن الأثير عرضاً عابراً، قال ابن هشام: «وقد كان بين خالد وبين عبدالرحمن بن عوف كلام في ذلك؛ فقال له عبدالرحمن بن عوف: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، فقال خالد: إنما ثأرت بأبيك، فقال عبدالرحمن: كذبت قد قتلت قاتل أبي، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة، حتى كان بينهما شر، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته؛ قال ابن هشام: وكان الفاكه بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وعوف بن عبد عوف ابن عبدالحارث بن زهرة، وعفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس قد

خرجوا تجاراً إلى اليمن، ومع عفان ابنه عثمان، ومع عوف ابنه عبد الرحمن، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بني جذيمة بن عامر كان هلك باليمن إلى ورثته، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام، ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت فأبوا عليه، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه، وقاتلوه، فقتل عوف بن عبد عوف، والفاكه بن المغيرة، ونجا عفان بن أبي العاص؛ وابنه عثمان، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة، ومال عوف بن عبد عوف، فانطلقوا به وقتل عبد الرحمن بن عوف خالد بن هشام قاتل أبيه، فهمَّت قريش بغزو بني جذيمة، فقالت بنو جذيمة ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منا؛ إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان قبلنا من دم أو مال، فقبلت قريش ووضعوا الحرب».

نقد وتمحيص

فهذه الرواية أو الأقصوصة ترى أن خالد بن الوليد رسول رسول الله ﷺ، وأمير سريته للدعوة إلى الإسلام، وقائد جند الله، صنع ما صنع في بني جذيمة من قتل وسفك دماء شفاء لحزازة نفسه وهواه، وإجابة لداعي الحمية الجاهلية في الأخذ بثأر عمه الفاكه بن المغيرة ـ على ما تزعمه الرواية على لسان عبد الرحمن بن عوف ـ أو الأخذ بثأر عوف بن عبد عوف، والد عبدالرحمن ـ على ما تزعمه الرواية إقراراً لا التواء فيه على لسان خالد بن الوليد نفسه ـ فيكون خالد حينئذ قد قتل قوماً ذوي عدد من المسلمين معصومي الدم برجل كافر قتل في جاهلية عمياء.

وتزعم الرواية أن عبد الرحمن بن عوف قد أنكر على خالد صنيعه هذا الذي تعدى به حدود الإسلام، وعمل فيه بعمل الجاهلية، وجرى بينهما كلام في ذلك ارتفع إلى حد الخصومة واللجاج حتى بلغ أمره رسول الله ﷺ، فلم يكن منه إلا زجر خالد عن مخاصمة عبدالرحمن، وبيان فضل عبدالرحمن.

وأما أصل القضية وجانبها الأهم منها، وتلك الدماء المعصومة المهدرة المسفوكة بغير ذنب إلا أمر الجاهلية وحميتها، فلم يجر لها ذكر في هذا الموضع من كلام النبي ﷺ على ما تزعمه هذه الرواية العجيبة!!

وقد يتشبث بعض الباحثين في تصحيح هذه الرواية بما رواه ابن هشام

وغيره، أن النبي ﷺ لما بلغه ما صنع خالد في بني جذيمة دعا علياً كرم الله وجهه، فقال له: «يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم؛ **فانظر** في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك»، فخرج علي حتى جاء ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه **ليدي** ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه، بقيت معه بقية من المال فقال لهم علي رضي الله عنه حين فرغ منهم: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم؟ فقالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم، ولا تعلمون، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال: أصبت وأحسنت، ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائمًا شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات.

فهذه الرواية تصرح بأن النبي ﷺ أمر علياً بأن يجعل أمر الجاهلية تحت قدميه، وليس في القصة أمر جاهلية سوى الأخذ بالثأر على عادة العرب قبل الإسلام في تعدي الحدود وتجاوز العدل، وهذا هو الذي عابه عبدالرحمن ابن عوف على خالد في زعم الرواية.

* * *

إن الباحث ليقف من هذه الرواية التي تداولتها أكثر كتب التاريخ والسير موقف الشاك فيها شكاً يقودها إلى الرفض والتزييف، حتى يتبين وجه جديد يدفع البحث إلى وجهتها البعيدة، وليس لها في العقل المسلم وجه من التأويل.

وإنما نبني هذا الشك ـ وإن شئت فقل هذا الرفض ـ على دعائم استقامت في نظرنا فلم تجد ما **يدفعها**:

أولاً ـ إن هذا الحادث الجاهلي ـ على فرض صحته ـ تسجل الرواية نفسها أنه كان قد سوي فيما بين قريش وبني جذيمة طبقاً لما تعارفوه من قواعدهم الجاهلية، ورضيت قريش هذه التسوية رضاء العزيز القادر، وهذا حكم في قوانين الجاهلية لا يقبل النقض، والعرب قاطبة ترى نقضه شيناً من الشين، يعير به صانعه، فلو سلمنا بما في الرواية لكان خالد بن الوليد سليل

قريش أشد قبائل العرب تمسكاً بقواعد العرب ومحافظة على قوانينها ورضاء بعرفها، من أكثر الناس استهتاراً بتلك القواعد، واستهانة بتلك القوانين وذلك العرف، ولكان مثلاً مضروباً في الغدر ونكث العهود، وهذا أبعد ما يكون من أخلاق الأبطال وفرسان الحروب، وخالد بن الوليد في طليعتهم في الجاهلية والإسلام.

ثانياً: هذه الرواية تزعم أن عبدالرحمن بن عوف قد أنكر على خالد أشد الإنكار حتى لج بينهما فرفع إلى النبي ﷺ، ونحن نتساءل متى كان هذا الإنكار؟! أكان قبل قفول السرية إلى المدينة؟ فذلك مدفوع برواية المتفلت من بني جذيمة إلى المدينة ليستصرخ النبي ﷺ لقومه كما تزعم الرواية، وقد سأله النبي ﷺ بمحضر عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة: هل أنكر عليه أحد؟ فقال: نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فزجره خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتهما، فقال عمر: أما الأول فابني عبدالله، وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة، ولم يذكر معهما مطلقاً عبد الرحمن ابن عوف، وهو أجلّ منهما، وقد كان إنكاره الذي زعمته الرواية أشد من انكار ابن عمر وسالم.

أم كان هذا الإنكار من عبد الرحمن بن عوف بعد قفول السرية إلى المدينة؟ فإن زعم هذا زاعم فلا بد من التساؤل، لماذا أخر عبدالرحمن إنكاره على خالد حتى رجع إلى المدينة، وقد كان في جند خالد في هذه السرية؟ أفيستطيع أحد عارف بأخلاق عبد الرحمن بن عوف ومكانته في الإسلام أن يقول: إن ذلك قد كان منه جبناً عن خالد وخشية منه، وهو الذي وضع عمر بن الخطاب في يده أمر الخلافة من بعده، وجعله رأس رهط الشورى؟!

وإن كان لسبب آخر فلا بد من بيانه حتى يدار النظر في قيمته من الحق كما يقول علماؤنا.

ثالثاً: إن هذه الرواية لا تحتمل إلا فهمًا واحداً لا يقبل التأويل، ذلك أن خالداً ـ بزعم الرواية ـ يكون قد تعمد مخالفة أمر النبي ﷺ لسبب ينكره الإسلام أشد الإنكار لأنه بعثه داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً، وأنه قتل قوماً أقروا له بالإسلام، وشهدوا بين يديه شهادة الحق، ورآهم يصلون

ـ والصلاة أعظم شعائر الدين ـ برجل كافر قتل في الجاهلية، وصولح قومه على قتله، فكان أقل ما يستحقه خالد على فعله هذا أن يقتص منه النبي ﷺ، أو أن ينكل به زجراً لمن تحدثه نفسه بخرق قوانين الشريعة والعبث بها. وهل يتوهم مسلم، لا بل هل يتوهم إنسان يقدر النبوة حق قدرها أن النبي ﷺ يداهن في حد من حدود الله؟!

والروايات كلها مجمعة على أنه ﷺ لم يذكر لخالد حين رآه شيئاً من عتاب، ولم يزل خالد في مكانه من قلب رسول الله، ولم يعدل به أحداً من أصحابه فيما حزبه، وبقي على مكانه من الإمارة لم يعزل عنها مدة حياة رسول الله ﷺ.

رابعاً: أية قيمة تبقى لإسلام خالد إن صحت هذه الرواية؟ فهي تجعله رجلاً قد اتخذ من الإسلام ستاراً لإشباع شهوة جاهلية. لا تقيم للإسلام وزناً، ولا ترعى لأصوله عهداً، ولم يزنّ خالد بن الوليد في دينه بريبة تنزل به إلى هذا الدرك السحيق منذ أسلم وجهه لله تعالى، بل المتواتر المتضافر أن خالداً ظلت مكانته عند رسول الله هي مكانته التي أحله الله من قلبه، وظل به حفياً يقرظه ويثني عليه، وسيأتيك نبؤه في غزوة حنين، ويستحيل على مقام النبوة أن يرفع مكانة رجل قد وقع منه بعض ما تزعم هذه الرواية الزائفة أنه وقع من خالد بن الوليد إلى حيث خالد في الإسلام عالي الشأن رفيع العماد.

خامساً: إن الكلمة التي جاءت في رواية بعث علي رضي الله عنه لتلافي خطأ خالد، وهي «واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك» ليست بواجبة الحمل على ما زعمته الرواية من أمر الفاكه بن المغيرة وثأر خالد له، بل هي قريبة الحمل على رسم الخطة التي يسير عليها في تلافي ما وقع من الخطأ وترضية القوم، وأنها خطة يجب أن تكون إسلامية خالصة، يحمل عليها بنو جذيمة، مطرحين أمر الجاهلية من القتل الظالم وتعدد الديات ومضاعفاتها، وأن يرضوا بأمر الإسلام في أمرهم، ولا سيما والناس قريبو عهد بجاهلية جهلاء، ومن ثم عمد علي إلى ترضيتهم، وتطييب خواطرهم بما زاد في إعطائهم من المال تأليفاً لقلوبهم، وتثبيتاً لأفئدتهم، وقد استحسن منه النبي ﷺ فصوبه، وحسن فعله.

ولو صحت هذه الرواية الباطلة فكيف يمكن فهم موقف النبي ﷺ من خالد، وهو يصرح ـ في زعم الرواية ـ عند تقاوله مع عبد الرحمن بن عوف أنه صنع ما صنع لثأر الجاهلية؟ فهل يكفي في هذا الموقف أن يبرأ رسول الله إلى الله من صنيع خالد؟ وهذا أقصى ما علمناه جاء في صدد الإنكار من النبي ﷺ؟ وهل كان هذا الموقف ـ على ما تذكره الرواية ـ مما تصححه الدية وتوزيع الأموال؟!!

وبعد فهذا عرض وتحليل إجمالي لروايات دارت عليها القصة في كتب السيرة والتاريخ، ولكنا لا نجد في أنفسنا اطمئناناً إليها، وحسبنا أننا وجهنا البحث فيها وجهة الكشف عن الأثر الذي تتركه أمثال هذه الروايات في إبعاد الحقيقة عن قلم الباحث إذا استسلم لها، وليس يكفي أن توجد الرواية أو الأقصوصة في كتاب مشهور من كتب الأولين، بل يجب البحث عن قيمة ذلك الكتاب في تمحيص مروياته، ويجب تعرف مقدار صلة تلك الرواية بمعالم الشخصية التي تتحدث الرواية عنها.

وهذا نهجنا في كتابة حياة من نكتب حياتهم من رجالات الإسلام، نعمد إلى أن نرسم الخطوط الأولى لتلك الشخصية من ألوانها الثابتة الأصلية، ثم نجعل ذلك أساساً للبحث. وقد عرفنا أن شخصية خالد رضي الله عنه كما عرفها التاريخ الصحيح أبعد ما تكون عن هذه المداورات الغادرة التي ترويها تلك الأقاصيص.

أما وجه القضية في هذه القصة فستراه واضحاً أشد الوضوح فيما سنسوقه إليك بعد من رواية البخاري عن عبدالله بن عمر، وهو شاهد عيان، لا يصح العدول عن روايته في البخاري إلى رواية غيره في كتاب غير كتب الصحيح، وسترى عذر خالد قائمًا على حميته الإسلامية التي دافع عنها النبي ﷺ بقوله: «ولا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله، سله على المشركين».

* * *

أمثل الروايات

روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا،

فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فجعل خالد يقتل ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يده، فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد؛ مرتين».

مناقشة وترجيح

هذه هي الرواية التي نعتمد عليها في فهم هذه القصة، لأنها:

أولاً: وردت في كتاب أجمعت الأمة على اعتماده في أخذ دينها وفروع شريعتها، لما تواتر عن مؤلفه العظيم من الدقة في فحص حال الرواة، واختيار أفضلهم حفظاً وجودة أداء وحسن تلق، وبعداً عن مزالق العصبية المذهبية أو الطائفية، وأبلغهم في تحري الصدق والخشية لله تعالى.

ثانياً: رواية مستقيمة النسج، لا اضطراب فيها، لم تدخل حادثة في حادثة، ولا مزجت حديثاً بحديث، فهي تحكي الواقعة منذ بدأت إلى حين انتهائها في أسلوب موجز محكم، يؤدي لباب الغرض في منأى عن الخيال وتلاعبه.

ثالثاً: رواية شاهد معاين، اشتهر بالدقة والتحري، وكان زعيم المنكرين على أمير السرية صنيعه، واحتفظ بأسيره فلم يقتله، وأمر أصحابه فصنعوا مثل صنيعه، فأحر به أن يحدث النبي ﷺ بما رأته عيناه ووعته أذناه.

هذه الرواية الصحيحة تروي أن خالداً رضي الله عنه دعا بني جذيمة إلى الإسلام كما أمر رسول الله ﷺ، وتذكر هذه الرواية أن القوم لما دعاهم أمير السرية إلى الإسلام لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، وهذا صريح في أن خالداً لم يبدأ القوم بقتال، ولا أظهر لهم نية في القتال، بل دعاهم إلى الإسلام كما أمره النبي ﷺ، وصريح في أنهم لم يحسنوا الإخبار عن إسلامهم أي دخولهم في الإسلام وإيمانهم بالله وبرسوله! ففهم عبد الله بن عمر ومن كان معه من أصحابه أن القوم مسلمون بعقيدتهم، ولم يبال العنوان عن هذه العقيدة أن يكون صريح كلمة التوحيد أو ما يؤدي إلى فهم معناها؛ وعذر القوم بجهلهم وقبل منهم في حقن دمائهم قولهم: صبأنا.

وفهم أمير المسلمين خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار أن ذلك

كان من القوم تقية، واستبعد أن لا يحسنوا التعبير عن إسلامهم بعنوانه الذي ارتضاه الله للناس، وهو كلمة التوحيد التي أمر النبي ﷺ أن يقاتل الناس حتى يقولوها، فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم بها، فلم يكتف خالد من القوم بما اكتفى به عمر، وخالد أمير الناس، ولم يرضه عدولهم عن عنوان الإسلام إلى هذه الكلمة، ووجد منهم إصراراً، قال بدر الدين العيني في شرح البخاري: «وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم صبأ فمن ذلك فهم ابن عمر أنهم أرادوا الإسلام حقيقة، وأما خالد فإنه لم يكتف بذلك حتى يصرحوا بالإسلام».

ويرشح عذر خالد رضي الله عنه في عدم اكتفائه بقولهم «صبأنا» أن هذه الكلمة كانت عندهم كالتعيير والسب، وكان كثير من المسلمين إذا قيل له: صبأت، أنف من قبولها. وهذا خالد بن الوليد نفسه حين خرج مسلماً يأبى أن يقول له عكرمة بن أبي جهل «قد صبوت يا خالد» فيقول «لم أصب ولكني أسلمت» وذلك عمر بن الخطاب في قصة إسلامه يصرخ به جميل ابن معمر الجمحي في أندية قريش «ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ» وعمر خلفه يقول «كذبت ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إله الله وأن محمداً عبده ورسوله» وهذا ثمالة بن أثال الحنفي، وقد أخذته خيل رسول الله ﷺ وهو يريد العمرة فأسلم وبشره النبي ﷺ وأمره بالعمرة، فقال له قائل بمكة «صبوت يا ثمالة؟» قال: لا ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ.

أفلا يعذر خالد رضي الله عنه إذا لم يرض من القوم في التعبير عن إسلامهم وإعلانه قولهم «صبأنا» وهو نفسه مع أولئك الأجلة ما كانوا على إسلامهم أن يقال فيه صبوا؟ بلى، إن له لعذراً واضحاً؛ وقد عذره النبي ﷺ ودافع عنه بقوله: «لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله سله الله على المشركين».

وليست براءة النبي ﷺ مما صنع خالد إلا بياناً لوجه الخطأ في التأويل، وعدم درء الحدود بالشبهات، ولا شك أن قولهم «صبأنا» إن لم يكن إسلاماً صريحاً فإنه شبهة قوية تدرأ حد القتل حتى يتبين الأمر، فالخطأ الذي كانت منه البراءة هو الإسراع وعدم التلبث، ولذلك لم يعاتبه النبي ﷺ مواجهة، ولم يعزله عن الإمارة وقيادة الجنود، بل أقره على مكانه وفضله.

وقد عذر أئمة الإسلام بطل الإسلام اقتداء بالنبي ﷺ، وأقاموا له صوى الحق في هذه الحادثة. قال الخطابي: يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولاً، وإنما نقم رسول الله ﷺ على خالد موضع العجلة وترك التثبيت في أمرهم» وقال الداودي: «لم ير ﷺ القود في ذلك لأنه متأول» وقال ابن تيمية: «فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا صبأنا، فلم يقبل ذلك منه؛ وقال إن هذا ليس إسلام، فقتلهم، ولم يكن خالد معانداً للنبي ﷺ، بل كان مطيعاً له، ولكن لم يكن في الفقه والدين بمنزلة غيره، فخفي عليه حكم هذه القضية. إلى أن قال ابن تيمية: فإن خالداً لم يتعمد خيانة النبي ﷺ ولا مخالفة أمره ولا قتل من هو مسلم معصوم عنده، ولكنه أخطأ كما أخطأ أسامة بن زيد في الذي قتله بعد أن قال لا إله إلا الله، وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذي قال أنا مسلم».

ولعل تأول خالد في حادثة بني جذيمة أقرب وجهاً من تأول أسامة في الرجل الذي قتله بعد اعتصامه بكلمة التوحيد صريحة. قال ابن سعد في الطبقات: وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد الرجل الذي قال لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «ألا شققت عن قلبه؛ فتعلم صادق هو أم كاذب؟!!» وقال الطبري: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبدالله الكلبي إلى أرض بني مرة، فأصاب بها مرداس بن نهيك حليفاً لهم من الحرقة من جهينة، قتله أسامة بن زيد ورجل من الأنصار. قال أسامة: لما غشيناه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فلم ننزع عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر. فقال: يا أسامة من لك بلا إله إلا الله؟!

وفي معالم التنزيل عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ الآية في رجل من بني مرة بن عوف يقال له «نهيك بن مرداس»، وكان من أهل فدك، وكان مسلمًا لم يسلم من قومه غيره، فسمعوا بأن سرية لرسول الله ﷺ تريدهم وكان على السرية غالب بن فضالة الليثي، فهربوا، وأقام الرجل لأنه كان على دين الإسلام، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي ﷺ، فألجأ غنمه إلى حضن الجبل، فلما تلاحقت الخيل

سمعهم يكبرون، فعرف أنهم من أصحاب رسول الله ﷺ فكبر ونزل وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم. فقتله أسامة واستاق غنمه، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فوجد رسول الله ﷺ وجداً شديداً، وكان قبل ذلك قد سبق ذلك الخبر؛ فقال رسول الله ﷺ: أقتلتموه إرادة ما معه؟! ثم قرأ هذه الآية على أسامة بن زيد، فقال: يا رسول الله استغفر لي، فقال: فكيف بلا إله إلا الله؟ ثلاث مرات، قال أسامة فما زال رسول الله ﷺ يكررها ويعيدها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم إن رسول الله ﷺ استغفر لي بعد ثلاث مرات وقال: أعتق رقبة.

* * *

قبل رسول الله ﷺ تأول أسامة واستغفر له ولم يغلظ عليه كما غلظ على محلم بن جثامة الذي قتل صاحب الغنيمة بعد أن حيا بتحية الإسلام وقال: أنا مسلم، للعلم بما كان بين نيتهما من فرق عظيم، فأسامة رضي الله عنه ظن الكلمة تقية بدليل قوله كما في بعض الروايات، إجابة عن قول رسول الله ﷺ: أقتلته بعد أن قال لا إلَه إلا الله! فقال أسامة: يا رسول الله كان متعوذاً بها من السيف. فكان قتله اجتهاد مجاهد في سبيل الله.

أما محلم فقد ابتغى بقتل الرجل عرض الحياة الدنيا، وطمع فيما كان معه من متاع قليل، إلى ما انطوت عليه جوانحه من قصد الثأر وشفاء الإحن الجاهلية، لذلك كان غضب النبي ﷺ على محلم متميزاً بلون خاص، قرنه بالدعاء عليه، فمات بعد سبع فدفنوه فلفظته الأرض مراراً فألقوه في بعض الشعاب، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الأرض لتقبل من هو شر منه» وفي رواية عن الحسن أنه قال: «أما إنها تحبس من هو شر منه، ولكن وعظ القوم أن لا يعودوا».

قال القرطبي: فإن قيل فتغليظ النبي ﷺ على محلم ونبذه من قبره كيف مخرجه؟ قلنا: لأنه علم من نيته أنه لم يبال بإسلامه فقتله متعمداً لأجل الحنة[1] التي كانت بينهما في الجاهلية.

وها هنا نكتة تشريعية لطيفة، وهي عدم القصاص من محلم مع العلم

(١) الحنة: البغضاء.

بسوء نيته، تطبيقاً لقواعد الشريعة في إقامة الحدود على ظواهر البينات حتى لا تسفك الدماء وتتلف الأنفس بالشبه، وفي حادثة محلم احتمال التأول قائم في الظاهر كما كان قائمًا في حادث أسامة وحادث خالد مع عدم الشك في خلوص نيتهما وطهارة قصدهما، وقد روي أن النبي ﷺ رد على أهل صاحب محلم غنيمته وحمل إليهم ديته تأليفاً لهم كما صنع مع بني جذيمة إرضاء لمن أقام على الإسلام منهم، وبقي خالد وأسامة على مكانهما وفضلهما.

* * *

والمتأمل في هذه القصص يرى أن وقفة النبي ﷺ مع أسامة كانت أشد وأعنف حتى تمنى أسامة أن لو لم يكن أسلم إلا يومئذ. ولم يكن له ﷺ موقف مع خالد في مواجهته مع أن حادث خالد كان أعظم لأن قتلاه على بعض الروايات يربون على السبعين، وقتيل أسامة رجل واحد، وقد يكون في قبول عبد الله بن عمر وأصحابه أن يأخذوا أسرى من بني جذيمة ـ كما صرحت به رواية البخاري ـ وجه وجيه في العذر لخالد، وأن فضلهم عليه كان في التلبث بأسراهم وأنه هو تعجل فأمر بالقتل وقتل من قتل، وبعيد جداً أن يكون ابن عمر وأصحابه جازمين بإسلام القوم ثم يقبلونهم أسرى في أيديهم؟!

رواية وتأويلها

بقيت في القصة رواية جاءت عن ابن اسحاق، وذكرها المؤرخون وأصحاب السير، وهي في الطبري وابن هشام والدياربكري ، وهم يذكرونها في معرض الاعتذار عن خالد رضي الله عنه، قال ابن اسحاق: وقد قال بعض من يعذر خالداً إنه قال: ما قتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي، وقال إن رسول الله ﷺ أمر أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام.

وليس هذا تنازلاً من خالد عن إمارته، وإنما تأويل ذلك ـ إذا صحت الرواية ـ أن خالداً دعا القوم إلى الإسلام ، فلم يجد عندهم صريحه، بل قالوا كلمة محتملة، فكان من رأي عبد الله بن حذافة قتالهم حتى يسلموا إسلاماً لا تلجلج فيه، وفهم أن النبي ﷺ أمر بالكف عن قتالهم إذا أجابوا إلى الإسلام صريحاً، فإن امتنعوا قوتلوا، وهم قد امتنعوا في رأي ابن حذافة فحق ـ في نظره ـ قتالهم وقتلهم على الإسلام، وقد رفع هذا الرأي إلى أميره فوجد لديه موافقة وقبولاً، فلما عوتب خالد اعتذر بأنه لم ينفرد برأيه، وإنما

سلك مسلك الإسلام في الشورى فيما لم يكن فيه أمر صريح وقد وافقه على رأيه واجتهاده كثير من سادات الصحابة من المهاجرين والأنصار، لعل عبد الله ابن حذافة كان أشدهم تمسكاً وأجهرهم صوتاً في الأخذ به فأسند إليه الأمر بالقتال.

استئناس

ومما يستأنس[1] به في الاعتذار عن خالد رضي الله عنه ما بسطه أبو الفرج في كتاب الأغاني، وعرض له الطبري وابن الأثير وابن هشام وسواهم، مما يدل على أن القوم لم تخالط بشاشة الإسلام قلوبهم، أو في الأقل، قلوب جميعهم، بل كان منهم من أقام على كفره لم يفارقه، ولعل في هؤلاء كانت غمرة الوقعة من خالد وأصحابه.

قال ابن أبي حدرد الأسلمي: كنت يومئذ في خيل ابن الوليد فأثرنا في إثر ظعن مصعدة، يسوق بهن فتية، فقال: أدركوا أولئك فخرجنا في إثرهم حتى أدركناهم، ثم مضوا ووقف لنا غلام شاب على الطريق، فلما انتهينا إليه جعل يقاتلنا ويقول:

ارفعن أطاف الذيول وارتعن   مشي حييات كأن لم تفزعن
إن تمنع اليوم النساء تمنعن

فقاتلناه طويلاً فقتلناه، ومضينا حتى لحقنا الظعن، فخرج إلينا غلام كأنه الأول فجعل يقاتلنا ويقول:ـ

أقسم ما إن خادر ذو لبده   يروح بين أثلة ووهده
يفرس شبان الرجال وحده   بأصدق الغداة مني نجده

فقاتلناه، حتى قتلناه، وأدركنا الظعن؛ فأخذناهن، فإذا فيهن غلام وضيء الوجه به صفرة كالمنهوك فربطناه برمة وقدمناه لنقتله، فقال لنا: هل لكم في خير؟ قلنا: ما هو؟ قال: تدركون بي الظعن في أسفل الوادي ثم تقتلوني، قلنا نفعل، فعارضنا الظعن، فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: اسلمي حبيش بعد فقد العيش، فأقبلت إليه جارية بيضاء

(١) في تعبيرنا بالاستئناس ما يشعر القارىء بعدم تعويلنا على رواية أبي الفرج وما فيها من تفاصيل تنم على أنها من مسارات الأدباء المتفكهين، ويكفي منها القدر الذي تتفق فيه مع رواية النسائي في مصنفه وهو من كتب السنة المعتبرة.

حسانة وقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء، فقال: سلام عليك دهراً، وإن بقيت عصراً، قالت: وأنت سلام عليك عشراً وشفعاً تترى وثلاثاً وتراً، فقال:

إن يقتلوني يا حبيش فلم يدع هواك لهم مني سوى غلة الصدر
فأنت التي أخليت لحمي من دمي وعظمي وأسبلت الدموع على نحري

فقالت تجيبه:

ونحن بكينا من فراقك مرة وأخرى وواسيناك في العسر واليسر
وأنت فلم تبعد فنعم فتى الهوى جميل العفاف والمودة في الستر

فقال لها:

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم بحلية أو ألفيتكم بالخوافق
ألم يك حق أن ينول عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لي أن قلت إذ أهلنا معا أثيبي بود قبل إحدى الصفائق
أثيبي بود قبل أن تشحط النوى وينأى الخليط بالحبيب المفارق
فإني لا سراً لدي أضعته ولا راق عيني بعد وجهك رائق
على أن ما ناب العشيرة شاغل ولا ذكر إلا أن يكون لوامق

قال ابن أبي حدرد: ثم انصرفت به فضربت عنقه، فجاءت المرأة إليه، فلم تزل تشمه وتقبله حتى ماتت، فروى أنهم لما قدموا إلى رسول الله ﷺ خبروه الخبر، فقال: أما كان فيكم رجل رحيم؟!

فهؤلاء فتيان في ظعن يسوقون بهن وهم يرون الموت يلاحظهم فلا يذكرون كلمة الإسلام لينجوا بها من القتل، بل إن أحدهم ليرضى بالموت قرير العين بعد حديث في الهوى والهيام.

وقد خرج النسائي في مصنفه هذه القصة عن ابن عباس وقال: إن النبي ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال: إني لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم، فاذا امرأة طويلة أدماء، فقال: أسلمي حبيش، قبل فقد العيش، وأنشد أبياتاً فقالت: نعم فديتك!!

فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه، فشهقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت!!

فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال: أما كان فيكم رجل رحيم؟

الفصل السادس

خالد في بعوث شتى

خالد في غزوة حنين ـ انسحاب لا يخدش البطولة ـ شجاعة النبي وأثرها ـ خالد في محاصرة ثقيف ـ بعث خالد للتثبت من بني المصطلق ـ سرية خالد إلى أكيدر ـ بعث خالد لهدم اللات ـ بعث خالد إلى نجران داعياً ومعلمًا ـ كتابه إلى رسول الله مبشراً ـ كتاب رسول الله إليه يستقدمه بوفد بني الحارث ـ حنين خالد إلى الجهاد ـ رواية أخرى في سرية نجران ـ توفيق بين الروايتين.

خالد في غزوة حنين

عذر النبي ﷺ خالداً رضي الله عنه في حادث بني جذيمة وقبل تأوله، وكان أعظم مظهر لذلك إبقاؤه على الإمارة حتى في الغزوات التي يكون فيها رسول الله ﷺ القائد الأعلى للجيش ، فهو لم يكد يرجع من بني جذيمة على رأس كتيبته حتى كان النبي ﷺ قد تجهز لهوازن لما بلغه تجمعهم لحربه بقيادة زعيمهم مالك بـن عوف النصري، وخرج إليهم المسلمون في جموع كثيفة من جمهور المهاجرين والأنصار، ومسلمة الفتح وطوائف من الأعراب رغبوا في الغنيمة، حتى أعجبت المسلمين كثرتهم فقال قائلهم: لن نغلب اليوم من قلة، ولكن الله تعالى الذي تولى تربية المسلمين وإعدادهم لحمل رسالته إلى الخلق كافة لم يرض لهم أن يكون اعتمادهم على كثرة العدد وكثافة الجند، فامتحنهم هنا لهذه الآفة النفسية، وكانت تلك الكلمة الغارة مفتاح المحنة، كما امتحنهم في غزوة أحد لمخالفة أمر القائد الأعلى، وكان لهم من كل ذلك دروس في التربية والنظام جعلتهم يتخذون من قوة الإيمان عوضاً عن كثرة الجند وأهبة العدة.

روى أبو جعفر الطبري من طريق ابن اسحاق عن جابر بن عبدالله قال: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط، إنما انحدرنا فيه انحداراً، وذلك في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، وانهزم الناس أجمعون، فانشمروا لا يلوي أحد على أحد.

وثبت رسول الله ﷺ في نفر قليل معه من أهل بيته وخاصة المهاجرين والأنصار، وتمت المحنة وكان الابتلاء فيها شديداً محصت به قلوب المؤمنين، ثم تداركهم الله برحمته، وعاد إليهم نصره وتأييده، فإن النبي ﷺ حين رأى من الناس ما رأى قال لعمه العباس ـ وكان العباس صيّتاً جهيراً ـ: اصرخ في الناس، يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة، فانعطفوا يقولون: لبيك لبيك، فيذهب الرجل منهم ليثني بعيره فلا يقدر عليه، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ثم يقتحم عن بعير فيخلي سبيله في الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوة أولاً يا للأنصار، ثم جعلت أخيراً يا للخزرج، وكانوا صبراً عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى مجتلد الناس وهم يجتلدون، فقال: الآن حمي الوطيس.

وهكذا هزمت القلة الصابرة كثرة المشركين الباغية، وشفى الله صدور المؤمنين من أعدائهم، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ لقد نصرَكُمُ الله في مواطن كثيرة ويومَ حُنَيْن إذ أعجبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ فلم تُغْن عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقتْ عَلَيْكُمُ الأرْضُ بمَا رَحُبَتْ ثُمَّ ولَيْتُمْ مُدبرين، ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِيْنَتَهُ على رسولِهِ وَعَلَىٰ المُؤْمِنِينَ، وأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وعَذَّب الّذينَ كفَرُوا؛ وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرين ﴾.

* * *

انسحاب لا يخدش البطولة

قال الديار بكري: «كان خالد بن الوليد مع بني سليم في مقدمة الجيش، وكان أكثرهم حسراً ليس عليه سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوماً كمنوا لهم، جمع هوازن وبني نصر، وهم قوم رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، والمسلمون عنهم غافلون، فرشقوهم رشقاً لا يكادون يخطئون، فولى جماعة كفار قريش الذين كانوا في جيش الإسلام وشبان الأصحاب وأخفاؤهم وتبعهم المسلمون الذي كانوا قريبي العهد بالجاهلية.

«فلما انعطف الناس إلى رسول الله ﷺ مجيبين لندائه كان خالد رضي الله عنه في أول من كر مع أبطال الإسلام يضرب في وجه المشركين حتى كثرت جراحاته؛ قال ابن عبد البر في الاستيعاب: وكان خالد على مقدمة

رسول الله ﷺ في بني سليم يوم حنين وجرح يومئذ، فأتاه رسول الله ﷺ بعد ما هزم الله هوازن ليعرف خبره ويعوده، فنفث في جرحه فانطبق».

تقع الأحداث فتترك وراءها آثارها في النفوس، وتلك الآثار تختلف باختلاف مواقعها وأسبابها، وهذا الحدث الذي انسحب فيه خالد بن الوليد، وهو بطل الحرب، ترك في نفسه أثراً جعله في كرته يتمثل غدرة القوم بالمسلمين وأخذهم على غرة، فامتلأ صدره غيظاً عليهم، حجب عنه بعض خلائقه، فكان يقتل كل من لقيه من المشركين، لا يبالي أكان سيفه في عنق رجل أو امرأة.

ذكر ابن اسحاق أن رسول الله ﷺ مر يومئذ بامرأة، وقد قتلها خالد ابن الوليد، والناس متقصفون عليها، فقال: ما هذا؟ قالوا: امرأة قتلها خالد ابن الوليد، فقال رسول الله ﷺ لبعض من كان معه: أدرك خالداً، فقال له: إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً[١]. فكان عند أمر رسول الله ﷺ.

* * *

وليس في هذا الانسحاب خدش لبطولة خالد رضي الله عنه، لأنه كان مع كتيبته في مقدمة الجيش، فكان عنفوان المفاجأة التي مكر بها الأعداء عليه، فلو صبر وصبر معه جنده لهذه المفاجأة العاصفة لكانت العاقبة إفناء هذه الكتيبة الباسلة في غير شيء يعود على المسلمين بالنفع والفائدة، فلا حرج على البطل أن ينحاز ليستعد للوثوب، ولو كان ذلك في صورة الانهزام والتقهقر، بل لعل ذلك الانسحاب خطة حربية ناجحة، ولكنها قد تكون بعيدة النتائج، وقد عرفنا فيما قرأنا من سير أبطال الحروب الحديثة أن الانسحاب لإنقاذ الجيش المأخوذ من أهم الفنون الحربية، حتى تخصص فيه قوم من القواد وحذقوه فكان عند أممهم من أقوى عوامل الانتصار.

شجاعة النبي وأثرها

ولا نتوهم عاقلاً يعترض بموقف النبي ﷺ في هذه الغزوة، لأن شخصيته أعظم من أن تقايس بها شخصية في الوجود، والذين ثبتوا معه هم أقرب الناس إليه نفساً ونسباً فهم أشبه بأركان حرب القائد في الاصطلاح

(١) العسيف: الأجير.

الحديث، فهم خاصته الملازمون، فلما رأوا شجاعته الباهرة شجعت أفئدتهم، واتقوا به البأس، أما خالد فقد كان مرتبطاً بكتيبته لأنه قائدها وأميرها فكان عليه أن يعمل على إنجائها من الهلاك، وليس موقف قائد الفرقة أو قائد الكتيبة كموقف القائد الأعلى، لأن قائد الفرقة روح فرقته وقائد الجيش الأعلى روح الجيش كله، ولذلك كان النصر في غزوة حنين هذه أثراً من آثار موقف النبي ﷺ وشجاعته، فإن الناس لم يلبثوا أن سمعوا الصوت يناديهم «إلي أيها الناس، أنا رسول الله» حتى عطفوا عليه عطفة النحل على يعسوبها، وتم للمؤمنين نصر الله بصورة لم تسبق لهم من كثرة الغنائم ورهبة الأعداء. فقد بلغت الغنائم في هذه الغزوة ستة آلاف من الذراري والنساء وأربعة وعشرين ألفاً من الإبل، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وما لا يحصى من الشاء، وأسلمت بعد ذلك هوازن فرد عليها رسول الله ذراريها ونساءها، وقسم الأموال في المسلمين، وأعطى المؤلفة عطاء غامراً.

خالد في محاصرة ثقيف

كان النصر في هذه الغزوة نصراً مؤزراً، أرعب قلوب من بقي من العرب مباعداً للإسلام، وكانت قبيلة ثقيف قد اعتصمت بحصونها بعد هزيمة حليفتها هوازن، فزحف عليها النبي ﷺ بجند الله، وسير سيف الله خالد ابن الوليد في ألف رجل على مقدمته طليعة، فحاصروا الطائف زمناً اختلفت الروايات في تقديره، ولم يقع قتال غير تراشق النبل، وكان بطل الإسلام خالد يخرج فينادي: هل من مبارز؟ فلا يرد عليه أحد، فلما أعنتهم بتحديه وأكثر عليهم أجابه زعيم ثقيف عبد ياليل: لا ينزل إليك منا أحد ولكن نقيم في حصننا، فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنة.

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في حصاره ثقيفاً رؤيا فقصها على أبي بكر، فقال: إني رأيت أنه أهديت لي قعبة مملوءة زبداً فنقرها ديك فأهرق ما فيها، فقال: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وأنا لا أرى ذلك، فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل فارتحلوا، ثم جاء الله بعد قليل بثقيف مسلمين.

بعث خالد للتثبت من بني المصطلق

كان بنو المصطلق قوماً من بني جذيمة، أسلموا وبنوا المساجد فبعث إليهم رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة مصدقاً، وكان بينهم وبين الوليد عداوة

جاهلية، فلما قدم عليهم وسمعوا به خرج منهم عشرون رجلاً يتلقونه بالجزر والغنم وما جمعوه من مال الصدقات، فرحاً بقدومه وتعظيمًا لأمر الله وأمر رسوله، فنفخ الشيطان في صدره أنهم يريدون قتله، فرجع إلى رسول الله ﷺ فحدثه أنهم يحولون بينه وبين الصدقة وأنهم يريدون قتله، فغضب رسول الله ﷺ، وكاد أن يهم بهم، فلما بلغهم رجوع الوليد مغاضباً أتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله، سمعنا بمجيء رسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه، فرجع، فخشينا أن يكون رده عنا بلوغ كتاب منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فاتهمهم رسول الله ﷺ، فبعث إليهم سيفه وموضع ثقته وعيبة نصحه خالد بن الوليد في عسكر خفية، وقال له: أنظر فإن رأيت ما يدل على إيمانهم، فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار، فأتاهم خالد فسمع منهم أذاني صلاة المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فانصرف خالد إلى رسول الله ﷺ. فأخبره الخبر، قيل: فأنزل الله في شأن الوليد بن عقبة وشأنهم قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾.

سرية خالد إلى أكيدر

ترامى إلى النبي ﷺ بعد أن فرغ من حنين ورجع من حصار الطائف وأقام بالمدينة نحواً من ستة أشهر يجم أصحابه، أن الروم جمعت له بالشام جموعاً كثيرة ليقاتلوه، وقد اجتمع معهم من مستعربة الأطراف من بني لخم وجذام وغسان وعاملة عدد كثير، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة ليستعدوا، وأنهم تقدموا إلى البلقاء فعسكروا بها، فأمر الناس بالتأهب والتجهز والمسير إلى الشام، وكان الزمان زمان حر وعسرة، وكان هذا الوجه من أهيب وجوه الغزو لدى المسلمين، وكان النبي ﷺ إذا غزا قوماً ورى عنهم بغيرهم إلا هذه الغزوة التي يقصد بها إلى بني الأصفر، فإنه أعلن عنها للناس ليتأهبوا لها لبعد السفر فيها وشدة الحال على الناس، وحض رسول الله ﷺ على الجهاد ورغب فيه وأمر بالصدقة والإنفاق في سبيل الله، فأقبل المسلمون فجادت أنفسهم بما وسعها الخير، فجاء أبو بكر الصديق بماله كله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وأنفق العباس، وطلحة، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن عبادة، ومحمد بن سلمة، وعاصم بن عدي، نفقات

عظيمة القدر، وجاء عثمان بن عفان بمال عظيم اختلفت الروايات في تقديره، وأمثلها من يرى أنه استقل وحده بتجهيز ثلث الجيش كله، وكان الجيش في هذه الغزوة ثلاثين ألفاً؛ فدعا له النبي ﷺ وأظهر السرور البالغ بصنيعه. وفي هذه الغزوة نجم النفاق، وافتضح المنافقون، فتكلموا بما في أنفسهم من الضغن على الإسلام والمسلمين، فأخبر الله نبيه عنهم وأنزل في شأنهم ما أنزل من القرآن الكريم.

مضى رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى تبوك فلم يجد مما بلغه عن تأهب الروم لحربه شيئاً، ولقيه صاحب أيلة، وأهل حرباء وأذرح فصالحوه على الجزية، ولم يجد في طريقه كيداً، ولا لقي في وجهه هذا حرباً.

كان في هذه الغزوة خالد بن الوليد على ما كان عليه في سوابقه من الإمارة على الفرسان والخيل، ولكن الروايات لم تجر له فيها ذكراً، لأنه لم يكن فيها موقف حربي تظهر فيه بطولة خالد فيتحدث عنه بما كان. وقد ذهب بفضل هذه الغزوة أهل الثراء ممن أمدوا الجيش بأموالهم وجهزوا الجند بالأسلحة والمؤن، ولم يعرف عن خالد أنه كان من ذوي الثراء وأصحاب الأموال، فليس له فيها إلا حظ القائد الذي تأهب لموقفه من الميدان، فلم يجد أمامه صائلاً يدفعه ولا عدواً يحاربه، فقفل ليبحث عن مكانه في ساحة البطولة الظافرة.

أقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، ثم شاور أصحابه في التقدم إلى الروم والمسير إليهم في بلادهم، فقال عمر بن الخطاب: إن كنت أمرت بالمسير فسر فقال ﷺ: «لو أمرت ما استشرتكم فيه»، فقال عمر: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم وأفزعهم دنوك، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله في ذلك أمراً؟

ولما عزم رسول الله ﷺ على الانصراف بعث خالد بن الوليد على رأس أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر صاحب دومة الجندل ـ قرية في طرف الشام ولا بد لقاصدها أن يتخطى بلاد كلب وهي قبيلة من أكثر قبائل العرب عدداً، وأشدها كلباً ـ فقال خالد: كيف لي به يا رسول الله وسط

بلاد كلب؟! وإنما أنا في ناس يسير. فبشره رسول الله ﷺ بأنه سيأخذه غاراً فيظفر به، فقال: ستلقاه يصيد الوحش فتأخذه.

فخرج خالد على كتيبته من تبوك ميممًا دومة، فلما دنا منها، وكان بمنظر العين من حصن أكيدر تلبث قليلاً في شأنه، وكان أكيدر على سطح قصره في ليلة قمراء صائفة، ومعه امرأته الرباب الكندية، فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن، فأشرفت امرأته على باب الحصن فرأت البقر، فقالت له: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا، والله؛ قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد؛وكان أكيدر يضمر لهذا الصيد الخيل شهراً، فنزل وأمر بالخيل فأسرجت، فركب وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخوه حسان، فدلف إليهم خالد بفرسان المسلمين فاتبعهم حتى لحق بهم، فاستأسر أكيدر، وامتنع أخوه حسان، وقاتل حتى قتل، وهرب سائر من كان معه حتى دخلوا الحصن، وكان النبي ﷺ قال لخالد: إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله، وائت به إلي، فقال له خالد ـ وهو في يده أخيذ ـ: هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتي بك رسول الله ﷺ على أن تفتح لي دومة الجندل؟ قال: نعم، لك ذلك؛ فلما صالح خالد أكيدر وهو في وثاقه كان أخوه مصاد في الحصن، فأبى أن يفتح الحصن حتى يطلق أكيدر من وثاقه، فطلب أكيدر أن يصالحه خالد على شيء معين حتى يفتح له باب الحصن، ثم ينطلق به وبأخيه إلى رسول الله ﷺ، فيحكم فيهما بما شاء، فرضي خالد، وتم بينهما الصلح على ألفي بعير، وثمانمائة فرس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وخلى خالد سبيله ففتح له باب الحصن، فدخله المسلمون، وحقن خالد دمه ودم أخيه، وانطلق بهما إلى رسول الله ﷺ، مقدمه من تبوك، فضرب عليه وعلى قومه الجزية، وكتب لهم كتاب أمان، واختلفت الروايات في شأنه بعد ذلك، وأثبتها أنه ظل على نصرانيته، ثم نقض العهد فحاصره خالد نفسه زمن أبي بكر وقتله مشركاً.

وفي لقائه الأول أخذ منه خالد قباء مخوصاً بالذهب مما تلبسه الملوك، فبعث به إلى النبي ﷺ قبل قدومه به فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم، ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ ليرد عنهم وساوس الدنيا، ويصرفهم إلى ما هو أعظم: لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا.

كانت تسرية خالد من تبوك إلى دومة الجندل مظهراً من مظاهر تعويض البطولة عما فاتها من غمرات المجالدة، وكانت عنواناً بارزاً على تقويم خالد بقيمته التي وزنه بها رسول الله ﷺ يوم إسلامه، وإن تكن الأحداث قد غيرت من ذلك التقويم شيئاً فذلك ما ينتهي إلى الذهب بعد فتنته بالنار، وطبائع النفوس أقوى في حقائقها الإنسانية من طبيعة الذهب في حقيقته المعدنية.

وكانت آية من آيات عقله السياسي البارع، فهو يصطنع إلى أسيره الملك عارفة من عوارفه فيجيره من القتل على أن يفتح له الحصن، فلما لم يرض مصاد أخو أكيدر بفتح الحصن إلا أن يحل وثاق أخيه الملك، لم تقف عزة الغالب الظافر أمام خالد فيأبى عليه ذلك، ولكنه يرضى به ويكسب للمسلمين صلحاً يعود عليهم بأعظم المنافع، وينتهي مع ذلك إلى ما أراده خالد أول المفاوضة من الذهاب بأكيدر وأخيه إلى النبي ﷺ، فأقر ما صنع بهما خالد، وردهما إلى مكانهما آمنين.

وقد كشفت لنا هذه السرية عن شيء من خلائق خالد التي تزدان بها البطولة وتغلب في طبع الأبطال؛ ولنا بكشفه حاجة في حياة خالد تدفع شبهة قد تمس الأمانة في أخلاق البطل، وإن تكن تلك الشبهة مدفوعة بما مات عنه خالد من فقر في المال، وهو القائد المظفر الذي خاض أكثر من مائة زحف ظفر فيها وغنم من الغنائم ما لو شاء معه أن يكون أثرى أثرياء المسلمين لكان له ما شاء، لولا خصيصة البطولة في أمانة خالد.

ظفر خالد بأكيدر ملك دومة في متصيده، وعليه جلة من حلل الملوك مخوص قباؤها بأسلاك الذهب. فلم تحدثه نفسه أن يحتجن لخاصته هذا القباء الذي تبلغ قيمته أن يقول فيه النبي ﷺ، لما رأى تعجب أصحابه منه: لمناديل سعد في الجنة خير منه؛ والمؤمنون يعرفون مقدار المفاضلة بين أدنى أشياء الجنة وأعلى أشياء الدنيا في تعظيم ما يراد تعظيمه من حاج الدنيا.

أفليس ذلك أرفع ما يصبو إليه الناس من مراتب الأخلاق في الأمانة والعزف عن زخارف الدنيا؟! بلى، إن رجلاً أدى ذلك لأمين أي أمين.

بعث خالد لهدم اللات

لما رجع خالد بن الوليد من دومة ظافراً كان رسول الله ﷺ قد تقدمه قافلاً من تبوك إلى المدينة، فقدم عليه وفد ثقيف فقاضاهم على الإسلام،

وكان فيما قاضاهم عليه هدم طاغيتهم «اللات»، وهو بيت كانوا يتعبدونه، ويهدون له، يضاهون به البيت الحرام، وكانوا قد سألوا رسول الله ﷺ أن يتركه لهم فلا يهدمه حتى يدخل الإسلام قومهم، فأبى عليهم أن يدعه شيئاً من زمن، فأسلم الوفد وعادوا إلى قومهم، فخوفوهم بطش الإسلام وقوته، ورغبوهم في الدخول فيما دخل فيه سائر الناس فأسلموا مستسلمين.

ثم أرسل لهم رسول الله ﷺ رسله ليهدموا معبودهم «اللات» وأمر عليهم خالد بن الوليد، وكان في الرسل المغيرة بن شعبة، لأن قومه بني معتب من ثقيف هم سدنة الطاغية، فهو يتألفهم ليؤكد دخولهم في الإسلام، وهم يقومون دونه يحمونه من مثل ما وقع لعروة بن مسعود، إذ دعاهم إلى الإسلام فقتلوه.

فلما قدم عليهم خالد فيمن كان معه عمدوا إلى «اللات» يهدمونها فتكفأت ثقيف قضها بقضيضها، حتى خرج العواتق من الحجال ينظرون ما تصنع ربتهم بمن يهدمها، وهم في جهالتهم لا يصدقون أنها تهدم، ويرون أنها ستمنع نفسها، ثم أمر خالد المغيرة بن شعبة أن يكون هو الذي يتولى هدمها، فضحك المغيرة، وقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف!! فأخذ الكرزون[1] فضرب به، ثم أخذ يرتكعن، فارتج أهل الطائف بضجة واحدة، وقالوا أبعد الله المغيرة!! لقد قتلته الربة! وفرحوا حين رأوه يسقط، وقالوا من شاء منكم فليقرب، وليجهد على هدمها، والله لا تستطاع أبداً. فوثب المغيرة وقد رأى منهم الشماتة والسخرية ممزوجتين بهذه البلاهة الجاهلة، فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف؛ إنما هي لكاع حجارة ومدر، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا على سورها، وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض، ولكن جهالة ثقيف كانت على مقدار عنادهم ونكارتهم، فما زالت فيهم عقيدة الوثنية تعمل عملها، فجعل سادتها وصاحب مفاتيحها يقول: ليغضبن الأساس، فليخسفن بهم! فلما سمع المغيرة هذه الجهالة البليدة قال لأميره خالد بن الوليد: دعني أحفر أساسها، فحفروها حتى أخرجوا ترابها، وأخذوا حليها وثيابها، فبهتت ثقيف، وعلمت بعد جهالة أن ربتهم في حقيقتها إنما هي صورة من بلاهتهم معجونة بحفنات

---

(١) الكرزون: المعول.

من التراب، لم تلبث إذ رأت شمس الحق ساطعة أن عادت هباء تذروها الرياح.

هذه الرواية في هدم طاغية ثقيف نقلها الديار بكري في تاريخ الخميس من طريق موسى بن عقبة. وهناك رواية أخرى ذكرها من طريق ابن اسحاق، ترى أن أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة هما اللذان أرسلا لهدم الطاغية، فلما قدما الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان، وقال للمغيرة: ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان في مال له هناك، فدخل المغيرة وهدم الطاغية، وأخذ ما وجد فيها من مال وحلي، فأرسله إلى أبي سفيان، ثم عادا به إلى رسول الله ﷺ، فقضى منه ديناً كان على عروة بن مسعود، وأخيه الأسود، وقد سأله في ذلك إبناهما مليح ابن عروة، وقارب بن الأسود، وكانا قد أسلما قبل قومهما، ثم قسم سائره من يومه.

وقد يظهر للباحث ترجيح الرواية الأولى، لأنها تتفق مع ما جرى في السوابق من إرسال عدد من الرجال بأميرهم في أمثال هذا الحادث، ولأنه يبعد أن يرسل إلى ثقيف رجلان لهدم طاغيتهم، وهم بعد لم يخالط الإسلام قلوبهم؛ ولأنه يبعد أن يعهد بذلك إلى أبي سفيان بن حرب وهو قريب عهد بالإسلام، لم يسلم طواعية، ولأنه لو كان هو المرسل فإنه يبعد أن يدع صاحبه المغيرة يدخل على قومه وحده في أمر أشق على أنفسهم من القتل وسفك الدماء، ثم يتخلف في مال له هناك.

وإرسال خالد أميراً على سرية لهدم «اللات» وكان هو الذي هدم «العزى»، أقرب من إرسال أبي سفيان بن حرب؛ وقد كان لخالد في ثقيف موقف يرشحه لهذا العمل؛ وكان لأبي سفيان موقف في ثقيف وهي مع هوازن في حنين لما يمض عليه كثير زمن؛ يباعد بينه وبين ذلك.

* * *

بعث خالد إلى نجران هادياً ومعلماً

لم يزل خالد بن الوليد رضي الله عنه منذ أسلم حظي المكانة عند رسول الله ﷺ؛ فلم يعدل به أحداً من أصحابه فيما حزبه؛ يوليه أعنة الخيل؛ ويبعثه أميراً على سراياه، ويعقد له على كتائب جيوشه الظافرة؛ ويرسله معلماً وداعياً إلى الله.

وإذا كانت عبقرية خالد العسكرية من العبقريات القاهرة الغامرة حتى غلبت على سائر خصائصه وفواضله في جوانب الحياة الأخرى فلم تجعل لجانب سواها ذكراً معها في سجل الخلود؛ فلم يجهل التاريخ فضائل خالد كإمام من أئمة الدين ومعلميه؛ فقد اختاره رسول الله ﷺ معلمًا لكتاب الله وسنة نبيه، ومبيناً لمعالم الإسلام وشرائعه، وهذا لا يكون إلا عن يقين من رسول الله ﷺ بفقه خالد في الإسلام وعلمه بالكتاب والسنة، لأنه أرسله إلى قوم بعيدة دارهم عن موطن النبوة والوحي، وقد لا يمكن مع هذا البعد تلافي ما يقع من الخطأ في الأحكام الشرعية، فلو لم يكن أمير القوم ومعلمهم فقيهاً في الدين عالماً بتأويل الكتاب وفهم السنة لكان في بعثه معلمًا تلبيس وحرج على من بعث معلمًا له، وهذا ما لا يمكن وقوعه من النبي ﷺ، ولا عرف أنه وقع قط، بل الذي تظاهرت به الأخبار الصحيحة أن معلمي المسلمين على عهد النبي ﷺ كانوا من علماء الصحابة المشهود لهم بالفقه في الدين والعلم بالتأويل، واختلافهم في العلم والفقه ودقة النظر في المسائل والفتاوى أمر طبيعي يقع بين طبقات الناس جميعهم في كل عصر ومصر، وهذا تأويل ما نقل عن خالد رضي الله عنه: شغلني الجهاد عن الكثير من القرآن.

روى أصحاب السير والمؤرخون أن النبي ﷺ: بعث خالد بن الوليد على سرية إلى بني الحارث بن كعب بنجران؛ وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتهلم ثلاثاً، وقال له: «فإن استجابوا لك فاقبل منهم، وأقم فيهم، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام، فإن لم يفعلوا فقاتلهم».

فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، يدعون الناس إلى الإسلام، يقولون: «أيها الناس أسلموا تسلموا» فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه، فأقام خالد فيهم يعلمهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وقد سجل خالد لنفسه هذه المنقبة العظمى في كتاب أرسله إلى رسول الله ﷺ قال فيه:

كتاب خالد إلى رسول الله مبشراً

«بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد النبي رسول الله ﷺ، من خالد ابن الوليد، السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك، فإنك بعثتني إلى بني الحارث ابن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى

الإسلام، فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركباناً، قالوا: يا بني الحارث، أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به؛ وأنهاهم عن ما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبي ﷺ، حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته».

كتاب رسول الله بوفد بني الحارث

وقد أجابه رسول الله ﷺ على كتابه هذا فكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم من النبي محمد رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسولك تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وأنذرهم، واقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

حنين خالد إلى الجهاد

وفي كتاب خالد رضي الله عنه إلى جانب تسجيله ما طواه التاريخ من جوانب مضيئة في شخصيته، ناحية تلفت نظر الباحث، ذلك أن النبي ﷺ حينما أرسل خالداً إلى بني الحارث باليمن أمره، أن يقيم فيهم إماماً ومعلمًا، يبين لهم معالم الإسلام، ولكن خالداً ـ وهو القائد المفطور على حب الحرب ـ لم تكن نفسه لتسكن إلى الدعة والهدوء بعد أن أدى مهمته الحربية، وتم على يديه إسلام بني الحارث، وعلمهم معالم الإسلام، بل حنت نفسه الكبيرة إلى الجلاد استجابة لما في طبعه من خصائص عسكرية فائقة، فكتب إلى النبي ﷺ يبلغه أنه أدى ما أمره به فدعا إلى الإسلام فاستجاب له الناس، وأقام فيهم يأمرهم بأمر الله وينهاهم عن مناهي الله، وأرشدهم إلى شرائع الإسلام ومعالمه، وهو ينتظر أمر رسول الله ﷺ يصدر إليه بما يوجهه إليه.

وكأن هذا تلميح من خالد إلى ما يريد من خوض الغمرات جهاداً في سبيل الله، فأجابه رسول الله إلى رغبته، فاستقدمه بوفد بني الحارث، فأقبل خالد من اليمن قافلاً، وأقبل معه وفد بني الحارث إلى رسول الله ﷺ، فلما رآهم رسول الله قال يسأل عنهم: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟

قيل: يا رسول الله، هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب، فلما وقفوا عليه سلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأنه لا إله إلا الله، فقال رسول الله: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ثم قال لهم وهو يعلم شدة شكيمتهم وتميزهم عن العرب بأخلاق المغالبة وشدة البأس: أنتم الذين إذا زجروا استقدموا؟ فسكتوا فلم يراجعه أحد منهم حتى ذكر ذلك أربع مرات؛ فقال أحدهم ـ يزيد بن عبد المدان ـ: نعم يا رسول الله: نحن الذين إذا زجروا استقدموا، وجعل يكررها حتى بلغ بها مرات رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: لو أن خالد بن الوليد لم يكتب إلي فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم.

ويبدو أن النبي ﷺ قال لهم هذه المقالة الشديدة التي لم تجر بها عادته الكريمة في مخاطبة الوفود، ليطأ من عنجهيتهم ويكسر من حدتهم ويدخل في قلوبهم رهبة الإسلام حتى يبلغوا من قومهم فتلين أفئدتهم، وتذهب عنهم نخوة الجاهلية وحمية العصبية، وغرور الاستعلاء والغلب مما تميزوا به عن سائر قبائل العرب ولذلك جاء ردهم إلى رسول الله ﷺ غير خلي من جفوة الأعرابية وتعزز الجاهلية، فقال متكلمهم يزيد بن عبد المدان: أما والله يا رسول الله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً، فقال رسول الله ﷺ: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله الذي هدانا بك!! قال: صدقتم.

ولما سألهم رسول الله ﷺ عن بعض أخلاقهم التي كانت لهم في الجاهلية والتي كانوا بها غلابين مرهوبين، أجابوا متغضبين: لم نغلب أحداً!! فقال رسول الله ﷺ: بلى، قد كنتم تغلبون من قاتلكم؛ قالوا: يا رسول الله كنا نغلب من قاتلنا إنا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال صدقتم.

رواية أخرى في سرية خالد إلى نجران

هذه رواية يجمع عليها المؤرخون وأصحاب السير في شأن بعث خالد ابن الوليد إلى نجران من أقاليم اليمن داعياً بني الحارث بن كعب إلى الإسلام، وهي صريحة في أن خالداً ذهب إليهم أمير سرية، فدعاهم إلى الإسلام وعلمهم القرآن والسنة ومعالم الإسلام فأتم ما أمر به، وأداه أحسن أداء، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ وكتب إليه رسول الله فاستقدمه بوفد بني الحارث، فوفد بهم عليه، وحدثهم وحدثوه، ثم ولى عليهم أميراً منهم،

وبعث إليهم معلمًا بقي على ولايته حتى توفي رسول الله ﷺ. بيد أن بعض المؤرخين ذكروا رواية أخرى في بعث خالد إلى اليمن في التاريخ نفسه الذي تذكر فيه بعثه إلى بني الحارث بن كعب، وهي مختلفة في تفصيلها ووقائعها ونتائجها كل الإختلاف مع الرواية الإجماعية، لأن هذه الرواية تقول: إن خالداً أرسل إلى اليمن لدعوة قبيلة همدان إلى الإسلام، وهمدان غير بني الحارث الذين أرسل إليهم خالد في الرواية الأولى، ولأنها تقول: إن خالداً دعا القوم فلم يجيبوه، وأنه لم يوفق في رسالته، وأن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب لما كان بعث إليه خالد بن الوليد، وأمر علياً أن يقفل خالداً ومن معه إلا من شاء منهم أن يبقى في سرية علي فله ذلك، وأن خالداً رجع بسريته بعد ستة أشهر لم يجبه القوم إلى شيء، وأن علياً كرم الله وجهه قام بدعوة القوم فأجابوه وأسلموا جميعاً، فكتب بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وأن رسول الله ﷺ دعا لهم وسلم عليهم.

التوفيق بين الروايتين

والناظر بعين الباحث الناقد يدرك ـ إذا فرضنا صحة الروايتين ـ أن هناك قصتين في بعثتين مختلفتين كان فيهما خالد بن الوليد أمير سرية، وأنه وفق في إحداهما ـ وهي بعثة بني الحارث ـ أتم توفيق، وأن النبي ﷺ استقدمه بوفد القوم، فقدم بهم عليه، وجرى حديثهم على ما سقناه.

وأما البعث الآخر فهذا كان إلى أهل اليمن عامة، وجماعهم في همدان، وهذا هو الذي تتحدث عنه الرواية الثانية، وهو الذي عقب فيه عليّ خالداً لأن القوم لم يجيبوا خالداً، ولم يؤمر بقتالهم فلم يقاتلهم، فلما قدم عليهم علي وأقفل خالداً بمن معه دعاهم إلى الله فأجابوه.

حدث الطبري عن البراء بن عازب قال: «بعث رسول الله ﷺ خالد ابن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فكنت فيمن سار معه، فأقام عليهم ستة أشهر، لا يجيبونه إلى شيء، فبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالداً ومن معه فإن أراد أحد ممن كان مع خالد ابن الوليد أن يعقب معه تركه، فكنت فيمن عقب، فلما انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر فجمعوا له فصلى بنا على الفجر، فلما فرغ صفنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول

الله ﷺ فلما قرأ كتابه خر ساجداً ثم جلس فقال: السلام على همدان، السلام على همدان، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام.

ويدل لما ذهبنا إليه أولاً: ـ أن الطبري وتابعه ابن الأثير ـ على عادته ـ ذكر في موضع بعث خالد إلى بني الحارث، وساقه كما ذكرناه، ولم يعرض فيه لذكر بعث عليّ إلى اليمن، ولا لذكر همدان، وذكر في موضع آخر بعث علي إلى أهل اليمن معقباً لخالد وأمره أن يقفل خالداً بمن معه، وساق حديث البراء المتقدم، ولم يعرض في هذا الموضوع لذكر بني الحارث ودعوتهم إلى الإسلام.

وجرى في هذا الشوط الديار بكري في تاريخ الخميس، فذكر بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث مختصراً على ما ذكره الطبري فلم يجر فيه ذكر لعلي ولا لهمدان، وذكر قصة أخرى في التاريخ نفسه الذي تحدث الرواة فيه أن علياً عقب فيه خالداً إلى اليمن، ولم يجر فيها ذكر لبني الحارث ودعوتهم.

ويؤيد ما ذكرناه أن القسطلاني في المواهب ذكر بعث خالد إلى عبد المدان في التاريخ الذي ذكر المؤرخون فيه بعثه إلى بني الحارث، وعبد المدان بطن من بني الحارث، وأن خالداً دعاهم إلى الإسلام فأسلموا، فهذا هذا.

وكذلك يؤيده ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود من حديث علي قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن، فقلت يا رسول الله: تبعثني إلى قوم أسن مني، وأنا حديث السن، لا أبصر القضاء؟ قال علي: فوضع: يده في صدري، وقال اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه، وقال يا علي: إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر، الحديث.

قال الديار بكري: فخرج علي في ثلاثمائة فارس ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك، ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل حتى حمل عليهم علي وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً، فتفرقوا وانهزموا فكف عن طلبهم، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام، ثم قفل فوافى النبي ﷺ بمكة قد قدمها للحج سنة عشر.

فظاهر جداً من سياق هذه الروايات أن القصة أكثر من واحدة ولكن

العقدة فيها هي التاريخ الذي يذكر جميع الرواة أن البعث كان فيه، فالإجماع منعقد من المؤرخين على أن بعث خالد إلى بني الحارث كان فيما بين ربيع الأول وجمادي الأول من السنة العاشرة، والروايات التي تذكر بعث علي إلى أهل اليمن معقباً لخالد ورجوع خالد بمن معه تجعله في رمضان من سنة عشرة، فالسنة موضع اتفاق عند الجميع، وحديث البراء المتقدم يقول: إن خالداً مكث ستة أشهر يدعو القوم فلا يجيبه أحد، وهذه الستة أشهر هي المدة من ربيع الأول إلى رمضان، وذلك يحتم أن القصة واحدة في بعث واحد، وهو ما تقضي ببعده تفاصيل الروايات.

وإذا صح أن يكون للحدس والتخمين موضع في هذا المقام فأقرب ما يتجه إليه البحث أن يكون قد وقع خطأ في تاريخ البعثين أو أحدهما، ولعل الأشبه أن يكون بعث خالد إلى بني الحارث كان في أخريات سنة تسع فجعل في أوائل سنة عشر تأثراً بالبعث الثاني الذي كان فيها، وقد كان إلى الجهة التي كان إليها البعث الأول مع اختلاف القوم المدعوين في البعثين، وكان خالدٌ أميراً فيه كما كان في البعث الأول؛ فمن السهل جداً وقوع الاشتباه والغلط في تاريخ البعثين أو أحدهما.

وقد ثبت في الصحيح قدوم علي بن أبي طالب من اليمن إلى مكة حيث لقي رسول الله ﷺ في حجته فأهل بما أهل به رسول الله ﷺ، فكون بعث علي إلى اليمن في السنة العاشرة مما لا اشتباه فيه.

ومهما يكن من شيء فإن رواية بعث علي إلى همدان وإسلامها على يديه لا تدفع بعث خالد إلى بني الحارث واستجابتهم له وإسلامهم على يديه، وإقامته فيهم معلمًا لهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

الفصل السابع

خالد في حروب الردّة

حال الناس بعد وفاة رسول الله ـ شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه ـ أين رأي خالد ـ توجيه خالد إلى طليحة الأسدي ـ وصية أبي بكر لخالد ـ تنبيه وتذكرة ـ خالد وعدي بن حاتم ـ خالد في وجه طليحة ـ هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام ـ حملةٌ تأديبية ـ سياسة حكيمة.

حال الناس بعد وفاة رسول الله

لم ينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وفي جزيرة العرب ركن لم يدخله الإسلام، بل لقد فاضت به على من حولها حتى وقعت دعوته في أسماعهم، فأقر الله عين رسوله وأتم نعمته على عباده، وأكمل للمؤمنين دينهم الذي ارتضاه شريعة لعامة خلقه، ولكن الناس كانوا بين مؤمن موقن، ومؤمن مفزع، وكافر عنيد، ومنافق مفضوح النفاق، ومتماوج تتطارحه الأهواء، يصبح مع هذا ويمسي مع ذاك، وإذا بالطامة الكبرى تفجأ المسلمين بوفاة رسول الله ﷺ، ويسري النبأ فادحاً مع الأثير في أرجاء الجزيرة، وتلقاه الناس فاغري أفواههم ذهولاً وبهراً، ورفع النفاق رأسه، وأبدت اليهودية عن ذات نفسها، وأعربت النصرانية عن كظيم غيظها، وتراجع الجفاة من الأعراب إلى مضاربهم في أكنان الصحراء ومنازل الجاهلية يقولون لأنفسهم: لو كان نبياً ما مات، وتنبأ الكذابون والكذابات، وتجمع الغثاء إلى بعضه جسراً يمنع تيار الإسلام أن يندفع إلى مهابط الهداية والرحمة من الأرض.

شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه

وبقيت فيما بين المسجدين طائفة المؤمنين الموقنين بإمامة أفضل مولود بعد النبيين، ذلك عماد الدين وعلم اليقين، أول مجدد للإسلام، الصديق أبو بكر، سيد المؤمنين، فنهض بحمل العبء وحده، ولم يبق رجل في الإسلام، الفاروق فمن دونه إلا كانت له في هذا اليوم كبوة وتردد، وانفرد الصديق بعزيمة كانت لها بعزيمة رسول الله ﷺ يوم الشعب والطائف وشائج سمت بها عن عزائم البشرية، فكانت معجزة الخلافة الأولى أصدق آية على معجزة النبوة في تربية الرجال.

فلما رأى أعلام الإسلام الجد في الأمر من الصديق انشرحت صدورهم لما شرح الله له صدره من الحق. قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تصف حال الناس وحال الصديق معهم حينما صدعهم الخطب العاصف: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، وعم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها.

وحدث أبو جعفر الطبري عن عروة بن الزبير قال: لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال: ليتم بعث أسامة. وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب على ما ترى، قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق جماعة المسلمين، فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت بعث رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته.

أشفق المسلمون أشد الإشفاق على أنفسهم ودينهم من هذا الحادث الخطير، وودوا بجدع الأنف لو أنهم هادنوا الناس فهادنهم الناس، وأعربوا عن خوالجهم وإشفاقهم أن تجتاحهم العاصفة إلى إمامهم، وجادلوه وجادلهم حتى تغلب عزمه على ترددهم، واجتمعت كلمتهم على أن يأخذوا بحجز الناس عن النار ليردوهم إلى ساحة الإيمان واليقين.

روى صاحب الخميس عن يعقوب بن محمد الزهري: أن العرب افترقت في ردتها، فقالت فرقة: لو كان نبياً ما مات، وقال بعضهم: انقضت النبوة بموته، فلا نطيع أحداً بعده، وقال بعضهم: نؤمن بالله، وقال بعضهم: نؤمن بالله، ونشهد أن محمداً رسول الله، ونصلي. ولكن لا نعطيكم أموالنا، فأبى أبو بكر إلا قتالهم، وجادل أبو بكر أصحابه في جهادهم، وكان من أشدهم عليه عمر بن الخطاب، وأبو عبيده بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة، وقالوا له: احبس جيش أسامة بن زيد، فيكون عمارة وأماناً بالمدينة، وأرفق بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر فإن هذا الأمر

شديد عوره، ومهلكة من غير وجه، فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا: قاتل بمن معك ممن ثبت من ارتد؛ وقد أصفقت العرب على الارتداد؛ فهم بين مرتد، ومانع صدقة فهو مثل المرتد، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك، قد قدم رجلاً وأخر رجلاً.

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه لما هم بقتال أهل الردة كره ذلك منه أصحاب رسول الله ﷺ، فقال له عمر بن الخطاب: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم؟ فقال له أبو بكر: أليس قد قال: إلا بحقها؟ ومن حقها إقامة الصلاة **وإيتاء الزكاة،** والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، ولو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي.

وعند الواقدي أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: وإنما شحت العرب على أموالها وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئاً، فلو تركت للناس صدقة هذه السنة، وتألفت **قلوبهم** ورفقت بهم!!

فقال له أبو بكر: أجبَّار في الجاهلية خوار في الإسلام؟ قد انقطع الوحي، وتم الدين أينقص وأنا حي؟!!

وقد طمع قوم من جفاة الأعراب، وشيوخ أهل البادية ممن لم يخالط الإيمان قلوبهم في استغلال هذا الاضطراب استغلالاً مادياً، وظنوها فرصة قد أكثبت نهزها، فلا يريدون أن تفلت منهم.

روي أن عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، قدما على أبي بكر في رجال من رؤوس العرب، فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا: إنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الإسلام، وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ، فإن تجعلوا لنا جعلاً نرجع فنكفيكم من وراءنا. فدخل المهاجرون والأنصار على أبي بكر فعرضوا عليه الذي عرضوه عليهم، وقالوا: نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من وراءهما حتى يرجع إليك أسامة وجيشه، ويشتد أمرك، فإنا اليوم قليل في كثير، ولا طاقة لنا بقتال العرب.

قال أبو بكر: هل ترون غير ذلك؟!! قالوا: لا؛ قال أبو بكر: قد علمتم أنه كان من عهد رسول الله إليكم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم، ولا نزل به الكتاب عليكم، وإن الله لن يجمعكم على ضلالة، وإني أشير عليكم، وإنما أنا رجل منكم، تنظرون فيما أشِرته عليكم، وفيما أشرتم به، فتجمعون على أرشد ذلك، فإن الله يوفقكم؛ أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وأن لا ترشوا على الإسلام أحداً، وأن تتأسوا برسول الله ﷺ فنجاهد عدوه كما جاهدهم؛ والله لو منعوني عقالاً لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه، فأتمروا يرشدكم الله فهذا رأي، فقالوا: أنت أفضلنا رأياً ورأينا لرأيك تبع. قال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق!!

سبحان الله!! رجل من الناس يقف وحده في جانب والناس أجمعون في جانب، يقفون منه موقف المخالف، قلة منهم تواليه، وتؤمن بما يؤمن به، ولكنها تثبطه وتخذل عنه، ويحجزها الفزع عن مجاراته؛ وكثرة غامرة تناصبه العداء، وتتربص به الدوائر، وتتأهب لاجتياحه وسحق عصابته.

فما هذا الذي أغرى الصديق أبا بكر بهذا الموقف الفذ في تاريخ الحياة؟ إنه الإيمان، ولا شيء غير الإيمان، هو الإيمان وحده الذي هون على الصديق أمر الحياة بأسرها في سبيل عقيدته. يقول ضرار بن الأزور ـ وكان فيمن وفد على أبي بكر بأخبار الردة ـ: فما رأيت أحداً ليس رسول الله ﷺ أملأ بحرب شعواء من أبي بكر، فجعلنا نخبره، ولكأنما نخبره بما له ولا عليه.

ذلك طرز من العزائم، وفن من الإيمان، ولون من رسوخ العقيدة فوق متناول الآحاد من البشر، فلا يصلح أن نطلب إلى الناس أن يأتوا بمثله، إلا بضرب من التحدي؛ لأنه في سلك الإعجاز منظوم؛ ولكنا نعرضه للتأسي، وليس من شرط الأسوة أن تجيء صورتها الحاكية على أتم ما كان للصورة المحكية من خطوط وألوان، وحسبها أن يكون لها منها ما يكون للولد من طبائع أصوله في وراثة الشخصيات.

الإيمان نفحة من نفحات الأرواح، فهو أوحى سرياناً، وأقوى صهراً لصدأ القلوب، وسرع ما سرى إلى قلوب المؤمنين قبس من إيمان الصديق؛ فتحولت أنفسهم إلى أرواح صديقية تفدي العقيدة بالحياة، وبحق ما قال الفاروق عمر بن الخطاب: والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعاً.

* * *

كان النبي ﷺ بعدما قضى حجة الوداع «التمام» ورجع إلى المدينة في المحرم من سنة إحدى عشرة، قد ضرب بعث أسامة بن زيد، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء حيث قتل أبوه زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، وأوعب مع أسامة أكثر المهاجرين والأنصار ومن كان حول المدينة من القبائل، وخرجوا فعسكروا بالجرف، وثقل برسول الله ﷺ، واشتد به المرض، فلم يلبث أن توفي، فوقف أسامة بالناس، وكان في جنده عمر ابن الخطاب، فقال له أسامة: ارجع إلى خليفة رسول الله فاستأذنه، يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس وحدهم، ولا آمن على خليفة رسول الله، وثقل رسول الله، وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقالت الأنصار فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة، فخرج عمر بأمر أسامة وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة؛ فقال أبو بكر: لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ؛ قال عمر: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة، فوثب أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر، فقال له: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب؛ استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟! فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال لهم: امضوا ثكلتكم أمهاتكم؛ ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله؟!!

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن، فقال والله لا تنزل ووالله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها

سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة. حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له.

* * *

وسار أسامة بجيشه وخلف وراءه المدينة عاصمة الإسلام، وليس فيها إلا العدد القليل من أهل القتال وحملة السلاح؛ والعرب قد أصفقت كلها على الارتداد وحرب المسلمين يريدون استئصالهم، وزاد في البلاء ما كان من استغلاظ أمر مسيلمة الحنفي وطليحة الأسدي، وما كان تقدمهما من أمر الأسود العنسي؛ وجاء رسل المسلمين ووفودهم من أنحاء الجزيرة العربية فدفعوا إلى أبي بكر بالكتب وأخبروه خبر الناس، فقال لهم أبو بكر: لا تبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر، وانتقاض الأمور، فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبي ﷺ من كل مكان بانتقاض عامة أو خاصة، وتبسطهم بأنواع المثل على المسلمين، فحاربهم أبو بكر بما كان رسول الله ﷺ حاربهم بالرسل فرد رسلهم بأمره: واتبع الرسل رسلاً، وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة.

فلما قدم أسامة استخلفه أبو بكر على المدينة، وقال له ولجنده: أريحوا وأريحوا ظهركم. ثم خرج في الذين خرجوا إلى ذي القصة والذين كانوا من الصحابة على أنقاب المدينة يحمونها، فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك؛ فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فإن أصيب أمرت آخر؛ فقال: لا، والله، لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي! فخرج في تعبيته إلى ذي حسي وذي القصة حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فاقتتلوا فهزم الله عبساً وذبيان، وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة:

ويوم بالأبارق قد شهدنا على ذبيان يلتهب التهابا
أتيناهم بداهية نسوف مع الصديق إذ ترك العتابا

وإذا دلت هذه الروايات كلها على شجاعة الصديق وعزيمته فإن فيها وجهاً من الدلالة على خصيصة عقلية بارعة، تبرجت في هذا اللون من السياسة الحكيمة التي أخذ بها أبو بكر الناس.

فصارم عزيمته مع المسلمين في مطلع العاصفة هو الذي جمع إليه كلمتهم؛ وتسييره جيش أسامة، وفيه وجوه الناس وحدهم هو الذي أرعب قلوب المرتدين، وجعلهم يظنون بقوة المسلمين، وهو الذي صورها في أفئدتهم بصورة عظيمة، وتقديره لخطر المرتدين وداهم خطبهم هو الذي جعله على بينة من أمره، فأعد للعظائم أقرانها من الدهي والسياسة والحرب والقتال، وخروجه بنفسه في قلة من معه من المسلمين إلى لقاء من حدثتهم أنفسهم ممن كانوا قريبين من المدينة من القبائل المرتدة بمهاجمتها هو الذي بعج عزيمة المتربصين وراء هذه القبائل فأخافهم ووقف بهم عند شط الحيرة والاضطراب؛ وتدبيره المحكم مع من بعدت دارهم من المرتدين، وأخذه إياهم بمتابعة الرسل هو الذي أفسح له المجال حتى عاد إليه جيش أسامة أسلم ما يكون جيش، فاستطاع أن يسدد ضربته القاصمة إلى عدوه وهو آمن الظهر مطمئن الفيئة.

أين رأي خالد؟

لم نعرف لخالد رأياً في هذه المقاولات التي وقعت بين أبي بكر الصديق وسائر المسلمين في شأن المرتدين، ولم نسمع له صوتاً نعلم به أنه كان في أي جانب من جانبي هذا الاختلاف فما سبب ذلك؟ وخالد بن الوليد ليس بالرجل المغمور الذي ينكر أو يخفي مكانه ورأيه في أعظم حادث فاجأ المسلمين بعد وفاة نبيهم!

لعلنا نستطيع أن نجد السبب في شخصية خالد وخلائقه وخصائصه، فهو رجل حرب، وقائد جحفل، وفارس ميدان، وبطل جلاد؛ وفي لسان العصر: رجل عسكري؛ والعسكريون أبعد ما يكونون عن السياسة ودهيها؛ أو ينبغي أن يكونوا كذلك، لأن العسكري ينتهي إليه التنفيذ، فلو أنه كان رجل سياسة تتجاذبه الآراء وتتقارضه المذاهب، وتتداوله الأحزاب لم يصلح أن يكون أداة متماسكة لتنفيذ ما تنتهي إليه السياسة من رأي يختلف مع رأيه ومذهب شيعته وحزبه.

والرجل العسكري في طبيعته وتربيته صاحب فكرة واحدة، ولا يرى لتنفيذها إلا طريقاً واحداً، والرجل السياسي صاحب فكر كثيرة في الموضوع الواحد، وله طرائق متعددة يرى أن يسلكها لتحقيق أهدافه؛ ونعني أن

الرجل العسكري ينظر إلى الحياة من جانب واحد، هو القوة الميدانية، أما الرجل السياسي فإنه ينظر إلى الحياة من جوانب متعددة ليس غفلاً منها القوة المادية؛ ولكنها عنده ليست أهمها ولا أولاها.

وخالد بن الوليد في هذا المقام كغيره من العسكريين أبطال الحروب الذين يقفون عند الشدائد وراء رجال الشورى وذوي الرأي من رجالات الدولة متأهبين، ينتظرون الأمر بامتشاق الحسام ليحكم بين الناس، والسياسة التي نعنيها هنا ليس منها سياسة تدبير الحرب وإدارة المعارك، لأن هذه لا تخرج بالرجل العسكري عن نظرته للحياة.

وهناك أمر آخر قد يمت إلى الطبيعة العسكرية بصلة، ولكنه في خالد ابن الوليد يتميز أشد التميـيز حتى يظن أنه من خصائصه، ذلك ان **خالداً** - فيما عرفنا من طبيعته - رجل شديد التسمك برأيه إلى حد التعصب، لا يرى أن يرجع إلى رأي غيره، ولعل مرد ذلك عنده هو خلق الصرامة الحربية، والغلو في الاعتداد بالنفس في غير عناد ولا مكابرة، ولكن عن اقتناع وإيمان، وليس من الحتم أن يكون الإقتناع والإيمان بالرأي بعيدين عن الخطأ مبرأين عن مجانبة الحق والصواب، ولكنهما على كل حال بعيدان بصاحبهما عن متابعة الهوى والخضوع لشهوات النفس، وقد يكون ذلك - في قائد لم تشذبه نزعة روحية غلابة - من قبيل الغرور والتعالي والادلال على الناس بما تميز به من الخصائص والصفات.

وإذا كنا لم نعرف لخالد رأياً ولم نسمع له صوتاً في مشاورات الردة، فإنه لينقدح في حدسنا أن خالداً كان أميل إلى رأي الخليفة في أخذ الناس بالحزامة وشدة البأس، ولذلك كان خالد أول قائد عقد له أبو بكر الصديق لواء الإمارة العامة وأوعب معه الناس، وأمره بالمسير إلى عدوه، وأظهر أنه ملاقيه على كتيبته ليرهب بخروجه ويعرف الناس الجد في الأمر.

روى الطبري عن **طريق** ابن الكلبي: أن أبا بكر لما رجع إليه أسامة ومن كان معه من الجيش جد في حرب أهل الردة، وخرج بالناس وهو فيهم حتى نزل بذي القصة منزلاً من المدينة على بريد من نحو نجد، فعبى هنالك جنوده، ثم بعث خالد بن الوليد على الناس، وجعل ثابت بن قيس على

الأنصار وأمره إلى خالد، وأمره أن يصمد لطليحة وعيينة بن حصن وهما على بزاخة ـ ماء من مياه بني أسد ـ «وأظهر أني ألاقيك بمن معي من نحو خيبر مكيدة» وقد أوعب مع خالد الناس، ولكنه أراد أن يبلغ ذلك عدوه فيرعبهم.

وقال صاحب الخميس: ولما كان من العرب ما كان من التوائهم على الدين ومنع من منع منهم الصدقة جد بأبي بكر الجد في قتالهم، وأراه الله رشده فيهم وعزم على الخروج بنفسه إليهم، وأمر الناس بالجهاد، وخرج هو في المهاجرين والأنصار، وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بقعاء، وهو ذو القصة، يريد أبو بكر أن يتلاحق الناس من خلفه، ويكون أسرع لخروجهم ووكل بالناس محمد بن مسلمة يستحثهم فانتهى إلى ذي القصة عند غروب الشمس، وصلى بها المغرب، وأمر بنار عظيمة فأوقدت، وأقبل خارجة ابن حذيفة الفزاري في خيل قومه يريد المدينة للإغارة عليها، فلقيه أبو بكر فيمن معه من المسلمين فانكشف خارجة في فلال المرتدين من قومه وولوا منهزمين، فقويت بذلك شوكة المسلمين وشجعت قلوبهم وتحلبوا إلى الصديق وهو مقيم لهم حتى تكاملت منهم حشود عظيمة، وهو يظهر أنه سيقود هذه الحشود بنفسه.

رأى المسلمون عزمة الصديق فانفعلت لها نفوسهم وعزموا عليه أن لا يخرج بنفسه وأن يرجع حتى يكون للناس فيئة ورداءً، فلما كثروا عليه واطمأن إلى صوارم عزماتهم أراد أن يستخلف على الناس، فنثر بين يديه كنانة أبطال الإسلام لينظر أصلبها عوداً فيرمي به في أول وجه، فدعا زيد ابن الخطاب فعرض عليه إمارة الجيش، فقال له زيد: يا خليفة رسول الله، كنت أرجو الشهادة مع رسول الله ﷺ فلم أرزقها، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه، وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه!! فتركه أبو بكر إلى نيته وما يرجو لنفسه من الخير، ودعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة فعرضها عليه فاعتذر بما اعتذر به زيد بن الخطاب، ثم دعا سالماً مولى أبي حذيفة فأبى عليه.

كأن الله تعالى ادخر هذا المقام لسيف بطل الإسلام القائد العبقري، حليف الحروب وصنديدها، وربيب الجلاد، ورضيع الجهاد أبي سليمان خالد

ابن الوليد، فالتفت إليه أبو بكر وهو أعلم بيمن نقيبته وطالع سعده ومكانه من سياسة الحرب، فدعاه فلبى، وأمره على الجيش فأطاع، وأعلن في الناس ذلك وقال لهم: سيروا على اسم الله وبركته فأميركم خالد بن الوليد، فاسمعوا له وأطيعوا.

ثم خلا بخالد فقال له: يا خالد عليك بتقوى الله، وإيثاره على سواه، والجهاد في سبيله، فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار.

* * *

توجيه خالد إلى طليحة الأسدي

كان طليحة بن خويلد الأسدي ممن تكذَّب فادعى النبوة في حياة النبي ﷺ والتف حوله جمع من طغام قومه وسفهائهم، فوجه إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور، وأمره بالقيام مع من استطاع من المسلمين على كل من ارتد، فأشجوا طليحة وأخافوه، وهم ضرار به حتى كاد أن يأخذه، ولم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي، فاستطار أمر طليحة، واستشرى شره، وعظمت على الناس فتنته، وتفاقم خطبه، وكان رجلاً فارساً شجاعاً وداهية منطقياً، فوجه إليه أبو بكر رضي الله عنه أول جيش في حروب الردة بعد إيقاعه بعيسى وذبيان، بقيادة البطل المظفر خالد بن الوليد، وعهد إليه إذا فرغ من طليحة سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له ثم خلا أبو بكر بخالد وألقى إليه وصيته الخالدة فقال:

وصية أبي بكر لخالد

«يا خالد عليك بتقوى الله تعالى وإيثاره على من سواه، والجهاد في سبيله والرفق بمن معك من رعيتك، فإن أصحاب رسول الله ﷺ أهل السابقة من المهاجرين والأنصار، فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم، فإذا دخلت أرض العدو، فكن بعيداً عن الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل، وسر في صحابك على تعبية جيدة واحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تقاتل بمجروح، فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات، فإن في العرب غرة، واقلل من الكلام، واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سريرتهم، وإذا أتيت داراً فاقحم، فإن سمعت أذاناً أو رأيت مصلياً فامسك حتى

تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة، فإن لم تسمع أذاناً ولم تر مصلياً شن الغارة فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع، وإذا لقيت أسداً، وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك، وبعضهم لا لك ولا عليك، متربص دائرة السوء، ينظر لمن تكون الدبرة، فيميل مع مَن تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة فاستعن بالله على قتالهم، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم، فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة، سر على بركة الله».

تنبيه وتذكير

يستوقف نظر الباحث في هذه الوصية أمور جديرة بالتمييز والتسجيل، فالخليفة الأول يأمر قائده بالرفق بمن معه من جنده ورعيته، لأنهم من أهل السابقة في الجهاد، وذوي السوابق في الذود عن حياض الدين وحمايتـه، والرفق بالرعية دستور الحكمة السامية في سياسة الجند، والعروة الوثقى بين الراعي والرعية يربط قلوبهم بقلبه، وتصل ألبابهم بلبه، وتمد أبصارهم إلى موقع بصره، وتنيط طاعتهم بإشارته، وإقدامهم بأمره.

والخليفة الأول يأمر قائده بمشاورة من معه من أهل الرأي في جيشه عند الملمات والمشاورة دستور الإسلام، وقاعدة نظام الحكم في دولته، أمر بها القرآن الكريم، وعمل بها رسول الله ﷺ، وهو أغنى الناس عنها، لو كان لبشر عن الشورى غناء، واستن بها الخلفاء الراشدون من بعده، وهي بعد طويل الزمن وكثرة التجارب أعلى مطامح الأمم الراقية، ولو أن المسلمين حرصوا عليها لما أصابهم هذا التفرق والانحلال.

والخليفة الأول يحذر أمير جيوشه إذا دخل أرض العدو مهاجماً أن يواجه حملة جحفله وعنفوان قوته. لأنه يخشى عليه صدمة الجولة، وجولة الدفاع بقوى متجمعة متأهبة أشد وطأة وأقوى اندفاعاً، وأصلب قناة من هجمة المهاجم، وهذا إرشاد إلى تعرف مواطن الضعف في قوى العدو لأخذه من جوانبها، وذلك ما يتبارى في ميدانه قادة الجيوش منذ أقدم الأزمان، وقد أصبح من أعظم مظاهر العبقرية في سياسة الحروب الحديثة.

والخليفة الأول يأمر قائده أن يستظهر بالزاد، ويسير بالأدلاء، يقدم أمامه الطلائع لترتاد له المنازل، وفي ذلك تنبيه إلى قيمة الاستعداد في تموين الجيوش، وتوفير حاجاته حتى لا يشغل الجندي بأمر نفسه عن واجبه الحربي وموقفه من القتال، وقد عرفت الحروب الحديثة، وهي أشد تعقيداً في طرائقها من الحروب القديمة، وأن تموين الجيوش وتوفير أغذيتها وذخيرتها وأسلحتها أهم أسباب النصر والظفر على الأعداء.

أما السير بالأدلاء وتقديم الطلائع، فهذا ما تسميه أساليب الحرب الحديثة طلائع الاستكشاف، وهو أمر من أعظم فنون الحرب، وعلى أساسه ترسم الخطط هجوماً ودفاعاً، وفي صحائف الحربين العالميتين ما يقفنا على القيمة العظيمة لهذا الزمن عند قادة الجيوش ويرينا كيف كانت العبقريات الإسلامية تدير دفة الحياة في الحرب والسلم بأفكار لا تعرف حواجز الزمان والمكان.

والخليفة الأول يأمر قائده أن يسير إلى عدوه في تعبئة جيدة ومرد ذلك إلى حذق القائد وحزمه ومهارته في إدارة دفة المعارك ووضع كل فرقة في موضعها، وترافق الأسلحة وتعاونها، ونظام الكتائب والفرق، وقيام كل كتيبة وفرقة بواجبها، فلا تتعداه إلى ما هو من خصائص غيرها، وارتباط طبقات الجيش يجعلها وحدة في دفاعها وهجومها.

وفي قول أبي بكر الصديق لقائده البطل العبقري في هذه الوصية «واحرص على الموت توهب لك الحياة» إرشاد إلى أعظم مبادىء الفدائية الصادقة في سبيل العقيدة الإيمانية التي يجب أن يربى على غرارها الجندي حتى لا يعترضه الجبن المذل، ولا يقعد به الفزع عن الإقدام، ولا يرده التشبث بالعيش عن الاقتحام، ولا يرعد فرائصه الفرق فيتقدم وهو ثابت الجأش رابط الجنان.

ويقول الخليفة الأول لقائده البطل: ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، وفي ذلك تنبيه على العناية بالجرحى، فلا يقحمون في المعارك وهم يألمون من جراحهم، لأنهم حينئذ يكونون وزراً ثقيلاً على المقاتلة، ومشغلة للقيادة عن التفكير في متابعة الخطط وتنفيذها، وعقبة في سبيل الإقدام والاقتحام، ولا يخلو قول الصديق من لفتة إلى ما يجب أن يكون في أوائل

معدات الجيوش من المشافي الحربية المتنقلة تبعاً لحركات الكتائب، وفي قول الصديق لخالد رضي الله عنهما: واحترس من البيات فإن في العرب غرة، تحريش على اليقظة الواعية، وتأكيد للعناية بنظام الحراسة الدقيقة حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة تحت جنح الظلام ومغافصة الغفلة، ولقد كان خالد لا ينام ولا ينيم؟ ذاكي العيون، يقظ الحراسة، نهازاً للفرص؛ لا تفلت منه نهزة إذا حانت.

وفي قوله: وأقلل من الكلام؛ إشارة إلى ما يجب أن يتحلى به القادة والزعماء وولاة الأمر وأصحاب السلطان من حبس ألسنتهم عن الثرثرة والتكثر من الحديث تحرزاً من سقطة قد تكشف سراً من أسرار الدولة أو خطة من خطط الحرب مما يؤدي إلى ضياع فرصة كان في انتهازها مصلحة للأمة، أو ظفر في موقعة، أو يؤدي إلى إنزال نكبة بالجيش أو الدولة.

وليس أخطر على الأمم، ولا أفتك بالجيوش من ثرثرة القادة والزعماء وانطلاق ألسنتهم، وإذا عيبت الثرثرة على عامة القادة فهي في قادة الجيوش ورجال العسكرية أخطر وأفدح.

وفي قوله له: واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سريرتهم، وضع لأساس العلاقة التي يجب أن تكون بين ولاة الأمور وذوي السلطان من الحاكمين وبين رعيتهم من عامة الناس وخاصتهم، ممن استرعاهم الله مصالحهم وولاهم سياسة أمورهم وإصلاح شؤونهم، وتأمين تصرفاتهم في دائرة العدالة والتراحم.

ونصيحة الصديق ترمي إلى أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ولا سيما علاقة القائد الحربي بجنود جحافله لا تتعدى ما يظهر من صفحات الناس في أقوالهم وأفعالهم؛ لأن المقصود الأهم من نظم الحكم وتولية القادة إنما هو إصلاح حال الأمة، وتأمين حقوق الأفراد والجماعات، ومنع التغالب الذي ينتهي إلى ابتزاز الأقوياء الضعفى، وإضعاف ثقة الرعية والجند في الولاة والقادة مما يشيع في الأمة الإضطراب والفوضى، وينشر فيها الأفكار الخطرة الهادمة.

وليس بالوالي والقائد حاجة إلى أن يفحص عن قلوب الناس ليكشف

ما بها من خير أو شر، وإنما به أشد الحاجة إلى أن يرقب ببصر نافذ وبصيرة نيرة أعمال الأمة ومن تولى أمرهم من الجند ليجزي من أحسن ويزجر من أساء.

وقد عاش رسول الله ﷺ دهره يسوس أمته، وأهل النفاق منبثون في غمار المؤمنين، فلم يكشف صفحة أفئدتهم ولا نبش قلوبهم، بل كان يذود عنهم من يريد ذلك بهم حتى فضحهم الله وكشف سوأتهم بنعوتهم العامة وأوصافهم الشائعة، ولم يذكر أحداً منهم باسمه ولا عينه بشخصه، تربية للأمة على عدم إشاعة سوء الظنة فيها بين أفرادها وجماعاتها، مما يقود إلى بلبلة الأفكار واضطراب الحياة الاجتماعية فيها.

وفيها ختم به الصديق وصيته للقائد العبقري من الحديث عن قبائل العرب وموقفهم من الإسلام، وتبيين شأن أسد وغطفان وأهل اليمامة ما يدل على إحاطة الخليفة الأول علمًا بشأن الناس، وأنه بتوجيه خالد إليهم، وهم على ما وصف، قد رماهم بالصماء التي لا تنطق بإقالة عثرة، ووجه إليهم بقائد جمع بين أطراف الكفاية السياسية والحربية فرد رسن المتربصين إلى كاهل الإسلام، وفتك بجموع الطغاة المعاندين.

* * *

خالد وعدي ابن حاتم

وعى بطل الإسلام خالد وصاة إمامه الأعظم، فسار إلى عدوه بجيشه، يقدمه حزم جليد، وصيت في الحروب تفزع له قلوب الصناديد، وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فيما رسم له من خطة سيره: أمره أن يبدأ بطيء على أكناف جبليهم سلمى وأجأ، ثم يكون وجهه إلى البزاخة ليلقى طليحة وألفافه، ثم يسير إلى مالك بن نويرة بالبطاح، وكان طليحة بعد أن أرزت إليه عبس وذبيان أرسل إلى طيء غوثها وجديلتها يطلب إليهم أن ينضموا إليه، فتعجل إليه ناس من الحيين، فكانوا في ألفافه، وحرضوا سائرهم على اللحاق بهم؛ فلما خرج خالد على تعبيته ازوار عن البزاخة وجنح إلى أجأ، فقعد ذلك سائر طيء وبطأهم عن اللحاق بإخوتهم الذين انضموا إلى طليحة، وكان في جيش خالد أبو طريف عدي بن حاتم، فتقدم إلى قومه يفتلهم في الذروة والغارب حتى أجابوه، فكان معه من غوثهم

ألف رجل ممن يحمل السلاح، وكانت بقية جديلة قد همت أن تلوي أعناقها فقام فيهم مكيث بن زيد الخير . وكان رجل صدق وديانة ـ فقال لهم: أتريدون أن تكونوا سبة على قومكم؟ لم يرجع رجل واحد من طيء، وهذا أبو طريف عدي بن حاتم معه ألف رجل من طيء فكسرهم؛ ولكنهم لم يتقدموا إلى صفوف المسلمين حتى لقيهم عدي؛ فإن خالداً رضي الله عنه أراد أن يبدأ بقتالهم لما بلغه خبرهم، فقال لعدي: يا أبا طريف ألا نسير إلى جديلة؟! فقال عدي: يا أبا سليمان «لا تفعل» أقاتل معك بيدين أحب إليك أم بيد واحدة؟ قال: بل بيدين، قال عدي فإن جديلة إحدى يدي! فكف عنهم خالد، فأتاهم عدي فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا فحمد الله وسار بهم إلى خالد وهم في أهبة الحرب، فلما رآهم خالد على عدتهم فزع منهم وظن أنهم جاؤوا لحربه، فصاح في أصحاب السلاح، فقيل له: إنما هي جديلة أتت تقاتل معك!! ففرح بهم خالد ورحب ، واعتذروا إليه من اعتزالهم، وقالوا: نحن لك حيث أحببت، فضمهم خالد إلى جيشه وعقد لواء طيء كلها غوثها وجديلتها لأبي طريف عدي بن حاتم الذي كان أيمن مولود وخيره في أرض طيء وأعظمه عليها بركة، وقد فرح المسلمون به وبقومه فرحاً شديداً فقال شاعرهم:

جزى الله عنا طيئاً في بلادها ... ومعترك الأبطال خير جزاء
هم أهل رايات السماحة والندى ... إذا ما الصبا ألوت بكل خباء
هم ضربوا بعثاً على الدين بعدما ... أجابوا منادي فتنة وعماء

* * *

خالد في وجه طليحة

تقدم خالد بجيوش الإسلام إلى البزاخة وهو ماء لبني أسد حتى كان قريباً منه، وكان طليحة قد نزل في جموعه من المرتدين على ماء آخر لهم يقال له الغمر ، وتراءى الجيشان ، فقال عدي بن حاتم لخالد بن الوليد : يا أبا سليمان: اجعل قومي مقدمة أصحابك، فقال له خالد: يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب، وأنا أخاف أن أقدم قومك فإذا لحمهم القتال انكشفوا فانكشف من معنا. ولكن دعني أقدم قوماً صبراً لهم سوابق وثبات، وهم من قومك (يريد المهاجرين والأنصار) فقال عدي: الرأي ما رأيت.

وهذه نظرة ثاقبة من نظرات أبي سليمان خالد بن الوليد في سياسة

الحرب وإدارة دفة الوقائع والعلم بأحوال الرجال وشأن الجند في حومة الوغى، ومنزلة أهل العقائد والإيمان في الإقدام والحرص على الموت استشهاداً في سبيل الله.

انتهى المسلمون إلى معسكر طليحة وهو في قبة من أدم ضربت له، يسجع لأصحابه ويتكهن لهم فدعاه خالد إلى الإسلام تنفيذاً لعهد الخليفة وعملاً بسنة الإسلام، فأبى طليحة وأعرض اغتراراً بكثافة من معه من الحشود، فانصرف عنه خالد إلى معسكره، وبات يدبر أمره ويشاور أركان حربه ويعبىء جيشه، فلما كان السحر دفع باللواء الأعظم إلى زيد ابن الخطاب، وعقد لواء الأنصار لثابت بن قيس بن شماس، ودنا الناس بعضهم لبعض، وخرج طليحة في كتيبة خاصة، قوامها أربعون غلاماً جلداً أقامهم في الميمنة وقال لهم: اضربوا حتى تأتوا الميسرة فتضعضع الناس ولم يقتل أحد منهم، ثم أقامهم في الميسرة ففعلوا مثل صنيعهم الأول فانكشف المسلمون، فصاح خالد: يا معشر الأنصار، الله، الله، واقتحموا غمار المعركة وتراجع إليه الأنصار، وتبعهم سائر الناس فاختلطت الصفوف واختلفت فيما بين الناس السيوف، وضرس خالد في القتال فجعل يقحم فرسه، ويقولون له: الله، الله! فإنك أمير القوم، ولا ينبغي لك أن تقدم، فيقول خالد: والله إني لأعرف ما تقولون، ولكني ما رأيتني أصبر وأخاف هزيمة المسلمين.

نعم إن خالداً رضي الله عنه أمير القوم، ولا ينبغي لأمير القوم أن يباشر القتال بنفسه، ولكن إمارة خالد بن الوليد في الحرب طرز فريد، لأنه بطل قبل أن يكون أميراً، وجندي قبل أن يصير قائداً، فأنى له الصبر عن الاقتحام وقد حمي الوطيس والمسلمون ينكشفون؟

روى الكلبي عن بعض الطائيين: أن طليحة لما حمل على الناس في كتيبته الخاصة نادى منادي الناس: يا خالد: عليك سلمى وأجأ؛ فأجابه خالد: بل إلى الله الملجأ، ثم حمل خالد فوالله ما رجع حتى لم يبق من أولئك الأربعين رجل واحد، وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما.

يريد الناس من خالد أن يتحصن في ساعة العسرة بالجبال وهو يرى أن يتحصن بالله تعالى خالق الجبال، وإذا لم يكن قواد الجيوش على مثل هذه

الثقة ورسوخ الإيمان والشجاعة في لحظات الشدائد التي لا ينفع فيها التحوز والاحتماء بالحصون والقلاع فليس لهم إلى النصر من سبيل.

هذه حقيقة من حقائق الحرب يعلمها خالد بن الوليد علم اليقين وعليها عاهده إمامه الأعظم والخليفة الأول أبو بكر الصديق في قوله: واحرص على الموت توهب لك الحياة، فلم يستطع خالد ـ وقد قبل هذا العهد الفدائي ـ أن يصبر وهو يرى المسلمين تضعضعهم أسياف أعدائهم، وهو واقف ينظر إليهم لأنه أمير؛ أف لهذه الإمارة التي تحجز سيف الله وبطل الإسلام أن يواسي المسلمين ساعة المحنة بنفسه!! وليس من شك في أن شجاعة خالد في اقتحامه ومخاطرته هي التي كان لها فضل في تثبيت المسلمين وعطفتهم على أعدائهم حتى أنزل الله عليهم نصره.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ وكان في جند خالد ـ: نظرت إلى راية طليحة يومئذ حمراء يحملها رجل لا يزول بها فتراً، فنظرت إلى خالد أتاه فحمل عليه فقتله فكانت هزيمتهم، فنظرت إلى الراية تطؤها الخيل والإبل والرجال حتى تقطعت، ولقد رأيت خالد يوم طليحة يباشر القتال بنفسه حتى ليم في ذلك، ولقد رأيته يوم اليمامة يقاتل أشد القتال، إن كان مكانه ليتقي حتى يطلع إلينا منبهراً.

هكذا كانت بطولة خالد بن الوليد، وهكذا كانت قيادته لجند الإسلام في حرب الردة، يصفها جندي من جنوده عرف بصدق المقال، ودقة الوصف وشدة التحري، فخالد وهو أمير القوم يضرب للناس المثل بنفسه حتى يكون لهم فيه أحسن الأسوة، فلا يبقى منهم أحد إلا وهو في نفسه صورة متحركة لذلك المبدأ الفدائي الذي تكيف به قائدهم العظيم؛ فلقد حرص خالد على الموت في سبيل الحق والعقيدة، فحرص كل جندي من جنود الإسلام مثل حرصه، فوهب الله لهم عز الحياة وكرامتها، ونصرهم على أعدائهم نصراً مؤزراً.

وقد أدرك أعداء الإسلام هذه الروح القوية في جند الإسلام ورأوا فيهم حب التضحية واقتحام الموت في سبيل عقيدتهم ودينهم فرجعوا إلى هذه الروح الفدائية نصرهم وهزيمة المرتدين. روي أن طليحة لما رأى هزيمة

أصحابه بعد جولتهم قال لهم: ويلكم ما يهزمكم؟! فقال رجل منهم: أنا أخبرك!! إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله، وإنا نلقى أقواماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه.

* * *

هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام

ضرس القتال بين جند الإسلام وأصحاب طليحة، يقود كل جماعة رئيسها، وكان فيهم عيينة بن حصن الفزاري يقود فزارة، وكانوا من أشد القوم ترامياً على القتال، يزمرهم عيينة فيقتحمون حتى إذا لحمتهم الحرب وذاقوا حر السلاح نظروا إلى قائدهم عيينة، وطليحة متزمل بكسائه ينتظر شيطانه، فأتاه عيينة فقال له: لا أبالك! هل أتاك الوحي بعد؟ فقال طليحة وهو تحت الكساء: لا، والله ما جاء بعد. فقال عيينة: تبا لك سائر اليوم! ثم رجع إلى أصحابه يزمرهم على القتال ويحضهم وقد ضجوا من وضع السلاح فيهم فلما طال الأمر على عيينة جاء إلى طليحة وهو مستلق متشح بكسائه فجبذه جبذة جلس منها، وقال له: قبح الله هذه من نبوة، ما قيل لك بعد شيء؟ فقال طليحة قد قيل لي: إن لك رحى كرحاه وأمراً لن تنساه!! فقال عيينة: أظن أن قد علم الله أن سيكون لك أمر لن تنساه؛ يا فزارة هكذا وأشار لقومه تحت الشمس لينصرفوا فانصرفوا، وقال لهم: هذا والله كذب ما بورك له ولا لنا فيها يطلب. فتبعه المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، وكان في الأسرى عيينة قائدهم، وانكشف عن طليحة شيطانه، ورأى ما حل بأصحابه من بلاء القتال والأسر، وهم يصيحون به ماذا ترى؟ وكان طليحة قد أعد فرسه فوثب عليها وحمل وراءه امرأته النوار، ثم قال لأصحابه: من استطاع منكم أن يفعل هكذا فليفعل، فهرب إلى الشام، ونزل هناك على بني كلب، وبلغه ما لقيت أسد وغطفان من جنود المسلمين، ومعاودة العرب للإسلام فأسلم وحسن إسلامه.

ذكر ابن اسحاق أن طليحة لما ولى هارباً تبعه عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم، وكان طليحة أعطى الله عهداً أن لا يسأله أحد شيئاً إلا أجابه إليه، فلما أدبر ناداه عكاشة للنزال فعطف عليه فقتل عكاشه، ثم أدركه ثابت فقتله أيضاً فاشتد قتلهما على المسلمين.

وذكر الواقدي في قتل عكاشه وثابت رواية تخالف رواية ابن اسحاق

فقال: إن خالد بن الوليد لما دنا من القوم بعث عكاشه وثابتاً طليعة أمامه، وكانا فارسين، فلقيا طليحة وأخاه مسلمة بن خويلد طليعة لمن وراءهما من الناس، فلما التقوا انفرد طليحة بعكاشه ومسلمة بثابت، فلم يلبث مسلمة أن قتل ثابتاً، وصرخ طليحة بمسلمة: أعني على الرجل فإنه قاتلي، فكر معه مسلمة على عكاشه فقتلاه، ثم رجعا إلى من وراءهم، وأقبل خالد معه المسلمون، فلم يرعهم إلا ثابت بن أقرم قتيلاً، تطؤه المطي فعظم ذلك على المسلمين، ثم لم يسيروا إلا يسيرا حتى وطئوا عكاشة قتيلاً، فثقل القوم على المطي حتى ما تكاد ترفع أخفافها بهم؛ وأذكى ذلك الحمية في أنفس المسلمين حين التقوا بأصحاب طليحة، وأخذوهم قتلاً وأسراً، وصاح خالد في جنده: لا يطبخن رجل قدراً ولا يسخنن ماء إلا أثفيته رأس رجل!

وقد مر طليحة بعد إسلامه بجنبات المدينة المنورة في خلافة أبي بكر معتمراً، ولم ينزل بها حياء من أبي بكر، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة!! فقال: ما أصنع به؟ قد أسلم، ولما توفي أبو بكر وقام بالأمر من بعده عمر أتاه طليحة فبايعه، وقال له عمر: أنت قاتل عكاشة وثابت؟ والله لا أحبك أبداً، فقال: يا أمير المؤمنين ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يهني بأيديهما؟ وقد كان لطليحة بعد إسلامه مواقف محمودة في الجهاد، وكان له في حرب القادسية قدم صدق؛ وعرف له عمر بن الخطاب مكانته ورأيه في الحرب فكتب إلى النعمان بن مقرن أن استعن في حربك بطليحة وعمر ابن معد يكرب، واستشهد طليحة في حرب نهاوند.

* * *

حملة تأديبية

ولما انتهى خالد رضي الله عنه من بني أسد وفزارة بهزيمة طليحة سرى الفزع إلى قلوب القبائل العربية الواقفين بالمرصاد، ينظرون لمن تكون الدبرة، فلم يلبثوا أن ترامت إليهم مع رياح الصحراء أنباء انتصارات المسلمين، فقدمت وفودهم على خالد، وألقوا في يده مقود طاعتهم بين راغب في الإسلام وخائف من السيف، وكانت بنو عامر متحيرة تقدم رجلاً وتؤخر أخرى حتى علموا بما صنع خالد ببني أسد وفزارة، فأقبلوا على خالد يبايعونه فقبل منهم، وأخذ عليهم عهد الله وميثاقه ليؤمنن بالله ورسوله وليقيمن الصلاة وليؤتن الزكاة ويبايعون على ذلك ابناءهم ونساءهم.

وكانت هذه أول وقعة أوقعها خالد بالمرتدين، فجعل منها وسيلة عاصفة للترهيب والتخويف، فنكل بهم وبعج طوائفهم وبخع زعماءهم وشرد بهم من خلفهم ومثل بكل من عدا على أهل الإسلام في ردته، ولم يدخل فيه الناس من الطاعة وحسن الإسلام فقتلهم كل قتلة، وحرقهم ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من شواهق الجبال ونكسهم في البئار.

استبقى خالد قرة بن هبيرة القشيري وعيينة بن حصن الفزاري وأرسل بهما إلى أبي بكر رضي الله عنه، وكتب إليه كتاباً قال فيه: إن بني عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت في الإسلام بعد تربص وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة، وبعثت إليك بقرة وأصحابه.

قال ابن عباس: فقدم بهما المدينة في وثاق، فنظرت إلى عيينة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريدة، ويضربونه ويقولون: أي عدو الله! أكفرت بعد إيمانك؟ فيقول: والله ما كنت آمنت بالله!! وكذلك كان أعرابياً جافياً، أقام ما أقام في حياة رسول الله ﷺ مجدوع الأنف مقلم الأظفار، حتى إذا حانت من الشيطان لفتة الردة فاضطربْ لها حبل الإسلام، ومرج عهده، وماج أهله، وبغي الغوائل، ظن عيينة ومن لف لفه من جفاة الأعراب ومنافقي العرب أن قد اكثبت نهزهم، ولات حين الذي يرجون.

روي أن عمرو بن العاص ـ وهو قافل من عمان بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ لقي عيينة بن حصن خارجاً من المدينة في جماعة على شاكلته، وكانوا قدموا على أبي بكر في طليعة الفتنة، يقولون له: إن جعلت لنا شيئاً كفيناك من وراءنا؛ فقال عمرو بن العاص: ما وراءك يا عيينة؟ من ولى الناس أمورهم؟ قال: أبو بكر. قال عمرو: الله أكبر، فقال عيينة: يا عمرو قد استوينا نحن وأنتم؛ فقال عمرو: كذبت يا ابن الأخابث من مضر!!

* * *

وصل كتاب خالد إلى أبي بكر ودخل الأسرى المدينة، فروى أبو بكر في الأمر، وكان رضي الله عنه ضليع الرأي، نفاذاً إلى ما وراء الحجب، فعفا عن قرة وعيينة مع عظيم ذنبهما، وكتب لهما أماناً لأن الأمر كان لا يزال في

إبانه، وكانت العرب لا تزال جامحة، وكان المسلمون لا يزالون في حاجة إلى تأليف قلوب رؤساء القبائل ليكونوا رداءً وعوناً لهم في محنتهم، وهذه سياسة أبي بكر كانت تجمع بين اللين والمؤالفة، والشدة الزاجرة.

وكتب أبو بكر يرد على خالد كتابه فشجعه وزمره على أعداء الإسلام، وأظهر له رضاءه عما صنع بهم فقال له: ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً، واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جد في أمر الله، ولا تنين، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته، ونكلت به غيره، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله.

أخذ خالد بعد ظفره يتتبع فلول المرتدين ليقضي على الشر في مكامنه، وأخذ يجيل خيله فيما حوله من مضارب العرب، فلقي جمعاً لبني سليم، عليهم أبو شجرة بن الخنساء الشاعرة، وكان شاعراً يتكذب فقال:

صحا القلب عن مي هواه وأقصرا	وطاوع فيها العاذلين فأبصرا
وأصبح أدنى رائد الجهل والصبا	كما ودها عنا كذاك تغيرا
وأصبح أدنى رائد الوصل منهم	كما حبلها من حبلنا قد تبترا
ألا أيها المدلي بكثرة قومه	وحظك منهم أن تضام وتقهرا
سل الناس عنا يوم كل كريهة	إذا ما التقينا دارعين وحسرا
ألسنا نعاطي ذا الطماح لجامه	ونطعن في الهيجا إذا الموت أقفرا
وعارضة شبهاء تخطر بالقنا	ترى البلق من حافاتها والسنورا
فرويت رمحي من كتيبة خالد	وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

وكان أبو شجرة حين لحق بمن ارتد من قومه قبل لقاء خالد قد قال:

فلو سألت عنا غداة مزامر	كما كنت عنها سائلاً لو نأيتها
لقاء بني فهر وكان لقاؤهم	غداة الخواء حاجة فقضيتها
صبرت لهم نفسي وعرجت مهرتي	على الطعن حتى صار ورداً كميتها
إذا هي صدت عن كمى أريده	عدلت إليه صدرها فهديتها

وقوله: فرويت رمحي من كتيبة خالد: من أكاذيب الشعراء لأن قومه بني سليم لم يقيموا لخالد وكتيبته الظافرة إلا بمقدار ما أدركتهم السيوف

المسلمة حتى رعبلتهم وفرقت شملهم، وفر أبو شجرة، وتقطعت آماله، ثم أدركته عناية الله فعاود الإسلام ودخل فيما دخل فيه الناس. روي أنه قدم على عمر بن الخطاب في خلافته فلقيه وهو يعطي المساكين، فاستعطاه فقال له عمر لما عرفه: ألست القائل:

فرويت رمحي من كتيبة خالد   وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

وعلاه بالدرة، حتى سبقه عدواً ثم ركب إلى أرض قومه وفي ذلك يقول:

ضن علينا أبو حفص بنائله   وكل مختبط يوما له ورق
ما زال يرهقني حتى خذيت له   وحال من دون بعض الرغبة الشفق
لما رهبت أبا حفص وشرطته   والشيخ يفزع أحياناً فينحمق
ثم ارعويت لها وهي جانحة   مثل الطريدة لم ينبت لها ورق
وردتها الخل من شوران صادرة   إني لأزري عليها وهي تنطلق
تطير مرو أبان عن مناسمها   كما تنوقد عند الجهبذ الورق
إذا يعارضها خرق تعارضه   ورهاء فيها إذا استعجلتها خرق
ينوء آخرها منها بأولها   سرح اليدين بها نهاضة العنق

وكان فلال غطفان ممن نجا من خالد قد اجتمعوا إلى أم «زمل» سلمى ابنة مالك بن حذيفة بن بدر، وهي على مثل عز أمها «أم قرفة» فذمرتهم وصعدت سائرة فيهم وصوبت تدعوهم إلى حرب خالد، حتى اجتمع لها حشد، وتأشب إليهم الشراد من كل جانب، فلما بلغ أمرها خالداً، وهو يتتبع فلال القوم، عاج إليها، وقد استكشف أمرها وغلظ شأنها فقاتلها قتالاً شديداً وهي واقفة على جمل أمها أم قرفة تحرض الناس، حتى قتل بين يديها وحول جملها مائة رجل، ثم قتلت وانطفأت فتنتها، وبذلك انكسرت شوكة من أرز إلى البزاخة من المرتدين.

سياسة حكيمة

انتهت هذه الوقائع وقد أبانت عن مظاهر البطولة الخالدية، وتجلت فيها عبقرية البطل العظيم سيف الله خالد بن الوليد بما لم يكن فوقه زيادة لمستزيد، وقد كشفت عن جانب من جوانب الفكر العبقري في سياسة تصفية الوقائع والسير بها إلى نتائجها الطبيعية. ذلك إن خالداً رضي الله عنه بعد أن

تم له النصر، وأقبلت عليه القبائل مستسلمة أخذ من كل من جاءه مسلمًا بعد ارتداد ما ظهر من سلاحهم، واستحلفهم على ما غيبوا منه حتى اجتمع لديه منه شيء كثير، أعطاه قوماً من جنده يحتاجون إليه في قتال أعدائهم، وكتبه عليهم فلقوا به عدوهم ثم ردوه بعد، فقدم به على أبي بكر فضمه إلى ما كان قبضه من أسد وغطفان من الحلقة والكراع، فلما توفي الصديق رأى الفاروق أن الإسلام قد ضرب بجرانه، وأن هذا كان عارية لوقت الحاجة، فدفعه إلى أهله أو إلى عصبة من مات منهم.

وفي ذلك من سياسة الحرب وفضائل الأخلاق ما يمكن أن يعد في فرائد المسلمين التي رسخها في أنفسهم الإسلام بما بث فيها من أدب سام وخلق كريم، فخالد رضي الله عنه قبل من هؤلاء القوم توبتهم، وحقن بإسلامهم دماءهم، ولكن ما كان له أن يطمئن إليهم، فيترك في أيديهم الأسلحة التي حاربوه بها، والذخائر التي استعانوا بها عليه ومن الذي يؤمنه إذا تركها لهم وانصرف عنهم أن يطعنوه بها في ظهره، وهو مشغول عنهم؟ ثم هو لم يستعن بهؤلاء في حربه فيتخذهم جنداً إلى جنده، لأنهم استسلموا إليه مفزعين، فليس لهم رسوخ عقيدته وعقيدة جنده التي أحبوا في سبيلها الموت فرزقهم الله الحياة.

والذي يتأمل ما يجري في أعقاب الحروب بين الدول الكبرى في أعصر الحضارة والعلم من معاملة المغلوبين المستسلمين يدرك براعة السياسة الإسلامية التي كان يسوس بها قادة المسلمين الناس في السلم والحرب، ونظرة إلى جانب صنيع خالد وتصرفه فيما صنعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد رد الأمانة إلى أهلها بعد أن نشر الدين رايته، وقويت شوكته. ورست أوتاده. ترينا كيف كان قادة الإسلام يسوسون الناس سياسة كانت أقوى العوامل فيما بلغ إليه المسلمون الأولون من عز وسلطان.

الفصل الثامن

أحدوثة مالك بن نويرة

قصة غامضة ـ مالك بن نويرة ومسير خالد إليه ـ حكمة حازمة ـ غرور وتيه جاهلي ـ اختلاف الروايات ـ رواية ملفقة ـ رواية زائفة ـ رواية مشهرة ولكنها مريبة ـ عوامل الريبة في هذه الرواية ـ رواية مقبولة ـ موقف أبي قتادة وابن عمر في القصة ـ لعب الخيال في أقصوصة زواج خالد امرأة مالك ـ وجه الرأي في هذا الزواج ـ نتيجة.

قصة غامضة

هذه قصة من قصص التاريخ الإسلامي، اختلفت فيها الرواية اختلافاً بعيد المدى، واضطرب حولها الحديث اضطراباً قصي الغاية، يعسر معه على الباحث أن يجمع بين أطرافه في عروة واحدة، ومن ثمة كانت هذه القصة في صفحة التاريخ الخالدي سطراً غامضاً لا يتضح معناه إلا بشيء من التحقيق في عرض تلك الروايات المتكاثرة وتحليلها تحليلاً يصل بها إلى وجه الحق من واقع التاريخ.

* * *

مالك ابن نويرة ومسير **خالد** إليه

كان مالك بن نويرة سيداً من سادات تميم، وكان فيهم رئيس قومه بني يربوع، وفارسهم وشاعرهم وفتاهم الذي إليه يجأرون، ولأمره يطيعون، وكان في نفسه تياهاً معجاباً، ذا مخيلة وجفلة، وقد عرف بالجفول.

أسلم حين قدم في وفد قومه بني تميم على النبي ﷺ، فأمره على صدقات قومه، فلما ذر قرن الشيطان في أفق الفتنة، وارتدت الأعراب ومنعوا الزكاة، كان مالك فيمن اضطرب أمره وطاش سهمه، وكان قد جمع صدقات قومه، فبلغته وفاة النبي ﷺ، فعدا على ما جمع وانتهبه وفرقه في قومه، فانتهى ذلك إلى أبي بكر والمسلمين فعظم عليهم فعله، وعهد أبو بكر إلى قائد جيوشه البطل خالد بن الوليد في وصيته: «إن كفاك الله الضاحية فامض إلى اليمامة» وحقق الله ظن الصديق رضي الله عنه، وفرغ خالد في الجولة الأولى من أسد وغطفان ومن لف لفهم، وعزم المسير بجيوشه الظافرة إلى اليمامة ليأخذ

الكذاب مسيلمة في قومه بني حنيفة كما أخذ طليحة الأسدي في جموعه وألفافه تحقيقاً لوصية الخليفة الأعظم، وكان خالد قد ترامى إليه شأن مالك ابن نويرة، فمد إليه وإلى من شاركه في ضلالته يده ليؤمن ظهره ويطهر ما يتركه خلفه من أرجاس الردة ويفرغ إلى أهل اليمامة لقوة شكيمتهم، وإجماعهم على الارتداد كما أخبر بذلك أبو بكر خالداً في وصيته حيث قال في خاتمتها: «ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم».

حكمة حازمة

أظهر خالد للناس عهد أبي بكر إليه بالمسير إلى اليمامة فتوقفت الأنصار، وقال قائدهم ثابت بن قيس بن شماس: ما عهد إلينا ذلك، وما نحن بسائرين، وليست بنا قوة، وقد كل المسلمون، وعجف كراعهم، فقال لهم خالد: «أما أنا فلست بمستكره أحداً منكم، فإن شئتم فسيروا، وإن شئتم فأقيموا، وأنا الأمير، وقد عهد إلي، ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة، وكنت إن أعلمته ـ الخليفة ـ فاتني، لم أعلمه، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، فأنا قاصد إلى مالك ومن معي من المهاجرين».

لا بد للقلم هنا من وقفة للتأمل في هذه السياسة الجريئة الحازمة التي تقتضيها الحرب ولا ترضى غيرها، حتى نرى كيف تتخطى العبقرية الإسلامية ممثلة في بطلها خالد بن الوليد حواجز الزمن في تفكيرها السياسي، وإدارة دفة القيادة الحربية والحرب يستعر أوارها، والعدو واقف بالمرصاد يتحين الفرص ليثب على جيوش المسلمين وثبة الإبادة والإفناء.

فهذا القائد العبقري خرج على رأس جيشه ليوقع بالمرتدين، ويقضي على الفتنة في منابتها، وهذه الوقعة التي انتصر فيها على أسد وغطفان ليست إلا مقدمة الأمر، فكيف يقف عندها، وما قضى للإسلام من أعدائه وطراً؟

فلا بد له من المسير إلى أولئك الذين أجمعوا أمرهم على الارتداد عن دين الله، ولكن كيف يحقق مطامح عبقريته وينفذ برنامج خليفته وهذا جيش المسلمين ينقسم على قائده، ففريق يعطيه طاعته أنى أراد، وفريق يختلف عليه، ويرى أنهم لا يعطون قائدهم مقاد الطاعة إلا في حدود عهد الخليفة، وهم لا يعلمون للخليفة عهداً بهذا المسير الجديد، ويحتجون لرأيهم بما

أصابهم، فما عسى أن يكون رأي القائد في هذا الموقف الحرج الآزم، وما سياسته الحكيمة التي ينهجها مع جيشه المنقسم عليه حتى يحفظ له روحه وبسالته؟

هنا تنفرج العبقرية الخالدية عن أحكم سياسة حازمة تساس بها الجيوش ساعة الأزمات!!

لم يكن بطل الإسلام خالد بن الوليد يجهل قدر الأنصار بين المسلمين ومكانهم في الحرب والجلاد، ولم يكن كذلك يجهل العقلية العربية في عمومها، تلك العقلية التي لا تعرف الخضوع لسلطان بشري إلا عن طريق العزة والكرامة، فليس يجديه في علاج هذا الموقف التذرع بسلطان القائد ليأمر فيطاع، بل هو يعطي هؤلاء السادة فرصة التفكير وتقلب الرأي، ويريهم عملياً أنه على عزمة المسير بمن معه من سائر جنود الإسلام إلى عدوهم عزمة لا تردد فيها، وأنه لا يستكره أحداً على المسير معه، ثم هو لا يدعهم دون أن يشعرهم بسلطان الإمرة، فيقول: «وأنا الأمير» وأنه إذا تجاوز لهم عن ذلك السلطان القانوني، فلأنه يقدر لهم مكانهم ولا يرتاب في إخلاصهم، ويرجو أن يراجعوا رأيهم. وقد تحققت فراسة القائد المظفر، فإنه لم يكد ينفصل بمن معه من المهاجرين وأبناء القبائل عامداً لأرض بني تميم واليمامة حتى تلاومت الأنصار فيما بينها، وأدركوا أنهم جانبوا ما عودهم الله تعالى من السداد في مواقفهم الإسلامية، وقال بعضهم لبعض: والله ما صنعنا شيئاً، والله لئن أصيب القوم ليقولن خذلتموه وأسلمتموه، وإنها لسبة باق عارها إلى آخر الدهر، ولئن أصابوا خيراً وفتح الله فتحاً إنه لخير منعتموه فابعثوا إلى خالد يقيم لكم حتى تلحقوه، فبعثوا إليه رسولاً من أنفسهم فلما جاءه الرسول أقام لهم حتى لحقوه فاستقبلهم في كثرة من معه من المسلمين وفرح برجعتهم فرحاً شديداً وساروا جميعاً حتى انتهى بهم خالد إلى البطائح من أرض تميم.

لم يقف خالد رضي الله عنه عند هذه السياسة الحكيمة الحازمة في علاج هذا الموقف الذي فاجأه في أحرج ساعات الحرب، ولكنه تخطى ذلك إلى أمر هو أفضل ما يتحلى به القائد العظيم.

ذلك أن خالداً لم تشأ له عبقريته أن يقف في سياسة جنده وقيادة جيشه عند حرفية القانون ونصوص العهود، بل شاءت له أن يكون قائداً سياسياً بعيد النظر، نهازاً للفرص، إذا سنحت لم يفلتها، ولو لم يكن في ذلك من الخليفة كتاب أو عهد، ولا سيما والحال في البادية يومئذ على ما كان عليه من بطء في المواصلات تقضي به طبيعة الحياة، ويضيع معه كثير من الفرص لو أنه وقف في أموره خاضعاً لقانون تلقي الأوامر من الخليفة في كل جزئية، وهو لا يأمن المفاجآت، وهي لا تخضع لسلطان غير سلطان الوقت واللحظة وفي ذلك يقول القائد العبقري «ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة، وكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه» بل هو يرمي إلى أبعد من ذلك، يرمي إلى أن يعلم تلاميذه من قواد المسلمين وسواسهم أن يتحملوا المسؤوليات ويجعلوا صنيعه قانوناً عاماً يسوسون به جندهم فيقول: «وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه من الخليفة عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به» وفي ذلك قطع لأطماع «الواقفية» الذين تبخعهم الحيرة ويقطع عليهم التردد سبيل الإقدام، فلا يبقى أحد أمام **هذا** القانون الخالدي ناظراً إلى الوراء أليس **هذا** هو أقصى ما يتطلبه النظر الطليق من قيود التزمت؟ بلى إن خالداً رضي الله عنه كان في هذا المضمار فارساً من طراز جديد كانت الحياة الإسلامية أحوج ما تكون إلى مثله في محنتها التي كشفها خالد، لا بشجاعته وحسن سياسته في إدارة دفة الحرب فحسب بل بتفكيره التشريعي الطليق وهذه الروح المشبوبة بشعلة الحرية هي السبب الأول ـ كما سترى ـ فيما كان بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

* * *

غرور وتيه جاهلي

كان بنو تميم بعد وفاة رسول الله ﷺ بين وفيّ بعهد الإسلام مقيم على الإيمان؛ ومتردد ينظر إلى الناس حتى أفاء وراجع اليقين؛ ومرتد مانع للزكاة؛ منتهك لحرمات الإسلام، وكان مالك بن نويرة من هذا الفريق؛ وكان تياهاً مغروراً، وكان متلافاً لا تليق يده شيئاً، جمع صدقات قومه فلما بلغته وفاة رسول الله ﷺ عدا عليها وانتهبها وفرقها في صعاليك بني تميم، وبحح بذلك في شعره فقال:

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر فيما يجيء من الغد

فإن قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

وفي لسان العرب لابن منظور: «ومنه حديث مالك بن نويرة حين جمع بنو يربوع صدقاتهم ليوجهوا بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فمنعهم من ذلك وقال:

وقلت خذوها هذه صدقاتكم مصررة أخلافها لم تحرد
سأجعل نفسي دون ما تحذرونه وأرهنكم يوماً بما قلته يدي

وقد لامه بعض سادة قومه ممن بقي على الإسلام وحذره مغبة عمله رجاء أن يراجع نفسه فيفيء إلى أمر الله، فقال له الأقرع بن حابس وضرار ابن القعقاع: إن لهذا الأمر قائماً وطالباً فلا تعجل بتفرقة ما في يدك؛ فأبى مالك إلا عتواً واستكباراً وأنشدهما:

أراني الله بالنعم المندى ببرقة رحرحان وقد أراني
أإن قرت عيون فاستفيئت غنائم قد يجود بها بناني
حويت جميعها بالسيف صلتا ولم ترعد يداي ولا بناني
تمشى يا ابن عوذة في تميم وصاحبك الأقيرع تلحياني
ألم أك نار رائبة تلظى فتتقيا أذاي وترهباني

أحس مالك دنو خالد بجيوش المسلمين من أرض قومه وملأ أذنيه صدى انتصار الإسلام على طلائع المرتدين فأمر من كان معه بالتفرق فتفرقوا.

* * *

اختلاف الروايات

وهنا تختلف الروايات اختلافاً تتباعد أطرافه فلا تتقارب، وتفترق فلا تجتمع وأشد ما في هذه الروايات المتضاربة إقحام أسماء جماعة من سادة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الذين لا يرتفع إلى ضمائرهم ظل من الشك في عدالتهم وصدق ديانتهم؟ وحسب القارىء الذي لم يتعمق في مغاور التاريخ الإسلامي أن يسمع اسم فاروق الإسلام عمر بن الخطاب في جانب حادث أو رواية حتى يندفع إلى الإيمان بما سمع في غير ريبة ولا تحفظ. ويتأكد ذلك إذا انضم إلى اسم عمر أسماء رجال آخرين ممن يعرف لهم

المسلمون امتيازاً في الديانة وفضلاً في الإسلام من أضراب أبي قتادة الأنصاري، وعبدالله بن عمر بن الخطاب؛ ومن ثمة يجب على الباحث أن لا تأخذه هيبة هذه الأسماء فتقف به دون الوصول إلى تزييف ما يؤدي البحث إلى زيفه، فقد يكون إقحام هذه الأسماء إمعاناً في ستر الحقيقة التاريخية لسبب خارج عن إرادة الرواة وخاضع للعوامل التي دون في ظلها ذلك التاريخ.

رواية ملفقة

من هذه الروايات رواية ترى أن مالك بن نويرة وهنت نفسه وراجع الإسلام بعد تردده وأوصى بذلك قومه فقال: «يا بني يربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح وقد نظرت فيه فوجدت أن الأمر يتأتى لهم بغير سياسة وإذا الأمر لا يسوسه الناس، وإياكم ومناوأة قوم صنع لهم، فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا في هذا الأمر».

وقريب من هذه الرواية تلك التي تقول: إن خالداً لما قدم البطاح بث السرايا وأمرهم بدعاية الإسلام، وأن يأتوه بكل من لم يجب، وإن امتنع أن يقتلوه، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني يربوع؛ فاختلفت السرية فيهم، فشهد قوم أنهم أذَّنوا وأقاموا وصلّوا؛ وشهد آخرون أنه لم يكن شيء من ذلك، وكان ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة الأنصاري؛ فكان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل، فأخذ القوم السلاح. قال أبو قتادة: فقلنا إنا المسلمون؛ فقالوا: ونحن المسلمون؛ قلنا: فما بال السلاح معكم؟ قالوا لنا: فما بال السلاح معكم؟ قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، فوضعوها ثم صلينا وصلّوا.

ثم تمضي هذه الرواية ـ في غير فطنة ـ إلى نتيجتها المقصودة فتقول: فلما اختلفت السرية فيهم أمر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء؛ فأمر خالد منادياً ينادي أدفئوا أسراكم فظن القوم أنه أراد القتل، ولفظة أدفئوا في لغتهم معناها اقتلوا، ولم يرد خالد إلا الدفء، وهو معنى الكلمة في لغته فقتلوهم، وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة، وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم. فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه. وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال امرأة مالك.

وهذه الرواية في أصلها وفرعها لا نطمئن إلى قبولها. بل نكاد نجزم أنها رواية ملفقة مصنوعة. وأن صانعها عريض الوسادة. لا يؤبن بالفطنة. ولا يزن بالدهاء.

ذلك أننا إذا تجاوزنا عن أن هذه الكلمات الموضوعة على لسان مالك في نصيحته لقومه بمراجعة الإسلام وأن لا يناوئوا المسلمين لأن أمرهم لا يسوسه الناس وإنما يسوسه رب الناس. لم تذكر لنا كيف انتهت إلى قتل هذا الناصح الحكيم؟ نتساءل: إذا كان مالك بن نويرة راجع الإسلام وأسلم مخلصاً ونصح بذلك قومه فلم لم يذهب إلى لقاء المسلمين طائعاً مختاراً معلناً إسلامه؟ ولماذا أمر قومه بالتفرق وتركهم ورجع إلى منزله ثم كيف يتفق مع العقل وأوليات الدين أن قوماً أذّنوا ودعوا بدعاية الإسلام. وصلوا مع المسلمين ـ كما تزعم الرواية ـ ثم تختلف السرية في إسلامهم. وهي قد صلت، معهم وصلوا معها؟ أليس في هذا نسبة الكذب الصريح والغش المتعمد إلى خيرة الصحابة من المهاجرين والأنصار؟ لأن الرواية تزعم أن المختلفين من رجال السرية كلهم قد اشتركوا في الصلاة مع القوم فإن كان ابن نويرة وقومه قد صلوا مع المسلمين حقاً وأعلنوا إسلامهم؛ فالذين شهدوا من الصحابة بعدم إسلامهم قد كذبوا وغشوا. وإن كان ابن نويرة وقومه لم يصلوا مع المسلمين. ولم يعلنوا إسلامهم فالذين شهدوا بإسلامهم قد كذبوا وغشوا، وهل عرف تاريخ الإسلام هذا النحو من الأخلاق عن أصحاب محمد ﷺ؟ ثم كيف جاء رجال السرية بابن نويرة إلى خالد إذا كان قد أسلم، وخالد إنما أمر جنده أن يجيئوه بمن لم يجب إلى الإسلام؟ وكيف صح من قائد المسلمين أن يخاطبهم بلغة يعلم أنها ليست لغتهم فيما يقصد إليه من معنى وغرض؟ وإن كان لا يعلم ذلك فلماذا لم يعتذر بهذا العذر الوجيه عند الخليفة يوم أن عاتبه؟ قد يغلب على الظن أن إقحام اسم أبي قتادة هنا من نوع ما قلناه في إقحام الأسماء الضخمة في الروايات الملفقة للتمويه والتضليل؛ وأبو قتادة رضي الله عنه إذا كان قد شهد عند خالد بإسلام مالك ابن نويرة، وأنكر على خالد صنيعه فلعل ذلك كان بطريق آخر لو عرفناه لكان للرأي فيه مجال ويمكن تعليل اختلاف السرية تعليلاً معقولاً.

* * *

رواية زائفة

وهذه رواية أخرى تحمل في طواياها دلائل زيفها وبطلانها، جاء في خزانة الأدب للبغدادي: أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه مقالة مالك أمر خالداً أن يأتيه، وعزم عليه ليقتلنه إن أخذه، فأقبل خالد حتى هبط أرضهم فلم يسمع أذاناً، فحمل عليهم، فثار الناس ولا يدرون ما بينهم، فلما رأوا الفرسان والجيش قالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن المسلمون، قال مالك: ونحن المسلمون. فلم ينتبه المسلمون لذلك. ووضعوا السيف فيهم. وأعجل مالك عن لبس السلاح، وإن امرأته ليلى بنت سنان قامت دونه عريانة. ودخل القبة. فلبس أداته ثم خرج وقاتل حتى أخذ أسيراً. فلما أتي به إلى خالد قال له: يا ابن نويرة هلم إلى الإسلام، قال مالك: وتعطيني ماذا؟ قال: ذمة الله وذمة رسوله، وذمة أبي بكر، وذمة خالد بن الوليد. فأقبل مالك وأعطاه بيديه، وعلى خالد تلك العزمة من أبي بكر، قال خالد: يا مالك إني قاتلك، قال: لا تقتلني. قال: لا أستطيع غير ذلك، قال: فأت ما لا تستطيع إلا إياه فقدمه إلى الناس، فتهيبوا قتله، وقال المهاجرون: أتقتل رجلاً مسلمًا؟ غير ضرار بن الأزور الأسدي فإنه قام وقتله، وفي ذلك يقول أخو مالك متمم ابن نويرة:

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت   فوق الكنيف قتيلك ابن الأزور
أدعـوتـه بـالله ثـم قتلتـه   لو هو دعـاك بذمـة لم يغدر

وزيف هذه الرواية ظاهر من وجوه:

ولنعم حشو الدرع يوم لقائه   ولنعم مأوى الطارق المتنور
لا يلبس الفحشاء تحت إزاره   صعب مقـادته عفيف المئـزر

أولاً ـ إنها تذكر أن أبا بكر عزم على خالد ليقتلن مالكاً إن أخذه. فهل يسوغ لنا أن نزعم ـ إن صحت هذه العزمة من أبي بكر ـ أنه أرادها من خالد ولو أخذ مالكاً مسلمًا بريئاً من حدود الله؟ ما نظن أحداً من المسلمين يذهب إلى ذلك. ثم كيف يسوغ لنا أن نقبل هذه المحاورة الساذجة التي تعقدها الرواية بين خالد ومالك وتنتهي بقتل رجل مسلم لم يعرف له المسلمون الذين شهدوا قتله ذنباً يسوغ هذا القتل حتى تهيبوه وأنكروه؟

ثانياً ـ إن هذه العزمة التي تذكرها الرواية معزوة إلى أبي بكر بقتل ابن نويرة تخالف ما اشتهر في الروايات الكثيرة من جزع أبي بكر عندما بلغه قتل

مالك، ذكر ابن عساكر في تاريخه «لما قدم أبو قتادة على أبي بكر وأخبره بقتل مالك وأصحابه جزع جزعاً شديداً».

ثالثاً ـ هذه الرواية تخالف ما ثبت من أن أبا بكر دفع دية مالك ابن نويرة إلى أخيه متمم، وأنه عاتب خالداً ولامه لوماً شديداً حتى أبان خالد عن وجهة رأيه فعذره أبو بكر واعتذر عنه.

رابعاً ـ إن هذه الرواية لا تقف عند حد أن خالداً رضي الله عنه قتل رجلاً مسلماً، تهيب المسلمون قتله وأنكروه. بل هي تسجل على أعظم قواد الإسلام غدراً بذمة الله وذمة رسوله، وذمة الخليفة، وذمة نفسه وهو أمير المسلمين وقائدهم، وهذا ما يدفعه تاريخ الصدر الأول عن هذه الأمة وتنكره أشد الإنكار سيرة خالد بن الوليد رضي الله عنه في معاملته للمغلوبين.

رواية مشهرة ولكنها مريبة

وهذه رواية شهرت وعقد عليها الرواة الخناصر، وهي أدخل في مجاهل الريبة فهي تقول: إن خالداً رضي الله عنه لما وصل إلى بلاد بني تميم ثاروا إليه فقال من أنتم؟ قالوا: نحن عباد الله المسلمون، وقد كان خالد بث سراياه فلم يسمعوا أذاناً فقاتلهم وأسر مالك بن نويرة وأصحابه ثم قتلهم؛ ولما بلغ خبر قتل مالك بن نويرة وأصحابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأبي بكر: إن سيف خالد فيه رهق، وأكثر عليه في ذلك، فقال: يا عمر تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، فإني لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين، وودى مالكاً، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه، ففعل، ودخل المسجد وعليه قباء، وقد غرز عمامته أسهماً ـ فقام إليه عمر رضي الله عنه فنزعها وحطمها، وقال له: قتلت امرأ مسلماً، ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك، وخالد لا يكلمه، يظن أن رأي أبي بكر مثله، ودخل على أبي بكر فأخبره الخبر، واعتذر إليه بأنه سمع منه كلاماً استحل به قتله فعذره وتجاوز عنه، وعنفه في التزويج الذي كانت العرب عليه من كراهته أيام الحرب، وأمره أن يفارق امرأة مالك، فخرج خالد وعمر جالس في المسجد، فقال: هلم إلي يا ابن أم شملة، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه، فلم يكلمه ودخل بيته.

هذه الرواية من أعظم روايات القصة استغلالاً في توجيهها توجيهاً يضع

من قدر أعظم قواد الإسلام خالد بن الوليد، فتصوره في تلك الصورة التي تتجافى عنها المروءة وينكرها الدين، وتشمئز منها الرجولية، ولا يرضى عنها عامة الناس، فهي أحقها بالنظر الناقد والتفنيد، لأنها تتكىء على اسم رجل هو ثالث ثلاثة في الإسلام كله فتجعل منه بطلاً تدور عليه فصولها؛ ذلك فاروق الإسلام عمر بن الخطاب، وحسب القارىء أن يجد اسم عمر يحتل المكان الأرفع في القصة فيؤمن أشد الإيمان بالجانب الذي ينتهي إليه. هكذا أراد الذين استغلوا هذه الرواية وأبدوا فيها وأعادوا ونقصوا وزادوا، ولم يرعوا لأصحاب رسول الله ﷺ حرمة ولا للحق كرامة، وهذه الرواية تحمل بين طياتها عوامل الريبة فيها:

عوامل الريبة في هذه الرواية

أولاً: إنها تصور خلافاً حاداً بعيد المدى بين رأيي الشيخين الصديق والفاروق في قصة خالد بن الوليد، ومالك بن نويرة. فعمر بن الخطاب ـ كما تزعم الرواية ـ كان يرى أن خالداً قد قتل رجلاً مسلمًا معصوم الدم متعمداً لأخبث وأسوأ غرض. وأنه نزا على امرأة قتيله المسلم، وأقسم ليرجمن خالداً بأحجاره.

وأبو بكر الصديق كان يرى أن أقصى ما يُعاب على خالد في هذه القضية أنه تأول فأخطأ وهذا اختلاف غريب في حادث خطير، لم يعرف أنهما انتهيا فيه إلى اتفاق، وإذا لم يكن الاتفاق لازماً بين المجتهدين فليس هذا من مواضع اختلاف المجتهدين، لأن هذا اختلاف في تكييف الحادث، لا في فهم نص وتطبيقه، وهذا التكييف إنما كان مصدره عند الشيخين شهادة النقل مما كان شاهداً، فكيف إذا انتهى بهما إلى هذا التصوير المتضاد؟ والمعروف المشهور في هذه القضية أن الذي قدم المدينة قبل قدوم خالد أو رسوله إليها هو أبو قتادة الأنصاري، وهو رجل صدق وشجاعة. وهو الذي أخبر الخليفة بتفاصيل ما رأت عيناه وسمعت أذناه؛ وعن طريقه ـ في الأغلب ـ وصل النبأ إلى سمع عمر بن الخطاب؛ وكان أبو قتادة قد ذهب مغاضباً لقائده خالد مقسمًا أن لا يعمل تحت رايته؛ ولكن الخليفة لم يقبل منه هذه المغاضبة؛ بل زجره زجراً رده إلى قائده جندياً كما كان.

فهل كانت مغاضبة أبي قتادة لمحض حادث مالك بن نويرة؟ وهل

كانت صورة الحادث في نفس أبي قتادة كصورته التي عزتها الرواية إلى عمر ابن الخطاب؟ وما الذي منع أبا بكر حينئذ من الأخذ بشهادته وعمر يلح عليه مشدداً؟ أو كان للحادث في نفس قتادة صورة أخرى؛ فهم منها أبو بكر ما أملى عليه قوله في رده على عمر «تأول فأخطأ».

والذي شهده أبو قتادة ولم يرضه لخالد، ولم يقره عليه، قد شهده عشرات من الصحابة رضوان الله عليهم؛ ولكنهم لم يصنعوا ما صنع أبو قتادة ولا شيئاً منه؛ ولم يحجم عبدالله بن عمر عن الإعلان برأيه في مخالفة خالد؛ ولكنه لم يصنع صنيع أبي قتادة؛ وكان أقصى ما فعله أن طلب إلى خالد حين دعاه لشهود عقد نكاح ليلى امرأة مالك أن يعرض الأمر على الخليفة ليفصل فيه برأيه.

وإذا صحت هذه الرواية وصح ما فيها معزواً إلى عمر بن الخطاب فأين التنفيذ لأعظم حد من حدود الله في أخطر حادث إسلامي؛ وقد ملكه عمر في خلافته؛ وكان قد قال لخالد ـ فيما تزعم بعض الرويات ـ «لئن وليت الأمر لأقيدنك به» وأين ذهبت حماسة عمر بعد خروج خالد من لدن أبي بكر وكان يسمع منه تفاصيل ما حدث؟ ألا كان يملك عمر معارضة الخليفة والاحتجاج عليه في تعطيل حد من حدود الله تعالى؟! فهل لنا أن نفهم إذا لم نجد جواباً عن هذا النحو من التساؤل ـ ولن نجد ـ أن للقضية في التاريخ وجهاً غير وجهها الذي رسمته هذه الرواية الزائفة؟!

ثانياً: هذه الرواية تقول: إن أبا بكر دفع إلى متمم بن نويرة أخي مالك دية أخيه من بيت مال المسلمين، وهي نفسها تقول: إن لمالك أصحاباً كانوا على مثل ما كان عليه، وصاروا إلى مثل ما صار إليه، فمن المعقول أن يكون حكمهم حكمه، فلماذا خص مالك بغضبة عمر، ولم يذكر معه أحد من أصحابه، وكانت الجناية أشنع في قتل جماعة مسلمة؟ معصومة الدم عمداً، هل كان هذا التخصيص لمسألة زواج خالد من امرأة مالك؟ كيف وهي متفرعة على أصل قتل مالك، فإن كان قتله حلالاً فلا شيء مطلقاً على خالد في هذا الزواج، وإن كان قتله حراماً، فجرم القتل أعظم من جرم هذا الزواج مهما قيل في تصويره، وجرم قتل الجماعة أخطر من جرم قتل الواحد، فكيف أهدرت تلك الدماء ولم تجد من المسلمين من يطالب بها؟ ولعل قائلاً

يقول: ذلك أنه ليس في أصحاب مالك من هو مثل مالك، قلنا: تلك مزايا جاهلية أهدرها الإسلام ولم يقم لها وزناً. وعمر نفسه كان أبلغ مثل عملي تطبيقي لإهدارها في حادث جبلة بن الأيهم المشهور.

ولماذا خص أبو بكر مالكاً بالدية ولم يد غيره من أصحابه الذين قتلوا معه إن كانوا كما تزعم الرواية ـ قد قتلوا مسلمين؟!

ثالثاً: تقول هذه الرواية الزائفة: إن أبا بكر استقدم خالداً. فلما قدم المدينة دخل المسجد في هيئة القائد الظافر. فقام إليه عمر ونزع أسهمه وحطمها وقال له تلك الكلمة المجبهة المتوعدة بقاصمة الظهر: «قتلت رجلاً مسلماً ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك» وبطل الإسلام خالد لا يكلمه. يظن أن رأي أبي بكر مثله، فمن أين لعمر بن الخطاب هذا السلطان الذي جعله يصنع بقائد جيوش المسلمين هذا الصنيع المهين قبل أن يصل إلى الخليفة الذي استقدمه ليعرف منه وجه الحق فيما حدث، والخليفة وحده هو صاحب السلطان الشرعي في تأديب قواده وإقامة الحدود عليهم وعلى من دونهم من الأمة؟ أفيظن أن خالد بن الوليد يرضى ويستسلم لعمر بن الخطاب يصنع معه ما صنع قبل أن يصل إلى الخليفة لمجرد أنه يظن أن رأي أبي بكر على مثل رأيه؟ وهل المقام مقام تعذير يقوم به رجل من رجالات المسلمين؟

ثم إن عمر بن الخطاب كان يعرف رأي أبي بكر في هذه القضية قبل أن يقدم خالد عليهما، لأنهما تجاولا في القضية، واشتد عمر على خالد، فنهنهه أبو بكر وقال له: ارفع لسانك عن خالد، وقرظ خالداً وزكاه بما زكاه به رسول الله ﷺ فقال: «إن خالداً سيف سله الله على الكافرين فلا أشيمه» فكيف ساغ لعمر بن الخطاب بعد هذا أن يصنع بخالد هذا الصنيع مخالفاً رأي الخليفة؟ قد يقول قائل: إن عمر بن الخطاب ذلك الرجل الشديد في الدين، الذي يقف مع رأيه غير متخاذل لرأي أحد، قلنا: وأين ذهبت تلك الشدة بعد أن قابل خالد أبا بكر وأفضى إليه بحقيقة الأمر كما وقع وكما قدره هو ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ وخرج على عمر يتوعده بهذه الكلمة الساخرة: هلـم إلـي يا ابن أم شملة؟ أكانت في تلك الصورة الهزيلة التـي تختم بها الرواية فصولها. «فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه، فلم يكلمه ودخل بيته» وهذه المعرفة كانت عند عمر قبل أن يلقى خالداً وينزع أسهمه

ويحطمها، ولكن الرواة ينسون أو يغفلون؟ أم إن عمر غير رأيه وعرف أن خالداً بريء مما قذف به؟

رابعاً: إن هذه الرواية لم تذكر لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ سوى أبي بكر وعمر رأياً في هذه القضية الخطيرة حتى الذين كانوا من جند خالد وغاضبوه، أبوا عليه أن يحضروا عقد نكاحه، مثل أبي قتادة وعبدالله ابن عمر، فأين رأيهما في تحقيق القضية وقد أخذت هذا الوضع الحاد بين الخليفة ووزيره؟ وأين رأي علي بن أبي طالب الذي قال فيه عمر: لولا علي لهلك عمر؟ وأين رأي أكابر الصحابة من أمثال عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، ووجوه الأنصار؟ أين رأي هؤلاء الأجلة في أخطر قضية مرت على المسلمين؟ قضية تتعلق بتصرف قائد قواد الإسلام تصرفاً إذا صح فيه ما نسب إلى عمر في اتهامه لخالد كان أقل جزاء هذا القائد في الشريعة الإسلامية القتل على شر وجوهه؟ أفيكفي أن يقال في بعض الروايات إن عمر غضب حين رأى خالداً وفي عمامته سهمان، فقام فأتى علياً، فقال: إن في حق الله أن يقاد هذا بمالك، قتل رجلاً مسلماً، ثم نزا على امرأته كما ينزو الحمار؛ ثم قاما فأتيا طلحة فتتابعوا على ذلك، فقال أبو بكر: سيف سله الله لا أكون أول من يغمده، أكل أمره إلى الله!!

هل هذا يتفق مع ما عرف في سيرة هؤلاء السادة من أشد الغيرة على الشريعة وحدودها، وما عرف عنهم من شدة في البحث عن الحقائق والكشف عن حقيقة الوقائع؟ وهل يتفق مع العقل أن يتطابق علماء الصحابة وخيارهم على أن رجلاً من قادة المسلمين خرق في الشريعة خرقاً استوجب عندهم القصاص منه، وهم يطلبون إلى الإمام الأعظم إقامة حد الله عليه فيرد عليهم بهذا الرد المعطل لأحكام الدين ثم يسكتون، ويبقى هذا الرجل في مقامه من صدارة الدولة؟

خامساً: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تولى الخلافة بعد أبي بكر وأصبح سلطان الدولة الإسلامية في يده، وكان رجلاً قواماً على حدود الله جريئاً في الحق، لا يهاب أحداً ولا شيئاً، وكان خالد بن الوليد يومئذ يقف أميراً على عامة جيوش المسلمين في نحر الروم، فلم يرجمه عمر بأحجاره كما توعده ـ في زعم هذه الرواية ـ ولم يقتله قصاصاً بمالك وأصحابه، وليس عمر

بالذي يظن فيه رجوع عما اقتنع أنه الحق، ولا بالذي يظن فيه هوادة في الدين ومجاملة في حدود الله.

أما عزل عمر خالداً عن الإمارة فلم تكن قضية مالك بن نويرة سبباً من أسبابه عند التحقيق، ولا يستقيم أن تكون من أسبابه، لأن الله تعالى لم يشرع العزل عن الإدارة حداً من حدوده، وسنحقق أسباب هذا العزل عندما نصل من سيرة بطل الإسلام وعبقري قادته خالد بن الوليد إلى نهايتها.

سادساً: تسند بعض الروايات إلى عمر بن الخطاب أن متمم بن نويرة وفد عليه بعد أن تولى الخلافة فاستعداه على خالد، فقال عمر: لا أرد شيئاً صنعه أبو بكر، فقال متمم: قد كنت تزعم أن لو كنت مكان أبي بكر أقدته به، فقال عمر: لوكنت ذلك اليوم بمكاني اليوم لفعلت، ولكني لا أرد شيئاً أمضاه أبو بكر. فكيف يطلب صاحب الحق حقه ممن يراه له ويملك تنفيذه فلا يقوم له به لأن غيره أمضاه؟ ومتى كان هذا؟! في عهد عمر ابن الخطاب!! على أن الكلمة المنقولة عن عمر وهي «لئن وليت الأمر لأقيدنك به» لا تحتمل هذا التأويل المزعوم.

سابعاً: روي أن متمم بن نويرة دخل على عمر بن الخطاب في خلافته، فقال له عمر: ما بلغ من وجدك على أخيك مالك؟ قال: بكيته حولاً حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة، وما رأيت ناراً إلا كدت أتقطع لها أسفاً عليه لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه، قال عمر: فأنشدني بعض ما قلته فيه، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

لعمري وما دهري بتأبين مالك ... ولا جزع مما أصاب فأوجعا
لقد كفن المنهال تحت ردائه ... فتى غير مبطان العشيات أروعا

حتى انتهى إلى قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال له عمر: هذا والله التأبين، ولوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيداً

بمثل ما رثيت به أخاك؛ فقال متمم: لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته؛ فقال عمر: ما عزاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمم.

فعلى أي شيء مات مالك بن نويرة إذا لم يكن قد مات على الإسلام الذي مات عليه زيد بن الخطاب شهيداً؟!

* * *

رواية مقبولة

وهذه رواية تقول إن مالك بن نويرة لما جاءت به السرية أسيراً إلى خالد حاوره خالد في موقفه من الإسلام فقال مالك: أنا آتي بالصلاة دون الزكاة، فقال له خالد: أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً، لا تقبل واحدة دون الأخرى. فقال مالك: قد كان صاحبكم يقول ذلك؛ قال خالد أو ما تراه لك صاحباً؟! والله لقد هممت أن أضرب عنقك، ثم تجاولا في الكلام، فقال له خالد: إني قاتلك، فقال له: أوَبذلك أمرك صاحبك؟ قال خالد: هذه بعد تلك؟ وكان عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصاري حاضرين، فكلما خالداً في أمره. فكره كلامهما، فقال مالك: يا خالد ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا؛ فقال خالد: لا أقالني الله إن أقلتك؛ وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه، وقبض خالد امرأته؛ قيل إنه اشتراها من الفيء فأعتقها وتزوج بها، وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها، وقال لابن عمر ولأبي قتادة: احضرا النكاح فأبيا، وقال له ابن عمر: نكتب إلى أبي بكر ونعلمه بأمرها وتتزوج بها، فأبى خالد وتزوجها، وكانت العرب تكره التسرع إلى النساء في الحرب وتعايره.

هذه الرواية قد تكون قريبة القبول، لأنها تذكر جهة الردة التي باء بها مالك بن نويرة ومن اتبعه من قومه، وهي امتناعه عن الزكاة، وهذا موافق لأصل السبب الذي التوى من جهته عامة العرب في هذه الفتنة، والذي بدأ به موقف مالك بتفريقه ما جمع في يده من صدقات قومه، والذي ثبتت فيه المفاوضة بين الصديق وسائر الصحابة بزعامة عمر بن الخطاب، واحتجوا لها بالحديث الثابت، فقد روى البخاري عن النبي ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» واحتج الصديق بأن الزكاة من حقها الموجب للقتال، وقال: والله لو

منعوني عناقاً أو عقالاً، كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه. ومن هنا استقى خالد بن الوليد حجته على مالك بن نويرة في مجادلته حيث قال: أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً، لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ وعندئذ تكشف ابن نويرة عن صريح أمره الذي طوى عليه كشحه؛ فقال في رده على خالد: قد كان صاحبكم ـ يعني رسول الله ﷺ ـ يقول ذلك، وهذه كلمة لا تخرج من صدر سليم الإيمان، ولكنها نفثة من نفثات النفاق، أو فلتة من فلتات الكفر البواح، غير أن خالداً في دينه ورجوليته لا يسرع إلى قتل رجل بأمر قد يشتبه على بعض سليمي الصدور من المؤمنين، فمد إلى مالك حبل المجادلة حتى استبان له أمره، ولم يبق في نفسه موضع للشك في ردته فأبرم العزم على قتله، ولم يرض أن يستأني به كما استأنى بقرة بن هبيرة وعيينة بن حصن ويرسله إلى أبي بكر كما أرسلهما وكما طلب ذلك ابن نويرة، لأن قرة وعيينة لم يثبت لهما مقالة خبيثة الطوية كهذه المقالة التي ثبتت على مالك في مواجهة خالد ومحاورته.

* * *

موقف أبي قتادة وابن عمر

وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو قتادة الأنصاري ممن حضر مجلس المجادلة بين خالد ومالك، فكلما خالداً في أمر مالك وأرادا أن لا يقتله، وكأنهما تأولا ما صدر منه وزادت حماسة أبي قتادة لرأيه وخالف قائده وفارق الجيش ذاهباً إلى الخليفة شاكياً له أمر خالد في شأن مالك وامرأته، وأقسم أن لا يقاتل تحت راية خالد أبداً، فلم يكن من الخليفة الحازم الراشد إلا أن رد أبا قتادة إلى جيشه جندياً تحت راية أميره وقائده خالد كما كان، ولم يفتح باب شكاية الجند لقوادهم والخروج عليهم حتى يحقق الأمر بنفسه بعد عودة القائد بجيشه، وهذه سياسة من أحكم وأحزم السياسات التي حرست الدولة الإسلامية في أول عهدها من الانقسام والفساد.

أما عبد الله بن عمر فاكتفى بأن أظهر رأيه في القضية ولم يصحب إنكاره لما أنكر من حادث مالك بن نويرة بالخروج على القائد، وهذا من فقه ابن عمر، لأنه علم أن خالداً ومن معه من الصحابة الذين وافقوه على قتل مالك لا يصدرون عن هوى، وأنهم إن أخطأوا فقد تأولوا، والفيصل إنما هو رأي الخليفة عند رجوع الجيش ومواجهة القائد ولهذا لما دعاه خالد مع

صاحبه إلى حضور نكاح ليلى امرأة مالك أبيا، وقال ابن عمر: نكتب إلى أبي بكر ونعلمه بأمرها وتتزوج بها، ومن هنا يظهر الفرق بين الاتجاهين فعبد الله بن عمر رجل علم وفقه وأبو قتادة رجل فروسية وشجاعة فكان تصرفهما مطابقاً لتكوينهما العقلي والخلقي.

لعب الخيال في أقصوصة زواج خالد امرأة مالك

وقد لعب خيال القصاص في أقصوصة زواج خالد بامرأة قتيله مالك ابن نويرة. وأمر هذا الزواج عجيب كشأن القصة في أصلها.

فبعض الروايات تقول: إن خالداً قتل مالكاً وتزوج امرأته من ليلته. ولما لم يعقل هذا والناس في ذلك العهد ناس والدين دين، تمحل بعض حسني النية من المؤرخين والفقهاء فقال لعلها كانت مطلقة قد انقضت عدتها إلا أنها كانت محبوسة عند مالك. وهذا تخريج لا يتم إلا على أساس أن مالكاً قتل مسلماً حرام الدم والمال والأهل، وحينئذ يعود الكلام إلى القضية العظمى وهي سفك دم مسلم عدواناً ونكاح امرأته بغير وجه شرعي ودون إثبات ذلك تناول نجوم السماء باليدين.

ومما يتصل بهذه الرواية بسبب من التضليل وسوء الفرية على أجلاء أبطال الإسلام وأصحاب رسول الله ﷺ ما يحكيه بعض أغرار المؤرخين من أن خالد بن الوليد عشق امرأة مالك لفرط جمالها فقتل مالكاً ليستولي عليها، وأن مالكاً قال لزوجته لم يقتلني غيرك، وأن خالداً رد عليه حين سمعه يقول ذلك بقوله: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام.

وهذا الكلام لا تحصيل في نقاشه لأنه أشبه بروايات أهل الفراغ والبطالة من سخفاء العقول وسفهاء الأحلام الذين لا يبالون أن يخدشوا تاريخ عظماء الإسلام بمثل هذه التفاهات التي ينفر منها رعاع الناس ورذالهم، بله عقلاءهم وذوي المروءات فيهم. فكيف بالصحابة في تربيتهم ودينهم وعلو أنفسهم وكمال مروءتهم وتاريخهم شاهد صدق على جلال أخلاقهم وترفعه عن دنيات الأمور؟

وكيف فيهم بخالد بطل الإسلام وسيف الله؟

وجه الرأي في هذا الزواج

في الرواية التي رأينا أنها قريبة القبول والتصديق أن خالداً اشترى امرأة مالك من الفيء وتزوج بها وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها، وهذا

أمر معقول ومقبول صدوره من خالد جبراً لخاطرها وتطييباً لنفسها، إذ هي قد فجعت في زوجها وهو فارس قومها ورئيسهم. وحينئذ يجب أن نفرض بقاءها على الإسلام وعدم موافقتها مالكاً على ردته وذلك تأويل من زعم أنها كانت مطلقة منه، ومحبوسة عنده لأن ردته فصلت بينهما واستبقاها تحته ظالماً حتى استنقذها خالد فتزوجها. ويكون الذي عيب على خالد إنما هو ما كان عند العرب معيباً من التزويج أيام الحرب ولا سيما إذا كان المتزوج بها من نساء الأعداء والمعركة ما تزال ناشبة فإنه حينئذ يخشى من التجسس والفتك بالأبطال. ولعل خالداً تيقن إخلاصها للإسلام فخلصها.

وفي قصة زواج النبي ﷺ بالسيدة صفية بنت حيي ما يحمل أقوى دفاع عن خالد في هذه القضية إذا جردت قصة مالك بن نويرة من خيالات القصاصين.

* * *

نتيجة

أمر هذه الروايات في أحدوثة مالك بن نويرة ظاهر أنه من تزيد القصاصين. وإقحام اسم عمر بن الخطاب بهذه الصورة التي تقصها الروايات ظاهر الانتحال، ولباب الأمر في هذه القصة كلها أنها لا تعدو أن تكون مثل قصة خالد نفسه مع بني جذيمة في حياة رسول الله ﷺ، وقد سلف الحديث عنها، فهم قد أسلموا لما أظلتهم سريه خالد بما ليس صريحاً في إسلامهم فظن خالد أن قولتهم «صبأنا» تقية السيف لا عقيدة القلب فقتل خالد منهم من قتل اعتقاداً لكفرهم، فعاتبه النبي ﷺ وبرىء إلى الله مما صنع ولم يعزله ولم ير أن ذلك موجب للقصاص منه.

ولا تعدو أن تكون مثل قصة أسامة بن زيد مع الرجل الذي لاذ بالشجرة وقد قال: لا إله إلا الله، فقتله أسامة محتجاً أنه قالها تقية لا عقيدة، فقال له النبي ﷺ: هلا شققت عن قلبه، ولم يقتص منه، ومن ثمة قال أبو بكر لعمر رضي الله عنه: تأول خالد فأخطأ، ولعل سبب ذلك أن عمر كان يرى أن يشتد أبو بكر على خالد في العتب كما اشتد النبي ﷺ عليه وعلى أسامة ولا سيما وخالد كان فيه استقلال بالرأي في الحرب كان يخشاه عمر ويرى أن يحد منه، وكان من سياسة أبي بكر أن يحتفظ بخالد فلا يكسر شوكته؛ والمسلمون في أزمة الردة أشد ما يكونون حاجة إلى أمثال خالد.

وعلى هذا الأساس لا نرى حرجاً على خالد في تزوجه امرأة مالك لأنه قتل رجلاً كافراً في اعتقاده منابذاً للإسلام محارباً للمسلمين معتدياً عليهم، فإذا فرضنا إسلام زوجته وهي تحته فيكون خالد قد أحسن إليها وجبر خاطرها بتزوجها، وهذا ما نرجحه في شأنها لأن أكثر المؤرخين ذكروا أنها اعتدت بثلاث حيض؛ وإذا فرضناها غير مسلمة فحكمها حكم السبي ويكون خالد قد أحسن إليها أيضاً. لأنه كما تقول بعض الروايات، اشتراها من الفيء وأعتقها وتزوج بها.

ويتعلق بهذا النكاح نكتة لطيفة لم يلتفت إليها كثير من الباحثين: ذلك أن أبا بكر لما استقدم خالداً وسمع حجته أمره بطلاق امرأة مالك عقوبة سياسية على تسرعه للنساء في الحرب، وهو أمر تخشى عواقبه. والطلاق حكم شرعي لا يكون إلا بعد نكاح صحيح وهذا يحمل في طياته صحة رأي خالد واقتناع أبي بكر به، وأن مالكاً لم يقتل مسلمًا معصوم الدم، ولا سيما وأن الطلاق لم يكن معجلاً فقد دعا القائد إلى حرب مسيلمة وتحته أم متمم امرأة مالك؛ وإنما دفع أبو بكر مالاً لأخي مالك متمم بن نويرة من باب الترضية والتأليف على نهج ما صنع رسول الله ﷺ في بني جذيمة.

الفصل التاسع

واقعة اليمامة بين خالد ومسيلمة

هول معركة اليمامة ـ عبقرية خالد في إدارة المعركة ـ نبوءة صادقة ـ إدعاء مسيلمة النبوة ـ شعوذة وخبث دهي ـ عصبية عمياء ـ أول لواء لحرب اليمامة ـ توجيه خالد إلى حرب مسيلمة ـ سياسة حكيمة ـ مجاعة بن مرارة الحنفي ومكانته في قومه ـ بدء المعركة وترجحها هنا وهناك ـ نفحات البطولة الإسلامية ـ حملة صادقة ـ قتل مسيلمة ـ من قتله؟ ـ بدء النهاية في المعركة ـ خدعة مجاعة ـ الصلح بين التأييد والمعارضة ـ كتاب أبي بكر إلى خالد وإمضاء الصلح ـ غدرة لم تتم ـ رسول خالد إلى أبي بكر ـ هل وفد خالد على أبي بكر بعد اليمامة؟ ـ زواج خالد بنت مجاعة ـ رجولية بطل ـ عتب أبي بكر ودفاع خالد ـ تحليل وتوضيح.

هول معركة اليمامة

لم يلق المسلمون الأولون في تاريخهم الحربي أشد مما لقوا في واقعة اليمامة ومقاتلة بني حنيفة قوم مسيلمة بن حبيب الحنفي المشتهر بالكذاب، وقد كانت هذه الشدائد أعظم امتحان لقوى الرجولية وأحد مشحذ لعبقرية البطولة، وفي هذه الواقعة تجلت عبقرية بطل الإسلام وقائده المظفر خالد ابن الوليد رضي الله عنه عن مظاهر الشجاعة وسياسة الحرب، وحنكة القيادة، وحزامة الإمارة التي سجلها له التاريخ في صحائف أعظم القادة والأبطال.

ومن الخير في توجيه ذهن القارىء إلى إدراك صورة تمثل هول هذه الموقعة وشدائد الابتلاء فيها أن نرسم لها خطوطاً أولية تبدو من أثنائها عواصف الهول، وقواصم العزائم إلى جانب رواسي الهمم لدى جيوش المسلمين وصبرهم في وجه الموت وشجاعتهم عند زلزلة أقدام فوارس الحرب وأبطال اللقاء؛ مستمدين ذلك من روايات التاريخ عمن شهدوا أوارها حتى يتم لنا أن نؤمن على ابتهالات التاريخ في محراب البطولة الخالدية:

أولاً: قال رافع بن خديج: خرجنا من المدينة ونحن أربعة آلاف، وأصحابنا من الأنصار ما بين خمسمائة إلى أربعمائة، وعلى الأنصار ثابت ابن قيس، ويحمل رايتنا أبو لبابة، فانتهيا إلى «اليمامة» فننتهي إلى قوم هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**ستدعون** إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾. فلما صففنا صفوفنا ووضعنا الرايات موضعها لم يلبثوا أن حملوا علينا فهزمونا مراراً فنعود إلى مصافنا وفيها خلل، وذلك أن صفوفنا كانت مختلطة، فيها حشو كثير من الأعراب في خلال صفوفنا فينهزم أولئك بالناس،

فيستخفون أهل البصائر والنيات حتى كثر ذلك منهم، ثم إن الله تعالى بمنه وكرمه وفضله رزقنا الظفر، وذلك أن ثابت بن قيس نادى خالد بن الوليد: أخلصنا، فقال خالد: ذلك إليك؛ فناد في أصحابك، فأخذ ثابت الراية ونادى يا للأنصار، فتسللت إليه رجلاً رجلاً، فنادى خالد: يا للمهاجرين، فأحدقوا به، ونادى عدي بن حاتم، ومكنف بن زيد الخيل بطيء فثابت إليهما طيء، وكانوا أهل بلاء حسن، وعزلت الأعراب عنا ناحية، فقاموا من ورائنا غلوة أو أكثر، وإنما كنا نؤتى من الأعراب.

وأجهض أهل السوابق والبصائر العدو، فهم في نحورهم ما يجد أحد مدخلاً إلا أن يقتل رجلاً منهم أو يخرج فيقع فيخلف مقامه آخر حتى أوجعنا فيهم، وبان خلل صفوفهم وضجوا من السيف، ثم اقتحمنا الحديقة فضاربوا فيها وغلقنا الحديقة، وأقمنا على بابها رجلاً لئلا يهرب منهم أحد فلما رأوا ذلك عرفوا أنه الموت، فجدوا في القتال ودكت السيوف بيننا وبينهم، ما فيها رمي بسهم ولا حجر ولا طعن برمح حتى قتلنا عدو الله مسيلمة:

هذه رواية فيها من إيجاز الخبر وناصع الأسلوب وحسن القصص ما جعلها تجمع بين أطرافها لباب الأمر في واقعة أطال المؤرخون رشاء القول فيها، وفيها من وصف أعداء المسلمين وشدة بأسهم ما جعلهم في نظر علماء الصحابة محمل الآية الكريمة ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾.

وبحسبك أن تجد القرآن الحكيم يصف قوماً بالبأس الشديد فتعلم من هم؟ وعلى أي لون من القوة في العدد والعدة هم؟ وفيها بيان سبب انهزام المسلمين أول الأمر؛ وأن ذلك كان باختلاط صفوفهم بحشو من الأعراب الذين لم يكونوا قد انضموا لجيش الإسلام مسوقين بعقيدة يناضلون عنها ويقاتلون بها، فتزلزلت أقدامهم حينما لحمتهم السيوف وأحسوا حر السلاح، فانهزموا، واستخفوا بهزيمتهم أهل البصائر والنيات ممن خرجوا في سبيل الله مفعمة أنفسهم بالايمان وقوة العقيدة التي يقاتلون بها وعنها يناضلون، وهذا أمر معقول تصدقه السوابق الخالدية، فقد ذكرنا أن عدي بن حاتم أراد في حرب أسد وغطفان أن يجعل قومه ـ وكانوا قد توقفوا فجمعهم الله به إلى الإسلام ـ مقدمة جيش خالد، فأبى عليه خالد ذلك، وقال له: يا أبا طريف

إن الأمر قد اقترب، وأنا أخاف أن أقدم قومك، فإذا لحمهم القتال انكشفوا، فانكشف من معنا، ولكن دعني أقدم قوماً صبراً لهم سوابق وثبات، وهم من قومك.

وهؤلاء الأعراب الذين أتى المسلمون من قبلهم الذين أبى عليهم خالد أن يكونوا جنداً في جيشه لضعف روحهم وانخذالهم، واكتفى بأن أخذ منهم سلاحهم يستعين به على حرب عدوه، حتى كان أبو بكر رضي الله عنه هو الذي ألحقهم به تمحيصاً لإسلامهم وتكثيراً لسواد المسلمين بهم ولشغلهم بالجهاد عن التفكير في هزيمتهم فلا يكونون شوكة في ظهر جيوش الإسلام، وكان أبو بكر قد عاهد خالداً إذا فرغ من أسد وغطفان والضاحية أن يقصد اليمامة وأكد عليه في ذلك، فلما أظهر الله خالداً على أولئك الأعراب تسلل بعضهم إلى المدينة يسألون أبا بكر أن يبايعهم على الإسلام ويؤمنهم فقال لهم: بيعتي إياكم وأماني لكم أن تلحقوا بخالد بن الوليد ومن معه من المسلمين، فمن كتب إلي خالد بأنه حضر معه اليمامة فهو آمن، فليبلغ شاهدكم غائبكم، ولا تقدموا علي واجعلوا وجوهكم إلى خالد، فقال أبو الجهم: أولئك الذين لحقوا بخالد من الضاحية هم الذين كانوا انهزموا بالمسلمين يوم اليمامة وكانوا على المسلمين بلاء.

وفي هذه الرواية تأييد سياسة خالد رضي الله عنه مع جنده إذ اشتد وطيس القتال، ذلك أن بعض القواد في جيش خالد لما أدرك أن هؤلاء الأعراب هم سبب هزيمة الجيش طلب إلى القائد العام تنحيتهم عن الميدان إلى حيث يكونون وراء الجيش رداءً له في نظر العدو وتكثيراً لسواد المسلمين، فنادى ثابت بن قيس ـ وهو قائد كتيبة الأنصار ـ خالداً فقال له: أخلصنا، فأجابه خالد إلى ما طلب لعلمه بأن ذلك رأي له قدره وأثره الخطير في توجيه المعركة، فامتاز الأنصار بلوائهم، وامتاز المهاجرون بلوائهم، وصنع صنيعهم أهل الإيمان والعقيدة من سائر الجيش وأبناء القبائل، وعزلت الأعراب ناحية، فقاموا من وراء الجيش يتربصون، وهذا من أحكم التدبير، لأن امتياز الناس إلى وحدات مستقلة بأوصافها الخاصة ينفي التواكل ويذكي الحمية ويشعل روح التنافس بين هذه الكتائب المتمايزة، وبهذا ملك المسلمون زمام المعركة حتى انتهوا بها إلى نهايتها الظافرة.

ثانياً: في حديث ضمرة بن سعيد المازني أن المسلمين لم يلقوا عدواً أشد لهم نكاية من بني حنيفة، لقوهم بالموت الناقع، وبالسيوف قد أصلتوها قبل النبل، وقبل الرماح، وقد صبر المسلمون لهم، فكان المعول على أهل السوابق.

ثالثاً: حدث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال: شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب لها، ولا أثبت أقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة. إنا لما فرغنا من طليحة، ولم تكن له شوكة، قلت كلمة والبلاء موكل بالقول: وما بنو حنيفة إلا كمن لقينا، فلقينا قوماً ليسوا يشبهون أحداً، ولقد صبروا لنا من مطلع الشمس إلى صلاة العصر حتى قتل عدو الله، فما ضرب أحد من بني حنيفة بعده بسيف، ولقد رأيتني في الحديقة وعانقني رجل منهم وأنا فارس وهو فارس فوقعنا عن فرسينا ثم تعانقنا بالأرض، فأجؤه بخنجر في سيفي، وجعل يجؤني بمعول في سيفه، فجرحني سبع جراحات، وقد جرحته جرحاً أثبته به فاسترخى في يدي، وما بي حركة من الجراح، وقد نزفت من الدم إلا أنه سبقني بالأجل فالحمد لله على ذلك.

هذه رواية قائد القواد خالد بن الوليد الذي شهد في الجاهلية والإسلام من الوقائع والزحوف ما لم يشهده سواه؛ يصف أعداءه فينصفهم بأنه لم ير قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداماً في وجه الموت منهم، وهي شهادة حاذق بالحرب مجرب لأهوالها. فإذا ظفر خالد بهؤلاء الأبطال فهو ظفر عبقري، لا يعدله في جلاله إلا سمو النشوة بعده.

ولم يكن خالد ليقول هذا القول عن بني حنيفة لظفره بهم تعظيماً لانتصاره عليهم، ولكنه حق يقوله وواقع يصفه أليس قد ظفر من قبل ظفره ببني حنيفة بأسد وغطفان وهزم طليحة حتى ألجأه إلى الفرار، فلم يفخر بهذا النصر ولا عظم ذلك الظفر، بل هو يقلل من شأن طليحة وقومه إلى جانب الحنفيين، ويرى أن طليحة لم تكن له شوكة مع ما عرفناه من شدة وقائعه.

وهذه الصراحة التي يتحدث بها خالد إلى الناس طبع فيه وخليقة لا يتكلفها، فهو يعترف بأنه ظن ظناً خاطئاً فكان منه ابتلاؤه، ذلك أنه حسب أهل اليمامة كأهل الضاحية وأن بني حنيفة كأسد وغطفان بيد أنه لقي من

بني حنيفة قوماً لا يشبهون أحداً ولا يشبههم أحد في الصبر والبأس، وشجاعة القلب والسماح بالحياة.

رابعاً: كان مسيلمة الكذاب قد أصاب حبيب بن زيد وعبدالله ابن وهب الأسلمي من المسلمين، فقال لهما: تشهدان أني رسول الله؟ فقال الأسلمي: نعم؛ فأمر به فحبس مثقلاً بالحديد، وقال له حبيب بن زيد: لا أسمع؛ فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر به فقطع، وكلما قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: لا أسمع، فإذا قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، حتى قطعه عضواً عضواً، فقطع يديه من المنكبين، ورجليه من الوركين، ثم أحرقه بالنار، وهو في كل ذلك لا يتزعزع عن قوله، ولا يرجع عما بدأ به حتى مات حرقاً بالنار بعد شديد العذاب، فلما تهيأ خالد إلى اليمامة جاءت أم حبيب، وهي نسيبة بنت كعب، وتكنى أم عمارة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستأذنته في الخروج، فقال لها أبو بكر: ما مثلك يحال بينه وبين الخروج؛ قد عرفناك وعرفنا جراءتك في الحرب فاخرجي على اسم الله.

قالت أم عمارة: فلما انتهينا إلى الحديقة بعد إذ تداعت الأنصار، أخلصونا، أخلصونا؛ ازدحمنا على الباب وأهل النجدة من عدونا في الحديقة قد انحازوا يكونون فئة لمسيلمة فاقتحمنا فضاربناهم ساعة، والله ما رأيت أبذل لمهج أنفسهم منهم، وجعلت أقصد إلى عدو الله مسيلمة لأن أراه، ولقد عاهدت الله لئن رأيته لا أكذب عنه أو أقتل دونه، وجعلت الرجال تختلط والسيوف بينهم تختلف، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف حتى بصرت بعدو الله، فشددت عليه، وعرض لي رجل منهم فضرب يدي فقطعها، فوالله ما عرجت عليها حتى انتهيت إلى الخبيث وهو صريع، وأجد ابني عبدالله قد قتله.

فسألها سائل: أكثرت الجراحات في المسلمين؟ فقالت: لقد تحاجز الناس وقتل عدو الله وإن المسلمين لجرحى كلهم، لقد رأيت بني أبي مجروحين ما بهم حركة، ولقد رأيت بني مالك بن النجار بضعة عشر رجلاً لهم أنين يكمدون ليلتهم بالنار، ولقد أقام الناس باليمامة خمس عشرة ليلة،

وقد وضعت الحرب أوزارها وما يصلي مع خالد بن الوليد من المهاجرين والأنصار إلا نفر يسير.

هذه الرواية تصور لوناً من ألوان البطولة الإسلامية تمثلها شخصية حبيب بن زيد، ذلك البطل المسلم العظيم، وقد قطع عضواً عضواً وأحرق بالنار ليقول كلمة بلسانه، فما رجع عن إيمانه، ولا عرض، ولا ورى، ولكنه تماسك واستصلب ليكون نموذجاً من نماذج التربية الإسلامية الصادقة التي أسس عليها الإسلام بناء الأمة الإسلامية.

وتمثلها شخصية أمه أم عمارة نسيبة بنت كعب التي كانت نموذجاً من نماذج المرأة المسلمة في تربيتها الإسلامية حتى ولدت للإسلام مثل حبيب ابن زيد، فكانت خليقة بتزكية الخليفة الأول أبي بكر الصديق بقوله: ما مثلك يحال بينه وبين الخروج. وما كان أبو بكر ليزكي امرأة مسلمة في خروجها للحرب بما زكى به نسيبة لو لم يكن يعلم من صدق عزيمتها وقوة إيمانها ما كانت تعلم من نفسها، وهي فوق ذلك ثكلى موتورة، وقد وصفت هذه المرأة المسلمة الجليلة، تدافع أهل اليمامة على الموت في حربهم للمسلمين فحققت، وصورت لنا احتدام القتال فصدقت، وخرس القوم فلا صوت إلا صوت وقع السيوف.

هذه هي واقعة اليمامة في هولها؛ فماذا كان حظ القائد العبقري خالد ابن الوليد فيها؟ هذا ما نصوره لك فيما يرد من الحديث، وتقصي الآثار.

* * *

عبقرية خالد في إدارة المعركة

إن نظرة فاحصة إلى ذلك الإطار الذي يجمع بين حفافيه صورة الهول الذي كانت عليه معركة اليمامة بين جند الإسلام من المهاجرين والأنصار وصادقي الإيمان بقيادة البطل العبقري خالد بن الوليد، وبني حنيفة بقيادة مسيلمة بن حبيب الشهير بالكذاب، تجعل القارىء يدرك كيف أدار خالد رضي الله عنه هذه المعركة حتى انتهى بها إلى نهايتها التي أقرت عين الإسلام في جزيرة العرب، وانتقل بها النضال إلى ما وراء السفوح العربية حيث كان

نضالاً بين العرب وهم جرثومة الإسلام وجنده، وبين دولتي الفرس والرومان.

* * *

قدم مسيلمة في وفد قومه بني حنيفة على النبي ﷺ عام الوفود، فلما أظلوا المدينة خلفوا مسيلمة في رحالهم يحفظها لهم، فحباهم النبي ﷺ على عادته الشريفة مع وفود العرب التي كانت تقدم عليه مسلمة، فذكروا له مكان مسيلمة، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به لقومه وقال لهم: «إنه ليس بشركم مكاناً» قال علماؤنا في تأويل ذلك: يعني لحفظه ضيعة أصحابه.

نبوءة صادقة

والذي ينقدح في الخاطر أن تأويل هذا الحديث أعمق من ذلك، وأن هذا ضرب من نبوءات رسول الله ﷺ الصادقة ومعجزاته الإخبارية الواقعة، فقد قرأ رسول الله ﷺ في لوح الغيب ما كتب على نواصي هؤلاء القوم من دلائل الغدر والنكوص على الأعقاب والارتداد عن دين الله، وأن صاحبهم هذا الذي سألوا له رسول الله ﷺ حباء مثل حبائهم فأخبرهم عنه أنه ليس بشرهم مكاناً، سيقودهم إلى شر عاقبة يهلكهم بها، وأنهم سيتابعونه على ضلالته فيهلكونه كما أهلكهم، فهم وهو في شرها على سواء.

يرشح تأويلنا هذا ما روي عن رافع بن خديج أنه قال: قدمت على النبي ﷺ وفود العرب فلم يقدم علينا وفد أقسى قلوباً ولا أحرى أن يكون الإسلام لم يقر في قلوبهم من بني حنيفة؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر له أن مسيلمة الكذاب قال عندما قدم في قومه: لو جعل لي محمد الخلافة من بعده لاتبعته، فجاءه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس ابن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ ميتخة[1] من نخل، فوقف عليه ثم قال: لئن أقبلت ليفعلن الله بك؛ ولئن أدبرت ليقطعن الله دابرك، وما أراك إلا الذي رأيت فيه ما رأيت ولئن سألتني هذه الشطية ـ لشطية من الميتخة التي في يده ـ ما أعطيتكها. وهذا ثابت يجيبك.

(١) عسيب من جريد النخل.

قال ابن عباس: سألت أبا هريرة عن قول النبي ﷺ: ما أراك إلا الذي رأيت فيه ما رأيت؛ قال: كان رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فنفخهما فطارا فوقع أحدهما باليمامة، والآخر باليمن. قيل لي: وما أولتهما يا رسول الله! قال أولتهما كذابان يخرجان من بعدي.

ادعاء مسيلمة النبوة

انصرف مسيلمة إلى موطنه، ولم يلبث أن أبدى لقومه خبيئة نفسه، فادعى فيهم النبوة، وأنه أشرك في الأمر مع محمد ﷺ، ومن عجيب خذلانه أنه جعل حديث النبي ﷺ مع وفد قومه وإخباره أنه ليس بشرهم مكاناً دليلاً على دعواه السخيفة، وسرعان ما تطاير اليه بنو حنيفة تطاير الفراش على النار، فلما رأى ذلك منهم وملأ يديه من جهالتهم كتب إلى النبي ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله؛ أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

فأجابه النبي ﷺ فكتب إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. وقد أهلكت أهل الحجر أبادك الله ومن صوت معك».

شعوذة وخبث دهي

كان مسيلمة رجلاً صاحب ذكاء ودهي. فيه خبث ومكر واقتدار على الاحتيال. واعتباد السذج وضعفاء العقول؛ فاستولى بذلك على عامة قومه. وخدعهم فانخدعوا له. وتعصب له قوم من ذوي رأيهم فوافقوه على سخف.

قال الجاحظ: كان مسيلمة قبل ادعاء النبوة يدور في الأسواق التي بين العرب والعجم كسوق الأبلة وسوق بقه وسوق الأنبار وسوق الحيرة. يلتمس تعلم الحيل والنيرنجات. واحتيالات أصحاب الرقي والنجوم؛ ومن حيله أنه صب على بيضة من خل حاذق قاطع؛ فلانت حتى إذا مددتها استطالت واستدقت كالعلق. ثم أدخلها في قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وعادت كهيئتها الأولى فأخرجها إلى قومه وهم قوم أعراب وادعى النبوة.

وذكر الرواة أن من أعظم ما فتن بني حنيفة بمسيلمة شهادة رجل من قومه يقال له نهار الرجال بن عنفوة. زعم أنه سمع النبي ﷺ يقول بإشراك مسيلمة معه في الأمر فكان أكذب لصاحبه من صاحبه على الله. وإنما وقعت فتنة هذا الرجل في قلوب بني حنيفة لأنه كان قدم على النبي ﷺ وقرأ القرآن وتعلم من السنن ثم عاد إلى قومه فوجدهم يطيفون بمسيلمة فانسلخ من الإيمان بهذا الكذب السخيف وانتفخ أنف مسيلمة، وأمال لقومه عطفه وأخذ يسجع[1] لهم سخافات هي في وزن العقل من أضاحيك البله الممرورين. وفي وزن البيان العربي من سخرية اللغة على الباقليين.

عصبية عمياء

وكان أعقل بني حنيفة في هذه الفتنة العاصفة من جرفتهم العصبية القبلية دون نظر إلى عقل أو دين. حدث عمير بن طلحة النميري عن أبيه أنه جاء اليمامة فقال: أين مسيلمة؟؟ فقالوا: مه، رسول الله فقال: لا. حتى أراه؛ فلما جاءه قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم. قال: من يأتيك؟ قال: رحمن؛ قال: أفي نور أم في ظلمة؟ فقال في ظلمة؛ فقال: أشهد أنك كذاب. وأن محمداً صادق. ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر!!

ويروى أن فتان بني حنيفة نهار الرجال كان يقول بعد ما أضله الله على علم: كبشان انتطحا، فأحبهما إلينا كبشنا؛ وقال محكم بن الطفيل ـ وهو من سادات أهل اليمامة ـ لما قيل له: هذا خالد بن الوليد في المسلمين: رضي خالد أمراً ورضينا غيره، وما ينكر خالد أن يكون في بني حنيفة من أشرك في الأمر؟

هذا تفكير عقلاء الحنفيين، وهذا فهمهم للنبوة والدين، وإن كانوا لم

---

(١) يستبعد بعض الباحثين صدور هذا الهراء الذي تحكيه بعض الروايات معزو إلى مسيلمة ابن حبيب في سجعات سخيفة اللفظ مريضة المعنى مدعياً أنها مما أوحي إليه، ونحن لا نثبت هذا ولا ننفيه من جهة الرواية لأنه ليس لدينا حجة على أحد الأمرين ولكنا نستبعد صدور هذا السخف من هذا الرجل الماكر المشعوذ إمعاناً في دعم دعواه عند ذوي الجهالة من البدائيين الذين لم ترق فطرتهم عن غرائز الخفافيش ودواب الظلام، بعد أن استطاع بدهائه أن يحرك عوامل العصبية عند عقلاء قومه فتعصبوا له وهم يعلمون كذبه. ولو لم يكن هذا السخف صدر من مسيلمة لكان في حكايته عنه تمثيل لروح جمهرة المجتمع الذي اتبع نعيقه، مع احتفاظ الرواية بتمثيل روح الخاصة في وحي شيطان العصبية لها بقوله (ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر).

يعدموا آحاداً منهم ثبت الله أقدامهم وعصم عقولهم فاستمسكوا بعروة الإسلام الوثقى، وكان في هؤلاء الأحرار الذي لم تستعبدهم العصبية القبلية عمير بن صالي اليشكري، وهو من سراة أهل اليمامة وأشرافهم، فكتم على قومه إسلامه لما رآهم يمرجون في الفتنة يقودهم إليها محكم بن الطفيل ونهار الرجال ممسكين بخطام مسيلمة يقودانه كما يقاد الجمل المخشوش، وفيهما يقول عمير بن صالي:

يا سعاد الفؤاد بنت أثال — طال ليلي بفتنة الرجال
فتن القوم بالشهادة واللـ — ـه عزيز ذو قوة ومحال
لا يساوي الذي يقول من الأمـ — ـر قبالاً وما احتذى من قبال
إن ديني دين النبي وفي القو — م رجال على الهدى أمثالي
أهلك القوم محكم بن طفيل — ورجال ليسوا لنا برجال
بزهم أمرهم مسيلمة اليو — م فلن يرجعوه أخرى الليالي
قلت للنفس إذ تعاظمها الصبـ — ـر سادت مقالة الأقوال
ربما تجزع النفوس من الأمـ — ـر له فرجة كحل العقال
إن تكن ميتتي على فطرة — الله حنيفاً فإنني لا أبالي

أول لواء رب اليمامة

استعلن أمر مسيلمة واستشرى خطره بعد وفاة النبي ﷺ، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد استقبل أمر ردة العرب بعزيمة لم يعرفها التاريخ لرجل في أمة من الأمم، فاستجابت لعزيمته قلوب المسلمين، فوضعوا أرواحهم بين يديه يدفع بها حيث شاء، فعقد الألوية وأرسل الجيوش مجاهدة في سبيل الله فكان من حظ اليمامة لواء عكرمة بن أبي جهل مردفاً بشرحبيل ابن حسنة ليكون رداءً له. ولكن عكرمة رضي الله عنه أراد أن يكون له خاصة فخر الظفر بهؤلاء المرتدين، فتعجل الهجوم، ولم ينتظر رديفه، فنكب ولم يصنع في القوم شيئاً، فأغضب ذلك أبا بكر رضي الله عنه، وكتب إلى عكرمة يعنفه بقوله: يا ابن أم عكرمة لا أرينك ولا تراني على حالها، لا ترجع فتوهن الناس، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة. وكتب إلى شرحبيل أن يتمهل حتى يأتيه خالد بن الوليد بمن معه من جند الإسلام المظفرين لئلا يقع شرحبيل في مثل ما وقع فيه عكرمة من قبل، ولكن شرحبيل أراد ما أراد عكرمة، فلقي صاحبه حتى

أدركه البطل العبقري خالد، وأخذ بيمينه زمام القيادة وأدار المعركة بوحي البطولة وساسها بمهارة السياسي الحكيم.

توجيه خالد إلى حرب مسيلمة

قال شريك الفزاري: كنت ممن حضر بزاخة مع عيينـة بن حصن فرزقني الله الإنابة، فجئت أبا بكر، فأمرني بالسير إلى خالد، وكتب معي إليه بوصايا وفي آخرها: إن أظفرك الله بأهل اليمامة فإياك والإبقاء عليهم، أجهز على جريحهم واطلب مدبرهم واحمـل أسيرهم عـلى السيف، وهول فيهم القتل، واحرقهم بالنار، وإياك أن تخالف أمري، والسلام عليك؛ فلما انتهى الكتاب إلى خالد اقترأه وقال: سمعاً وطاعة. أترى ما عسى أن يصنع خالد رضي الله عنه، وقد قدمت له الحوادث نكبة صاحبيه عكرمة وشرحبيل؟ أتراه يندفع مهاجماً معتمداً على قوة السلاح كما اعتمد صاحباه من قبله ورأى بعينيه مصيرهما؟ أم تراه يلجأ إلى العقل يستوحيه التدبير ويستلهمه التفكير؟

إن خالداً رضي الله عنه كان قائداً من طراز يملك أعصابه متى شاء، وهو يعرف للروح المعنوية في الجيوش قيمتها ويقدرها قدرها، وقد رأى أن أهل اليمامة فازوا على جيش من جيوش المسلمين؛ والظفر مما يرفع حرارة الروح المعنوية في الجيوش المحاربة، فلا بد له من أن يقدم أمام المعركة لوناً من حرب الأعصاب حتى يروز قوة عدوه ويخضد شوكته ويوهن معنويته، وكان أهل اليمامة لما اتصل بهم مسير خالد إليهم بعد الذي صنع الله له في أمثالهم جزعوا وتحيروا، واضطرب للأمر عاقلهم محكم بـن طفيل، وبات يتلوى على فراشه، وكان خالد يعلم مكان محكم في قومه، وكان في جيش خالد زياد بن لبيد بن بياضة الأنصاري، وكان زيـاد صديقـاً لمحكم ابن طفيل، فقال له خالد في بعض الطريق: يا زياد لو ألقيت إلى محكم شيئاً تكسره به، فإنه سيد أهل اليمامة وطاعة القوم، فبعث إليه زياد بهذه الأبيات من الشعر.

يا محكم بن طفيل قد أتيح لكم	لله در أبيكم حية الـــوادي
يا محكم بن طفيل إنكم نفر	كالشاء أسلمها الراعي لآساد
ما في مسيلمة الكذاب من عوض	من دار قـوم وإخوان وأولاد
فاكفف حنيفة يوماً قبل نائحة	تنعي فوارس شاج شجوها باد

لا تأمنوا خالداً بالبرد معتجراً　　　تحت العجاجة مثل الأغضف العادي
ويل اليمامة ويلاً لا فراق له　　　إن جالت الخيل فيها بالقنا الصادي
والله لا تنثني عنكم أعنتها　　　حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

ولكن محكم بن الطفيل كان أبعد في عصبيته مما ظن به زياد البياضي، فلم يكترث لأبياته، ولم يرفع لما فيها من تهديد ووعيد رأسه، بل لقد زادته حمية وتذميراً لقومه، فقد اندفع يحرضهم على قتال المسلمين ويخطب فيهم بقوله: يا معشر أهل اليمامة إنكم تلقون قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم، فابذلوا أنفسكم دون صاحبكم، فإن أسداً وغطفان إنما أشار إليهم خالد بذباب السيف فكانوا كالنعام الشاردة.

فهل كان موقف محكم بن الطفيل وتصلبه في عصبيته الجاهلية مما صد خالداً عن سياسة العقل وحرب الأعصاب؟ لا؛ إن خالداً يعرف لهذه الحرب «الباردة» قيمتها في نتيجة الحرب الدموية إذا نشبت. وها هو ذا يترك زياداً ومحكمًا. ويعوذ برجل آخر، هو من سادات أهل اليمامة. أسلم فكتم على قومه إسلامه. وكان راسخ الإيمان قوي العقيدة. عرفه خالد فلم يحجم عن توجيهه في كسر قومه بني حنيفة قياماً بحق الإسلام عليه ذلك هو عمير ابن صالي اليشكري. فقال له خالد: تقدم إلى قومك فاكسرهم. فأتاهم ولم يكونوا علموا بإسلامه. فقال: يا معشر أهل اليمامة. أظلكم خالد في المهاجرين والأنصار. تركت القوم يتتابعون إلى فتح اليمامة وقد قضوا وطراً من أسد وغطفان وعليا هوازن . وأنتم في أكفهم . وقولهم لا قوة إلا بالله؛ إني رأيت قوماً إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر. وإن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد، ولستم والقوم سواء؛ الإسلام مقبل والشرك مدبر. وصاحبهم نبي وصاحبكم كذاب. ومعهم السرور. ومعكم الغرور. فالآن والسيف في غمده. والنبل في جفيره[1]. قبل أن يسل السيف. ويرمى بالسهم سرت إليكم مع القوم عشراً.

وهذا مسلك غير مسلك زياد البياضي مع محكم، لأن عميراً خاطب العامة بأسلوب يقارب ويباعد، ويلين ويشتد، وخطاب عامة الناس أفعل في

(١) الجفير: الجعبة من الجلد أو الخشب.

تخذيل الهمة من خطاب رجل واحد له مكانه في قومه؛ مما يجعله يملك زمام أعصابه فلا تخور.

وقد جرى على هذه الطريقة في حرب الأعصاب بعد عمير رجل آخر من أشراف بني حنيفة، ذلك ثمامة بن أثال الحنفي الذي مشى في قومه خطيباً يقول: يا أهل اليمامة: اسمعوا مني وأطيعوا أمري ترشدوا. إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد، إن محمداً ﷺ لا نبي بعده، ولا نبي مرسل معه، ثم قرأ عليهم ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إلّه إلا هو إليه المصير﴾ هذا كلام الله عز وجل، أين هذا من: يا ضفدع نقي، كم تنقين، لا الشرب تمنعين، ولا الماء تكدرين؟ والله إنكم لترون أن هذا الكلام ما يخرج من إل[1]. وتوفي رسول الله ﷺ وقام بهذا الأمر من بعده رجل هو أفقههم في أنفسهم لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم بعث إليكم رجلاً لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه، يقال له «سيف الله» معه سيوف الله كثيرة؛ فانظروا في أمركم.

* * *

هذه خطوة في سياسة خالد بن الوليد الحربية التي استنها في حرب أهل اليمامة، وهي خطة من أحكم الخطط الحربية في القديم والحديث، وقد شهد الناس في الحرب المعاصرة ما لهذا الأسلوب من أثر عظيم في تحطيم قوة العدو المعنوية، وكانت تلجأ إليه الدول المتحاربة في وقائع كثيرة كلما أعوزتها القوة المادية أو قصر دون إدراك الغاية السلاح، وكسب الزمن إحدى نتائجه وله أثره الفعال في تغير الخطط الموضوعة.

مجاعة ابن مرارة ومكانته في قومه

ترك خالد لخطته هذه تفعل في نفوس القوم فعلها، ورأى أنه فرغ من مرحلة السياسة وحرب الأعصاب؛ ونهض إلى السيف يحكمه، وزحف إلى بني حنيقة وقدم أمام جيوشه الطلائع، فأخذت طلائعه جماعة من بني حنيفة فيهم مجاعة بن مرارة الحنفي من سادتهم، فلما جاؤوا بهم إلى خالد سألهم عن مسيلمة، ما يقولون فيه؟ فشهدوا أنه رسول الله، فقال لمجاعة ما تقول أنت؟ قال: والله ما خرجت إلا في طلب رجل من بني نمير، أصاب فينا دماً، وما

(١) الإل: من معانيه المناسبة هنا الربوبية والأصل الجيد وقيل هو اسم لله تعالى.

كنت أقرب مسيلمة، ولقد قدمت على رسول الله ﷺ، وما غيرت ولا بدلت، فأمر بهم خالد فضربت أعناقهم لإصرارهم على أقبح الكفر بقولهم في كذابهم، حتى إذا بقي منهم رجل يقال له سارية بن مسيلمة بن عامر، تقدم إلى خالد فقال له: أيها الرجل إن كنت تريد بأهل اليمامة خيراً أو شراً فاستبق هذا، يعني مجاعة بن مرارة، فإنه عون لك على حربك أو سلمك فاستبقاه خالد فلم يقتله، واستبقى سارية لنصحه ـ ولكنه أمر بهما فأوثقا في جوامع حديد، تحوطا لنفسه ولجيشه، وكان خالد يقرب مجاعة ويتحدث إليه، ويستخبره خبر مسيلمة ويضحك عندما يسمع أسجاعه وأرجازه التي زعم أنه يعارض بها القرآن، ويقول : يا معشر المسلمين اسمعوا إلى عدو الله كيف يعارض القرآن! ويقول لمجاعة: هات زدنا من كذب الخبيث، فقال مجاعة: أخرج لكم حنطة وزواناً[1]، ورطباً وتمراناً، فقال خالد وهذا كان عندكم حقاً وكنتم تصدقونه؟ قال مجاعة: لو لم يكن عندنا حقاً لما لقيتك غداً أكثر من عشرة آلاف سيف، يضاربونك فيه حتى يموت الأعجل، قال خالد: إذاً يكفيناهم الله ويقر دينه، فإياه يقاتلون، ودينه يريدون.

بدء المعركة

تقدم خالد بالمسلمين حتى نزل على كثيب مشرف على أرض اليمامة، فضرب به عسكره، وأقبل مسيلمة في قومه وألفافه حتى نزلوا مكاناً يقال له «عقرباء»، وقد سلوا سيوفهم، فظن خالد أنهم صنعوا ذلك ترهيباً للمسلمين، فقال: يا معشر المسلمين أبشروا، فقد كفاكم الله عدوكم، وما سلوا السيوف من بعيد إلا ليرهبونا، وإن هذا منهم لجبن وفشل. فقال مجاعة ونظر إليهم: كلا والله يا أبا سليمان، ولكنها الهندوانية خشوا من تحطمها، وهي غداة باردة، فأبرزوها للشمس لأن تسخن متونها، فلما دنوا من المسلمين نادوا: إننا لنعتذر من سلنا سيوفنا حين سللناها، والله ما سللناها ترهيباً لكم ولا جبناً عنكم، ولكنها كانت الهندوانية، وكانت غداة باردة، فخشينا تحطمها فأردنا أن تسخن متونها إلى أن نلقاكم فسترون.

نهض خالد إلى المسلمين فصفهم، وأعطى رايات الكتائب نفراً من فوارس الأبطال، فأعطى راية المهاجرين زيد بن الخطاب أخا عمر ابن الخطاب، وأعطى راية الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، وجعل على الميمنة

(١) الزوان: حب يخالط القمح قال في اللسان: وهي حبة تسكر.

أبا حذيفة عتبة بن ربيعة، وعلى الميسرة شجاع بن وهب، وعلى الخيل البراء ابن مالك، ثم أسامة بن زيد. والتقى الجمعان واقتتلوا أشد القتال، وصبر الفريقان أحر الصبر وأمره، فقال عكرمة بن أبي جهل ـ: حملت بنو حنيفة أول مرة كانت لها الحملة، وخالد على سريره حتى خلص إليه فجرد سيفه وجعل يسوق بني حنيفة سوقاً حتى ردهم وقتل منهم قتلى كثيرة، ثم كرت بنو حنيفة حتى انتهوا إلى فسطاط خالد فجعلوا يضربون الفسطاط بالسيوف، وأرادوا قتل زوجه أم متمم فأجارها منهم مجاعة بن مرارة الحنفي، وأثنى عليها بقوله: نعمت الحرة كانت، وعير قومه فقال لهم: تركتم الرجال وجئتم إلى امرأة تقتلونها؟ وكانت أم متمم أجارته من سيوف المسلمين، لأن خالداً قال لها استوصي به خيراً.

وكان شرحبيل بن مسيلمة الكذاب يذمر قومه بني حنيفة ويحمسهم ويستثير حميتهم بقوله: يا بني حنيفة؛ اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم.

نفحات البطولة الإسلامية

اضطرب الناس، واعتكر الجو، وتعاورت الهزيمة الفريقين فخشي أبطال المسلمين عاقبة الأمر، فصاح ثابت بن قيس: بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين؛ اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ـ يعني أهل اليمامة ـ وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وتقدم براية الأنصار في نحر العدو يقاتل حتى قتل، ثم تقدم زيد بن الخطاب وفي يده راية المهاجرين فقال: لا تحوز[1] بعد الرحال، والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل فأكلمه بحجتي، غضوا أبصاركم، وعضوا على أضراسكم أيها الناس، واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً، وقاتل على حاله هذا حتى قتل، فأخذ الراية سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون: يا سالم إنا نخشى أن نؤتى من قبلك! فقال: بئس حامل القرآن أنا إذا أتيتم من قبلي، ثم تقدم وحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه، وحمي وطيس القتال وكثر القتلى حتى فني كثير من حملة القرآن وحفاظه، وقتل من بني حنيفة عدد عظيم، واختلط حابل الناس بنابلهم، ولم يعرف كرارهم من فرارهم، وقال المهاجرون

(١) التحوز والتحيز: التنحي ومنه قول الله تعالى (أو متحيزاً إلى فئة):

والأنصار: إنما نؤتى من قبل الأعراب وأهل البوادي، وطلبوا إلى أميرهم سيف الله أن يخلصهم فميز الناس بأوصافهم حتى قال بعضهم لبعض: اليوم يستحي من الفرار، فاشتدت حمية الناس وعظم الأمر، وثبت بنو حنيفة لوقع السيوف، ولم يحفلوا بكثرة من قتل منهم، فعرف خالد أن الحرب لا تخف وطأتها ما بقي مسيلمة بينهم فدعاه للمبارزة، فخرج إليه، فعرض عليه خالد أموراً مما يشتهي، فأعرض مسيلمة، متظاهراً بأنه يستشير شيطانه فركب خالد كتفيه حتى أرهقه، وصاح في المسلمين: دونكم فلا تقيلوهم، فحملوا عليهم حملة صادقة حتى أدخلوهم حديقة مسيلمة فرموهم بالنبل، واقتحموا عليهم الحديقة، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وكان أول من فدى المسلمين بنفسه، واقتحم باب الحديقة ففتحها للمسلمين فارس المسلمين البراء بن مالك، وقيل أبو دجانة، وقيل عباد بن بشر، وثلاثتهم من الأنصار. وفي حديقة الموت هذه قتل مسيلمة بعد أن كشف لأصحابه قناع ضلالته وعرى لهم خبثه ففت في أعضادهم، وكسر شوكة حميتهم، فقد سألوه وهو منهزم عنهم: أين ما كنت تعدنا؟ فقال لهم: أما الدين فلا دين، قاتلوا عن أحسابكم!!

حملة صادقة

فاستيقن القوم أنهم في غير شيء؛ وأنهم قبضوا بأيديهم على الماء. والرواية الصحيحة تقول: إن الذي تولى قتل مسيلمة وحشي مولى المطعم ابن عدي قاتل حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء يوم غزوة أحد، وكان وحشي إذا تحدث عن ذلك يقول: قتلت خير الناس وأنا على جاهليتي وشر الناس وأنا على الإسلام، وقد تقدم في حديث نسيبة بنت كعب أن ابنها عبدالله بن زيد هو الذي قتل مسيلمة الكذاب، ولا يبعد أن يكون عبدالله ووحشي اشتركا في قتله، روى البخاري في الصحيح عن وحشي قال: خرجت مع الناس فإذا رجل قائم في ثلمة جدار وكأنه جمل أورق، ثائر الرأس، فرميته بحربتي فوضعتها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته، فقالت جارية على ظهر بيت: واأمير المؤمنين قتله العبد الأسود!!

قتل مسيلمة من قتله؟

وروى غير البخاري أن وحشياً قال: لما اختلط الناس في الحديقة، وأخذت السيوف بعضها بعضاً نظرت إلى مسيلمة وما أعرفه، ورجل من الأنصار يريده، وأنا من ناحية أخرى أريده فهززت من حربتي حتى رضيت

منها، ثم دفعتها عليه، وضربه الأنصاري فربكم أعلم أينا قتله، إلا أني سمعت امرأة من فوق الدير تقول: قتله العبد الحبشي.

بدء النهاية في المعركة

كان قتل مسيلمة بدءاً لنهاية هذه المعركة القاسية، فلم يكد يسري نبأ قتله في قومه، حتى انفرط عقدهم، وانحلت عزائمهم، ووهنوا أمام المسلمين مع ما نالهم من القتل والجراح، فتفرق من بقي منهم إلى الحصون، وتحاجز الناس على النصر والظفر للمسلمين، والهزيمة والاندحار على أهل اليمامة من الحنفيين.

رأى ذلك مجاعة بن مرارة الحنفي وهو أخيذ[1] في يد خالد بن الوليد فأقض مضجعه، وأقامه وأقعده، ففكر وقدر، وأعمل الحيلة ودبر، وانتهى به تدبيره إلى أن أرسل إلى بقية السيف في قومه ليلاً: أن البسوا السلاح النساء والذرية والعبيد، ثم إذا أصبحتم فقوموا مستقبلي الشمس على حصونكم حتى يأتيكم أمري.

وبات خالد والمسلمون يدفنون قتلاهم، ويتكمدون بالنار من شدة ما بهم من الجراح، حتى إذا أصبح أمر بمجاعة فسيق معه في الحديد، وجعل يسبر القتلى، وهو يريد مسيلمة، فمر برجل وسيم، فقال يا مجاعة: أهو هذا؟ قال: لا هذا والله أكرم منه؛ هذا محكم بن الطفيل، ثم قال مجاعة: إن الذي تبتغون رجل ضخم أشعر البطن والظهر، أبجر بجرته كالقدح، مطرف إحدى العينين، وأمر خالد بالبحث عنه بين القتلى حتى وجدوه فوقف عليه خالد وحمد الله كثيراً، وأمر به فألقي مع قتلى قومه في خفير.

خدعة مجاعة

ظن خالد رضي الله عنه أن الهزيمة التي لحقت ببني حنيفة لم تبق على أحد ممن فيه قوة لقتال منهم، ولكن خديعة مجاعة الحنفي فوتت على خالد ما كان أمره به أبو بكر من استئصال بني حنيفة إذا ظفر بهم لسوء صنيعهم بالمسلمين، وإذا أراد الله أمراً أنفذه وهيأ له أسبابه.

قال خالد رضي الله عنه لمجاعة وهما واقفان على مسيلمة قتيلاً: يا مجاعة هذا صاحبكم الذي فعل بكم ما فعل!! فقال مجاعة: قد كان ذلك يا

(١) الأخيذ: الأسير.

خالد؛ ولا تظن أن الحرب انقطعت بينك وبين حنيفة وإن قتلت صاحبهم، إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس، وإن جماعة الناس وأهل البيوتات لفي الحصون، فانظر! فرفع خالد رأسه وهو يقول: قاتلك الله ما تقول؟! قال: أقول الحق، فنظر خالد فإذا السلاح. وإذا الحلق على الحصون، فرأى أمراً غمه وساءه، ولا سيما وحال المسلمين أمامه يصورهم وقد ملوا القتال بعد أن قتل منهم من قتل، وعامة من بقي منهم جريح، وقد لاحت دلائل الرغبة على وجوه كثير منهم في الوقوف بالمعركة عند هذه النهاية التي توجت رؤوس المسلمين بالنصر ودمغت أهل اليمامة بالهزيمة.

غير أن خالد بن الوليد لم يكن بالرجل الذي تهزه الأزمات مهما اشتدت، ولم يكن بالقائد الذي يغريه النصر بالانسحاب فصاح في المسلمين: يا خيل الله اركبي، فاندفع جنود الإسلام إلى حومة الوغى يطلبون نصراً يقضي على عدوهم قضاء لا تقوم لهم بعده قائمة، ولكن مجاعة خشي انكشاف حيلته قبل أن تثمر ما قدر لها من ثمرة تنقذ من قومه من بقيت فيهم من الحياة بقية، فأسرع إلى خالد يستنزله عن عزيمته بقوله: أيها الرجل إني لك ناصح؛ إن السيف أفناك وأفنى غيرك، فتعال أصالحك عن قومي، فمال خالد إلى الصلح رقة بالمسلمين، وقد أصيب منهم أهل السوابق، وكثرت جراحات سائرهم مع عجف الكراع وطول اللقاء، فرق لهم وأحب الموادعة، وقبل الصلح على الصفراء[1] والبيضاء والحلقة[2] والسلاح والكراع[3] ونصف السبي، فلما فتحت الحصون، وانجلى الموقف عن خديعة مجاعة، ولم ير خالد في الحصون إلا النساء والصبيان والضعفى والعاجزين عن القتال، قال لمجاعة: ويحك خدعتني. فقال له مجاعة: هم قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت.

الصلح بين التأيد والمعارضة

لقي هذا الصلح في أول أمره معارضة شديدة من الجانبين، فعارضه من بني جنيفة سلمة بن عمير، وقام يذمر قومه بقوله: قاتلوا عن أحسابكم، ولا تصالحوا على شيء فإن الحصن حصين والطعام كثير، وقد حضر الشتاء.

(١) الصفراء: الذهب، والبيضاء: الفضة
(٢) الحلقة: الدروع
(٣) الكراع: الخيل.

وهذا كلام رجل مخادع أو مخدوع ينطقه الوتر والضغينة، ولا يبالي ما وراء ذلك وقد عرف من حال قومه ما عرف مجاعة الذي قال لقومه يرد عليه قوله: يا بني حنيفة أطيعوني واعصوا سلمة فإنه رجل مشؤوم قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن مسيلمة: قبل أن تستردف النساء غير رضيات، وينكحن غير حظيات فقبل بنو حنيفة قول مجاعة وأجازوا صلحه.

وعارض هذا الصلح من المسلمين فريق من الأنصار بزعامة أسيد ابن حضير، وأبي نائلة، فإنهما قالا لخالد: اتق الله ولا تقبل الصلح، فقال خالد والله قد أفناكم السيف، فقالا: وإنه قد أفنى غيرنا أيضاً، فقال خالد: فمن بقي منكم جريح، فقالا: وكذلك من بقي من القوم جرحى، لا ندخل في الصلح أبداً، أغد بنا عليهم حتى يظفرنا الله عليهم أو نبيد عن آخرنا، أحملنا على كتاب أبي بكر: «إن أظفرك الله ببني حنيفة فلا تبقي عليهم» فقد أظفرنا الله وقتلنا رأسهم، فمن بقي منهم أكل الشوكة[1]، وهذا كلام ينطف من سحائب الإيمان، لا يبالي صاحبه أن يقتل أو يقتل في سبيل الله، فهو فائز على أي أمريه اتكأ، والإيمان وحده لا يكفي لتوجيه المعارك الحربية، ولا سيما بعد أن يتنسم الناس شيئاً من روح المهادنة ويسمعوا همساً في المصالحة؛ مما يدخل على النفوس لوناً من الفتور يستحبون معه الموادعة، فلو نشبت بهؤلاء المعركة لم تكن مضمونة النهاية في قوتها المعنوية، ومن هنا تشبث خالد وهو أعلم بحال جنده بما كان قد أمضى من الصلح، ولم تؤثر فيه حماسة الأنصار لرأيهم، ورأى أنه لا يجوز له أن ينقض ما أبرمه من غير عذر يأتيه من قبل العدو، ووافقه على رأيه سائر المسلمين.

* * *

كتاب أبي بكر إلى خالد وإمضاء الصلح

لم يكد المسلمون يتنفسون بعد إتمام هذا الصلح حتى قدم عليهم مسلمة بن سلامة بن وقش بكتاب من أبي بكر لخالد يقطر دماً، وفيه يقول: «إذا جاءك كتابي فانظر، فإن أظفرك الله ببني حنيفة فلا تستبق منهم رجلاً جرت عليه المواسي» فعادت الأنصار إلى مقالتها في معارضة الصلح، وقالوا

---

(١) الشوكة: شدة بأس القتال.

لخالد: أمر أبي بكر فوق أمرك. فلم يتزحزح خالد عن رأيه الأول، وفاء بعهده وذمة المسلمين، ولكنه لاين الأنصار، فقال لهم: إني والله ما صالحت القوم إلا لما رأيت من رقتكم، ولما نهكت الحرب منكم، وقوم صالحتهم ومضى الصلح فيما بيني وبينهم، والله لو لم يعطونا شيئاً ما قاتلتهم وقد أسلموا. وفي هذه الكلمة الخالدية نفحات إسلامية مشرقة، فهي تأبى أولاً إلا أن تخاطب من هؤلاء المتحمسين من جنود الإسلام وجدانهم وعواطفهم، ثم تأبى ثانياً إلا أن تظهر عزيمة القيادة المسيطرة في تنفيذ ما أبرمت، ثم تأبى ثالثاً إلا أن تضع هذا العنوان في وجه تلك الحماسة الإيمانية لتكفكف من غلوائها، فكيف يقاتل قوماً قد أسلموا فأصبح لهم من حق الإخاء الإيماني ما يردهم إلى موضع الأمن على أنفسهم وأموالهم؟ وقد رضي الأنصار ما رضيه خالد ورضيه سائر الناس، فكتب إلى أبي بكر بالصلح الذي تم، وقال له: «إني لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به، وحتى عجف الكراع، ونهك الخف، ونهك المسلمون بالقتل والجراح».

غدرة لم تتم

تم الصلح كما عقده خالد بن الوليد ومجاعة بن مرارة الحنفي، وأقبل بنو حنيفة على خالد في عسكره يبايعونه على الإسلام، ويبرأون إليه مما كانوا عليه، غير أن سلمة بن عمير وهو حامل لواء المعارضة في الصلح من بني حنيفة كان قد أضمر غدرة بقائد المسلمين، وأمير الجيوش الإسلامية خالد ابن الوليد، فقال لمجاعة: استأذن لي على خالد أكلمه في حاجة له عندي ونصيحة، وقد أجمع في نفسه أن يفتك به إن ظفر بالدخول عليه، فانخدع له مجاعة، وكلم خالداً، فأذن له خالد، والناس في سلم وتسليم وبيعة بالفيئة إلى الله تعالى وإلى دينه القويم، فأقبل سلمة بن عمير بوجهه المريب القلق مشتملاً على السيف يريد به ما يريد من فاقرة، ولكن نور الإيمان كشف لقائد الإسلام عن طوية هذا الغادر، وكأنما قرأ خالد بفراسة المؤمن على وجه سلمة بن عمير غدرته وسوء قصده، فلم يكد يراه مقبلاً عليه حتى قال: من هذا المقبل؟ فقال مجاعة: هذا الذي كلمتك فيه وقد أذنت له، قال خالد: أخرجوه عني، فأخرجوه، وكأنما اختلجت نفوسهم بالشك في أمره، ففتشوه فوجدوا السيف، فلعنه قومه وسبوه، وأوثقوه، وقالوا له: أردت أن تهلك قومك، وأيم الله ما أردت إلا أن تستأصل بنو حنيفة، وأيم الله لو أن خالداً

أعلم أنك حملت السلاح لقتلك، وما نأمنه إن بلغه أن يقتل الرجال، ويسبي النساء بما فعلت، ويحسب أن ذلك عن ملأ منا.

ولم يجد ذلك مع سلمة شيئاً، فقد أفلت من قومه وخرج من الحصن الذي أوثقوه فيه، فعمد إلى عسكر المسلمين قاصداً تنفيذ ما طوي عليه كشحه من غدر وخيانة، فصاح به عسكر الإسلام، فقتل نفسه.

رسول خالد إلى أبي بكر

ولما كملت بيعة بني حنيفة على الإسلام، واستسلم سائرهم أمر خالد بالحصون فألزمها الرجال، وحلف مجاعة بالله لا يغيب عنه شيئاً مما صالحه عليه، ولا يعلم أحداً غيب شيئاً إلا رفعه إليه، ثم فتحت الحصون، وأخرج ما فيها من السلاح والحلقة والكراع والذهب والفضة وقسمه على الجند، وعزل الخمس فأرسل به إلى الخليفة، وكان أبو بكر رضي الله عنه في همٍّ شديد من جراء هذه الموقعة لما كان يعلمه من كلب أهل اليمامة على ضلالتهم وشدة شكيمتهم في الحرب، وجلدهم في القتال، وأنهم يحاربون وهم في ديارهم وأموالهم وحصونهم، وذلك أقوى لهم، فكان يستروح إلى أخبارها بقدر ما يجيء رسول قائده خالد، فخرج يوماً إلى ظهر الحرة، ومعه عمر بن الخطاب، وسعيد بن زيد، وطلحة بن عبيدالله، ونفر من المهاجرين والأنصار، فلقي أبا خيثمة النجاري رسول خالد إليه، فقال له، ولم ينظره حتى يكون هو الذي يحدثه: ما وراءك يا أبا خيثمة؟ قال: خير يا خليفة رسول الله، قد فتح الله علينا اليمامة، وهذا كتاب خالد إليك، فسجد أبو بكر شكراً لله تعالى على هذه النعمة السابغة العظمى، ثم أخذ يستوصف أبا خيثمة الواقعة، فجعل يصفها له ويذكر صنيع خالد، ويسمي من قتل من أهل السوابق وحملة القرآن، حتى قال: يا خليفة رسول الله أتينا من قبل الأعراب، انهزموا بنا وعودونا ما لم نكن نحسن حتى أظفرنا الله بعد.

ولما ذكر أبو خيثمة الصلح الذي أجراه خالد وانتهت به الموقعة قال أبو بكر: ليت خالد لم يصالحهم وأنه حملهم على السيف، فما بعد هؤلاء المقتولين يستبقى أهل اليمامة، ولن يزالوا من كذابهم في بلية إلى يوم القيامة إلا أن يعصمهم الله.

كان إرسال خالد لأبي خيثمة تعجيلاً ببشرى الفتح والنصر لعلمه بما

هل وفد خالد على أبي بكر بعد اليمامة

كان يساور الخليفة وسائر المؤمنين المقيمين بعاصمة الإسلام من الإشفاق على جند الإسلام الذين يواجهون هذه المعركة القاسية، ولما استقر به الأمر، واطمأن إلى النهاية القصوى، بعث بوفد بني حنيفة إلى أبي بكر، وهنا تختلف روايات التاريخ، فبعضها يذكر أن خالداً أرسل الوفد ولبث في اليمامة ينتظر أمر الخليفة إليه، فكتب له أبو بكر: «أن سر إلى العراق حتى تدخلها» وبعض الروايات يذكر أن خالداً لما فرغ من بني حنيفة قفل إلى المدينة ومعه سبعة عشر رجلاً من سراواتهم، فيهم صاحبه مجاعة بن مرارة الحنفي وإخوته، فدخل بهم المسجد، وعليه قباء، عليه صدأ الحديد، متقلداً بالسيف، معتماً وفي عمامته أسهم، فمر بعمر بن الخطاب فلم يكلمه، ودخل على أبي بكر فرأى منه ما يحب، وسأله أبو بكر عن أهل البلاء في هذه الوقعة، فقال خالد: كان البلاء كله للبراء بن مالك والناس له تبع، ثم قال الصديق للحنفيين: ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل؟ قالوا: يا خليفة رسول الله قد كان الذي بلغك مما أصابنا، كان امرأ لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه؛ ثم سألهم عن أسجاع مسيلمة فذكروا له شيئاً منها فقال لهم: «سبحان الله! ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر. فأين يذهب بكم؟».

ونحن نشك في رواية قدوم خالد إلى المدينة مع وفد بني حنيفة، ونرجح عليها رواية كتاب أبي بكر إليه بالسير إلى العراق على رأس جيوشه الظافرة من مقامه باليمامة، لأن رواية قدوم خالد المدينة لم تذكر كيف ترك خالد جيوشه الواترة بين قوم موتورين مهما قيل عن استسلامهم، فإنه لم يبلغ أن يكون استسلاماً يحولهم بين عشية وضحاها إلى طبيعة غير طبيعة البشر.

وهذه الرواية لم تذكر من هو القائد الذي أقامه خالد مقامه في إمارة الجيش مدة غيبته حتى يعود، مع بعد المسافة وبطء المواصلات واضطراب الأحوال.

وهذه الرواية فيها مشابه من رواية قدوم خالد المدينة بطلب من أبي بكر على أثر قتل مالك بن نويرة، تلك الرواية التي تصف خالداً في هيئته وزيه وهو داخل المسجد بما تصفه به هذه الرواية من لبس القباء وعليه صدأ الحديد، ومن تقلد السيف والتعمم وغرز أسهم في عمامته، غير أن تلك

الرواية تزيد على هذه بما زعمته من موقف غير كريم وقفه عمر بن الخطاب من خالد بن الوليد، وقد ناقشنا تلك الرواية في مكانها، وأبدينا فيها شكاً ملحاً لا يقيمها بين سائر الروايات على ساق.

فلعل صاحب هذه الرواية من المتكثرين في روايات التاريخ لا يبالي ما أخذ وما أعطى، فلفق أو لفق عليه هذه الرواية متنزعة من صاحبتها تلك، وهما من وادي الزيف السحيق.

* * *

زواج خالد بنت مجاعة

انتهى القائد المظفر خالد بن الوليد رضي الله عنه من حرب أهل اليمامة ظافراً منتصراً بعد أشد المحنة، وأقسى الابتلاء، ولكن خالداً لم يكن من أولئك الرجال الذين تهزهم قواصم المحن، أو تزعزعهم عواصف البلايا، وإنما هو طرز من الرجولية فريد لا تجود به الحياة إلا بعد مرور الحقب، وتعاقب الأجيال.

لم يكد خالد ينتهي من عمل السيف، ويطمئن على جرحى المسلمين، ويقسم بين المجاهدين غنائمهم حتى التفت إلى صاحبه مجاعة بن مرارة الحنفي، وقد عرف مكانه من قومه، ومكان قومه منه، خاطباً إليه ابنته!! وهذا من أعجب ما ينتظر في هذا الموقف من قائد حربي خاض معركة، يصف هولها وأثرها عليه وعلى جيشه بقوله: «شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف، ولا أضرب بها، ولا أثبت أقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة» ولقد كثرت فيها جراحه حتى قال عن نفسه: «ما بي حركة من الجراح، ولقد اقتحمت حتى أيست من الحياة وتيقنت الموت» فكيف اتسعت إذاً مشاعر خالد في هذا الموقف العصيب إلى هذه العاطفة المشبوبة بالحيوية الدافقة التي تتوجه إليها النفس البشرية وهي ـ في غالب الأمر ـ فارغة من الهم، بريئة من الآلام في متعارف طبائع البشر؟

رجولية بطل وبطولة رجل

أجل إن تاريخ خالد بن الوليد صفحة من خصائص الرجولية الكاملة في أسمى معانيها؛ وهو هنا في هذا الموقف يتجلى ثابت الجنان رابط الجأش، قوي النفس، فوار الحساسية والعواطف، خصب الحيوية، والرجل إذا فقد خصوبة الحيوية فقد فَقَدَ كثيراً من خصائص الرجولية، وهذا مقرر عند علماء

الاجتماع والأخلاق وذوي المباحث النفسية، وهو ملحوظ في تاريخ الأبطال وعظماء التاريخ، وقلما عقد التاريخ فصلاً لعبقرية من العبقريات، ولا سيما عبقرية الحروب والبطولة، إلا وفي ضمن صفحاتها صفحة عن اكتمال الحيوية عند صاحب تلك العبقرية.

وقد فرغ الناس قديماً من الحديث عن صلة الجسم بالعقل، وجاء العلم الحديث وأقر ما اتفق عليه العلماء الأقدمون من قوة هذه الصلة حتى أصبح قولهم: «العقل السليم في الجسم السليم» قاعدة من قواعد الحياة الصحيحة القوية؛ وليس أصدق حجة على سلامة الجسم الذي يستقر في خلاياه العقل السليم من خصوبة الحيوية ووفور القوة الجنسية التي ناط الله تعالى بها تجدد الحياة في نماذج النوع المتتابعة بالتوالد.

وقد كان خالد بن الوليد من وفور الحيوية بالموضع الذي يجعله صورة للرجولية الحية الفوارة بإمداد الحياة. وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ الذين ألان الدين قناتهم لشريعته وأحكامه، فكان من القوامين عليها بالقسط، والشريعة الإسلامية هي الشريعة الفذة التي قدرت وفور الحيوية في الإنسان حق قدرها، ولم تغفل شأنها في الحياة، فكانت بذلك متمشية مع الفطرة بعيدة عن التزمت والكبت، وكانت واقعية أمام الحياة، وأمام الناس.

ومن أحق من قائد جيوش الإسلام خالد بن الوليد وهو على ما وصفنا من وفور الحيوية أن يكون نموذجاً لطلاقة الشريعة الإسلامية، وأن يكون عروة من عرى الترابط بين الأسر الإسلامية وبيوتات العرب، وقد بلغ منهم مآرب للإسلام، وهو في أشد الحاجة إليهم، ليبلغ بهم من الأمم الأخرى ما أراده الإسلام؟

استجاب خالد رضي الله عنه إلى قوة نفسه ووفور حيويته من طريق هذه الشريعة المطهرة، ولم يعبأ بما عسى أن يقال برغم صاحبه مجاعة الذي لفت نظره إلى ما يتوقعه من القالة عليه بقوله: «مهلاً! إنك قاطع ظهري وظهرك عند صاحبك، إن القالة عليك كثيرة، وما أقول هذا رغبة عنك» فأبى خالد أن يستمع إلى قول مجاعة، ورد عليه نصيحته بقوله: «زوجني أيها

الرجل، فإن كان أمري عند صاحبي على ما أحب فلن يفسده ما تخاف علي، وإن كان على ما أكره فليس هذا بأعظم الأمور».

وهذا كلام تمليه الحكمة الحازمة، والإرادة القوية التي لا تلين أمام وشاية، ولا ترهب سعاية، فلو لم تكن الدولة في حاجة إلى بطولة خالد لكان خالد في أشد الحاجة إلى الاعتزاز بنفسه، وكأن صاحبه مجاعة لم تقنعه هذه الحجة الثائرة، أو هو أراد أن لا يقتنع ليستفز عزيمة خالد، ويستثير حميته حرصاً على مصاهرته؛ فقال له: «قد نصحتك، ولعل هذا الأمر لا يكون عيبه إلا عليك».

عتب أبي بكر ودفاع خالد

وقع ما ظنه مجاعة بعدما أجاب خالداً إلى رغبته وزوجه ابنته؛ فقد بلغ الخبر أبا بكر فغضب له، وكتب إلى خالد يعاتبه عتاباً أقرب إلى التعنيف والتقريع منه إلى الملامة والعتاب، فقال له: «يا خالد ابن أم خالد! إنك لفارغ تنكح النساء وتعرس بهن وببابك دماء ألف ومائتين من المسلمين لم تجف بعد، ثم خدعك مجاعة عن رأيك فصالحك عن قومه، وقد أمكنك الله منهم». فلم تضعف عزيمة خالد أمام هذا التهديد بل كتب إلى الخليفة يدافع عن نفسه، وأرسل بكتابه إليه مع أبي برزة الأسلمي فقال: «أما بعد فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور، وقرت بي الدار، وما تزوجت إلا إلى امرىء لو عملت إليه من المدينة خاطباً لم أبل؛ دع إني استثرت خطبتي إليه من تحت قدمي، فإن كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا أعتبتك؛ وأما حسن عزائي عن قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقي حياً أو يرد ميتاً، لأبقى حزني الحي ورد الميت ولقد اقتحمت حتى أيست من الحياة وأيقنت الموت، وأما خدعة مجاعة إياي عن رأيي فإني لم أخطىء رأي يومي، ولم يكن لي علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيراً، أورثهم الأرض وجعل العاقبة للمتقين.

تحليل وتوضيح

إذا تأمل الباحث في كتاب أبي بكر إلى قائده البطل، وفي رد خالد عليه تجلت أمامه العبقرية الخالدية في أقوى صورها وأسطع مظاهرها؛ فالخليفة الحليم الرشيد يعيب على قائده أنه فارغ النفس من الهموم، لا يشغله ما كان حرياً أن يشغل غيره ممن يقف في موقفه، ويعيب عليه أنه لم يحزن على قتلى المسلمين، ودماؤهم لا تزال ببابه لم تجف بعد، حزناً يصرفه عن التفكير في

الزواج والتعريس بالنساء استجابة لعواطفه المشبوبة ويعيب عليه أنه خدع عن رأيه فصالح القوم بعد أن أمكنه الله منهم وكان يستطيع لو أراد أن يستأصل شأفتهم، ولا سيما أنه يخطب إلى الرجل الذي خدعه فيرتبط معه برباط المصاهرة بعد الذي كان منه.

جاء رد خالد على هذه المآخذ رداً حازماً في لين، صريحاً في صدق، قوياً في هدوء فهو يرى في رده أن النصر ولو مع التضحية لا يبقي في النفوس العظيمة آثار الآلام ولواعج الأحزان، وقد تم للقائد السرور بالنصر المؤزر، وقرت به الدار ببسط سلطانه على أعدائه؛ ويؤكد خالد حجته بما يبرر خطبته إلى هذا الرجل الذي خدعه حتى لا تندفع الأوهام السقيمة في التظنن بالقائد العبقري كما وقع هذا التظنن في زواجه بامرأة مالك بن نويرة، فهو يعلن أنه قد خطب إلى رجل هو سيد قومه فما يمنعه أن يجعل الخطبة إليه وسيلة من وسائل الاستقرار وتطييب النفوس، على أن هذه الخطبة سعت إليه، ولم يحرك لها المطايا، ولكنه استثارها من تحت قدميه، ولو عمل إليها من المدينة قصداً لها ما كان عليه في ذلك ملام ولا عتبا؛ ولقد أبان خالد أبرع إبانة عن حسن عزائه على قتلى المسلمين، وأنه حزن عليهم حزناً كان كفيلاً أن يرد الحياة إليهم لو كان حزن يرد الحياة إلى ميتٍ، وكان كفيلاً أن يخلد من كان من المسلمين باقياً لو كان الله كتب البقاء والخلود لأحد من الأحياء.

ولم يكن خالد بالقائد الذي يعرض جنده للموت ويقف هو من ورائهم يأمر وينهي ولكنه كان القائد الذي يقتحم أمام جنده في طلب الموت واساهم بنفسه، وليكون لهم المثل الأعلى في الفداء والتضحية، والاستهانة بالحياة في سبيل الحق، وإذا كان صاحبه مجاعة خدعه فهو لم يخدع والحرب دائرة الرحى؛ ولم يخطىء رأي يومه حتى يزن[1] بغفلة لا تليق بعباقرة القادة وأبطال العسكريين، ولم يكن له علم بالغيب فيقرأ ما طواه مجاعة بين جوانحه، وما قيمة هذه الخديعة بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وباء العدو بالخذلان وذل التسليم، وتوج الله هامات المسلمين بالنصر، وأورثهم أرض أعدائهم وجعل لهم عاقبة المتقين؛ فماذا بقي على القائد العبقري بعد ذلك؟

---

(١) يزن: يتهم.

إن من خصائص العبقرية أن تعلو على آفاق العامة والخاصة من الناس فلا تقعدها الأحزان الممضة من الوصول إلى أهدافها، ولا تبطرها المسرات المبهجة فيبدد الغرور مذخورها من القوى المعنوية الدافقة، وعبقرية خالد ابن الوليد كما تصورها سيرته طرز من العبقريات الفريدة في جميع مواقفها.

ولقد كان لرد خالد على أبي بكر هذا الرد الرصين تأثيره القوي في نفس أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه لما بلغه رق لخالد وعذره، ووكد له العذر عنده شهادة أبي برزة الأسلمي، وكان رسول خالد إلى أبي بكر، فإنه قال: «يا خليفة رسول الله ما يؤبن[1] خالد بجبن ولا خيانة، ولقد اقتحم حتى أعذر، وصبر حتى ظفر، وما صالح القوم إلا على رضاء، وما أخطأ رأيه بصلح القوم، إذ لا يرى النساء في الحصون إلا رجالاً» فقال أبو بكر: «صدقت؛ لكلامك هذا أولى بعذر خالد من كتابه إلي».

وإنما كان كلام أبي برزة أولى بعذر خالد عند الصديق لأن أبا برزة أبان عن الجهة التي كانت منها الخديعة فاطمأن الصديق إلى الواقع الذي كان لا يستطاع غيره.

رضي الخليفة الموفق عن قائده المظفر فسيره إلى فتح العراق وحرب فارس، والفرس إحدى دولتين كانتا تتبادلان زمام السيطرة على الدنيا يومئذ. وهنا يفرغ التاريخ من سفر البطولة الخالدية في جزيرة العرب، وهي مجال أضيق من أن تتسع آفاقه لآيات العبقرية في مثلها العامة الكاملة ونماذجها الفاضلة، وأبو بكر الصديق أعرف الناس بالرجال، وهو أعرف بخالد قائده المختار، فقصد إلى أن يرمي به الفرس بعد أن أقر عين الإسلام في العرب؛ والفرس كانوا أهيب عند العرب من أن تطمح أنفسهم لحربهم، ولكن خالد ابن الوليد القائد الذي لم تنكس له راية، ولم يهم له جيش، والذي كان الرعب باسمه أسرع إلى قلوب أعداء الإسلام من سيفه إلى أعناقهم، وهو الذي جرأ العرب على الفرس حتى خلصوهم من أوزار الظلم، واستنقذوهم من آصار الاستبداد حتى تفيأوا وإياهم ظلال السلام والعدل والرحمة في ساحة الإسلام.

---

(١) يؤبن: يتهم.

الفصل العاشر

دولة الفرس بعد العرب
فتح العراق

أسس الفتح الإسلامي ـ مقومات الدولة في الإسلام ـ العراق باب فارس ـ الإسلام يثير في العرب روح المغالبة ـ المثنى بن حارثة وفتح العراق ـ أبو بكر يأمر خالد بغزو فارس ـ سياسة خالد في حرب الفرس ـ من خالد ابن الوليد إلى طارق بن زياد ـ تلاحق الهزائم بالفرس ـ واقعة «المذار» ـ واقعة «الولجة» ـ نهج خالدي في إثار الحماسة ـ واقعة «أليس» ـ غرور فارسي أجوف ـ واقعة «أمغيشيا» ـ عبقرية خالد في نظر الصديق ـ فتح الحيرة ـ حيلة ومكيدة ـ محاصرة قصور الحيرة ـ براعة في المفاوضة ـ نظرة منبهة إلى عوامل الفتح الإسلامي تحليل ـ عدل فوق الرحمة ـ عهد خالد لأهل الحيرة ـ الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية ـ أثر فتح الحيرة ـ أقصوصة طريفة ـ أقصوصة أخرى ـ غزو الفرس في عقر دارهم ـ تيمن خالد بالفأل ـ واقعة «الأنبار» ـ خطة سياسية ـ واقعة عين النمر ـ فتح دومة الجندل ـ شهادة خصم ـ وقائع «الخنافس» و«الحصيدة» و«المصيخ» ـ انتصار خالد بالرعب ـ مناوشات وتطهير ـ واقعة «الفراض» ـ عزمة خالدية.

أسس الفتح الإسلامي

كانت واقعة اليمامة أعظم وقائع الإسلام بالمرتدين من العرب، وكانت نهاية تلك الحروب الداخلية في جزيرة العرب، وبالفراغ منها تم للإسلام إنشاء قاعدة في بناء دولته الكبرى، وقد اعتمدت هذه القاعدة على وحدة الغاية ووحدة اللغة، ووحدة الدين، ووحدة العنصر القومي، ووحدة الوطن والمقر.

والإسلام في طبيعته النظرية، والعملية: شريعة ودولة؛ وقد استقرت أسسه، وكمل بنيانه باعتباره شريعة في حياة النبي ﷺ؛ وهذا الجانب هو المعني بقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وبقي شطره باعتباره دولة تقوم على حماية الشريعة وتنفيذ نظمها وقوانينها وبسط سلطانها ضماناً لإقرار الحق والعدل بين أبناء المجموعة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، ديناً في عنق هذه الأمة العربية الموحدة على أنها هي القاعدة العظمى لدولة الإسلام الكبرى.

ومن هنا ترك الإسلام للأمة أمر نظام الحكم في الدولة تختاره على مقتضى أطوار الحياة الصالحة في مدارج الزمن، بعد أن ضمن لها مقومات البناء وحاطها بسياج من الضمانات القوية الثابتة.

مقومات الدولة في الإسلام

وقد أغضى الإسلام في بناء دولته الكبرى على بعض ما اعتمد عليه في بناء قاعدة هذه الدولة. توسعاً في ربط الإنسانية، وفي إهدار المظاهر الضيقة

في روابط الحياة، فأهدر العنصرية الطائفية والوطنية القومية، وأحل محلهما العنصرية الإنسانية، والوطنية العالمية. وأهدر الإخاء القبلي، وأقام مقامه الإخاء البشري. وسكت عن عروة اللغة بعد ما أحاط العربية بسياج من الضمانات يجعلها على مر الزمن وثيقة الوجود ضمن الروابط العامة، وإن لم تكن من أصولها، وحافظ في بناء الدولة الإسلامية الكبرى على وحدة الدين والغاية، ثم مزج بينهما في عروة واحدة هي عروة «الإخاء» العام التي يدور عليها فلك الشريعة في الإسلام.

العراق باب فارس

على هذا الأساس الخالدي بدأت الفتوحات الإسلامية، وكان أول ما اتجهت إليه أنظار الخلافة الصديقية فتح العراق لأنه باب فارس إحدى دولتين ملكتا زمام الحياة يومئذ، واعتصمت كلتاهما بالحواجز العنصرية الطائفية والوطنية القومية المتغطرسة. وأهدرتا عروة الإخاء الإنساني فكان لا بد للإسلام من أن يعالج أمر هاتين الدولتين، ويحطم فيهما هذه الحواجز الخانقة التي اعتمدتا عليها في بسط ما كان لهما من سلطان على جانبي الأرض.

الإسلام يثير في العرب روح المغالبة

والعراق يومئذ عربي اللغة والعنصر! ولكنه فارسي الحكم، ومنذ أحس عرب العراق صوت الإسلام يدوي في أرجاء الجزيرة العربية قوياً قاهراً تحركت فيهم غريزة المغالبة لهذه الدولة العظيمة المصاقبة لهم، وقد كانت عندهم يوم أن كانوا لا يعتمدون على وحدة سوى وحدة اللغة، فلا يعرفون ديناً قيّماً يجمعهم، ولا يعرفون هدفاً واحداً يقصدون إليه، ـ أهيب من موت الفجاءة فلما هز الإسلام فيهم أريحية الكرامة الذاتية، وبصرهم بأنفسهم، وأشعرهم بشخصيتهم الأممية وعرفهم أن لهم رسالة في الحياة أسمى وأجل من كل ما عرفوه أو سمعوه، وأمدهم برابطة الإخاء العام في وحدة الدين والغاية، لما صنع الإسلام بالعرب هذا الصنيع ضروا بفارس وجرأوا عليها، فناوشوها ونالوا منها، فإذا أرادتهم كان لهم في فيافيهم الفيح منطلق أمين، ومهرب مكين، حتى إذا عجموا عودها، ورازوا[1] قناتها، وعرفوا خبيء أمرها، ورأوا سوس الفتن ينخر في عظامها، وقد مزقت المذاهب والنحل أديمها، فمن زرادشتية، إلى مانوية، إلى مزدكية، فوق ما كان يعانيه الشعب

---

(١) راز الأمر: جربه.

من إذلال حكامه. واستبدادهم به. لم يعد لذلك الجسم الضخم المترامي في أكناف الأرض طولاً وعرضاً تلك الهيبة التي كانت لفارس لدى العرب قبل الإسلام.

المثنى بن حارثة وفتح العراق

كتب المثنى بن حارثة الشيباني ـ وكان أحد أولئك الأبطال الذين رازوا قناة فارس وعجموا عودها، فعلموا علمها ـ إلى أبي بكر الصديق يستمده بجيش لغزو فارس وفتح بلادها. وكانت أخبار مناوشات المثنى ووقائعه مع الفرس تبلغ أبا بكر فيعجب ويقول: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ فقال له قيس بن عاصم المنقري: هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب. ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني، فكتب له أبو بكر عهداً بالإمارة على من قبله، وكانت الفرصة مواتية أمام الخليفة لأن بطل الإسلام المظفر، وقائده الذي لم تهز له راية، فاقىء عين الردة، ورئيس هيئة أركان حرب الخلافة الصديقية خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله كان قد فرغ من مهمته العظمى في الوطن العربي ورجع العرب إلى حظيرة الإخاء الإسلامي.

* * *

أمر أبي بكر خالداً بغزو فارس

أرسل أبو بكر إلى خالد يأمره بغزو فارس بادئاً بثغر أهل الهند والسند، وهو يومئذ الأبلة ليأمن أن يؤتى المسلمون من خلفهم، ثم وجه عياض ابن غنم رديفاً لخالد، وأمره أن يغزوها من الشمال بادئاً بالمصيخ، وأمرهما أن يستنهضا من قاتل أهل الردة، وأن لا يستعينا بمرتد، وأن يسيرا بمن يحب الجهاد معهما في هذا الوجه، ولا يستكرها أحداً من الناس، فلما أعلنا ذلك في الناس انصرف كثير ممن كان معهما، فاستمدا أبا بكر، فأمد عياضاً بعبد يغوث الحميري، وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي، فقال له بعض من كان حاضره: أتمد رجلاً انفض عنه جنوده برجل واحد؟ فقال: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا؛ وقد صدق أبو بكر وكان بصيراً بالرجال، فلقد كان القعقاع مع خالد جيشاً في إهاب رجل؛ ورجلاً في عزيمة جيش.

ثم كتب أبو بكر إلى المثنى بن حارثة ومن معه كتاباً يأمره فيه بطاعة خالد، فانحدر المثنى إلى خالد جواداً كريماً مطواعاً؛ وكان جند خالد الذين

ساروا معه في هذا الوجه عشرة آلاف، ولحقه المثنى في ثمانية آلاف، غير أن هذا العدد الذي اجتمع في جيش المسلمين لم يكن شيئاً إلى جانب العدد الكثيف الذي اجتمع لهرمز قائد الفرس، فعمد خالد إلى بعض التدبير السياسي؛ فقسم جيشه إلى ثلاث فرق، ووجه كل فرقة في طريق غير التي سلكتها الأخرى، وجعل المثنى بفرقته طليعة تقدمته إلى العدو، ثم سرح عدي بن حاتم، وعاصم بن عمرو على فرقة تبعت فرقة المثنى، وخرج خالد بعد ذلك ومعه سائر الجيش، وكان قد وعد أصحابه الذين سيرهم مكاناً يقال له «الحفير» عرف باسم ماء لباهلة، وهو عند أول منزل من البصرة بعدما عرفت لمن يريد مكة، وكتب خالد كتاباً إلى هرمز يدعوه إلى الإسلام، أو عقد الذمة، أو المناجزة فقال: «أما بعد فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة، وإقرار الجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» وفي هذه الجملة الأخيرة من كتاب القائد العبقري ما يشرح معجزة الفتح الإسلامي، وأن هذه المعجزة إنما تمت لأن الإسلام أيقظ في الأمة العربية خصائص الطبيعة الفياضة بالقوى الروحية التي لا تقيم وزناً للعدد والعدة إذا لم يكونا على جسر من الإيمان واليقين.

سياسة خالد في حرب الفرس

بلغ كتاب خالد رضي الله عنه هرمز، وسمع بمسيره إليه فكتب هرمز إلى أردشير ملك الفرس يعلمه ويستمده، وتعجل بمن معه وسبق إلى المكان الذي كان جند الإسلام تواعدوه للاجتماع عليه، فلما علم خالد بمنزل هرمز عدل على «الحفير» إلى كاظمة، فابتدر هرمز أيضاً. ونزل على الماء واضطر خالد أن ينزل بجيوش المسلمين على غير ماء، فحدثه بعض أصحابه في ذلك فقال للناس: «حطوا أثقالكم، ثم جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين» نعم وقد صار الماء بل صار النصر المؤزر والظفر الباهر لأصبر الفريقين وأكرم الجندين، جند الإسلام.

من خالد ابن الوليد إلى طارق بن زياد

إن القائد العبقري خالد بن الوليد لم يقحم جنده في منزل لا ماء فيه دون أن يحاول ارتياد أطيب المنازل لهم، ولكن الفرصة لم تسعفه، فهل يترك جنوده فريسة لليأس يدلف إلى قلوبهم فيستولي عليها؟ إن العبقرية لا تعرف اليأس، ولا يعرف اليأس طريقها؛ وهي أخصب ما تكون أملاً، وأقوى عملاً إذا ادلهمت الأزمات، فإذا لم يكن الماء في أيدي المسلمين، وهم في

جانب ذلك قليل عددهم، فليستمدوا من إيمانهم قوة، ومن يقينهم عدة، ومن أرواحهم أسلحة، وليجالدوا على الماء عدوهم حتى ينتزعوه منه، وهذا الذي قدره القائد هو الذي أملته الحياة في صحائف الواقع التاريخي المجيد.

وإذا كانت هذه الكلمة العظيمة على لسان بطل الإسلام خالد ابن الوليد مفتاح العراق وباب فارس، فقد كانت هي في إطار آخر على لسان طارق بن زياد مفتاح الأندلس؛ فهل كانت نوابغ خالد ومبادئه موضع دراسة القواد والأبطال ممن جاء بعده؟ نعم؛ فهذا ما نطمئن إليه، أو هكذا تتلاقى أرواح العبقريين في ساحات الخلود.

* * *

تلاحق الهزائم بالفرس

كان هرمز القائد الفارسي أخبث رجل جاور العرب وأغدره، حتى كان خبثه مثلاً شرودا فيما بين محافل العرب وقبائلهم، فلما رأى جموع المسلمين أخذوا مصافهم للقتال، وقرأ في وجوههم صدق ما قال قائدهم: إنهم أحرص على الموت من عدوهم على الحياة، وقرأ في وجوه أصحابه من العلوج دلائل الجبن والخور قرنهم بالسلاسل لئلا يفروا؛ ومن ثم سميت هذه الوقعة في كتب التاريخ وقعة «ذات السلاسل». ثم دعا هرمز خالداً للمبارزة، وأضمر له غدرة واطأ عليها أصحابه وعلوجه. فمشى إليه خالد راجلاً فاحتضنه، وحمل العلوج على خالد تنفيذاً لما اتفقوا عليه مع هرمزهم، فلم يشغل ذلك خالداً عن شدة وطئه على هرمز، وهنا تحققت فراسة أبي بكر الصديق في القعقاع بن عمرو حين أمدّ به وحده خالداً، فقد حمل على أهل فارس حين رآهم يحملون على قائده خالد وهو مشغول بمبارزة قائدالفرس هرمز، حتى كشفهم ومكن خالداً من قتل القائد الفارسي وبدأت هزيمة الفرس وركب المسلمون أكتافهم، وأخذوهم قتلاً وأسراً وبعث خالد يبشر أبا بكر بالفتح، وبعث إليه بالخمس بعد أن قسم الغنائم على أهلها، وأرسل فيما أرسل سلب الهرمزان، وفيه قلنسوته المفصصة بالجواهر، وكانت قيمتها مائة ألف، لأن الهرمزان كان ممن تم شرفه في فارس. وكانت تلك سنتهم مع أمثاله، فنفلها أبو بكر قائده خالداً رضي الله عنه.

كان الهرمزان قد كتب إلى ملكه أزدشير بخبر الجيوش الإسلامية قبل

أن يتعجل لقاءهم بمن معه، وكتب إليه يستمده، فأمده بجيش يعدل في كثافة عدده جيشه تحت قيادة «قارن بن قرياقس» أحد شجعان الفرس وقرن الهرمزان في تمام الشرف عندهم.

واقعة «المذار»

ولما قتل الهرمزان وانهزم جيشه لا يلوي من نجا منه من القتل أو الأسر على شيء التقى فلهم بجيش قارن في مكان بين واسط والبصرة يقال له: «المذار» فتذامروا وقال بعضهم لبعض: إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً، فاجتمعوا على تعبئة واحدة، وبلغ خبر اجتماعهم قائد الإسلام خالد ابن الوليد فنهض إلى لقائهم على تعبيته التي لقي عليها جيش الهرمزان، فاقتتل الفريقان على حنق وحفيظة، وبرز «قارن» قائد الفرس يدعو للمبارزة، فانتهض إليه خالد ليورده ما أورد الهرمزان قبله، ولكن بطلاً آخر من أبطال المسلمين شرى نفسه وفدى قائده فكان أسرع إلى العلج يبارزه، وذلك هو أبيض الركبان معقل بن الأعشى، ولم يكد يجاوله حتى قضى عليه، فولت جيوش فارس الأدبار، وكان للمسلمين فيهم مقتلة عظيمة، يقدر بعض المؤرخين عدد القتلى منهم بثلاثين ألفاً سوى من غرق أو أوغل في الهرب فلم يعثر له على أثر.

واقعة «الولجة»

كبر على الفرس تلاحق الهزائم التي حلت بجيوشهم، وقتل أشجع أبطالهم على أيدي هؤلاء العرب الذين كانوا لا يجرؤون قبل اليوم على مواقفتهم؛ فأرسلوا جيشاً كثيف العدد قوي العدو بقيادة بطل من أبطالهم يدعى: «الأندرزغر» ثم أمدوه بجيش عليه «بهمن جاذويه» واجتمع الجيشان بمكان يقال له «الولجة» وأعجب قائد الفرس ما رأى من كثرة جنده وتمام أسلحتهم، وبلغ خالد تجمعهم فنهض إليهم، وخلف سويد بن مقرن ليحمي ظهره، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق، سار على رأس فرقة منها لملاقاة العدو، وجعل من فرقتين كميناً بقيادة بسر بن أبي رهم، وسعيد بن مرة، وهذه خطة حربية ماهرة، تبين حذق خالد ودهاءه في إدارة دفة الوقائع وملاقاة الأعداء مهما تكاثف عددهم.

التقى الجمعان واستعرت نار الحرب بينهم، وطال الأمر على الناس، وعظم الخطب على الفريقين حتى نفذ الصبر منهما، وإذا بالكمين الخالدي

يفاجيء العدو فيكتنفهم من جوانبهم، وخالد بفرقته يأخذهم من بين أيديهم، حتى دارت عليهم الدائرة فولوا الأدبار منهزمين، ومضى قائدهم «الأندرزغر» على وجهه من الرعب لا يلوي على شيء، فمات عطشاً.

نهج خالدي في إثارة الحماسة

ثم قام خالد رضي الله عنه في المسلمين خطيباً يرغبهم في فتح بلاد العجم فقال: «ألا ترون إلى الطعام كرفغ[1] التراب، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه».

هذه كلمة من كلمات القائد العبقري جليلة الخطر عظيمة الأثر تصور ما أوتي هذا البطل من حكمة سياسية وعرفان بحاجات النفوس ووسائل الدعوة إلى الجهاد والترغيب في الفتح، فهو يصور لجنده الحياة الناعمة، والرفه الذي يتقلب من بؤس الحياة والحرمان؛ وهو تقديم بديع يقصد به إلى إعداد النفوس جميعها لاقتحام هذه الرغائب، سواء في ذلك المؤمن الصادق والمؤمن الطموح في نعيم هذه الدنيا، ثم يقفي على ذلك بالإشارة إلى أن الجهاد لله واجب في سبيله لنشر دينه والدعوة إليه، ثم هو لا ينسى جانب المغالبة في النفوس البشرية والتنافس في سعة العيش، فيلفت نظر جنوده إلى من تخلف عنهم متثاقلاً عن الجهاد وفوزهم دونه بهذا الخير العظيم.

واقعة «أليس»

كان جيش «الأندرزغر» قد جمع إلى جند فارس عرب الضاحية، ومنتصرة بكر ووائل، وقد أصيب هؤلاء، بمثل ما أصيب أولئك من القتل والهزيمة ، وكان فيمن قتل من نصارى العرب ابن لجابر بن بجير، وابن لعبد الأسود العجلي، وهما رأسان من رؤوس العرب المتنصرين الذين ارتضوا ظالمين أن يكونوا مع أهل فارس على بني أبيهم فغضب لغضبهما من كان على شاكلتهما من قومهما، وكاتبوا الفرس أن يكونوا معهم يداً واحدة على المسلمين. وقاد هؤلاء العرب عبد الأسود العجلي، وقاد الفرس «بهمن جاذويه» الذي أناب عنه قائداً آخر يقال له «جابان» ورجع «بهمن» إلى

---

(١) رفغ التراب: جاء في اللسان قوله: وجاء فلان بمال كرفغ التراب في كثرته، وتراب رفغ وطعام رفغ: لين، قال بعضهم: أصل الرفغ اللين والسهولة.

أزدشير يجدد به عهداً ويشاوره، وقدم «جابان» بجند فارس على حلفائهم نصارى العرب فاجتمع عليه منهم نصارى عجل، وتيم اللات، وضبيعة، وعرب الضاحية من أهل الحيرة.

غرور فارسي أجوف

بلغ خالداً أمر تجمع هؤلاء العرب فنهض إليهم على غير علم منه بقدوم «جابان» وجنده من أهل فارس. وقد كانوا عسكروا بمكان يقال له «أليس» فلما طلع عليهم خالد بجيوشه التي كان أعدها لملاقات متنصرة العرب من حلفاء فارس ومحمييها، استقلها أهل فارس وطمعوا فيها بغير قتال، فقالوا لقائدهم والغرور يملأ جوانبهم الجوفاء: أنعاجلهم أم نغدي الناس؛ ولا نريهم أنا نحفل بهم، ثم نقاتلهم بعد الفراغ؟ وهذا كلام لا يخرج من قلب يؤمن بالقوى المعنوية في نماذج الإنسانية الحية، وإنما هو كلام الكثرة المغترة التي لا تعلم أن كل رجل في جند الإسلام جيش، فقال قائد الفرس وهو يكظم غيظه، وقد جاءته البوادر لطلائع الفشل «إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا، ولكن ظني أن سيعجلونكم ويعاجلونكم عن الطعام» فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة وتداعوا إليها فوافوها؛ وإذا عصى الجند قائدهم فذلك بدء الهزيمة الساحقة.

أمر خالد بالنزول في وجه الجيش الفارسي، ثم توجه إليهم وطلب مبارزة قائد العرب المنضمين إلى فارس في حرب الإسلام، فنادى باسم عبد الأسود العجلي، ومالك بن قيس، وابن أبجر، فبرز إليه مالك فقال له خالد: يا ابن الخبيثة ما جرأك على من بينهم، وليس فيك وفاء؛ وأهوى إليه بضربة كانت فيها نفسه، ثم كر على أهل فارس فأعجلهم عن طعامهم، فلم ينالوا منه شيئاً، فقال قائدهم «جابان» يعتب عليهم مخالفتهم له ويذكرهم بمقالته الناصحة، ويريهم عصيانهم واغترارهم، ألم أقل لكم يا قوم؟ أما والله ما دخلني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم، فقالوا له متجلدين: ندع الطعام حتى نفرغ منهم ونعود إليه؟ وهذا إمعان في الغرور بالكثرة العددية التي كانت للفرس بما لا يصح أن يعقد معه نسبة في التكافؤ العددي بين الجيشين المتحاربين.

ولما رأى قائد الفرس ما هم سادرون فيه من غرور وفشل دعاهم إلى مكيدة يلقون المسلمين إليها فأبوها عليه، قال لهم: سموا الطعام، فإن كانت

لكم فأهون هالك وإن كانت لهم هلكوا بأكله فعصوه مرة أخرى، ولم يفعلوا ما أمرهم به والتحم الجيشان واقتتلوا قتالاً شديداً، وزاد في كلب أهل فارس على القتال ما كانوا يرتقبونه من قدوم قائدهم «بهمن» على مدد لهم، وارتفعت روح المسلمين في القتال وشروا أنفسهم لله تعالى، واشتد حنقهم على الفرس وحلفائهم من متنصرة العرب حتى نذر خالد رضي الله عنه أن يجري نهرهم بدمائهم، فقال: اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم.

وحاقت بهم الهزيمة فولوا الأدبار وتبعهم المسلمون يأخذونهم، فأرسل خالد من ينادي بالناس: الأسر، الأسر، فجاءت بهم الخيل إليه تسوقهم سوقاً، وأمر بضرب أعناقهم حتى غلبت دماؤهم ماء النهر، فسمي يومئذ نهر الدم.

وكانت هذه الموقعة أشد ما لقي خالد بن الوليد في قتال الفرس، وفي ذلك يقول: «وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس».

وقسم خالد الغنائم بين الجنود وعزل الخمس فأرسل به للإمام، ونقل الجند الطعام الذي كان أهل فارس أعدوه قبل المعركة لأنفسهم فأعجلهم خالد عنه فلم يهنأوا به، فلما جلس إليه المسلمون ـ وكان فيهم أعراب حديثو عهد بالترف ورقيق العيش ـ ورأوا ما فيه من الرقاق، قال بعضهم من التعجب: ما هذه الرقاق البيض؟ فقيل له: هل سمعت برقيق العيش؟ هو هذا. فسموه الرقاق.

واقعة «أمغيشيا»

انتهى خالد إلى هذا النصر المبين في هذه المواقع، فلم يشأ أن يقف بنشوة الظفر التي ثمل بها جنده عند هذا الحد، بل اندفع بجيوشه إلى الأمام حتى بلغ «أمغيشيا» وهي مصر كالحيرة، وكانت «أليس» من مسالحها فخشي خالد أن يكون للفرس وحلفائهم من متنصرة العرب جموع بها؛ فأراد بتقدمه هذا القضاء على مظان المقاومة، ولم يكد يطأ بجيوشه أمغيشيا حتى جلا أهلها عنها وتفرقوا في السواد وتركوا كل شيء من الأموال والأثاث وعتاد الحرب، فعظمت غنيمة المسلمين حتى بلغ سهم الفارس خمسمائة وألف درهم سوى الأنفال.

عبقرية خالد في رأي الصديق

وأرسل خالد بالبشرى والخمس إلى أبي بكر الصديق، ففرح الصديق بنصر الله للمؤمنين فرحاً شديداً، وخطب الناس مشيداً بفضل خالد وعبقريته الحربية فقال «يا معشر قريش! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراديله[1]، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد»؟ وهذا القول من أبي بكر ـ وكان أعلم بالرجال ـ أعظم شهادة، وأجل تقدير يناله رجل في تاريخ الإسلام، فالصديق وهو خليفة المسلمين الأعظم لا يرى لخالد رضي الله عنه في الناس عدلاً في عبقريته وشجاعته، ولا نظيراً في بطولته ومهارته، وحسبك بها لخالد من الصديق.

* * *

فتح الحيرة

لم يكن سيف الله خالد بن الوليد يفرغ من نصر يتوج به هامات المسلمين إلا ليستقبله نصر أعظم وأروع، ولم يكن الفرس يفيقون من غمرة هزيمة منكرة إلا ليسرعوا أمام البطل المظفر إلى هزيمة أنكر وأوجع.

ها هي ذه أخبار الانتصارات الإسلامية المتوالية تترامى إلى مرزبان «الحيرة» عاصمة الفرس في العراق، وقد أصبحت الجيوش الإسلامية منه على قيد وثبة خالدية، فيتهيأ ويستعد ما وسعه التهيؤ والاستعداد، ولكن ما قيمة جسم مهما ضخم وطال واستعرض وهو خلي من الروح؟ كذلك كان شأن هؤلاء الفرس في عديدهم وعددهم.

حيلة ومكيدة

حمل خالد الرجالة والأثقال في السفن، وسيرها في نهر الفرات، وخرج يقود الخيل، وكان المرزبان قد خرج بجيوشه حتى عسكر خارج الحيرة، وأمر ابنه أن يتقدم فيسد الفرات ليفجر الماء إلى الأنهار المتفرعة من الفرات حتى تقف السفن التي تحمل جيوش المسلمين، وقد تمت هذه الخديعة وجنحت السفن بمن فوقها من الجند وما عليها من الثقل والعتاد، وبقيت على الأرض فارتاع المسلمون، وأدرك الملاحون بعد فوات الفرصة، وقالوا إن أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه، فلا يأتينا إلا بسد الأنهار، فما عسى المسلمون أن يصنعوا في هذه المفاجأة التي لم يكن لهم بمثلها عهد؟

---

(١) لحمه المقطع.

لفتة من لفتات العبقرية الخالدية، ووثبة من وثبات سيف الله كفيلة بتفريج هذه الأزمة السانحة، فخالد رضي الله عنه سواء العبقرية في البديهة، فلم يترك الفرصة تفلت من يده، ولم يطل على المسلمين التفكير، ولكنه سرع ما انفلت في كتيبة من الخيل نحو ابن المرزبان الذي سد النهر ففجر الماء فيلقى خيلاً من خيل الفرس تغط في نوم الغرور والأمان، لأنه لم يكن ليدور في خلدهم أن قائد المسلمين يثب عليهم في هذه الساعة، ولم تكن إلا جولة حتى قضى عليهم قبل الأخبار والبرد فلقي ابن المرزبان مع جيشه على فم «فرات باد قلي» فالتحم الفريقان في قتال مرير انجلى عن انفراط عقد الفرس في هزيمة أتت على آخر رجل فيهم، وفجر المسلمون الماء وسدوا الأنهار الشارعة في الفرات، فارتفعت السفن بأحمالها وسارت باسم الله مجريها ومرساها ميممة الحيرة وسار إليها خالد بمن معه من فرسان المسلمين حتى نزل منزلاً بين الخورنق والنجف.

وكان المرزبان قد بلغه ما نزل بابنه وجيشه من القتل والهزيمة المفنية، فخارت قواه، وضعفت عزيمته، ولم يقو على لقاء جيوش الإسلام الظافرة، فأطلق لنفسه عنان الهرب من غير مواقفة أو قتال، وذهب لا يلوي على شيء مفزعاً مرعوباً، وزاد في فزعه ورعبه ما أتت به إليه الأنباء من موت أزدشير ملك فارس، واختلاف أهل مملكته فيمن يولونه عليهم مكانه.

محاصرة قصور الحيرة

تحصن أهل الحيرة في قصورهم، وأقحم خالد خيله في طرقاتها وأجالها في عرصاتها، ثم أمر بضرب الحصار عليهم، وأمر بكل قصر قائداً من قواده على رأس كتيبة من جند الإسلام، فكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض، وفيه إياس بن قبيصة الطائي، وكان ضرار بن الخطاب على قصر العدسيين، وفيه عدي بن عدي قتيل المنذر بن ماء السماء، وكان ضرار ابن مقرن المزني يحاصر قصر بني مازن، وفيه جيري بن أكال، وكان المثنى ابن حارثة الشيباني محاصراً قصر ابن بقيلة، وفيه عمرو بن عبد المسيح، وعهد خالد إلى قواده أن يبدأوا أهل القصور بالدعوة إلى الإسلام، فإن أجابوا قبلوا منهم، وإن أبوا أجلوهم يوماً واحداً، وقال لهم: لا تمكنوا عدوكم من آذنكم فيتربصوا بكم الدوائر، ولكن، ناجزوهم، ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم.

وكان أول قائد أنشب القتال بعد الأجل المضروب ضرار بن الأزور، ودعا أهل القصر الأبيض إلى إحدى ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو المنابذة، فاختاروا المنابذة، ورشقوا المسلمين بالنبل، فمقاتلهم المسلمون واقتحموا عليهم الدور والأديار وأكثروا فيهم القتل، فصاح أهل الأديار من القسيسين والرهبان: يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم! فنادى أهل القصور يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً.

براعة في المفاوضة

فأرسلوا إليه، فكان يخلو بأهل كل قصر منهم، وبدأ بأصحاب عدي ابن عدي فقال لهم: ويحكم؟ أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟ فقال عدي: بل نحن عرب عاربة؛ وأخرى متعربة، فقال خالد: لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا، فقال عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية.

قال خالد: اختاروا واحدة من ثلاث، أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم أو قمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة.

فقال عدي: بل نعطيك الجزية؛ فقال خالد تباً لكم، ويحكم إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي. فصالحوه على تسعين ومائتي ألف، وأهدوا له الهدايا فأرسلها مع البشرى بالفتح إلى أبي بكر الصديق، فقبلها أبو بكر على أن تكون من الجزية، وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزي، وخذ بقية ما عليهم فقو به أصحابك.

هنا يجمل بنا أن نقف قليلاً إلى جانب هذه المفاوضة بين بطل الإسلام خالد بن الوليد، ومتكلم أهل الحيرة عدي بن عدي؛ فسنجد فيها من دلائل العبقرية الخالدية وآيات العدل الإسلامي ما يرشدنا إلى كثير من عوامل تيسير فتح هذه الممالك الضخمة على المسلمين في زمن وجيز، مع قلة العدد والأهبة الحربية بالقياس إلى عدد أعدائهم وأهبتهم.

يدور كثير من الباحثين في تاريخ الإسلام حول أمور توهموها عوامل

نظرة منبهة إلى عوامل الفتح الإسلامي

للفتح الإسلامي؛ وكثير منها لا يستقيم مع طبائع الأشياء والواقع، وإنما يندفع هؤلاء الباحثون إلى ذلك لأنهم يأبون أن يفهموا، أو يعتاص عليهم أن يفهموا حقيقة الإسلام ووشائجه بالقوى الكامنة في ضمير الإنسانية، هذا الضمير الذي يعتمد عليه الإسلام في تحريك المشاعر والأحاسيس لترتفع عن حضيض مطالب الجسم الدنيا من الخبز والماء إلى آفاق غير محدودة في أرجاء هذا الكون العظيم الذي يقول عنه الإسلام في كتابه الكريم في معرض الامتنان «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً». فالكون في نظر الإسلام مخلوق للإنسان، وإنه شركة بين جميع الناس، فلا سلطان لفرد أو جماعة أو جيل عليه إلا بمقدار ما في أيديهم من مفاتيح خزائن السموات والأرض. هذا الفهم لحقيقة الإسلام هو الذي حرر العقول والأجسام ودفعها إلى تحطيم الأغلال الفكرية والجسمية، وأقبلت عليه إقبال الظمآن على الماء.

وفي الحق إن شأن الفتح الإسلامي معجزة من معجزات الإسلام، لأن عوامله كلها نبعت من صميم الإسلام كدين وشريعة ودولة، وانفرجت عنها طبيعته في نماذج الذين دعوا إليه، ونقلوه إلى الناس ونقلوا الناس إليه، وهو نقي المعدن صافي الأديم قبل أن تشوه آدابه وتعاليمه تلك الفلسفات الكافرة الغريبة عن طبيعته، وقبل أن تفسد نظم الحكم الفاسقة عن جادته نظام دولته وطرائق الحكم في شريعته.

تحليل براعة خالدية

ولقد كان خالد بن الوليد في خلافة الصديق مثلاً من مثل النماذج العليا في الدعوة إلى الإسلام؛ والقارىء المتأمل في حديث هذه المفاوضة بين خالد وأهل الحيرة، وما انتهت إليه، يحس أول كل شيء تلك السياسة الحاذقة التي ساس بها قائد الإسلام الموقف في بدء لقاء وفود القوم بعد إحكام الحصار عليهم، فهو لا يلقاهم جميعاً لقاء المنتصر المعتز بالنصر، ولكنه يلقى أهل كل قصر وحدهم، ويرمي أول وفودهم إليه بهذا السهم النافذ إلى حميتهم العنصرية ليوقظ فيهم روح الكرامة والاعتداد من أقرب طريق، وليثير نفوسهم ضد هذا الاستعباد الفارسي المضروب عليهم، فقال لمتحدثهم كالمجبه لهم: ما أنتم؟ أعرب؟ فما تنقمون منا، ونحن إخوانكم في العروبة، يجمعنا وإياكم روابط الدم واللسان، والوطن ووشائج الحياة، فنحن أحق بكم وبالوحدة معكم من هؤلاء الفرس الذين يدفعون في ظهوركم لتلقوا

المنايا على أيدي إخوتكم؛ وإن كنتم غير عرب، فما تنقمون منا وقد جئناكم ناشرين رايات العدل والإخاء الإنساني، لا نريد استعباد أحد ولا استعمار بلد؛ وإنما نبغي إنقاذكم من هـذا الاستبداد بكم، والـظلم الذي أهـدر إنسانيتكم ونريد إشعاركم بالعدالة الإجتماعية التي هي حق من حقوقكم الطبيعية. فإن دخلتم معنا في ديننا فأنتم إخوتنا، ونحن وأنتم على سواء؛ لكم من الحقوق في حرية العيش والتمتع بثمرات الحياة مثل ما لنا، وعليكم من الواجبات نحو خالقكم ونحو إخوانكم في الأسرة الإنسانية عامة مثل ما علينا، فلا سيد ولا مسود، ولكنه إخاء لا يفضل فيه الأخ أخاه إلا بفضل عقله وعلمـه وعمله. لا نهيجكم عن مقامكم فنـطلب إليكم الهجرة من بلدكم، ولا نتحكم فيكم فنحتم عليكم الإقامة في دياركم، وإن أبيتم إلا العكوف على دينكم وحالكم مع السلم والأمان. فلكم علينا حق حمايتكم، والذود عنكم، كما نحمي ذمارنا ونذود عن أنفسنا، ذلك الحق هو جزية تؤخذ منكم على قدر سعتكم وطاقتكم، ما استطعنا إلى حمايتكم آمنين سبيلاً، فإن عجزنا عن أداء حقوقكم فيما عقدناه لكم فلا جزية لنا عليكم وأمركم مردود عليكم.

هذا منتهى ما يطلب من أمة تريد السلام قائمًا على رعاية قواعد الحق والعدل والرحمة، وليس بعد ذلك إلا السيف في غير هوادة، وهنا يبرز خالد القائد الحربي ليقذف بهذه الرمية المصمية حتى لا يترك لمعارضيه مجالاً في خديعة، أو أملاً في نجاة إذا اختاروا لأنفسهم «فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة» فهل وراء هذا لـون من ألوان الحكمـة السياسية يمكن أن يقال إنه فات خالداً الداعي إلى الإسلام، والقائد البطل الذي يدير دفة حرب لا هوادة فيها؟

* *

رضي القوم لأنفسهم بالجزية فلم يتهلل لها وجه القائد العظيم، وهذه أيضاً فريدة من خصائص النماذج الإنسانية الفاضلة التي صنعها الإسلام في مهاده الأولى، لأن المسلمين الأولين لم يكونوا في انسياحهم في الأرض يبغون الدنيا وزينتها، فهم أبناء الشظف والزهادة، ولكنهم كانوا يبغون تخليص

البشرية من أغلال الشرك البليد، وتطهيرها من أوضار الوثنية الوضيعة، وتحريرها من رق العبودية للأباطرة والملوك والحكام، ونشر المساواة والعدل بين أبناء البشر، وتمكين كل فرد أو جماعة من صرف طاقته في الحياة ليكون جزاؤه وامتيازه على قدر هذه الطاقة التي هيأه لها استعداده، فكان دخول الأمم في دين الإسلام أحب إليهم وأرضى لأنفسهم.

ذلك ما أوحى لخالد رضي الله عنه كلمته الأخيرة التي ألقاها إلى قلب عدي بن عدي متحدث أهل الحيرة في أسف بالغ وإشفاق شديد على ما فوتوه على أنفسهم من خير وهداية قدما إليهم على أيدي إخوانهم وبني أبيهم من العرب المسلمين.

عدل فوق الرحمة

وليتأمل القارىء في صنيع خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد بعث له قائد جيوشه ببشرى الفتح وأخماس الغنائم ومعها هدايا المغلوبين، فلم يرض الخليفة الراشد قبول هذه الهدايا تحت هذا العنوان من قوم مقهورين مغلوبين، ولكنه رضيها حقاً واجباً فيما عاهدوا عليه قائده العظيم، فكتب إليه: أن أحسب لهم هديتهم من جزيتهم.

فهل يتصور المتشدقون ـ بما لعقوه من عصير فتات منتن من مخلفات الموائد الأجنبية في الشرق والغرب، فنقلوها إلى هذا الشرق الإسلامي الأسيف في قوالب براقة. وألفاظ خلابة من «ديمقراطية» و«اشتراكية» في هذا العصر المضطرب، وهم ينشدون العدل والأمن والسلام ـ عدلاً فوق عدل المسلمين الأولين الذين كانوا نماذج حية لروح هذا الدين القويم؟!

ليت قادة العالم وزعماء الدول الكبرى يقرؤون دستور الإسلام في القرآن الكريم، وسيرة رسوله الأمين، وتاريخ رجالاته الأولين ليعلموا ـ إن كانوا صادقين ـ على أي أساس يجب أن يقوم العدل الاجتماعي في الأرض. وعلى أي أساس يتحقق الإخاء والتعاون بين الأمم؟!

عهد خالد لأهل الحيرة

صالح خالد رضي الله عنه أهل الحيرة وكتب لهم عهداً سجل مبدأ من مبادىء الإسلام في تحديد العلاقة بين الغالب والمغلوب، والقوي والضعيف، فقال: «هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً، وعمر ابن عدي، وعمر بن عبد المسيح، وأياس بن قبيصة، وجيري بن أكال، وهم

نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة، وأمروهم به، عاهدهم على تسعين ومائتي ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسيهم إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها، وعلى المنعة، فإن لم نمنعهم فلا شيء عليهم حتى نمنعهم، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة».

نود للقارىء أن يسرح طرفه في كتاب خالد مرة ومرة ومرات فإنه سيزداد اقتناعاً بما تحدثنا عنه من سمو المبادىء الإسلامية وارتفاع القائمين على تنفيذها في عهود العزة الإسلامية عن سطحية العنصرية أو القومية الضيقة إلى آفاق العدالة الإنسانية العامة.

وليتأمل في قوله: «إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيساً عن الدنيا» وفي قوله: «وعلى المنعة فإن لم نمنعهم فلا شيء عليهم حتى نمنعهم» ليدرك عدالة الإسلام والمسلمين في أخذ الجزية ممن رضي بها.

* * *

الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية

كان فتح الحيرة عملاً حربياً عظيم القيمة، وسع أمل المسلمين في فتح بلاد باب فارس، لمكان هذا البلد الجغرافي والأدبي من العراق والمملكة الفارسية، فقد اتخذها أمير المسلمين خالد بن الوليد مقراً لقيادته العليا ومركزاً رئيسياً تتلقى منه جيوش الإسلام أوامر الهجوم والدفاع والإمداد والنظم، وكذلك جعلها قاعدة عامة للتدبير والسياسة التي يقوم عليها تنظيم ما وقع في يد المسلمين.

بث خالد عماله على الولايات لجباية الخراج والجزاء، ووجه أمراءه إلى الثغور لحمايتها، وأقام هو ريثما يتم ما أراده من الاستقرار والنظام، وترامت أخباره إلى الدهاقين والرؤساء فأقبلوا إليه يصالحونه حتى لم يبق ما بين قرى سواد العراق إلى أطرافه من ليس مولى للمسلمين أو على عهد منهم.

* * *

وقد كان لهذا الفتح إلى جانب ذلك أثره البالغ في أنفس العرب المغلوبين مع حماتهم من أهل فارس، فأوهن عزائمهم، وفل شكيمتهم، وخضد شوكتهم، وبخعهم أسفاً وتحسراً، فسجلوا ذلك في أشعار كثيرة

رواها الثقات من المؤرخين؛ ولهذه الأشعار قيمة أدبية وتاريخية عظيمة في تاريخ الأدب في هذا الجانب من وطن الأمة العربية، كان عند كثير من الباحثين في الأدب العربي وتاريخه مظنة تشكيك في صلته القومية واللغوية بالأمة العربية، فمن ذلك قول ابن بقيلة:

أبعد المنذرين أرى سواما ... تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى ... قلوصا بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبي قبيس ... كجرب[1] المعز في اليوم المطير
تقسمنا القبائل من معد ... علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم ... فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال ... فيوم من مساءة أو سرور

وكذلك كان لهذا الفتح شأنه العظيم في نفوس المسلمين، فقوى عزائمهم وشد أزرهم، وأطمعهم في عامة دولة الفرس، وتغنوا بفخره في أشعارهم، فمن ذلك قول فارس الأبطال القعقاع بن عمرو:

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة ... وأخرى بأثباج[2] النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزا ... وبالثني قرني قارن[3] بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت ... على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كاد عرشهم ... يميل به فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا ... غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا: نحن قوم تنزلوا ... إلى الريف من أرض العريب المقانف[4]

أقصوصة طريفة

ويذكر المؤرخون أن النبي ﷺ بشر المسلمين بهذا الفتح، فسأله رجل أن تكون له كرامة بنت عبد المسيح أحد سادات الحيرة، فقال له: هي لك إذا فتحت عنوة، فلما تم لخالد فتح الحيرة، ونزل أهلها على حكمه جاءه

---

(١) الجماعة.
(٢) اسم مكان.
(٣) اسم موضع.
(٤) هو من قولهم أرض قنفة: متشققة.

صاحب الوعد من رسول الله ﷺ ـ وسماه الطبري «شويلا» وسماه ابن الأثير «خربم بن أوس» وسمى المرأة الشيماء بنت نفيل ـ يستنجز خالداً الوفاء بذلك الوعد وشهد له جماعة بأن ذلك قد كان، فجعل خالد في شروطه على أهل الحيرة تسليم هذه المرأة، فشق ذلك على قومها، وخاطروا الرجل، فأعظموا له الخطر، فقالت لقومها: لا تخطروه، ولكن اصبروا؛ ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة؟! فإنما هذا رجل أحمق؛ رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم، فدفعوها إلى خالد، فدفعها خالد إلى الرجل، فلما كانت في يده قالت له: ما أربك إلى عجوز كما ترى؟! فادني؛ قال: لا؛ إلا على حكمي؛ قالت، وكأنها أنست منه السذاجة والغفلة: فلك حكمك مرسلاً؛ فقال: لست لأم شويل؛ إن نقصتك من ألف درهم، فاستكثرت ذلك لتخدعه، ثم أتته بها، فأرسلها ورجعت إلى أهلها، وتسامع الناس بذلك فلاموه؛ فقال: ما كنت أدري أن عدداً يزيد على ألف، فقال خالد: أردت أمراً وأراد الله غيره؛ نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك. وفي هذه القصة تتمثل عدالة الإسلام في قضاء خالد رضي الله عنه.

أقصوصة أخرى

وهذه المرأة ـ على رواية الطبري ـ هي أخت عمرو عبد بن المسيح أحد النفر الذين عاقدهم خالد عن أهل الحيرة، ويذكر المؤرخون أن عمراً هذا من الدهاة المعمرين، ويروون له أعاجيب، ويحكي الطبري أحدوثة عجيبة جرت بينه وبين خالد بن الوليد، فقد سأله خالد لما رأى شيخوخته الفانية، ورجوع قومه إليه في الورد والصدر، قال له خالد: كم أتت عليك؟ قال: مئو سنين؛ قال: فما أعجب ما رأيت؟! قال: رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة، تخرج المرأة من الحيرة، فلا تزود إلا رغيفاً؛ فتبسم خالد، وقال هل لك من شيخك إلا عقله؛ خرفت والله يا عمرو، ثم أقبل خالد على أهل الحيرة. فقال ألم يبلغني أنكم خبثة، خدعة مكرة، فما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء؛ فتجاهل له عمرو وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله، ويستدل به على صحة ما حدثه به، فقال: وحقك أيها الأمير إني لأعرف من أين جئت، قال: فمن أين جئت؟ قال: من بطن أمي؛ قال: فأين تريد؟ قال: أمامي، قال: وما هو؟ قال: الآخرة؛ فمن أين أقصي أثرك؟ قال: من صلب أبي؛ قال: ففيم أنت؟ قال: في

ثيابي؛ قال: أتعقل؟ قال: أي والله وأقيد؛ فوجده حين فره[1] عضا، وكان أهل قريته أعلم به، فقال خالد: قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضاً عالمها، والقوم أعلم بما فيهم، فقال عمرو: أيها الأمير؛ النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة.

ومهما يكن أمر هذه القصة فهي لون من الحديث الذي يصور لنا خالداً في نظر راسمي شخصيته من القدامى، شخصية مستقصية مفيدة من تجارب غيرها، ولكنها لا تؤمن إلا بما تعقل.

غزو فارس في عقر دارهم

أجمع خالد أمره على منازلة الفرس في ساحات ملكهم بعد أن صفا له الجو في العراق، وأمن ظهره بانحسار أمر فارس عن العرب فيما بين الحيرة ودجلة، وكان أهل فارس في هذه الفترة على خلاف شديد فيمن يولونه عليهم بعد موت كسراهم أزدشير، فانتهز خالد هذه الفرصة وكتب إلى خاصتهم يقول: «من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس: أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك كان شراً لكم! فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

وكتب إلى عامتهم فقال: «من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس: الحمد لله الذي فض خدمتكم، وفرق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلب أموالكم، وأزال عزكم، فإذا أتاكم كتابي فأسلموا تسلموا، أو اعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة؛ ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا».

تيمن خالد بالفأل

ثم دعا خالد برجلين أحدهما عربي حيري، والآخر نبطي، فقال للعربي ما اسمك؟ قال: مرة، قال: خذ الكتاب وأت به أهل فارس لعل الله أن يمر عليهم عيشهم، أو يسلموا وينيبوا؛ ثم قال للنبطي ما اسمك؟ قال: هزقيل، قال: اللهم أزهق نفوسهم. وقد كانت محبة الفأل الحسن من أخلاق النبوة، ومن نورها يقتبس خالد، وإخوانه من أصحاب رسول الله ﷺ، وقد

---

(١) فره: اختبره، عضا: داهية.

يكون ذلك في خالد على سنن سلامة الفطرة والتطلع إلى معرفة الغيب، وهذا خلق يشبه أن يكون نحيزة في نوابغ العبقريين، وهم غير مختارين فيه، فأخذه عليهم على أنه جانب من جوانب الضعف في شخصية العبقري غفال عن حقيقة الطبيعة البشرية، وإغراق في تقديرها تقديراً يجاوز بها حدودها المرسوم لها في الحياة.

واقعة «الأنبار»

أرسل خالد رسوليه بالكتابين، ونهض على تعبئته لغياث عياض ابن غنم، وجعل مقدمته الأقرع بن حابس، وخلف على الحيرة فارس الأبطال القعقاع بن عمرو، وسار بالجيش حتى بلغ الأنبار، فوجد أهلها قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم، ثم نظر خالد إلى أعدائه بعد أن طاف بالخندق، وعرف مآتيه، وثغرات الضعف فيه، فرأى قوماً من ألفاف العرب ولفائف النبط. يتغشاهم الفشل، ويتملكهم الخور والانحلال، وكان خالد إذا رأى الحرب لم يصبر عنها، فأنشب القتال وقدم إلى الرماة من جند الإسلام فقال لهم: «إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم، ولا توخوا غيرها» فاستجابوا لأمره، ورموا رشقاً واحداً ثم تابعوا ففقىء لأهل الأنبار ألف عين يومئذ، فتصايحوا: ذهبت عيون أهل الأنبار.

سياسة ماهرة

هذا لون من ألوان الحرب الخاطفة التي يقصد إليها تقصيراً لأمد القتال، وتجافياً عن سفك الدماء ما أمكن ذلك؛ وإرهاباً للعدو حتى يكون في ذلك تشريد لمن خلفهم بالرعب والفزع، وإلى هذا النحو قصد خالد من هذه الخطة التي وضعها للهجوم في أول مرحلته. فنجح وتحققت فراسته، فلم يكد زعيم الفرس وقائدهم «شيرزاذ» يسمع تصايح أصحابه حتى أوفد إلى خالد يطلب منه الصلح، ولكنه عرض ما لم يرضه خالد من الشروط، فرد عليه وفده خائباً، وألقى إلى السيف زمام الأمر يقوده إلى نهايته بحده؛ وكان خالد قد استبطن سر خنادقهم، ونوافذ حصونهم، فأتى إلى أضيق مكان ورمى فيه بكل ضعيف من الإبل بعد نحره، ثم عبر عليها ليلقى عدوه في مضاربه وراء الخنادق والحصون، وعندئذ رأى قائد الفرس «شيرزاذ» من قائد الإسلام وجنده الجد الذي لا يقوم له هذا الخيط من شذاذ المحميين من العرب وشراد سادتهم من أهل فارس المجمعين لغير غاية، فأرسل «شيرزاذ» إلى خالد، وبذل له ما أراد من شروط الصلح على أن يبلغه مأمنه، فلما أتى «شيرزاذ»

صاحبه وقرنه «بهمن جاذويه» وأخبره الخبر لامه على فراره وتسليمه، فقال معتذراً: «إني كنت في قوم ليست لهم عقول، وأصلهم من العرب فسمعتهم مقدمهم علينا يقضون على أنفسهم[1]. وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم ثم قاتلهم الجند ففقئوا فيهم وفي أهل الأرض ألف عين، فعرفت أن المسالمة أسلم».

أمن أهل الأنبار في ظل الصلح مع المسلمين، ورأى خالد فيما رأى منهم أنهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها، فراقه منهم ذلك. فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: قوم من العرب، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا، فقال: ممن تعلمتم الكتابة؟ فقالوا: من إياد، وأنشدوه لشاعرهم:

قومي إياد لو أنهم أمم[2]   أو لو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم باحة العراق إذا   ساروا جميعاً والخط والقلم

* * *

واقعة «عين التمر»

تجمع بقايا العرب الموالين للفرس من قبائل تغلب، والنمر، وإياد، ومن انضم إليهم قريباً من «الأنبار» بعد أن خلصت للمسلمين، وجعلوا منها قاعدة فرعية لمعسكر المسلمين، بمكان يقال له: «عين التمر» وكان به «مهران ابن بهرام» في جموع من العجم. وعلى العرب يومئذ «عقة بن أبي عقة» فلما بلغ أمرهم خالداً استخلف على الأنبار «الزبرقان بن بدر» وسار إليهم في جموع المسلمين حتى كان قريباً منهم، فانبرى «عقة» مأخوذاً بعزة الجاهلية وحميتها، وقال لقائد الفرس ابن بهرام: «إن العرب أعلم بقتال العرب. فدعنا وخالداً؛ فاهتبلها الفارسي، وأجاب عقة في خبث ودهاء إلى ما أراد، وقال له: صدقت لعمري، لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم، فدونكموهم، وإن احتجتم إلينا أعناكم. فجازت خديعة الفارسي على عقة وقومه، فجعلوهم في وجه خالد واتقوا بهم عزائم المسلمين؛ وكان الفرس لا يرون للعرب قدراً يبلغ بهم أن يكونوا وإياهم على سواء، لذلك عز على عامة الفرس في جيش ابن بهرام صنيع قائدهم مع الزعيم العربي

(١) معنى هذه الجملة: إنهم يتحدثون فيما بينهم بقوة عدوهم وضعفهم عند لقائه.

(٢) أمم: جميع.

«عقة بن أبي عقة» فقالوا له: ما حملك على أن تقول لهذا «الكلب» هذا القول؟ فقال: دعوني، فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم؛ إنه قد جاءكم من قتل ملوككم، وفل حدكم فاتقيته بهم، فإن كانت لهم على خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون.

بيد أن الأمر انتهى على غير ما قدر قائد الفرس في غدره المبيت بحلفائه من العرب فخالد بن الوليد لا ينال من شجاعته تهور «عقة» وحمقه في تشاجعه، ولا من وقدة ذهنه وومضات عقله مكر ابن بهرام وختله، فقد ضرب خالد «عقة» ضربة طار لها قلب صاحبه الفارسي من ورائه، فلم تحمله ساقاه ولا اعتدل به ظهر جواده.

تقدم «عقة» في جموع من العرب فوقف لخالد على طريق الكرخ بينه وبين الفرس الذين اعتصموا بحصن «عين التمر» ومشى خالد بجيوشه حتى كان في وجه «عقة» وأصحابه، فوجده يعدل صفوف جيشه، فلم يمهله، بل انقض عليه كالشهاب الصاعق، بعد أن ألقى إلى مجنبتيه من جند الإسلام: إني حامل على «عقة» فاكفوني ما عنده، فلم يرتد إليهم طرفهم حتى عاد إليه به أسيراً بين يديه، وانفرط عقد جند «عقة» وانحل نظامهم، وانهزموا هزيمة منكرة، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاؤوا، ولم ينج منهم إلا من أدرك الحصن فاعتصم به.

ولم يكد ما حل بجيش «عقة» يبلغ القائد الفارسي الذي دبر وقدر حتى تساقطت دعائمه فلم يقو على الثبات، ففر بجيشه يسابق الريح طلباً للنجاة من هول العزائم المسلمة.

اعتصم العرب الذين نجوا بالحصن بعد أن خلاه لهم حلفاؤهم من أهل فارس، وظنوا أن تحصنهم يجعلهم في مأمن ومنجاة من صوارم المسلمين، وأن خالداً وجيوشه إن هم إلا قوم من العرب عضهم الجوع في قفارهم، فجاؤوا يغيرون على ريف العراق لينالوا من خيراته، ويقنعوا بالغنائم والأسلاب ينهبونها والأموال يسلبونها، ثم يعودون إلى قفرهم راضين بما أصابوا.

قصور في التفكير، وجهالة بتصاريف الحياة، وقبوع عند مطالب البطن في أحط مظاهرها، وكذلك كان شأن العرب قبل أن يجعل الإسلام منهم أبطال هداية، وأئمة دين نماذج للفضيلة، أخرجهم من ديارهم يدعون إلى توحيد الله، ونشر راية العدل والرحمة بين عباد الله لا يريدون مغنمًا، ولا يبتغون مالاً، من أجابهم إلى الحق والهدى فهو أخوهم، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن أبى عناداً ووقف في طريق الدعوة يصدها عن وجهها أوردوه موارد الحتوف وهم عند الله يومئذ أبر خلق الله.

حاصر خالد الحصن، وجاء بطاغيتهم وقائدهم «عقة» فضرب عنقه وطرحه إليهم على أنظارهم ليفل من حدهم ويطأ من غرورهم، ويؤيسهم من موقفهم، فنزلوا على حكمه مكرهين، وتسلم خالد الحصن، وغنم جميع ما فيه من أموال وذراري، ولقي في كنيستهم أربعين غلاماً محبوسين على تعلم الإنجيل، فقال لهم: ما أنتم؟ قالوا: رهن، فقسمهم في أهل البلاء من جنود الإسلام؛ فكان من هؤلاء الغلمة المنقذين كثير من العلماء والقواد الأبطال، والساسة المفكرين من رجالات الإسلام، فمنهم سيرين والد محمد بن سيرين ثاني اثنين من سادة التابعين، ومنهم نصير والد موسى بن نصير القائد الأموي فاتح الأندلس بمولاه طارق بن زياد، ومنهم حمران، مولى عثمان بن عفان، وغيرهم من ذوي الأثر الحميد في دولة الإسلام، وتاريخ الإسلام.

* * *

فتح دومة الجندل

بعث خالد رضي الله عنه بالفتح والأخماس إلى أبي بكر الصديق مع الوليد بن عقبة، فلما قدم الوليد دار الخلافة وبلغ رسالة قائده رأى الخليفة أن يرسل الوليد «لعياض بن غنم» فلحق الوليد بعياض فلقيه وهو محاصر دومة الجندل، وأهلها قد أخذوا عليه الطرق فأشجوا عياضاً وشجوا به، فقال الوليد لعياض: الرأي في بعض الحالات خير من الجند الكثيف؛ ابعث إلى خالد فاستمده. وكان الوليد من أعرف الناس بيمن نقيبة خالد وفضل شجاعته، وبراعة تفلته من المضايق، وبصره بمنافذ الخروج من الأزمات، وجراءته على اقتحام الوغى وتفريج كربات المؤمنين، فأجابه عياض إلى ما رأى، وأرسل إلى خالد يستغيث به، فكتب إليه خالد كتابه المشهر في التاريخ والأدب قال:

«من خالد إلى عياض؛ إياك أريد».

لبث قليلا تأتك الحلائب يحملن آساداً عليها القاشب[1]
كتائب يتبعها كتائب

وهو فيما عرف الأدب العربي أوجز كتاب وأفيده فيما قصد إليه، وهي ناحية من نواحي العبقرية الخالدية في ميدان البلاغة العربية، كانت جديرة أن تجعل أبا سلمان خالد بن الوليد في أول صف الرعيل الأول من مداره العربية وبلغائها المقاويل، وهي تكشف عن جانب في العقل العربي حري بالدرس الواعي، تلك هي ناحية تركيز المعاني التي تحتاج إلى رسائل مطولة في صورة من الإيجاز القوي البارع المنتهي إلى غايته من أقرب طريق؛ وكان هذا واجب الذين يعنون بدراسة الأدب «المقارن» ولا سيما في العصر العباسي، عصر الرموز والتوقيعات المنقولة مع التفكير الفارسي، حتى لا نغمط العقل العربي الخالص حقه في فراهة البداهة واكتناز التفكير.

شهادة خصم

لم يكد كتاب خالد يلم بساحة عياض حتى كانت صيحات جيوشه صواعق في آذان أهل دومة الذين استنفروا مظاهريهم من غسان وتنوخ وبهراء وكلب، وكان عليهم «أكيدر بن عبد الملك» و«الجودي بن ربيعة» فلما دنا منهم بطل الإسلام خالد تفزعت قلوبهم، وتفرقت كلمتهم. واختلفوا على أنفسهم؛ فقال «أكيدر» وكان من قبل أخيذاً لخالد، فمنَّ عليه النبي ﷺ وأطلقه، وكتب له كتاباً، فخاس[2] بعهده وخان ذمته وغدر مرتداً عن الإسلام: «أنا أعلم الناس بخالد؛ لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحد في حرب؛ ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم» فأبوا عليه رأيه، فانخذل عنهم، وقال: لن أمالئكم على حرب خالد، فشأنكم؛ ثم فر هارباً حذراً أن يراه خالد رضي الله عنه.

وإذا أدار الباحث نظره فيما قاله أكيدر في وصف خالد رأى رجلاً يتحدث عن رجل خبره وعرف أمره عن تجربة واحتكاك، فهو قد راز خالداً

(١) الحلائب: جمع، مفرده حلوبة وهي الناقة المحلوبة اللبن، والقاشب من قولهم: سيف قشيب أي حديث عهد بالجلاء.
(٢) خاس بالعهد: نقضه.

قبل يومه هذا، فعرك خالد أديمه في حرب له على عهد النبي ﷺ، فعرف عن خالد هذا الذي تحدث به إلى قومه في صراحة لا ترحم، فهو يصف خالداً بيمن النقيبة، ومحالفة التوفيق، وأنه أقوى الناس في الحرب، وأحدهم في ميادينها، وأنه موهوب بما أكسبه في نفوس أعدائه هيبة وجلالاً، فلا يراه قوم إلا رعبوا منه وانهزموا أمامه؛ ولو كانوا في كثرة الحصى، وهذه نعوت تجلت في تاريخ خالد ووقائعه. ثم إن «أكيدر» لا يداهن عن نفسه، ولا يستطيع أن يمكن خالداً من النظر إليه لمكان غدره بالمسلمين؛ وخيانته لعهد النبي ﷺ، وارتداده عن الإسلام فيفر هرباً ويلاحقه رسول خالد، فيجيء به إليه ويضرب عنقه.

اتخذ خالد خطة الالتفاف حول أهل دومة ومشايعيهم من بهراء وكلب وتنوخ، فجعلهم جميعاً بين فكي «كماشة» ذراعها الأولى عسكره، والثانية عسكر عياض بن غنم، واشتبك القتال في الجانبين، فأخذ خالد صاحبه أكيدر وانهزم الجودي بن ربيعة لا يلوي على شيء، ومكن الله عياضاً ممن كانوا في وجهه فرعبلهم، فطار منهم من استطاع إلى الحصن يعتصمون به حتى امتلأ ولم يتسع لسائرهم، فغلقوا الأبواب دون إخوانهم، وبقي من بقي منهم خارج الحصن تحت ظلال السيوف المسلمة، ولم يبرح خالد عن محاصرة الحصن حتى اقتلع أبوابه، واقتحم على من فيه فألحقهم بإخوانهم.

* * *

وقائع «خنافس» و«الحصيد»

كان قتل «عقة بن أبي عقة» غصة تأخذ على عرب الجزيرة أنفاسهم، فهم متربصون، حتى إذا رأوا خالداً قد تباعد به المنزل عن الحيرة والأنبار وهما أعظم مسالح المسلمين في هذا الجانب من دولة الإسلام؛ هموا بالغدر به، وكاتبوا الأعاجم، واتعدوا معهم مكاناً يقال له «خنافس» بالقرب من الأنبار، فلما شعر الزبرقان بن بدر خليفة خالد على الأنبار استمد القعقاع ابن عمرو، وكان على الحيرة، فأمده القعقاع بجيش تحت قيادة أعبد بن فدكي السعدي، وعروة بن الجعد البارقي؛ تقدما حتى وقفا في وجه قائدي الفرس «روزبة» و«زرمهر» ومنعاهما من التقدم حتى بلغ الخبر خالداً؛ وكان رجع من دومة إلى الحيرة، فأرسل القعقاع وأبا ليلى بن فدكي إلى قائدي الفرس، ثم بلغه أن قوماً من العرب عليهم الهذيل بن عمران؛ وربيعة بن بجير خرجوا

يريدون الفرس لينضموا إليهم في محاربة المسلمين أخذاً بثأر «عقة» فنهض إليهم خالد، واستخلف عياضاً على الحيرة، وعبى جيشه فجعل على مقدمته الأقرع بن حابس، وسار حتى لقي القعقاع وأبا ليلى، ووجه القعقاع إلى «الحصيد» في أطراف العراق. وجعله أميراً على الناس في هذا الوجه. ووجه أبا ليلى إلى «الخنافس» ليدفعوا في ظهور الأعداء من كل جانب حتى يتجمعوا فيتسنى لخالد ضربهم ضربة حاسمة، ولكن الفرس وألفاف العرب معهم فطنوا إلى ما يراد بهم فآثروا الفرار عن اللقاء، وجبنوا فلم يجتمعوا، وفزعوا فلم يثبتوا.

واقعة «المصيخ»

أصاب القعقاع بن عمرو أهل «الحصيد» وهرب أهل «الخنافس» من وجه أبي ليلى بن فدكي، فأبلغا خالداً انتصارهما فيما وجههما إليه، فكتب إليهما خالد، وإلى أعبد بن فدكي، وعروة بن الجعد، يواعدهم ساعة من ليلة بعينها يجتمع فيها معهم بمكان يقال له «المصيخ» بين حوران والقلت، وكان خالد مقيًما بعين التمر، ومنها نهض للقاء أصحابه فلما كانت الليلة الموعودة وافى خالد أصحابه في الساعة التي عينها لهم، وفيها وافوه بعددهم وعتادهم، فاجتمعوا هناك بالمصيخ، وكان قد نزل به قوم من تغلب عليهم هذيل بن عمران، فبيتهم خالد وأصحابه من ثلاثة أنحاء، فلم يفلت منهم سوى قائدهم الهذيل مع نفر قليل من خاصته.

وفي هذه الوقعة أصيب عبد العزى بن أبي رهم، ولبيد بن جرير وكانا قد أسلما وكتب لهما أبو بكر كتاباً بإسلامهما، فلما بلغ أبا بكر قتلهما، وبلغه قول عبد العزى عند قتله:

أقول إذا طرق الصباح بغارة   سبحانك اللهم رب محمد
سبحان ربي لا إله غيره   رب البلاد ورب من يتورد

جعل يردد قوله: سبحانك اللهم رب محمد؛ ثم وداهما وأوصى بأولادهما، وقال: أما إن ذلك ليس علي؛ كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب في ديارهم.

وقد كان قتل هذين الرجلين مما يأخذه عمر بن الخطاب على خالد مضافاً إلى قتل مالك بن نويرة فيما يقول بعض الرواة.

وقارىء هذه البحوث قد عرف شأن قصة مالك بن نويرة وموقف الفاروق فيها، وأغاليط الرواة، وزيف الروايات، وبراءة خالد من إثمه إن كان فيه إثم؛ وهنا يستشف القارىء من قولة أبي بكر رضي الله عنه في شأن هذين الرجلين عذراً وجيهاً لخالد وجيشه، وأنه ليس على أحد في قتلهما حوب أو ملام، بل إن أبا بكر نفسه يذهب إلى أبعد من ذلك، فينفي عن نفسه مسؤولية قتلهما باعتباره الإمام الأعظم، فلو كان على أحد تبعة لكان عليه منها نصيب، ولكن كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب.

انتصار خالد بالرعب

وكان خالد رضي الله عنه ممن ينتصر باسمه كما ينتصر بسيفه. يسبقه اسمه إلى أعدائه قبل مواقعتهم، فيعمل الرعب في قلوبهم ما تعمله الصواعق، ويشيع الفزع بينهم فتنحل قواهم، وتنهار عزائمهم. روى الطبري عن عدي بن حاتم أنه قال: أغرنا على أهل المصيخ وإذا رجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر، وإذا حوله بنوه وامرأته، وبينهم جفنة من خمر، وهم عليها عكوف، يقولون له: ومن يشرب هذه الساعة. وفي أعجاز الليل؟ ! فقال: اشربوا شرب وداع، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها: هذا خالد بعين التمر، وقد بلغه جمعنا، وليس بتاركنا، ثم قال:

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر ... بعيد انتفاخ القوم بالعكر الدثر[1]
وقبل منايانا المصيبة بالقدر ... لحين لعمري لا يزيد ولا يحري[2]

ويروي ياقوت في معجم البلدان: أن ربيعة لما تجمعت إلى الهذيل ابن عمران غضباً لعقة بن أبي عقة لتأخذ بثأره من خالد وجيشه، نهاهم حرقوص ابن النعمان عن مكاشفة خالد، فعصوه، فرجع إلى أهله وهو يقول:

ألا فاسقياني قبل جيش أبي بكر ... لعل منايانا قريب ولا ندري
ألا فاسقياني بالزجاج وكررا ... علينا كميت اللون صافية تجري
أظن خيول المسلمين وخالداً ... ستطرقكم عند الصياح على البشر
فهل لكم بالسير قبل قتالهم ... وقبل خروج المعصرات من الخدر
أريني سلاحي يا أميمة إنني ... أخاف بيات القوم أو مطلع الفجر

(١) العكر: الإبل الكثيرة، والدثر: الكثير من المال.
(٢) يحري: ينقص، قال في اللسان: حري الشيء يحري حرياً: نقص.

مناوشات وتطهير

عرف خالد رضي الله عنه بعد إيقاعه بأهل المصيخ أن ربيعة بن بجير التغلبي في حشود من العرب والفرس مقيم بالثنيّ، وهو جبل يأخذ في عرض الفرات من أرض الشام، فتقدم إلى قائديه القعقاع وأبي ليلى أن يسبقاه إلى الثنيّ، وواعدهم ليلة معينة فيها يلتقون، ورسم لهم خطة الهجوم على غرار ما صنع بأهل المصيخ من الإحاطة بالعدو، وأخذه من ثلاثة أوجه، وتم لهم ما أرادوا فلم يفلت من أصحاب ربيعة بن بجير أحد، وكثرت غنائم المسلمين في هذه الوقائع فقسمها خالد على جنده، وبعث بالخمس إلى أبي بكر مع النعمان بن عوف الشيباني، وكانت في السبي ابنة لربيعة بن بجير، فاشتراها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فجاءت منه بولديه عمرو ورقية.

كان الهذيل بن عمران قد لجأ بعد فراره إلى مكان يقال له «البشر» وهو جبل يمتد مع الثنيّ، وكان بالبشر رجل يقال «عتاب» تجمع إليه عسكر ضخم؛ يريد حرب المسلمين ومنازلتهم، فبلغ خبره خالداً رضي الله عنه فقضي على من تجمع إليه، ولم ينج منهم أحد، ثم عطف خالد إلى هلال ابن عقة، وكان متربصاً بالرضاب، وهو موضع الرصافة قبل أن يبنيها هشام ابن عبد الملك، فلم يكد يسمع أصحاب هلال بدنو خالد حتى ارفضوا عنه، وخلوه وحده فزايل الرضاب، فاستولى عليه خالد دون قتال.

واقعة «الفراض»

نظر خالد إلى ما صار في يده من سواد العراق، فرآه أصلح معسكر يثب منه إلى قلب فارس، بيد أنه رأى من ورائه الفراض[١]، والتخوم، وأطراف العراق والجزيرة مما يلي الشام؛ وفي الشام الروم لا تزال شوكة لو خلفها وراء ظهره واتجه إلى قلب فارس؛ لم يأمن شوكتها، وكان فيما أوصاه أبو بكر حينما وجهه لفتح العراق: حماية ظهره أبداً، فتوجه على تعبيته إلى الفراض، وتسامعت بمسيره الروم في شامها، واستعدت للقائه حشود من الفرس، ولفائف من تغلب، وإياد والنمر، وراسلوا الروم، وكلهم حردان[٢] حاقد على المسلمين، قد شوى الغيظ أكبادهم، وأنضج لهب الحفيظة قلوبهم، فقد وطىء المسلمون رقابهم، ونزعوا نواصي أشرافهم، فتمثلوا مصارع

(١) الفراض جمع فرضة، وهي موارد الاستقاء من الأنهار ويراد هنا ما حولها من الأماكن الآهلة بالناس.

(٢) حردان: غاضب.

ساداتهم بأيدي هؤلاء المسلمين من العرب الذين كانت فارس تراهم في مكان الخول والأتباع، فأصبحوا بهذا الدين الجديد وإذا هم سادة فاتحون غلابون، لا يصدهم صاد، ولا يردهم عن البلاد والعباد راد.

تجمع من هؤلاء وأولئك جيوش جرارة، وواجهوا جيوش المسلمين، يفصل بينهم الفرات، فقال الأحلاف للمسلمين، إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم، فقال خالد بن الوليد: لا، ولكن اعبروا أسفل منا، فأدرك الروم من هذه الكلمة الحكيمة سر تضعضع الفرس أمام هذا البطل المسلم، فقالوا: احتسبوا ملككم، هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم، ووالله لينصرن، ولنخذلن!!.

نعم، ولقد صدقوا، فخالد بن الوليد أشجع الناس في حرب، وقلما يصبر على الحرب إذا رآها، ولكنه العقل الذي لا يطيش، والرجل الذي لا تستفزه الخدع، والبطل الذي لا يفلت من يده زمام الرأي، فلم يثره العجب بسابقات الظفر ليدفع بجنده إلى مضايق لا تؤمن مغباتها، ومداخل لا تعرف مخارجها، وتقدمات قد لا تسلم عواقبها، فتصبر، وأبى أن يعبر إلى عدوه، وطلب إليهم أن يعبروا هم أسفل منه ليقاتل المسلمون أعداءهم في مكانهم الذي اختاروه لجولاتهم، وأثقالهم على بصيرة وتقدير.

عبر الأحلاف أسفل من المسلمين حتى تم جمعهم، ثم قالت الروم لفارس: امتازوا حتى نعرف اليوم من أينا يكون الثبات أو التولي، وهذه أولى خطوات الهزيمة لأن انعدام الثقة بين الجنود سهم نافذ يوجهه الله إلى قلب من يريد خذلانه من جنود الباطل، وإلا فماذا بقي من الروح المعنوية لجيش تجمع من لفائف الأجناس والعناصر، تحالفوا على الشك بعضهم في بعض؟ وهل يبقي الشك لدى الجندي عزمة إقدام؟ وأين هذا من موقف خالد يوم اليمامة، وقد عرف من الأعراب الذين تجمعوا معه ممن كانوا قد ارتدوا أنهم لا يقاتلون عن عقيدة، ولكنهم جاؤوا لطلب الغنيمة، فخشي المسلمون أن يؤتوا من قبلهم، فقالوا لقائدهم: أخلصنا، فنحى أولئك الأعراب المزعزعين عن تلقي حر السلاح، وجعل الصدارة لأهل الصبر واليقين من المهاجرين والأنصار، ورضي من الأعراب تكثير سواد المسلمين وقيامهم بما تقوم به فرق العمال في الحروب الحديثة.

امتار الأحلاف، فكان الفرس بلوائهم، وكان أخلاط العرب بلوائهم، وكان الروم بلوائهم، واقتتل الجمعان قتالاً مريراً، وتبدت لخالد رضي الله عنه بشائر النصر يعقد بلواء المسلمين، فقال لجنوده: ألحوا عليهم، ولا ترفهوا عنهم. فجعل خيالة المسلمين وفرسانهم يأخذونهم زمراً، يرقل الفارس[1] المسلم إلى الزمرة من الأحلاف فيحشرهم برماح أصحابه حتى إذا سقطوا في حبالتهم أتوا على أنفسهم، فانجلت المعركة بهزيمة ساحقة لفارس ومن لف لفها من الأعراب، ونصر حاسم يعقد بنواصي المسلمين، ونذير يأتي به الله تعالى طليعة للروم.

وكانت هذه الواقعة آخر واقعات خالد بن الوليد رضي الله عنه مع الفرس بالعراق وقد كثرت فيها قتلى الروم وفارس، وأتباعهم من العرب، حتى قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف قتيل.

ومهما يكن أمر هذا التقدير في ميزان التصحيح فإن الثابت الذي لا يمترى فيه أن فارس لم تقم لها شوكة حربية يخشاها الإسلام بعد هذه الموقعة.

عزمة خالدية

كان خالد رضي الله عنه قد اتخذ الحيرة قاعدته الكبرى بالعراق، ينشر منها رايته إذا غزا، ويرجع إليها إذا ثوى، ولما انتهى من وقعة الفراض، ودانت له تخوم الشام أذن في الناس بالرحيل إلى مستقره، وقاعدته مصر العراق (الحيرة)، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش، وجعل شجرة ابن الأعز ساقة له، وأظهر في الناس أنه سيكون في الساقة.

تحرك الجيش بثقله وعتاده، وانطوى خالد رضي الله عنه على مغامرة من أخطر المغامرات، فقد عزم أن يأتي مكة ويحج مع الناس، ثم يدخل الحيرة مع الجيش في الساقة، وخالد إذا عزم ألقى بين عينيه الوصول إلى هدفه مهما تكن العواقب في طريقه، فخرج في جماعة من خاصة أصحابه مسامتاً مكة، يعتسف البلاد اعتسافاً، ويقتحم السبل اقتحاماً، فتأتى له ما لم يتأت للخريت الحاذق، وجاز من دروب الصحراء أصعبها، وقطع من طرقها أعجبها، حتى أسلمه ذلك إلى عرفات، فحج ثم عاد إلى جيشه، فدخل معه

---

(١) يرقل: هو من أقل إذا أسرع.

الحيرة، فلما توافى اخرهم حتى وافاهم خالد مع رفاقه في كتيبة ساقة الجيش، ولم يشعر بمغامرة خالد وحجه أحد لولا أن رأوه في سمات الحج محلقاً ومقصراً.

ترامى نبأ هذه المغامرة الخطيرة إلى مسامع الخليفة فأعظم ذلك، وكتب إلى خالد يعاتبه، ويشغله ويشغل به، فاستنفره إلى غوث إخوانه بالشام.

الفصل الحادي عشر

دولة الروم بعد الفرس والعرب

مقدمات غزو الشام ـ مشاورة أبي بكر لأهل الرأي ـ تأمير خالد ابن سعيد ثم عزله ـ عقد الألوية وطموح ابن العاص ـ رأي أبي بكر وعمر في طموح عمرو ـ لواء يزيد بن أبي سفيان ووصية أبي بكر له ـ لواء شرحبيل ابن حسنة ـ لواء أبي عبيدة ـ ابتهاج أبي بكر بكتائب المجاهدين ـ فزع الروم ورأي هرقل ـ مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم ـ بعث خالد بن الوليد أميراً على الأمراء ـ كتاب أبي بكر إلى خالد ـ بين خالد والمثنى ـ مغامرة خالدية ـ نظرة وعبرة ـ بين خالد وأبي عبيدة ـ أدب رفيع ـ جولات في الطريق ـ سياسة حكيمة ـ زمام الإمارة في يد خالد ـ إيمان ـ قصة جرجة القائد الرومي ـ هزيمة الروم ـ نبل عبقري ـ نظرة عابرة في قصة جرجة ـ ترتيب الوقائع الشامية ـ طريقة أخرى في ترتيب الوقائع ـ نظر وترجيح ـ نتيجة.

مقدمات غزو الشام

كان غزو المسلمين للروم في الشام قد بدأ في حياة النبي ﷺ. ففي السنة الثامنة للهجرة جهز رسول الله ﷺ جيش مؤتة بقيادة زيد بن حارثة. ثم انتهت قيادة الجيش باتفاق المسلمين إلى خالد بن الوليد الذي تجلت عبقريته الحربية في إنقاذ جيش المسلمين من نكبة كادت تقضي عليه بعد أن قتل قواده الثلاثة الذين عينهم رسول الله ﷺ، ولم يكن من بينهم خالد بن الوليد. وفي السنة التاسعة تجهز النبي ﷺ في ثلاثين ألفاً لغزو الروم، وسار إليهم يقود المسلمين حتى بلغ تبوك، فلم يلق قتالاً، وعاد بالمسلمين سالمين غانمين. وقبيل وفاته ﷺ جهز جيش أسامة بن زيد، وأوعب فيه الناس. ولكنه لم يخرج إلى هذا الوجه الذي جهزه إليه رسول الله ﷺ إلا في خلافة أبي بكر. فالمسلمون كانوا قد مرنوا على غزو الروم، وكان فتح الشام أملاً يملأ صدورهم، فلما قام بالخلافة أبو بكر الصديق، وفرغ من أهل الردة واستقام له العرب، فكر في إتمام ما بدأه النبي ﷺ، وعناه غزو الروم وفتح الشام.

مشاورة أبي بكر لأهل الرأي

روي عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي: أن أبا بكر لما أراد أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم. وشاورهم وكلهم استصوبوا رأي أبي بكر، وقالوا: ما رأيت من الرأي فامضه، فإنا سامعون لك مطيعون، لا نخالف أمرك، وعليٌّ في القوم لا يتكلم، فقال له أبو بكر: ماذا ترى يا أبا الحسن؟ فقال: أرى أنك مبارك، ميمون النقيبة، فإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم

نصرت إن شاء الله تعالى، قال أبو بكر: بشرك الله بخير، ومن أين علمت هذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون» قال أبو بكر: سبحان الله! ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني، سرك الله في الدنيا والآخرة.

تأمير خالد ابن سعيد ثم عزله

ثم قام أبو بكر فخطب الناس ورغبهم في الجهاد، ثم أمر بلالاً فأذن في الناس: انفروا أيها الناس إلى جهاد عدوكم الروم بالشام، وأمير الناس خالد بن سعيد. وكان خالد بن سعيد من عمال رسول الله ﷺ على اليمن. فلما ولاه أبو بكر الجند الذي استنفر إلى الشام أتى عمر أبا بكر ومنعه من تأمير خالد بن سعيد على الناس، فعزله عن الإمارة العامة وجعله رداء بتيماء.

قال أبو جعفر الطبري: وكان سبب عزل أبي بكر خالد بن سعيد أن خالداً حين قدم من اليمن بعد وفاة رسول الله ﷺ تربص ببيعة أبي بكر شهرين يقول: أمرني رسول الله ﷺ ثم لم يعزلني حتى قبضه الله، وقد لقي خالد بن سعيد علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، فقال: يا بني مناف لقد طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم؟ فأما أبو بكر فلم يحفلها عليه، وأما عمر فاضطغنها عليه. ثم بعث أبو بكر الجنود إلى الشام وكان أول من استعمل على ربع منها خالد بن سعيد، فأخذ عمر يقول: أتؤمره وقد صنع ما صنع، وقال ما قال؟ فلم يزل بأبي بكر حتى عزله. وفي رواية أن عمر لما سمع منه الكلمة المفرقة لشمل الجماعة الإسلامية قال له: فض الله فاك، والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت ثم لا يضر إلا نفسه، ثم نهى عمر أبا بكر عن توليته وقال: إنه لمخذول، وإنه لضعيف التروئة[1]، ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدل بها وخائض فيها، فلا تستنصر به فلم يحتمل أبو بكر عليه وجعله رداء بتيماء، أطاع عمر في بعض أمره وعصاه في بعضه.

عقد الألوية وطموح عمرو بن العاص

تتابع الناس مستجيبين، فنفروا من كل فج يطلبون الجهاد في هذا الوجه. وعقد أبو بكر الألوية للأمراء وأوعب معهم الناس، فعقد لواء لعمرو ابن العاص بعد أن استقدمه من عمان وكان والياً عليها من قبل رسول الله ﷺ، ثم من قبل أبي بكر وفاء لعدة كان وعدها رسول الله ﷺ إياه،

(١) التروئة: التفكر في عواقب الأمور

فكتب إليه أبو بكر يقول: «إني كنت قد رددتك إلى العمل الذي كان رسول الله ﷺ، ولاّكه مرة، وسماه لك أخرى: مبعثك إلى عمان إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ فقد وليته، ثم وليته، وقد أحببت أبا عبدالله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك».
فكتب إليه عمرو: «إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها. فانظر أشدها وأخشنها وأفضلها فارم به». وكان عمرو ابن العاص يرغب في الإمارة العامة على جيوش الإسلام في الشام كلها. فأبى عليه ذلك أبو بكر. ذكر الديار بكري: أن أبا بكر جمع أشراف قريش من المهاجرين وغيرهم من أهل مكة، ثم دعا بأشراف الأنصار وذوي السابقة منهم، ثم دعا بعمرو بن العاص فقال له: يا عمرو هؤلاء أشراف قومك يخرجون مجاهدين فاخرج فعسكر حتى أندب الناس معك.

موقف الصديق والفاروق من طموح عمرو

فقال عمرو: يا خليفة رسول الله. أنا وال على الناس؟ فقال: نعم، أنت الوالي على من أبعث معك من ههنا، قال: لا، بل وال على من أقدم عليه من المسلمين! قال: لا، ولكنك أحد الأمراء، فإن جمعتكم حرب فأبو عبيدة أميركم؛ فسكت عنه، ثم خرج فعسكر، فاجتمع إليه ناس كثير. وكان معه أشراف قريش، فلما حضر خروجه جاء إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أبا حفص: إنك قد عرفت بصري بالحرب، ويمن نقيبتي في الغزو، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ﷺ، وقد علمت أن أبا بكر ليس يعصيك، فأشر عليه أن يوليني هذه الجنود التي بالشام، فإني أرجو أن يفتح الله على يدي هذه البلاد، وأن يريكم والمسلمين من ذلك ما تسرون به. فقال له عمر: لا أكذبك ما كنت أكلمه في ذلك لأنه لا يوافقني أن يبعثك على أبي عبيدة، وأبو عبيدة أفضل منك منزلة، قال عمرو: فإنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن ألي عليه، فقال له عمر بن الخطاب: ويحك يا عمرو إنك والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا، فاتق الله، ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله، واخرج في هذا الجيش، فإنك إن يكن عليك أمير في هذه المرة، فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد. فرضي عمرو وخرج على رأس جيوشه التي حشدها له أبو بكر، وخرج معه يشيعه ويوصيه فقال له: يا عمرو إنك ذو رأي وتجربة للأمور، وبصر بالحرب، وقد

خرجت في أشراف قومك ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك فلا تألهم نصيحة ولا تدخر عنهم صالح مشورة. فرب رأي لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور: ثم أمره أن يجعل وجهه فلسطين من أرض الشام.

لواء يزيد ابن أبي سفيان ووصية أبي بكر له

وعقد لواء ليزيد بن أبي سفيان وأوصاه فقال: «إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد «بن سعيد» فاياك وعيبة الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فاوجز فان كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، واصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فاكرمهم، واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون. ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك، وانزلهم في ثروة عسكرك، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم. ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق في الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتتكشف عندك الأستار، واكثر حرسك وبددهم في عسكرك؛ واكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فاحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، واعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلحن فيها. ولا تسرع إليها. ولا تتخذ لها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم. ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول، فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له».

قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر. ثم دعا أبو بكر ربيعة بن عامر بن لؤي، فعقد له، ثم قال له: أنت مع يزيد ابن أبي سفيان لا تعصه ولا تخالفه، ثم قال ليزيد: إن رأيت أن توليه مقدمتك فافعل، فانه من فرسان العرب وصلحاء قومك، وأرجو أن يكون من عباد الله الصالحين، ثم خرج أبو بكر يودع يزيد وهو يمشي ويزيد راكب، فقال له: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن تأذن لي فأمشي معك. فإني أكره أن أركب وأنت تمشي، فقال أبو بكر: ما أنا براكب وما أنت بنازل، إني أحتسب هذه في سبيل الله.

لواء شرحبيل ابن حسنة

وعقد أبو بكر لواء لشرحبيل بن حسنة، وسيره إلى الأردن، وكان شرحبيل جاء إلى أبي بكر، وأبو بكر يحدث نفسه بغزو الروم ولم يطلع عليه أحد. فقال له: يا خليفة رسول الله: أحدثت نفسك أن تبعث إلى الشام جنداً؟ قال: نعم، حدثت نفسي بذلك وما يطلع عليه أحد، وما سألتني إلا لشيء، فأخبره شرحبيل أنه رأى ذلك في نومه، فقال له أبو بكر: نامت عينك؛ هذه بشرى وهو الفتح ـ إن شاء الله ـ لا شك فيه، وأنت أحد أمرائي، فإذا سار يزيد بن أبي سفيان فأقم ثلاثاً، ثم تيسر للمسير، ففعل ذلك شرحبيل، فلما مضى اليوم الثالث أتاه من الغد يودعه، فأوصاه أبو بكر بمثل ما أوصى به يزيد بن أبي سفيان.

لواء أبي عبيدة ابن الجراح

وعقد أبو بكر لواء لأمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح، وجعل وجهه «حمص» وجعله أمير الناس إن اجتمعوا، وأبى أن يؤمر عليه عمرو بن العاص، مع إلحاح عمرو في ذلك، وعسكر أبو عبيدة خارج المدينة يصلي بجنده وينتظر أن يسرحه أبو بكر حتى قدمت عليه جموع العرب بقادتها وفرسانها، فلما تمَّ حشدهم خرج أبو بكر في رجال من المسلمين على رواحلهم حتى أتى معسكر أبي عبيدة، فماشاه إلى ثنية الوداع وأوصاه وناصحه. وأوصاه بقيس ابن كشوح المرادي؛ وكان من فرسان العرب المؤلفة قلوبهم، فقال له: إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف، فارس من فرسان العرب لا أظن له عظيم حسبة، ولا كثير نية في الجهاد، وليس بالمسلمين غنى عن مشورته ورأيه وبأسه في الحرب، فادنه والطفه وأره أنك غير مستغن عنه ولا مستهين بأمره، فانك تستخرج منه بذلك نصيحته لك وجهده ووجده على عدوك، ثم دعا

أبو بكر قيساً، فقال له: إني بعثتك مع أبي عبيدة الأمين الذي إذا ظلم كظم، وإذا أسيء إليه غفر، وإذا قطع وصل، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين، فلا تعصين له أمراً، ولا تخالفن له رأياً، فانه لن يأمرك إلا بخير، وقد أمرته أن يسمع منك، ولا تأمره إلا بتقوى الله، لقد كنا نسمع أنك شريف بئيس مجرب، وذلك في زمان الشرك والجاهلية الجهلاء، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك اليوم في الإسلام على من كفر بالله وعبد غيره، فقد جعل الله فيه الأجر العظيم؛ والعز للمسلمين.

سرور أبي بكر بكتائب المجاهدين

وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يسره شيء ما يسره قدوم جمع من المسلمين يريدون الجهاد في هذا الوجه. قال عمرو بن محصن: لم يكن أبو بكر رضي الله عنه يسأم توجيه الجنود إلى الشام وإمداد الأمراء الذين بعثهم بالرجال بعد الرجال إرادة إعزاز الإسلام وإذلال أهل الشرك. وقال أبو سعيد المقبري: لما بلغ أبا بكر جمع الأعاجم لم يكن شيء أعجب إليه من قدوم المجاهد عليه من أرض العرب. فكانوا كلما قدموا عليه سرح الأول فالأول. ولما قدم عليه حمزة بن مالك الهمداني في جمع عظيم من قومه: ورأى أبو بكر عددهم وعدتهم سره ذلك وقال: الحمد لله على صنيعه للمسلمين. ما يزال الله تعالى يرتاح لهم بمدد من أنفسهم يشد به ظهورهم ويقصم به ظهور عدوهم.

فزع الروم ورأي هرقل

سارت جيوش المسلمين حتى نزل كل جيش منها مكاناً يشرف منه على الروم، وتسامعت الروم بحلول المسلمين بساحتهم وتمثل عقلاؤهم الخطر الذي أحدق بهم. وكان هرقل مقيمًا ببيت المقدس بعد انتصاره على الفرس وتحريره من نيرهم. فأتاه الخبر بقرب جنود الإسلام منه. فجمع إليه خاصته وأصحاب مجلسه. وفيهم أخوه «تزارق» فقال لهم: أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم. وأن تصالحوهم فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم. فأبوا عليه رأيه. وردوا عليه قوله وتغلبت العامة على الخاصة وذوي الرأي. وأخذتهم العزة بالإثم. فاضطر هرقل أن ينزل على رأيهم ويسير بهم لقتال المسلمين. فنزل حمص واجتمع له فيها جيش كثيف فرقه كتائب. وجعل في وجه كل أمير من أمراء المسلمين جيشاً يفوق عدده

عدد جيش الإسلام وتزيد عدتهم على عدتهم. وكان قد ترامى إلى هرقل أن خالد بن الوليد قد طلع على «سوى» وانتسف أهله وأموالهم. وعمد إلى بصرى فافتتحها. وهو في طريقه لغوث إخوانه أمراء الشام. فقال هرقل لجلسائه: ألم أقل لكم لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم. إن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم[1] فلا يقوم لهم أحد حتى يبلي. فقال له قومه: قاتل عن دينك ولا تجبن الناس. واقض الذي عليك؛ فلما رأى هرقل ذلك منهم جمع إليه أهل البلاد وأشراف الروم ومن كان على دينهم من العرب فقال لهم: يا أهل هذا الدين إن الله قد كان إليكم محسناً، وكان لدينكم معزاً وله ناصراً على الأمم الخالية، وعلى كسرى والمجوس والترك وعلى من سواهم من الأمم، وذلك أنكم كنتم تعملون بكتاب ربكم الذي كان أمره رشداً، فلما بدلتم وغيرتم ذلك أطمع فيكم قوماً والله ما كنا نعبأ بهم، ولا نخاف أن نبتلي بهم، وقد ساروا إليكم حفاة عراة جياعاً قد اضطرهم إلى بلادكم قحط المطر وجدوبة الأرض وسوء الحال، فسيروا إليهم وقاتلوهم عن دينكم وبلادكم وأبنائكم ونسائكم وأنا شاخص عنكم وممدكم بالخيول والرجال.

وعن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص قال: لما مضت جنود أبي بكر إلى الشام بلغ ذلك هرقل ملك الروم وهو بفلسطين، وقيل له. قد أتتك العرب وجمعت لك جموعاً عظيمة، وهم يزعمون أن نبيهم الذي بعث إليهم أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد، وقد جاؤوك وهم لا يشكون أن هذا يكون، وجاؤوك بأبنائهم ونسائهم تصديقاً لمقالة نبيهم يقولون: لو دخلناها وافتتحناها نزلناها بأولادنا ونسائنا، فقال هرقل: ذلك أشد لشوكتهم، إذا قاتل القوم على تصديق فما أشد على من كابدهم أن يزيلهم أو يصدهم.

مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم

فلما رأى أمراء المسلمين اجتماع الروم لهم رأوا أن يتشاوروا فيما يصنعون، فكان فيما أشار عليهم به عمرو بن العاص: «إن الرأي لمثلنا الاجتماع، وذلك أن اجتماع مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة» وكتبوا إلى أبي بكر، ثم اتعدوا جميعاً «اليرموك» ووافاهم كتاب أبي بكر بالاجتماع على مثل ما أشار به عمرو بن العاص، فقال لهم: «أن اجتمعوا فتكونوا عسكراً

(١) ثبارهم: حرصهم على الثوانب في الحرب.

واحداً، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم بأصحابه».

بعث خالد ابن الوليد أميراً على الأمراء

اجتمع الروم ونزلوا وادياً عسكروا على ضفته وجعلوه خندقاً بينهم وبين المسلمين، فحصرهم المسلمون شهر صفر والربيعين ولا يقدر أحد الفريقين على أن ينال نيلاً من الآخر، فلما طال الأمر على المسلمين كتبوا إلى الخليفة يخبرونه بجموع الروم وكثرتهم ويستمدونه، ولم يكد كتاب الامراء يقع إلى أبي بكر حتى طاف بخاطره فاقىء عين الردة، وفاتح العراق، ومدوخ فارس سيف الله وسيف رسوله القائد المظفر خالد بن الوليد، فاستنار وجه أبي بكر لهذا الخاطر وقال يخاطب نفسه: «خالد لها؛ والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».

لله أبو بكر! ما أعرفه بالرجال! وأخبره بالعبقريات يوجهها إلى حيث تملك مجالها من الحياة، وتملك منها الحياة ما تشاء من خصائص البطولة في ميادينها.

أولئك الأمراء الذين عقد لهم أبو بكر ألوية الإمارة في غزوة الشام من أقدر رجالات الإسلام وأشجعهم وأدهاهم وأعلمهم بمداخل الغمرات في الحروب؛ وقفوا بإزاء الروم ثلاثة أشهر، وهم مجتمعون متساندون لم ينالوا منهم نيلاً، ولا أنشبوا معهم قتالاً حتى أعياهم الانتظار، وأملهم الاصطبار، وهالهم حشد الروم، وتكاثر أعدادهم؛ فكتبوا إلى الخليفة يخبرونه ويستمدونه! وفي عاصمة الإسلام من جنود الإسلام مدد وأمداد وفيها أبطال وقواد، ولكن أبا بكر الصديق يعلم أن النصر لم يكن معقوداً بكثافة الجنود، وإنما ينزل الله نصره على من يشاء من عباده الذين حباهم بخصائص من مقومات العبقريات في الأفراد، موزعة على وفق الاستعداد.

أليست هذه الجموع التي جمعها الروم ووقف أمراء المسلمين بإزائها يستمدون الخليفة قد جمع الفرس من قبل أمثالها لخالد بن الوليد فرعبلها[1]،

(١) رعبلها: مزقها وفرقها.

ونكل بها، وهزمها شر هزيمة وأنكرها؛ أو ليس هؤلاء الروم كانوا قد تجمعوا من قبل مع الفرس ومحمييهم من فلال العرب في حشود أضخم من هذه الحشود التي ينفرد بها الروم وحدهم، ووقفوا في وقعة الفراض أمام خالد ابن الوليد قائداً وحده فانتصر عليهم نصراً مؤزراً، وظفر بهم ظفراً مشى حديثه في فارس فبخعها، وفي الروم فأرعبها؟ بلى! فماذا إذاً؟ أفتقف الفتوح الإسلامية أمام تكاثف جيوش الروم وفي المسلمين سيف الله؟ لا، لن يقف، بل خالد لها، إذا كان للشيطان نفخة غرور في أنوف الروم خدعتهم عن جند الله، وأبطال الإسلام، فلينسينهم خليفة رسول الله ﷺ وساوس الشيطان بسيف الله خالد بن الوليد.

كتاب أبي بكر إلى خالد بالإمارة

كتب أبو بكر إلى خالد مرجعه من حجته التي غامر فيها تلك المغامرة الخطيرة يعاتبه ويهنئه، ويذكره ويعظه ثم يستفزه إلى غوث إخوته أمراء الشام ليتم نعمة الله عليه بفتح الشام كما فتح العراق ويكسر شوكة الروم كما كسر قناة الفرس، فقال له: «أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع بعون الله أحد من الناس شجيك، ولم ينزع الشجي أحد من الناس نزعك، فليهنك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتنسخر وتذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء» ثم قال له: «دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه، ثم امض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك ورحمة الله».

بين خالد والمثنى

وفي رواية أن أبا بكر أمر خالد بالخروج في شطر الناس وأن يخلف على الشطر الثاني المثنى بن حارثة، وقال أبو بكر لخالد: لا تأخذ مجداً إلا خلفت لهم مجداً، فإذا فتح الله عليك فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك، وأحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ فاستأثر بهم على المثنى، وترك للمثنى أعدادهم من أهل الغناء، ممن لم يكن له صحبة، ثم نظر فيمن بقي، فاختلج من كان قدم على النبي ﷺ، وافدا أو غير وافد، وترك للمثنى

أعدادهم من أهل الغناء، ثم قسم الجند نصفين فقال المثنى: والله لاأقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة وإبقاء النصف أو بعض النصف، فوالله ما أرجو النصر إلا بهم فأنى تعريني منهم.

وإذا كان المثنى قد تشدد في التمسك بأصحاب رسول الله ﷺ لأنه يرجو النصر بهم، فخالد أحق بالتشدد في التمسك بهم أن يكونوا معه فيما ندب إليه من غوث المسلمين بالشام وقد كلب عليهم الروم وجمعوا لهم؛ لأن خالداً أعرف بالصحابة وصبرهم في الحرب وحبهم للموت في سبيل الله، وقد صحبوه في حروب الردة فقمعها بهم، وكانوا معه في حرب الفرس بالعراق ففتح بهم البلاد ودوخ فارس وطامن من غرورها على العرب فأنى له أن يترك واحداً منهم يستطيع أن يجعله من بين أبطاله وشجعان جيشه؟ لذلك حاول إرضاء المثنى باعاضته منهم كل فارس من أبناء البيوتات ورجالات القبائل حتى رضي المثنى وأخذ حاجته من الرجال، وشيع خالداً وودعه ودعا له ولأصحابه.

والتأمل في كتاب أبي بكر إلى خالد يقرأ في أثناء سطوره وحنايا عباراته أصدق آيات تقدير العبقرية الخالدية، ويرى المكان الذي تبوأه خالد بن الوليد في الخلافة الصديقية، وقد حقق الله للصديق جميع ما أمله في «سيف الله» خالد بن الوليد.

* * *

مغامرة جريئة

قرأ خالد رضي الله عنه كتاب الخليفة بالمسير إلى الشام، فعز عليه ترك العراق إلى الشام، ولكنه وهو الرجل العسكري لا يعرف لغير الطاعة في نفسه سبيلاً، فنهض للسمع والطاعة، وخلف على العراق بأمر الخليفة المثنى ابن حارثة الشيباني، وفصل بمن معه من أبطال الإسلام وجنده من الحيرة إلى دومة، ثم طعن في البرية، وطلب حذاق الأدلاء وقال لهم: «كيف لي بطريق أخرج فيه عن وراء جموع الروم؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين» فكلهم قالوا: لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش، يأخذه الفذ الراكب، فإياك أن تغرر بالمسلمين، فأبى خالد إلا أن ينفذ رأيه؛ وطلب الخريت، فدل على رافع بن عمير الطائي، فقال له: في ذلك، فقال رافع

إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال؛ والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه، وما يسلكها إلا مغرور، إنها لخمس ليال جياد، لا يُصاب فيها ماء مع مضلتها، فقال له خالد: ويحك! إنه والله لا بد لي من ذلك، إنه قد أتتني عزمة فمر بأمرك.

ثم قام خالد في الناس ليشحذ عزائمهم، ويقوي إيمانهم، فقال «لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله».

هذا مظهر من مظاهر الخلائق الإيمانية التي عرضنا لها في حديثنا عن شخصية خالد رضي الله عنه، ورأينا أنها عنصر من عناصر عبقريته. وهل ثمة إيمان أقوى وأعظم من هذا الإيمان الذي يرى أنه لا ينبغي للمسلم أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله؟

وقد أحدثت هذه الكلمات في نفوس المسلمين ما قصد إليه خالد منها فقالوا له: أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك ، والتفت خالد إلى رافع ابن عمير يستنطقه، فقال رافع: استكثروا من الماء من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل، فإنها المهالك إلا ما دفع الله، ثم قال لخالد: أبغني عشرين جزوراً عظاماً سماناً مسان، فأتاه بهن، فعمد إليهن فظمأهن، حتى إذا أجهدهن العطش أوردهن فشربن حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشافرهن، ثم كعمهن لئلا يجتررن، ثم قال لخالد سر، فسار خالد معه مغذاً بالخيول والأثقال، فكلما نزل منزلاً، اقتط أربعاً من تلك الشرف، فأخذ ما في أكراشها فمزجه بما كان من اللبان فسقاه الخيل، ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء، فلما كان آخر يوم من المفازة خشي خالد على أصحابه أن يفضحهم حر الشمس فأراد أن يطمئنهم فقال لرافع: ويحك يا رافع ما عندك؟ قال خير؛ أدركت الري إن شاء الله، وشجعهم وهو متحير أرمد، فلما دنا من مكان يعرفه قال للناس انظروا هل ترون شجرة من عوسج كقعدة الرجل؟ قالوا ما نراها: قال رافع: إنا لله وإنا إليه راجعون!! هلكتم والله إذاً وهلكت ـ لا أبالكم ـ انظروا. فطلبوها فوجدوها قد قطعت وبقيت

منها بقية، فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع، ثم قال: احفروا في أصلها فحفروا فنبع الماء. وشربوا حتى روى الناس واتصلت بعد ذلك المنازل.

وهذه المفازة التي غامر خالد بنفسه وجيوشه في قطعها من العراق إلى الشام ليخرج على الروم فلا يحبسه دونهم شيء هي المعروفة الآن ببادية الشام، وهي اليوم طريق السيارات بين دمشق وبغداد.

قال المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عزام في بحث له بعنوان «مهد العرب»: وفي هذا الجانب طريق السيارات بين دمشق وبغداد اليوم وهو زهاء ثمانمائة وستين ميلاً تقطعها السيارات في عشرين ساعة مع الاستراحة، وهي البادية التي اخترقها سيدنا خالد بن الوليد بجيشه في السنة الثانية عشرة من الهجرة: إذ سار من العراق مدداً لجيوش العرب في الشام فرمى بنفسه وجيشه في بادية لا ماء فيها، وأتى الروم من مأمنهم، وفجأهم بما لم يحتسبوا، وقد قطعها في خمسة أيام.

* * *

نظرة وعبرة

العبقريات لا تعرف الحدود. ولا تعترف بقيمة الحواجز المادية التي تصادفها في طريقها إلى غاياتها النبيلة. فصارمات العزائم عند العباقرة أمضى من صوارم المرهفات. وبطل الإسلام خالد بن الوليد واحد من أفذاذ العباقرة الذين استنارت صفحات التاريخ بأسمائهم؛ وقد كانت مواقفه في حياته كلها ولا سيما المرحلة الإسلامية منها شواهد على ما تستطيع أن تصنعه العبقرية مما يراه سواد الناس أدخل في مراتب المستحيل، وموقف خالد رضي الله عنه في سفره من العراق إلى الشام بجحافله وأثقالها بعد تلك المغامرة الجريئة التي خرج فيها إلى الحج ثم عاد إلى الحيرة فدخلها مع ساقة الجيش، من أعجب ما رواه التاريخ من مغامرات القواد والأبطال.

جاء كتاب أبي بكر إلى خالد، يعاتبه على ما كان منه من مخاطرة قاسية، ثم هنأه على ما أصاب من توفيق الله، وانتهز الصديق هذه الفرصة المواتية، ورمى الروم بسيف الله لينسهم وساوس الشيطان؛ وهذا لون من الأدب الرفيع أخذ به الصديق قائده البطل بعد أن سجل له جلائل أعماله ومظاهر عبقريته بقوله: «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك. فإنهم قد

شجوا وأشجوا، وإيـاك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك، فلتهنئك أبا سليمان النية والحظوة» وهذه سياسة في الحزم والحكمة معروفة عن أبي بكر الصديق في خلافته وما جرى فيها من الأحداث العظام، وكان بهذه السياسة أعرف رجل بالرجال وأخبر إمام بأمة أعطته مقادها، وأيمن خليفة في عزمة وسلطان مبسوط بالعدل القاهر والرحمة الحانية.

صدع القائد البطل بأمر الخليفة الراشد، بيد أنه خشي إن هو أخذ إلى وجهه سمت الناس أن يلقي العدو مواجهة فيحبسه من غياث المسلمين؛ فماذا إذن؟!

فكر القائد البطل، ورأى أنه لا بد له من أن يأتي الشام من طريق لا يحول بينه وبين المسلمين في أثنائه شيء. ولو كان في ذلك أعظم المخاطر وأشد العقبات، فليلق أمره إلى حذاق الأدلاء، ومهرة الخريتين، ولكنهم جميعاً حذروه وخوفوه على نفسه وعلى جيشه لأنهم لا يعرفون طريقاً يدفع به إلى وجهه من وراء عدوه إلا طريقاً واحداً، الراكب الفذ لو سلكه لكان مغرراً بنفسه، فكيف بهذه الجحافل وأثقالها؟!

ومتى خضع خالد بن الوليد للعقبات والمصاعب تحول بينه وبين أهدافه ومقاصده؟! إن العبقرية لا تعرف المحال، فليكن ما تريد، ثم ليكن ما شاء الله؛ «ويحك يا رافع بن عمير؟ إنه والله لا بد لي من ذلك» وليس العجيب أن يعزم خالد على تخطي الصعاب فيصدق في عزمه، ولكن العجيب حقاً أن تسري روحه الجياشة بغوارب القوى القاهرة إلى جيشه فيستجيب له في ثقة لا تعرف التردد، وإيمان بيمن نقيبته ورعاية الله تعالى له، فهو إذ يقول لجنده مشجعاً: «إن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له» يجيبونه بقلوب مخلصة وألسنة صادقة: «أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك».

بين خالد
وأبي عبيدة

نشط خالد وازداد يقينه قوة إيمـان بما رأى من ارتفـاع روح جيشه الباسل، واستجاب إلى الخريت رافـع بن عمير الـطائي. وصدق الله في عزمته، ثم فكر في شأن المسلمين بالشام وقد ضايقهم الروم بكثافة عددهم

وكثرة عتادهم، وفكر في أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح وهو يقود جنود الإسلام، فرأى أن تكون بشراهم بإمداد، وغياثه لهم رسـول السكينة إلى قلوبهم، ورأى إذ ولاه الخليفة الأعظم القيادة العامة ووجهه أميراً على الأمراء بالشام أن يشعر الأمين أبا عبيدة أنه أعرف بمكانه وقدره بين المسلمين، وأن رأيه إلى رأيه ينتهي، فبعث بكتابين أحدهما إلى عامة المسلمين بالشام يقول لهم فيه: «أما بعد فإن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني بالمسير إليكم، وقد شمرت وانكمشت[1]، وكأن قد أظلت عليكم خيلي ورجلي، فابشروا بإنجاز موعود الله وحسن ثواب الله، عصمنا الله وإياكم باليقـين، وأثابنا أحسن ثـواب المجاهدين».

وأرسل ثانيهما إلى عبيدة خاصة. وفيه يقول: «أما بعد فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالقيام على جندها والتولي لأمرها، والله ما طلبت ذلك قط، ولا أردته إذ وليته، فأنت على حالك التي كنت عليها، لا نعصيك ولا نخالفك، ولا نقطع أمراً دونك، فأنت سيد المسلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك، تمم الله ما بنـا وبك من إحسان، ورحمنا وإياك من صلي النار، والسلام عليك ورحمة الله».

ولما قرأ أبو عبيدة .كتاب خالد قال: «بارك الله لخليفة رسول الله فيما رأى وحيّا الله خالداً».

أدب رفيع

ولا بد لنا من الالتفات قليلاً إلى هذه الآداب الرفيعـة في حديث القائدين العظيمين، فخالد بن الوليد رأى أنه ولي القيادة العامة، وأصبح أمير أمراء الشام، وفيهم أبو عبيدة، وهو من سادة السابقين الأولين، وله بين الناس مقام ملحوظ فلا يسوغ في شرعة المكارم وأدب البطولة الإسلامية أن يغافصه[2] خالد بالأمر، فليكتب إليه يطلعه على الحقيقة ويعرفه أنه لا يزال

(١) الانكماش: الجد في الأمر والسرعة في طلبه.

(٢) المغافصة: المفاجأة.

في مكانه من التبجيل والاحترام، وأنه سيد المسلمين في هذا الوجه، وأنه لا يقطع أمرا دونه.

وهذا الأدب الرفيع هو الذي عامل به أبو عبيدة خالداً حينما أتم الفلك دورته الخالدية، وعاد القائد البطل جندياً يعمل في ظل إمارة أبي عبيدة بأمر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في مطلع خلافته؛ فقد روى ابن كثير في تاريخه أن خالداً قال لأبي عبيدة حين أبلغه أمر عمر بعزله، وكان أبو عبيدة قد أخر إخبار خالد بأمر عزله حتى يفرغ خالد من الاشتباك في إحدى المواقع؛ ولم يخبره به فور مجيئه. «يرحمك الله! ما منعك أن تعلمني حين جاءك؟!» فأجابه الأمين أبو عبيدة: «إني كرهت أن أكسر عليك حربك؛ وما سلطان الدنيا أريد، ولا للدنيا أعمل؛ وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع؛ وإنما نحن أخوان، وما يضير الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه».

وكان أبو بكر رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة يعلمه بتولية خالد الإمارة العامة لظنه أنه أفطن في الحرب، ولم يكن ذلك ليقلل من مكانة أبي عبيدة عند خليفة رسول الله ﷺ؛ فقال له في كتابه «أما بعد: فإني وليت خالداً قتال العدو بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع أمره، فإني لم أبعثه عليك أن لا تكون عندي خيراً منه، ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك؛ أراد الله بنا وبك خيراً».

وكان هذا اللون من الأخلاق الكريمة والأدب الرحيم الذي صورت في إطاره أعمال رجالات الإسلام الأولين من أقوى دعائم نهضة المسلمين ورفعة شأنهم يوم أن كانوا حرصاء على التسامي عن المنافسة في سلطان الدنيا.

جولات في الطريق

لم يكن خالد رضي الله عنه وهو في طريقه إلى ما ندب إليه يكتفي بأنه يعتسف المهالك اعتسافاً، ويطوي المضلات للوصول إلى هدفه طياً، بل كان لا يمر على بلد من بلدان الشرك إلا وقف عنده وقفة لا يطيلها، ولكنها وقفة كانت تنتهي دائماً بغنم في صلح أو نصر في جولة، فقد روي أنه مر في طريقه على «تدمر» فتحصن منه أهلها فأحاط بهم وحاصرهم من كل جانب فلم يقدر عليهم، وخشي أن يطول مقامه عليهم فيشغله عن مقصده الأعظم، فترحل عنهم، وقال لهم: «والله لو كنتم في السحاب لأنزلناكم وظهرنا

عليكم، ما جئناكم إلا ونحن نعلم أنكم ستفتحـون علينا، وإن أنتم لم تصالحوا هذه المرة لأرجعن إليكم لو قد انصرفت من وجهي هذا، ثم لا أرحل عنكم حتى أقتل مقـاتلكم وأسبي ذراريكم» فلما فصل عنهم قـال عقلاؤهم: إنا لا نرى هؤلاء القوم إلا الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا فافتحوا لهم، فبعثوا إلى خالد فصالحوه.

وعن سراقة بن عبد الأعلى أن خالداً في طريقه ذلك مر على «حوران» فهابوه فتحرز أكثرهم منه فأغار عليهم واستاق الأموال وقتل الرجال، وأقام عليهم أياماً فبعثوا إلى من حولهم ليمدوهم من مكانين: من بعلبك ـ وهي أرض دمشق ـ ومن بصرى وهي مدينة «حوران»، فلما رأى خالد المددين قد أقبلا خـرج وصف بالمسلمين، ثم تجرد في مائتي فارس فحمل على مدد بعلبك، وهم أكثر من ألفين، فما وقفوا له حتى انهزموا ودخلوا المدينة، ثم انصرف يوجف في أصحابه وجيفاً حتى إذا كان بحذاء مدد بصرى، إنهم لأكثر من ألفين، حمل عليهم فما ثبتوا له فواقاً حتى هزمهم فدخلوا المدينة، وخرج أهل المدينة فرموا المسلمين بالنشاب فانصرف عنهم خالد وأصحابه حتى إذا كان الغد خرجوا إليه ليقاتلوه فعجزوا وأظهره الله عليهم فصالحوه.

وكان في أهل «حوران» علج يتشجع، وكان فيمن شهد هذه الموقعة مشركاً فحدث بحديثها عمرو بن محصن قال: والله لخرجنا إليهم بعدما جاءنا مدد أهل بعلبك وأهل بصرى بيوم، وإنا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم، فما هو إلا أن دنونا منهم فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد، فانهزمنا أقبح الهزيمة وقتلونا شر مقتلة، فما عدنا نخرج إليه حتى صالحناهم، ولقد رأيت رجلاً منا كنا نعده بألف رجل قال: لئن رأيت أميرهم لأقتلنه، فلما رأى خالداً قيل له: هذا خالد أمير القوم فحمل عليه، وإنا لنرجو لبأسه أن يقتله، فما هو إلا أن دنا منه فضرب خالد فرسه فأقدمه عليه ثم استعرض وجهه بالسيف فأطار قحف رأسه ودخلنا مدينتنا، فما كان لنا هم إلا الصلح حتى صالحناهم.

سياسة حكيمة

قدم خالد اليرموكَ في عشرة آلاف ـ كما تقول بعض الروايات ـ فتم بهم عدد المسلمين أربعين ألفاً، وكان المسلمون قبـل قدوم خـالد عليهم يقاتلون أعداءهم متساندين، كل أمير منهم يقصد إلى ناحية ليغزوها، ويبث

غاراته فيها، وكانوا إذا اجتمع لهم العدو اجتمعوا له وصلى كل أمير بأصحابه وجنده، وإذا احتاج أحد الأمراء إلى معاضدة من أحد إخوانه سارع إلى إنجاده، ولكن خالداً رضي الله عنه لما وصل إليهم بجيوش العراق، ورأى كثرة الروم، واجتماعهم وخروجهم على تعبية لم ير الناس مثلها، لم يشأ أن يفتح على الأمراء باباً ربما لم يقع من أنفسهم - بادىء الرأي - موقع الرضا والتسليم، ذلك أن يفرض عليهم إمارته العامة التي ولاه الخليفة إياها، واكتفى بإعلام أبي عبيدة لأنه بمنزلة أمير الأمراء قبل ورود خالد عليهم، فقد قال لهم أبو بكر عند بعثهم: «فإذا قدمتم البلد، ولقيتم العدو فاجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح» بل لجأ خالد إلى أسلوب يمكنه من الإشراف التام على إدارة الحرب، ويرضى عنه أصحابه فيمضون معه قدماً في عزائم صارمة، فقال لهم: «هل لكم يا معشر الرؤساء في أمر يعز الله به الدين، ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه»؟ قالوا: نعم، فخطب الناس بعد أن استأنس من رضاء الأمراء بصفة عامة فقال: «إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية[1] على تساند[2] وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعلموا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته».

قال الأمراء: فهات؛ فما الرأي؟! قال خالد: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله، الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه إن دانوا له، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله، ولا عند خليفة رسول الله ﷺ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاور الإمارة،

---

(١) تعبئة الجيش: تجهيزه وتهيئته للقتال.

(٢) التساند: أن يعمل الجيش تحت رايات شتى لا تجمعهم راية أمير واحد.

فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً، والآخر بعد، حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم».

رضي الأمراء هذا الرأي فأمروا خالداً عليهم، وهم يرون أنها كخرجاتهم إذ كانوا على تساندهم، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه، وأن من لم يكن منهم أميراً اليوم فسيكون أميراً غداً.

زمام الإمارة في يد خالد

تسلم خالد بن الوليد زمام القيادة ورأى الروم قد خرجت على تعبية لم ير الراءون مثلها قط، فخرج لهم في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك، فجعل كراديس[1]، وقال لجنوده: إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس، فجعل القلب كراديس، وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح، وجعل الميمنة كراديس، وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل، وجعل الميسرة كراديس، وعليها يزيد بن أبي سفيان، وأقام على كل كردوس بطلاً من شجعان المسلمين وفرسانهم من أضراب القعقاع، وعكرمة، وعياض بن غنم، وعبدالرحمن بن خالد، وكان عبدالرحمن يومئذ ابن ثماني عشرة سنة، وأقام على القضاء أبا الدرداء، وعلى القصص[2] أبا سفيان بن حرب، وأمر المقداد بقراءة سورة الجهاد، وهي الأنفال، وكان في هذا الجيش نحو ألف رجل من أصحاب النبي ﷺ، فيهم زهاء مائة من أهل بدر، وكان أبو سفيان يسير في الكراديس ويقف عليها وهو يقول: الله، الله، إنكم قادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

وهكذا أعد البطل خالد جيشه لمواقفة حشود الروم إعداداً روحياً ونظامياً لم يسبق للمسلمين أن خرجوا في مثله، وكان عدوهم في كثرة تزيد على خمسة أضعافهم في أقل تقدير المقدرين، وسمع سيف الله خالد رجلاً من صفوف الناس يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين فزجره خالد ورد عليه رداً يجعل من كل جندي من جنود الإسلام جيشاً في إهاب رجل فقال: بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان، لا بعدد

---

(١) الكراديس: الكتائب، قال في القاموس: وكردس الخيل: جعلها كتيبة.
(٢) القصص هنا لون من الوعظ التاريخي يقصد إلى تحميس الجند وبث الحمية في قلوبهم.

الرجال، والله لوددت أن الأشقر - يعني فرسه - وكان قد حفي في قدمته من العراق - براء من توجيه[1]، وأنهم أضعفوا في العدد!! قال قيس بن حازم - وكان مع خالد في جيشه -: كنا نظن أن الكثير من المشركين والقليل عند خالد سواء، لأنه كان لا يملأ صدره منهم شيء، ولا يبالي بمن لقي منهم لجرأته عليهم.

أمر خالد القعقاع بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وكانا على مجنبتي القلب فأنشبا القتال، فبرز القعقاع وهو يرتجز.

يا ليتني ألقاك في الطراد قبل اعترام الجحفل الوراد
وأنت في حلبتك الوراد

وخرج عكرمة وهو يقول:

قد علمت الجواري أني على مكرمة أحامي

إيمان

والتحم الناس وتطارد الفرسان واقتتلوا قتالاً مريراً لم ير الناس مثله، قال الطبري وتابعه ابن الأثير: فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول، وسألوه الخبر فلم يخبرهم إلا بسلامة، وأخبرهم عن أمداد، وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله وتأمير أبي عبيدة، فأبلغوه خالداً فأخبره خبر أبي بكر سره إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند، فقال له خالد: أحسنت فقف، وأخذ الكتاب وجعله في كنانته وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند، فوقف محمية بن زنيم - وكان هو الرسول - مع خالد.

قصة جرجة

وخرج جرجة وهو قائد رومي - حتى كان بين الصفين، ونادى: ليخرج إليّ خالد فخرج إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه، فوقف القائد الرومي بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما، وقد آمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة: يا خالد: أصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ قال: لا، قال: فيم سميت سيف الله؟ قال: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعاً، ثم إن

(١) توجيه: حفاؤه من شدة المشي ووعورة الطريق.

بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه فقال: «أنت سيف من سيوف الله، سله الله على المشركين» قال جرجة: صدقتني، ثم قال له: يا خالد، أخبرني إلام تدعوني؟ قال: إلى شهادة: أن لا إله إلا الله. وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله؛ قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم، قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بحرب، ثم نقاتله، قال: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا؛ قال: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم، وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ قال: إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا ﷺ، وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا.

قال القائد الرومي: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني، ولم تألفني؟ قال خالد: بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة، وإن الله لولي ما سألت عنه فقال: صدقتني، وقلب الترس ومال مع خالد، وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء، ثم صلى ركعتين، وحملت الروم مع انقلاب جرجة إلى خالد، وهم يرون أنها حملة من قائدهم. فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية، وكان عليهم عكرمة والحارث بن هشام، وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين، فتنادى الناس وثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم، فزحف خالد بالمسلمين على الروم حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ثم أصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما وصلى الناس الأولى والعصر إيماء، وتضعضع الروم.

هزيمة الروم

ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم، وكان مقاتلهم واسع المطرد، ضيق الهرب فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت وتركوا رجلهم في

مصافهم، وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء، وأخر الناس الصلاة حتى صلوا بعد الفتح.

ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ولم يحرجوها، فذهبت فتفرقت في البلاد، وأقبل خالد والمسلمون على الرجل ففضوهم، فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة[1] حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من جشعت نفسه فيهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف، فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة ألف، ثمانون ألف مقترن، وأربعون ألف مطلق، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل، فكان سهم الفارس يومئذ ألف وخمسمائة، وتجلل قائد الروم «الفيقار» وتجلل معه أشراف الروم برانسهم ثم جلسوا وقالوا: لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور، وإذا لم نستطع أن نمنع النصرانية، فأصيبوا في تزملهم.

نبل عبقري

والذي نلاحظه على هذا الحديث كما ساقه أبو جعفر الطبري من طريق سيف وتابعه عليه ابن الأثير أن الخبر بموت أبي بكر الصديق، واستخلاف عمر بن الخطاب، وعزل خالد بن الوليد عن الإمارة العامة على جند الشام، وتولية عمله وإمارته أبا عبيدة بن الجراح؟ وصل إلى علم خالد أول الناس، والقتال بين المسلمين والروم على أشد ما يكون قتال بين جيشين أجمع كل جيش منهما على إفناء عدوه. فما الذي كان من خالد وهو القائد المعزول؛ وفي يده زمام المعركة؟ لقد تصرف خالد أحكم وأحسن تصرف، فقد استحسن عمل الرسول الذي حمل إليه كتاب عزله في كتمانه هذه الأنباء عن خاصة الناس وعامتهم، حتى أبلغ الكتاب إليه، فجعله خالد في كنانته؟ وخشي إن هو أظهر ما اشتمل عليه أن ينتشر له أمر الجند، وينتقض نظامهم، وتشيع فيهم الفوضى، وهذا أمر معروف النتائج.

وسواء أكان الكتاب الذي ورد به هذا البريد باسم القائد الجديد أبي

(١) الواقوصة: مكان عرف باسم عين فيه، وذكره البلاذري بالياء فقال: الياقوصة: واد فمه الغوارة.

عبيدة بن الجراح وهو ما نرجحه، ونتأول تسليمه لخالد نزولاً على حكم الموقف، لأنه الأمير في نظر الذين أخذوا البريد، فكان طبيعياً أن يدفعوه إليه، أم كان باسم القائد المعزول خالد بن الوليد، فإن تصرف خالد ذلك التصرف الذي انتهى بالمعركة إلى نصر المسلمين نصراً مؤزراً يدل على أن هذا القائد البطل قد منح من الخصائص النفسية والقوى المعنوية قدراً لا يقدر في الحياة إلا لأفذاذ العباقرة الموهوبين، فأي قوة نفسية هذه التي مكنت خالداً من ضبط أعصابه بعد إذ عرف أنه معزول عن الإمارة ومؤمر عليه بعد أن كان أميراً ليس فوقه أمير، والنصر بين يديه لو شاء لأدار به وجه التاريخ؟! إنها قوة الإيمان وقوة العقيدة المسلمة التي لا تدع في قلب صاحبها حظاً لغير الإخلاص.

يجب لكي نقدر هذا الموقف قدره الحق أن نكون واقعيين، ويجب أن ننظر إلى خالد على أنه رجل له طبيعة البشر، فإذا استطاع أن يرتفع بنفسه عن مقتضيات البشرية وقد توافرت عنده أعظم دوافعها، كان ذلك ضرباً من العبقرية المتسامية بخصائصها عن مزالق التنافس البشري الرخيص.

نظرة عابرة في قصة جرجة

أما حديث «جرجة» القائد الرومي على سياقته بتفاصيله في الرواية، فقد يكون في هذه التفاصيل شيء من الصنعة والإضافات التي لا تذهب بالقصة كلها، بل لعله يبقى منها القدر الذي يدل على سريان الإيمان إلى القلوب في لحظات استنارتها بنور الهداية ومسها بنفحة من نفحات الرحمة الإلهية، ويدل على فهم القائد العبقري خالد بن الوليد لنوازع النفوس التي يقف بها الشك لحظات بين الجحود والإيمان مذهولة مأخوذة تنتظر يداً رحيمة تدفعها إلى منهل اليقين.

* * *

ترتيب الوقائع الشامية

تختلف الروايات اختلافاً واسع المدى في ترتيب وقائع الفتح الشامي، وهي تبعاً لذلك تختلف في تعيين الوقائع التي أدارها خالد بن الوليد، وهو أمير الأمراء، وفي تعيين وقت عزله عن الإمارة العامة وعمله جندياً في الجيش بعد ذلك.

وسياقنا لواقعة اليرموك بالصورة التي أثبتناها طريقة فريق من المؤرخين

في طليعتهم أبو جعفر الطبري من رواية سيف وتابعه ابن الأثير، وهي طريقة واضحة في أن خالد بن الوليد لم يشهد من الوقائع العظيمة في الشام وهو أمير الأمراء سوى هذه الواقعة، وأن الخبر بعزله ووفاة أبي بكر واستخلاف عمر ابن الخطاب، وتولية أبي عبيدة بن الجراح الإمارة العامة، كل ذلك جاء به البريد ومعركة اليرموك على أشدها، وانتهت هذه الأنباء إلى خالد فكتمها حرصاً على سلامة نظام الجيش وقوته حتى انتهى بالمعركة إلى نهايتها العظيمة، فأسلم زمام القيادة العامة إلى القائد الجديد أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح وعاد خالد يعمل تحت لوائه قائد فرقة في الموضع الذي كان عليه أبو عبيدة ـ كما تقول بعض الروايات ـ وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بقدر خالد وبصره بالحرب ويمن نقيبته وتجربته، فلم ينزل به عن مكانه من الرأي وتقديمه لتفريج المضايق عن المسلمين، وبقي خالد جندياً عبقري البطولة علوي الإخلاص كما كان عبقري القيادة سامي الإمارة، لم تفتر له عزيمة، ولم يخب له رأي، فكان في حاليه خالد بن الوليد سيف الله وبطل الإسلام.

طريقة أخرى في ترتيب الوقائع

وهناك طريقة أخرى في سياقة الوقائع لفريق آخر من المؤرخين تقدم وقعة «أجنادين» و«مرج الصفر» وحصار دمشق على اليرموك وتجعل خالداً في جميع هذه الوقائع أمير الأمراء، وترى أن البريد بموت أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد وتولية أبي عبيدة إنما جاء والمسلمون على حصار دمشق؛ وهذه الطريقة اختارها الديار بكري في «تاريخ الخميس».

وتلخيص ما ذكره أن خالد بن الوليد وأبا عبيدة بن الجراح التقيا في «الغوطة» فأتاهما الخبر أن «وردان» صاحب حمص قد جمع الجموع يريد أن يقتطع شرحبيل بن حسنة، وهو ببصرى، وأن جموعاً من الروم قد نزلت «أجنادين» فأفظعهما ذلك فتشاوروا في الأمر؛ فقال أبو عبيدة: «أرى أن نسير حتى نقدم على شرحبيل قبل أن ينتهي إلى العدو الذي صمد صمده، فإذا اجتمعنا سرنا إليه حتى نلقاه».

فقال له خالد: «إن جمع الروم هذا «بأجنادين»، وإن نحن سرنا إلى شرحبيل تبعنا هؤلاء من قريب، ولكن أرى أن صمد[1] صمد عظيمهم وأن

---

(١) الصمد: القصد.

نبعث إلى شرحبيل فتحذره مسير العدو إليه ونأمره فيوافينا بأجنادين، ونبعث إلى يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص فيوافيانا بأجنادين ثم نناهض عدونا» فقال له أبو عبيدة: «هذا رأي حسن فامضه على بركة الله» وكان خالد مبارك الولاية ميمون النقيبة مجرباً بصيراً بالحروب مظفراً.

فلما أراد الشخوص من أرض دمشق إلى الروم الذين اجتمعوا بأجنادين، كتب نسخة واحدة إلى الأمراء قال فيها: «أما بعد فإنه قد نزل بأجنادين جمع من جموع الروم غير ذي قوة ولا عدة والله قاصمهم، وقاطع دابرهم وجاعل دائرة السوء عليهم، وشخصت إليكم يوم سرحت رسولي إليكم فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوكم بأحسن عدتكم وأصح نيتكم ـ ضاعف الله لكم أجوركم وحط أوزاركم والسلام» ثم أرسل الكتب إلى الأمراء الثلاثة مع نفر من النبط كانوا عيوناً للمسلمين، وكان المسلمون يرضخون لهم، ودعا خالد رسوله إلى شرحبيل فقال له: كيف علمك بالطرق؟ قال: كما تريد، قال: فادفع إليه هذا الكتاب وحذره الجيش الذي ذكر لنا أنه يريده، وخذ به وبأصحابه طريقاً تعدل به عن طريق العدو الذي شخص إليه، وتأتي به حتى تقدمه علينا بأجنادين. قال: نعم، فخرج الرسول إلى الأمراء، وخرج خالد وأبو عبيدة بالناس إلى أهل أجنادين. فلم يرعهم إلا أهل دمشق في آثارهم، وألحقوا أبا عبيدة وهو في أخريات الناس فنزل إليهم في مائتي فارس من أصحابه فقاتلهم قتالاً شديداً؛ وأتى الخبر خالداً وهو في مقدمة الناس في الفرسان والخيل، فعطف بهم راجعاً وعجل بالخيل حتى انتهى إلى أبي عبيدة وأصحابه فحمل بالخيل على الروم فانهزموا أمامه، وتعقبهم ثلاثة أميال حتى دخلوا دمشق فانصرف عنهم، ومضى بالناس نحو الجابية.

وكان رسول خالد إلى شرحبيل قد أدركه وليس بينه وبين الجيش الذي سار إليه من حمص إلا مسيرة يوم وشرحبيل لا يشعر به فدفع إليه الكتاب فقام شرحبيل في الناس فقال لهم: «أيها الناس اشخصوا إلى أميركم فإنه قد توجه إلى عدو المسلمين بأجنادين وقد كتب إلي يأمرني بموافاته هناك» ثم خرج بالناس حتى وافى المسلمين بأجنادين مع يزيد بن أبي سفيان وعمرو ابن العاص في جندهما، وعاد جيش وردان الرومي بعد فشله في اللحاق بشرحبيل

والتقى المسلمون بالروم بأجنادين وتزاحف الجمعان وأقبل خالد بن الوليد يسير في الناس لا يقر في مكان واحد وهو يقول: اتقوا الله عباد الله، وقاتلوا في الله من كفر بالله ولا تنكصوا على أعقابكم ولا تهابوا عدوكم ولكن أقدموا كإقدام الأسد، وينجلي الرعب وأنتم أحرار كرام قد أوتيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة؟ ولا يهولنكم ما ترون من كثرتهم فإن الله منزل رجزه وعقابه بهم».

وكان خالد رضي الله عنه قد أمر نساء المسلمين أن يكن من وراء الناس يحرضن الرجال على القتال، وكان من رأيه مدافعة العدو وأن يؤخر القتال إلى صلاة الظهر عند مهب الأرياح، وتلك الساعة هي التي كان رسول الله ﷺ يستحب القتال فيها فأعجله الأرباح الروم فحملوا على المسلمين ورموهم بالنشاب فنادى سعيد بن زيد وكان على الخيل: يا خالد علام نستهدف لهؤلاء الأعلاج وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست الخيل؟ فقال خالد للمسلمين: احملوا رحمكم الله على اسم الله فحمل وحمل معه الناس على عدوهم فما واقفوهم فواقاً فهزمه الله وأباح أكتافهم للمسلمين يقتلونهم كيف شاؤوا، واستشهد من المسلمين نفر من ذوي النجدة والبأس، وكتب خالد إلى أبي بكر بالفتح فقال: «لعبدالله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد سيف الله الصبوب على المشركين، سلام عليك فإني أخبرك أيها الصديق: أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعاً جمة بأجنادين وقد رفعوا صليبهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرون حتى يفنونا أو يخرجونا من بلادهم فخرجنا واثقين بالله متوكلين على الله فطاعناهم بالرماح شيئاً ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها مقدار نحر جزور، ثم إن الله أنزل نصره وأنجز وعده، وهزم الكافرين فقتلناهم في كل فجر وشعب وغائط فالحمد لله على إعزاز دينه وإذلال عدوه، وحسن الصنيع لأوليائه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

وفدوا في هذا الكتاب أبا بكر في مرضه الذي توفي فيه، فلما قرأه أعجبه ذلك وقال «الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقر عيني بذلك».

قال سهل بن سعد: وكانت وقعة أجنادين هذه أول وقعة عظيمة كانت

بالشام، وكانت سنة ثلاث عشرة في جمادي الأولى لليلتين بقيتا منه يـوم السبت نصف النهار قبل وفاة أبي بكر رضي الله عنه بأربع وعشرين ليلة.

وعن ابن اسحاق قائد الروم المسمى «القلنقار» أو كما في ابن الأثير تبعاً للطبري «القبقلار» بعث رجلاً من عرب الروم وقال له: ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم، فدخل في الناس رجل عربي لا ينكى عليه، فأقام فيهم يوماً وليلة ثم أتاه، فقال له: ما وراءك؟ فقال له: بالليل رهبان وبالنهار فرسان ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده ولو زنى لرجم لإقامة الحق فيهم. فقال له القائد الرومي: لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن الله يخلي بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي. ثم تزاحف الناس فاقتتلوا قتالاً شديداً فاستبسل فيه المسلمون فلما رأى «القلنقار» ذلك قال لقومه: لفوا رأسي بثوب. فقالوا له: لم؟ قال: هذا يوم بئيس ما أحب أن أراه. ما رأيت لي من الدنيا يوماً أشد من هذا، فقتل وهو متلفف.

وقد ذكرنا نحو هذا في وقعة اليرموك برواية الطبري. فهل اشتبه الأمر على الرواة أو تعدد الحادث؟ قد يساعد اختلاف الأسماء هنا وهناك على ترجح تعدد الحادث؛ ولسنا على شيء من اليقين في هذا.

ثم إن خالداً أمر الناس أن يسيروا إلى دمشق فنزلها مما يلي الباب الشرقي في دير هناك على نحو ميل منها يعرف بدير خالد لنزوله به. ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب آخر فأحاطوا بها وحاصروها حصاراً شديداً حتى رماهم أهلها بالنشاب. ورشقوهم بالحجارة. وإذا بالخبر يأتي إلى خالد أن هذا جيش رومي قد أتاكم فنهض خالد على تعبيته فقدم الأثقال والنساء وخرج معهن يزيد بن أبي سفيان ووقف خالد وأبو عبيدة من وراء الناس. ثم أقبلوا نحو ذلك الجيش فإذا هو قائد رومي يدعى «دربخان» بعثه ملك الروم في عدد من أهل البأس والنجدة من جنود الروم ليغيث أهل دمشق، فصمد المسلمون ضدهم والتقوا بهم في «مرج الصفر» سنة أربع عشرة وخرج إليهم أهل القوة من أهل دمشق وحمص فكانوا عدداً عظيماً. فلما نظر إليهم خالد عبى لهم أصحابه كتعبيته يوم

«أجنادين» وأمر سعيد بن زيد ـ وكان على الخيل ـ فحمل على معظم جمع الروم فانتفض حبل نظامهم وحمل المسلمون معه فهزموهم وظفروا بهم فقتلوا كل قتلة.

قال أبو أمامة: وكان بين أجنادين ومرج الصفر عشرون يوماً فحسبت ذلك فوجدته يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادي الآخرة قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام.

ثم إن المسلمين أقبلوا عودهم على بدئهم حتى نزلوا دمشق على منازلهم التي كانوا عليها في حصار دمشق. وكانوا يغزون ما حولهم من البلدان فكلما أصاب رجل منهم نفلاً جاء به حتى يلقيه في القبض لا يستحل أن يأخذ منه شيئاً. حتى إن الرجل ليجيء بالكبة الغزل والكبة من الصوف والشعر. أو المسلة أو الإبرة فيلقيها في القبض لا يستحل أن يأخذها فسأل صاحب دمشق بعض عيونه من أعمال المسلمين وسيرتهم فوصفهم له بهذه الصفة بالأمانة ووصفهم بالصلاة بالليل وطول القيام فقال: هؤلاء رهبان بالليل أسد بالنهار. والله ما لهؤلاء طاقة. وما لي في قتالهم خير. ثم راود المسلمين على الصلح. فأخذ لا يعطيهم ما يرضيهم ولا يتابعونه على ما يسأل وهو في ذلك لا يمنعه من الصلح والفراغ منه إلا أنه قد بلغه أن قيصر يجمع الجموع لحرب المسلمين وبينما هم كذلك إذ بلغ المسلمين الخبر بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وصرف خالد بن الوليد عن الإمارة وقيادة الجيوش بأبي عبيدة بن الجراح.

وهذه الطريقة التي اختارها الديار بكري غير مستقيمة النسج لأنها تذكر أن واقعة «مرج الصفر» كانت سنة أربع عشرة وتجعل ذلك قبل وفاة أبي بكر وهذا غلط لا ريب فيه لأن وفاة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ثلاث عشرة فاما أن تكون واقعة المرج المحدث عنها بإمارة خالد بن الوليد وقعت سنة ثلاث عشرة، ويصح حينئذ أنها كانت قبل وفاة أبي بكر. وهذا هو الراجح عندنا لأن تفاصيل المعركة كما ترويها الرواية تشعرنا بإمارة خالد فيها وهذا قطعاً كان في حياة أبي بكر؛ وإما أن تكون هذه الواقعة جرت في سنة أربع عشرة كما تقول الرواية. وحينئذ لا يمكن أن تكون قد حدثت قبل وفاة أبي بكر رضي الله عنه.

والذي يرجح لدى البحث أن دمشق حوصرت أكثر من مرة واحدة قبل فتحها صلحاً أو عنوة، وأن واقعة في «مرج الصفر» جرت بين المسلمين والروم أكثر من مرة واحدة كانت واحدة منها بعد الحصار الأول على يد خالد ابن سعيد فقتل فيها هو أو ابنه، وكانت واحدة منها بعد الحصار الأول على يد خالد بن الوليد وهي التي تذكر الرواية أنها كانت قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام، ومن مرج الصفر توجه خالد بن الوليد إلى اليرموك فواجه حشود الروم، وثمة جاء الخبر بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر وعزل خالد وتولية أبي عبيدة، ثم كان من حصار دمشق الذي فتحت عليه بإمارة أبي عبيدة وتدبير خالد ابن الوليد.

ويرشح ذلك قول الطبري: ثم كانت «مرج الصفر» استشهد فيها خالد بن سعيد وعدة من المسلمين، وقيل إن المقتول في هذه الغزوة كان إبناً لخالد بن سعيد، وأن خالداً انحاز حين قتل ابنه، فوجه أبو بكر خالد ابن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام.

فهذا صريح في أن واقعة وقعت في مرج الصفر قبل أن يوجه خالد ابن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام.

ثم قال أبو جعفر الطبري: ولما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها، وغارته على مصيخ ببهراء وانتسافها، فاجتمعوا بمرج راهط وبلغ ذلك خالداً وقد خلف ثغور الروم وجنودها مما يلي العراق فصار بينهم وبين اليرموك، صمد لهم فخرج من سوى بعدما رجع إليها بسبي بهراء فنزل الرمانتين - علمين على الطريق - ثم نزل الكثب حتى صار إلى دمشق ثم مرج الصفر فلقي غسان وعليهم الحارث بن الأيهم فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ونزل بالمرج أياماً وبعث بالأخماس مع بلال بن الحارث المزني ثم خرج من المرج حتى نزل قناة بصرى فكانت أول مدينة افتتحت بالشام على يدي خالد فيمن معه من جنود العراق وخرج منها فوافى المسلمين بالواقوصة.

فهذا أيضاً صريح في أن خالد بن الوليد صار إلى دمشق فحاصرها إلى مرج الصفر، ونزل المرج أياماً ومن المرج كتب لأبي بكر، وأرسل إليه بالأخماس، وأنه خرج من المرج إلى بصرى فافتتحها وخرج منها إلى اليرموك

التي يقول بعض المؤرخين: إن غزوتها كانت في رجب أي في سنة ثلاث عشرة ـ وإذا كانت وفاة أبي بكر وقعت في جمادي الآخرة على أرجح الروايتين فمعقول أن يكون البريد الذي حمل خبر وفاة أبي بكر واستخلاف عمر وصرف خالد بن الوليد بأبي عبيدة قد استغرق هذا الأمد فيما بين وقعة مرج الصفر على يدي خالد بن الوليد ووقعة اليرموك التي وصل البريد وهي لا تزال محتدمة.

وقريب من مختار الديار بكري رواية الطبري من طريق محمد ابن اسحاق قال: لما فرغ المسلمون من أجنادين ساروا إلى «فحل» من أرض الأردن وقد اجتمعت فيها رافضة الروم والمسلمون على أمرائهم وخالد على مقدمة الناس، ثم نهضوا إلى الروم وهم بفحل فاقتتلوا فهزمت الروم ودخل المسلمون فحل، ولحقت رافضة الروم بدمشق، فكانت فحل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة على ستة أشهر من خلافة عمر، وأقام تلك الحجة للناس عبد الرحمن بن عوف، ثم ساروا إلى دمشق وكان عمر عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم هزم الله الروم وأصاب منهم المسلمون ودخلت الروم دمشق فغلقوا أبوابها وخيم المسلمون عليها فرابطوها حتى فتحت دمشق، وأعطوا الجزية ، وقد قدم الكتاب على أبي عبيدة بإمارته وعزل خالد، فاستحى أبو عبيدة أن يقرىء الكتاب خالداً حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يدي خالد وكتب الكتاب باسمه.

وأبعد هذه الروايات زعم الواقدي أن واقعة اليرموك كانت سنة خمس عشرة وأنها آخر الوقائع.

نتيجة

ومهما يكن من أمر ترتيب هذه الوقائع تقديماً وتأخيراً فإنه لا يمس الحقيقة الكبرى في نصيب البطل العبقري خالد بن الوليد من فخر هذه الوقائع أميراً وقائداً وجندياً، فالرواة الذين يروون عزل خالد في واقعة اليرموك، ويقولون: إنها كانت أولى الوقائع الكبرى في فتوح الشام. ويقولون إن خالداً رضي الله عنه شهد ما بعدها من الوقائع قائد كتيبة أو جندياً من جنود الإسلام، يعقدون بناصيته فخر ما تم من نصر للمسلمين في هذه الوقائع، ويردونه إلى تدبيره وشجاعته.

يقول ابن الأثير في فتح دمشق وهو يلخص ما عند الطبري: لما هزم الله أهل اليرموك استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشر بن كعب الحميري، وسار حتى نزل بالصفر فأتاه الخبر أن المنهزمين اجتمعوا بفحل، وأتاه الخبر أيضاً بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فكتب، إلى عمر في ذلك فأجابه عمر بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام، وبيت ملكهم، وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بإزائهم، وإذا فتح دمشق سار إلى فحل، فإذا فتحت عليهم سار هو وخالد إلى حمص، وترك شرحبيل بن حسنة وعمراً بالأردن وفلسطين، فأرسل أبو عبيدة إلى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريباً منها، ويثق الروم الماء حول فحل فوحلت الأرض فنزل عليهم المسلمون فكان أول محصور بالشام أهل فحل، ثم أهل دمشق، وبعث أبو عبيدة جنداً فنزلوا بين حمص ودمشق، وأرسل جنداً آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين، وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق وعليها «نسطاس» فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمر على ناحية، وكان هرقل قريباً من حمص فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصاراً شديداً وقاتلوهم بالزحف والمجانيق، وجاءت خيول هرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التي عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون، وولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فصنع طعاماً فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد فإنه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفي عليه من أمورهم شيء، عيونه ذاكية وهو معني بما يليه قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً[1]، فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه، وقالوا: إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب، فلما وصل وهو وأصحابه إلى السور وألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشرف وكان ذلك المكان أحصن مكان بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم انحدر خالد وأصحابه وترك بذلك المكان من يحميه، وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار

---

(١) الأوهاق: جمع بمفرده وهق، وهو الحبل يكون في آخره عقدة سهلة الحل.

أهل المدينة لا يدرون ما الحال، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل كل من عنده من الروم فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له: ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب، ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة، فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا قتلاً ونهباً وهذا صفحاً وتسكيناً فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح.

وليس فتح دمشق وشجاعة خالد وتدبيره فيه بأحق بالتسجيل من موقفه في فتح «قنسرين» ذلك الموقف الذي انتزع من عمر بن الخطاب كلمته البارعة في تقريظ خالد بما يرد الحقائق إلى منابعها الأصيلة من التاريخ ويبهرج الزائف من الروايات الدخيلة في تاريخ الإسلام.

قال أبو جعفر الطبري: وبعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد ابن الوليد إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم وعليهم «ميناس» وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد هرقل فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق أحد، وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد: أنهم عرب وأنهم حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه فقال لهم خالد: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا، فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى إلا على تخريب المدينة فأخربها وأبطأت حمص وقنسرين وخنس هرقل إلى القسطنطينية، وكتب أبو عبيدة بهذا الفتح إلى عمر وذكر له فعل خالد وكلمته لأهل قنسرين فقال عمر كلمته الخالدة: «أمر خالد نفسه. يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني».

وشهد خالد رضي الله عنه فتح بيت القدس، وكان مع أبي عبيدة في لقاء عمر بن الخطاب بالجابية وشهد على كتاب صلح أهل إيلياء الذي عقده عمر لهم في قدمته على بلدهم.

الفصل الثاني عشر

عزل خالد

لماذا عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد

سؤال ـ خوالد خالد ـ بين الباحث والمؤرخ ـ مفاجأة ـ إعظام التاريخ عزل خالد ـ خالد عدل عمر ـ اختلاف الروايات في أسباب العزل ـ الرواية الأولى ـ نقد وتحليل ـ الرواية الثانية ـ موازنة وتمحيص ـ الرواية الثالثة وبهرجتها ـ الرواية الرابعة وتزييفها ـ الرواية الخامسة ونقدها ـ رواية راجحة.

سؤال

هذا هو السؤال الذي يتراءى لكل من يقرأ سيرة القائد المظفر بطل الإسلام خالد بن الوليد حتى تنتهي به إلى تلك النهاية الوادعة التي ختمت بها حياة أعظم قائد حربي في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الحياة.

وفي الحق إنه سؤال يبدو طبيعياً، ليس في طاقة قارىء هذه السيرة دفعه ولا مدافعته إلا إذا استبانت له الحقائق التاريخية في صورتها الفصيحة بعيدة عن شوائب الروايات الواهنة وأغاليط القصص السقيمة، مع النظر إلى مقومات شخصيتي الفاروق وخالد بن الوليد في خطوطهما الأولى نظراً بريئاً من «الرتوش» التي تحاط بها الصور فتنأى بها عن هيكلها الخالد الذي لا يحول.

* * *

خوالد خالد

أسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه سنة ثمان ـ على أرجح الروايات ـ فكان النبي ﷺ لا يعدل به أحداً فيما حزبه، خرج في غزوة «مؤتة» وهي أولى خرجاته الإسلامية ـ جندياً فعاد منها قائداً قد أمره المسلمون عليهم، وأثنى على تأميره النبي ﷺ، وسماه «سيف الله» وسمي عمله في إنقاذ جيش المسلمين فتحاً على ما رواه البخاري في صحيحه.

وأمره النبي ﷺ في غزوة «الفتح» على جميع جند القبائل ممن عدا المهاجرين والأنصار، وأرسله أمير سرية لتحطيم «العزى» وأمير أخرى لتحطيم «اللات» وبعثه للتثبت من بني المصطلق بعد فعلة الوليد بن عقبة،

وأمره على عامة بني سليم في غزوة «حنين» وسيره في ألف رجل طليعة في حصار ثقيف: وأرسله إلى «دومة الجندل» ففتحها وأخذ صاحبها الأكيدر أسيراً، ولما كانت غزوة «تبوك» جعله النبي ﷺ على الفرسان والخيل، وبعثه إلى «نجران» هادياً ومعلمًا، وأرسله إلى بني جذيمة فأوقع بهم متأولاً فبرىء النبي ﷺ من عمله، ولم يعزله ولم يغضب عليه، ولكنه أرضى بني جذيمة.

وهكذا ظل خالد بن الوليد رضي الله عنه حياة النبي ﷺ منذ أسلم وهو في مكان الصدارة من جنود الإسلام لم يتزحزح عن الإمارة وقيادة الجيوش حتى انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو عنه راض وبه حفي.

ثم قام بأمر المسلمين الصديق الأعظم أبو بكر فتولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ، ففاجأته ردة العرب وهو في قلة من المسلمين فيما بين المسجدين فشمر لحرب العرب حتى يعيدهم إلى رسن الإسلام، فعقد الألوية وعبأ الجيوش، فكان قائده الأول في هذه الحرب الضروس خالد بن الوليد الذي هزم طليحة الأسدي ومسيلمة الكذاب، وأرهب سجاح، وفرق جموع «أم زمل» وأوقع ببني يربوع، وقتل زعيمهم مالك بن نويرة، فقال عنه بعض من شهد مقتله إنه أخطأ في قتله، ولكن أبا بكر الصديق لم يعزله، وقبل منه حجته، وأرضى بني يربوع، ثم وجه أبو بكر قائده المظفر لفتح العراق ورعبلة فارس، فتم على يديه ذلك؛ ولما تضايق المسلمون بالشام وتكاثرت عليهم أمداد الروم» وهاب الأمراء أن يقدموا استمدوا الصديق، فلم ير لهذا الموقف أحمد من خالد بن الوليد ينسى به الروم وساوس الشيطان، فوجهه أميراً على الأمراء فخاضها مع الرومان كما خاضها مع الفرس، وفتح الله عليه أبواب الشام من اليرموك إلى أجنادين إلى دمشق إلى فحل إلى حمص إلى المرج وإلى ما شاء الله من بلاد وأمم دخلت في الإسلام أو كانت تحت ظله وحمايته بفضل عبقرية خالد بن الوليد.

فلماذا بدأ عمر بن الخطاب عمله في دولة الإسلام بعزل هذا القائد المظفر الذي لم تنكس له راية ولم يسقط له لواء؟ أليس عجيباً ألا يرد هذا السؤال؟ بلى!!

* * *

يختلف الباحثون والمؤرخون في أسباب هذا العزل، وسبيل المؤرخ في

هذا أيسر من سبيل الباحث، ولا سيما طريقة القدامى من المؤرخين التي تعتمد على سرد الروايات معزوّة إلى الرواة، أو إلى كتب التاريخ؛ ولا تبالي أن يضرب بعض تلك الروايات وجه بعض.

بين الباحث والمؤرخ

وليت الأمر وقف عند عزل خالد عن الإمارة العامة أو إمارة الأمراء كما سماها أبو بكر الصديق في كتابه إلى خالد، بل ليته وقف عند عزل خالد عن قيادة كتيبة فتبقى له بعض خواص الإمارة، بل ليته وقف عند حد إبقاء خالد جندياً مجاهداً يعمل تحت إمرة إخوانه من الأمراء والقواد، بل إن عزل خالد انتهى إلى إبعاده عن ساحة الجهاد العملي إبعاداً كلياً حتى مات تلك الميتة التي قدرت له وهو أبعد الناس عن الرغبة في هدوئها ووداعتها.

وأما سبيل الباحث الذي يريد أن يحقق الحوادث ليتعرف الواقع منها من المتخيل، والصادق من المنحول، والثابت من المصنوع، ففيها من العسر والتكاؤد ما يحوج الباحث إلى التجمل بالصبر والمصابرة، والتوقف قبل المهاجمة، مع التأمل والتفكير.

مفاجأة

كان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قد ولى خالد بن الوليد إمارة أمراء الشام فجعله القائد العام على جند الشام كله، فتوجه خالد إلى عمله الجديد، وأدرك المسلمين باليرموك وهم متضايقون بالروم، وتسلم زمام القيادة ورتب جيوشه وأنشب المعركة والتحم زحف المسلمين بزحوف المشركين، وتراءت للناس بشائر النصر تلمع في نواصي المسلمين وإذا بالبريد يفجأهم بموت أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة وتوليتها أبا عبيدة بن الجراح، وجعل خالد مكانه قائد فرقة، ومع البريد كتاب من الخليفة الجديد عمر بن الخطاب الى القائد الجديد أبي عبيدة ابن الجراح يقول فيه: «أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنمية، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي، وأبلاني بك، فغمض بصرك عن الدنيا، وإله قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم».

ثم يأمره أن يسير أهل العراق إلى عراقهم تنفيذاً لسياسة أبـي بكر وأمره، فقد قال لعمر بعد أن عهد إليه بالخلافة: «وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم» وهنا يذكر أبو جعفـر الطبـري أن عمر ابن الخطاب قال: «كان أبو بكر قد علم أنه يسوءني أن أؤمر خالداً على حرب العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره».

وهذه كلمة حق من رجل كان الحق آثر عنده من الدنيا بحذافيرها، فقد كان يشير على أبي بكر بعزله فيأبى عليه أشد الإباء ويقول: لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين، فكان عمر يقول: أما والله لئن صير الله هذا الأمر إلي لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق، وخالد بن الوليد عن الشام، حتى يعلما أن الله هو الذي نصر ليسا هما؛ فلما تولى عمر الخلافة أسرع إلى عزل خالد وقال: ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر لم أنفذه.

إعظام التاريخ عزل خالد

والمؤرخون قد وضعوا قضية عزل خالد بن الوليد موضعها من التاريخ، فكم من قائد عزل عن مرتبته فلم يحس له الناس بأثر، ولم يذكر التاريخ عنه كلمة؟ وهؤلاء جماعة من الأمراء والولاة والقادة والفرسان من أضراب سعد ابن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، وأبي موسى الأشعـري، والمغيرة ابن شعبة، وزياد بن أبيه، والمثنى ابن حارثة، والبراء بن مالك عزلهم عمر ابن الخطاب نفسه فلم يعقد التاريخ لعزلهم قضية وإنما اكتفى بـأن يشير إلى الشيء من هذا عند مناسبته.

خالد عدل عمر

أما عزل خالد بن الوليد فقد أعظمه التاريخ وراح يبحث له عن أسباب يرده إليها، لأن خالد بن الوليد له في نظر التاريخ الإسلامي مقام ليس لأحد من أبطال الإسلام نظيره، وقد عرفنا احتفاء النبي ﷺ به وتقديمه إلى الأجلاء من السابقين، وأنه ما كان يعدل به أحداً من أصحابه فيما حزبه.

ولقد كان أبو بكر الصديق يرى في خالد بن الوليد عدلاً لعمر ابن الخطاب، وعمر هو من هو في الإسلام كله وعند أبي بكر خاصة؛ ذكر أبو جعفر الطبري أن أبا بكر قال في حديث جرى له في مرضه الذي توفي فيه مع عبد الرحمن بن عوف: «وددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى

الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق. فكنت قد بسطت يديّ كلتيهما في سبيل الله» بل إن عمر بن الخطاب نفسه كان يرى هذا الرأي في خالد، وأنه عدله ونظيره في دولة الإسلام، وأن أحداً من الناس لا يجزى جزاء خالد سوى عمر. روى ابن حجر في الإصابة عن الإمام مالك بن أنس قال: قال عمر لأبي بكر: اكتب إلى خالد لا يعطي شيئاً إلا بأمرك؛ فكتب إليه بذلك. فأجابه خالد: إما أن تدعني وعملي، وإلا فشأنك بعملك. فأشار عليه عمر بعزله. فقال أبو بكر: فمن يجزي عني جزاء خالد؟ قال عمر: أنا؛ قال: فأنت؛ فتجهز عمر حتى أنيخ الظهر في الدار؛ فمشى أصحاب النبي ﷺ إلى أبي بكر؛ فقالوا: ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه؟ وما لك عزلت خالداً وقد كفاك؟ قال: فما أصنع؟ قالوا: تعزم على عمر فيقيم، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله ففعل.

اختلاف الروايات في أسباب العزل

بيد أن طريقة قدامى المؤرخين ـ كما قلنا ـ لا يعنيها البحث في ربط الأحداث بأسبابها المعقولة. وإنما عنايتها مصروفة إلى الرواية تسردها سرداً، والقصة تزجيها إزجاء. ولا عليها أن تكون الرواية أو القصة صحيحة أو مولدة. ومن هنا تعددت الروايات واختلفت طرائق المؤرخين في سبب عزل خالد بن الوليد.

الرواية الأولى

١ـ يقول الطبري في حوادث السنة الثالثة عشرة: «وأما ابن اسحاق فإنه قال في أمر عزل خالد وعزل عمر إياه. إنما نزع عمر خالداً في كلام كان خالد تكلم به ـ فيما يزعمون ـ ولم يزل عمر عليه ساخطاً ولأمره كارهاً في زمان أبي بكر كله لوقعته بابن نويرة. وما كان يعمل به في حربه. فلما استخلف عمر كان أول ما تكلم به عزله. فقال: لا يلي لي عملاً أبداً؛ فكتب عمر إلى أبي عبيدة: إن خالداً أكذب نفسه فهو أمير على ما هو عليه. وإن هو لم يكذب نفسه فأنت الأمير على ما هو عليه. ثم انزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله نصفين. فلما ذكر أبو عبيدة ذلك لخالد قال: أنظرني أستشير أختي في أمري. ففعل أبو عبيدة. فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد. وكانت عند الحارث بن هشام. فذكر لها ذلك. فقالت: والله لا يحبك عمر أبداً. وما يريد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك. فقبل رأسها. وقال: صدقت والله فتم على أمره. وأبى أن يكذب نفسه. فقام بلال مولى

أبي بكر إلى أبي عبيدة فقال: ما أمرت به في خالد؟ قال أمرت أن أنزع عمامته وأقاسمه ماله، فقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه، فقال أبو عبيدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا، فقال خالد. أجل، ما أنا بـالذي أعصى أمـير المؤمنين، فاصنع ما بدا لك، فأخذ نعلاً وأعطاه نعـلاً، ثم قدم خالد على عمر المدينة حين عزله».

ثم تابع ابن اسحاق حديثه عن خالد ولاحقه في المدينة بعد عزله، فقال: «كان عمر كلما مر بخالد قال: يا خالد أخرج مال الله من تحت استك: فيقول والله ما عندي مال، فلما أكثر عليه عمر قال له خالد: يا أمير المؤمنين؛ ما قيمة ما أصبت في سلطانكم؟ أربعين ألف درهم؟ فقال عمر: قد أخذت ذلك منك بأربعين ألف درهم، قال: هو لك؛ قال: قد أخذته، ولم يكن لخالد إلا عدة ورقيق، فحسب ذلك فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصفه عمر ذلك، فأعطاه أربعين ألف درهم، وأخذ المال، فقيل له: يا أمير المؤمنين: لو رددت على خالد ماله؟ فقال: إنما أنا تاجر المسلمين، والله لا أرده عليه أبداً. فكان عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك».

نقد وتحليل

هذه رواية كثيرة التعاريج والنتوءات وكأنها تنادي على نفسها بالزيف والتلفيق. ومن حق البحث أن نقف معها لنعرف مداخلها، ونكشف عن مواضع الريبة ومظان التلفيق والزيـف فيها حتى يكون في هذا النحو من النظر في روايات التاريخ منبهة للناشئة المثقفة فلا تخدع عن عقولها بتصديق كل ما دون القدامى من روايات وأقاصيص. ومحمد بن اسحاق راوي هذه الأقصوصة تكلم فيه حذاق الناقدين من صيارفة الجرح والتعديل بما يكفي لإسقاط رواياته من حساب الاعتبار والتعويل، مع ذلك فإنا نقطع النظر عنه لأن رواية التاريخ لم يقصد إليها نقد الرواة فهو كغيره من رواة السير والتاريخ وقد يكون في بابه من أمثلهم، وإنما ننظر في الرواية وما اشتملت عليه لنعرف قيمتها من الواقع التاريخي.

أولاً: تزعم هذه الرواية أن عمر بن الخطاب إنما نزع خالد بن الوليد بسبب كلام تكلم به خالد، ونحن نسأل، ما ذلك الكلام الذي تكلم به خالد فاستحق به العزل من القيادة العليا لجيوش الإسلام في وقت كان النصر

معقوداً بناصيته؟ أفكان ذلك الكلام كلاماً يمس الدين أو نظام الحكم؟ أم كان كلاماً يمس عمر بن الخطاب في شخصه؟ ليس في شيء من الروايات ما يبين لنا ذلك الكلام حتى يمكن النظر فيه وفيما يقتضيه، فهو أمر مجهول لا يصلح للتعويل عليه في قضية تاريخية من عظيمات الأحداث في الإسلام، ولم يعرف في تاريخ خالد بن الوليد منذ دلف إلى الإسلام أنه وقف موقفاً ينكره الإسلام، ولا حفظت عنه كلمة تخدش عقيدته، ولم يعرف عنه أنه انحاز إلى جهة من الجهات التي تنازعت الخلافة وسلطان الحكم في الإسلام.

ثانياً: تقول هذه الرواية. ولم يزل عمر عليه ساخطاً ولأمره كارهاً في زمان أبي بكر كله لوقعته بابن نويرة، وما كان يعمل به في حربه.

وهذان سببان جديدان تذكرهما الرواية لعزل خالد، فأما وقعة خالد بمالك بن نويرة وموقف عمر بن الخطاب منه فقد عرفت حديثه بما له وما عليه في فصل مضى. وأما ما كان يعمل به خالد في حربه فإنما يعني به ميله إلى الاستقلال المطلق في تصرفاته في دائرة عمله وإمارته، وهو أمر حري أن يكون سبباً للعزل، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل في موضعه، والذي ننبه إليه هنا أن هذه الرواية واضحة التلفيق، جمعت الغث إلى السمين، والجدير بالصحة إلى العليل السقيم.

ثالثاً: تزعم هذه الرواية: أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة يقول له: إن خالداً كذب نفسه فهو في مكانة أمير الأمراء كما جعله أبو بكر الصديق، وإن لم يكذب نفسه، فهو معزول عن الإمارة، محال إلى المحاكمة، وأية محاكمة؟ محاكمة من لون لم يعرفه آحاد الناس وعامتهم في الإسلام، بله قادتهم وخاصتهم، لا بل قائد القواد، وبطل الإسلام، وأمير الأمراء خالد ابن الوليد، محاكمة ليس فيها تحقيق، وإنما هي ضرب من التنكيل والامتهان، وأي تنكيل أشد وأقسى من أن ينتزع لواء النصر وهو يرفرف على هامة القائد المظفر، ثم يطوح به إلى حضيض التهمة والخيانة؟ وأي امتهان أمض لنفس البطل من أن يقاد على سمع جنوده وبصرهم كما يقاد الجمل المخشوش. ثم تنزع عمامته عن رأسه، ونزع العمامة عن الرأس في نظر المآثر العربية ضرب من المثلة شنيع؟ وأي كرامة تبقى لقائد يراه جنوده في موقف كهذا يقاسم ماله بأمر أمير المؤمنين؟ أليس هذا تسجيلاً للخيانة؟

رابعاً: تزعم هذه الرواية: أن خالد بن الوليد استمهل أبا عبيدة حتى يستشير أخته فاطمة بنت الوليد، فأشارت عليه بأن هذه مكيدة من عمر ابن الخطاب نصب حبائلها ليوقع بها خالداً في إكذاب نفسه ثم ينزعه من عمله لأن عمر في زعم هذه الرواية يبغض خالداً ولا يحبه أبداً، فهو لا يريد تحقيق قضية ولا يريد معرفة الحق، ولكنه يريد نكاية بخالد، فهو يحتال عليه ويمكر به حتى يكذب نفسه ثم ينزعه، وقد صدق خالد أخته فاطمة وأمعن في تصديقها فقبل رأسها وأبى أن يمكن لحيلة عمر ومكره به أن ينالا منه، فلم يكذب نفسه.

أليس هذا طرزاً من القصص الخبيث الذي يقصد به الحط من شأن الفاروق عمر بن الخطاب في عدله الذي سار في الآفاق مسير ضوء النهار مع أشعة الشمس؟ ويقصد به النيل من بطل الإسلام وقائده المظفر خالد ابن الوليد؟ ثم هل لنا أن نسأل في أي شيء يكذب خالد نفسه أو لا يكذبها؟ هل قالت لنا هذه الرواية الزائفة عن حقيقة ذلك الشيء لنعرف ما هو؟ وبأي الأشياء يلتحق؟ أبالدين أم بالدنيا؟ وما قيمته وخطره؟ ليس في الرواية ما يكشف عن هذه المعميات المقصود تعميتها لتوقع في الأنفس أشياء وأشياء حول أشخاص هم من أفخر مفاخر الإسلام.

ومتى عرف عن خالد أنه استشار أختاً أو أماً؟ ولكن الرواية الزائفة تريد أن توقع في الأذهان أن عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد ليسا كما عرفهما تاريخ الإسلام الصحيح في مكانهما من الدين ورسوخ الإيمان، والترفع عن الشبهات؛ بله المنكرات، هي تريد أن تقول للناس: إن عمر ابن الخطاب يبغض خالداً بغضاً ينزع إلى عرق جاهلي تعرفه أسرة خالد حتى نساؤها؛ فهو لا يريد بما صنع مع خالد ـ إن كان قد صنع معه شيئاً ـ الإسلام وتنفيد أوامره؛ وإنما هو يريد إلى شفاء نفسه من حزازات قديمة موروثة؛ أليس هذا أعجب العجب؟ عمر بن الخطاب النموذج الأعلى لروح الإسلام ممزوجة بفضائله العليا ومقوماته الإنسانية؛ وعناصره الاجتماعية؛ وآدابه السامية؛ تصوره هذه الرواية مع أعظم قائد وأشجع بطل عرفه الإسلام خالد بن الوليد بهذه الصورة التي لا تتماسك إلا على أساس أن عظيمي الإسلام فاروقه وسيفه لم يكونا من هذا الإسلام كما يعرفهما المسلمون

من طريق وثيق الأخيار (عن الصادق المصدوق سيدنا رسول الله ﷺ) ومن طريق حياة عمر وخالد في الإسلام.

خامساً: تقول هذه الرواية: إن بلالاً مولى ابي بكر رضي الله عنهما قام إلى خالد ونزع عمامته وقاسمه ماله، فاستكان خالد حتى أخذ ما لا يصلح إلا بما أعطى؛ ثم تقول: إن خالداً بعد هذا الذي صنع به قدم على عمر المدينة؛ فهل ترك عمر خالداً بعد قدومه عليه؟ تأبى هذه الرواية أن يتركه يستروح أنفاس الراحة؛ ولكنها تلقي على لسان عمر كلمة متشفية عابثة تجعلها ديدنه كلما لقي خالداً فتقول: كان عمر كلما مر بخالد يقول: يا خالد أخرج مال الله من تحت استك؟؟ فهل عرف الناس في ألفاظ عمر ابن الخطاب وكلماته وزواجره مثل هذا الهجر من القول؟

والعجيب في هذه الرواية أنها ما حاولت أن تجعل من خالد بن الوليد إلا رجلاً مستكيناً مستسلمًا، فهو قد استكان واستسلم لئلا ينزع عنه عمامته ويقاسمه ماله، وهو هنا يستكين ويرد على هذه الكلمة التي تزعمها هذه الرواية على لسان عمر رداً يأباه كثير من آحاد الناس ليس فيهم شيء من شجاعة خالد بن الوليد، فلما أكثر عمر على خالد استقصى خالد استبراء نفسه بين يدي عمر، فقوم على نفسه جميع ما يملك من عدة ورقيق وهما كل مال عند خالد ـ كما صرحت به الرواية متواضعة ـ بأربعين ألف درهم، فاشتراها منه عمر بما قوم، فلما حسبت بلغت قيمتها ثمانين ألف درهم، فأعطى خالداً أربعين ألفاً ودفع إلى بيت مال المسلمين عدة خالد ورقيقه، فكان بعض الناس يقول لعمر: يا أمير المؤمنين، لو رددت إلى خالد ماله؟ فيأبى عمر ويحتج بأنه تاجر المسلمين وقد ربح لهم في صفقة ربحاً فلا يرده.

وليت شعري هل وقفت هذه الرواية الزائفة الملفقة عن هذا الحد، فلم تكشف الغطاء عن خبث الفكرة التي صنعتها؟ إن هذا لم يقدر لها، بل قدر لها شيء آخر، قدر لها أن تضع العنوان في آخر المقال، وأن تختم بما يفصل ما أجملت في أطوائها من أغراض ومقاصد لا تتطلب في إدراكها كثيراً من التفكير، وهكذا تجيء نهايتها واضحة صريحة في غير لبس أو غموض فتقول: فكان عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك. أفهمتم أيها العقلاء

من عمر بن الخطاب؟ ومن خالد بن الوليد في هذه الروايات الملفقة؟ مسكين أيها التاريخ!! متى تقلب صفحاتك بقلم ناقد عليم؟ ومتى تنقى من هذا الغلس والبله والتضليل؟

والذي يظهر من نسج هذه الرواية الملفقة أنها تعني أن عزل خالد عن الإمارة العامة وعن مطلق العمل في الجيوش الإسلامية، ومطالبته بإكذاب نفسه ومقاسمته ماله، كل ذلك كان دفعة واحدة أول خلافة عمر ابن الخطاب، وهذا مصادم بما هو ثابت من أن خالداً رضي الله عنه عزل أول مرة في السنة الثالثة عشرة من إمارة الأمراء، وقيادة عامة جيوش الإسلام بالشام، وتولى عمله أمين الأمة أبو عبيدة في قيادة فرقته، وبقي خالد يجاهد تحت راية أبي عبيدة بأمر عمر بن الخطاب، حتى فتح قنسرين وأبدى في فتحها من فنون الشجاعة وضروب السياسة ما جعل عمر بن الخطاب يقول فيه كلمته المشهورة «أمر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال» ولما تم لخالد فتح قنسرين تولى عليها، وفي السنة السابعة عشرة أدرب هو وعياض بن غنم فأصابا شيئاً كثيراً من الغنائم، فانتجعهما رواد المكارم، فأعطى خالد وأغدق العطاء، فبلغ ذلك من فعله عمر بن الخطاب، فأمر بعزله عن مطلق العمل في جيوش الإسلام. وكان خالد وعياض قد توجها من الجابية مرجع عمر إلى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت رايته على قنسرين.

الرواية الثانية

٢ـ قال أبو جعفر الطبري من رواية سيف: «وأدرب سنة سبع عشرة خالد وعياض، فسارا فأصابا أموالاً عظيمة، ولما قفل خالد، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة انتجعه رجال فانتجع خالداً رجال من أهل الآفاق، فكان الأشعث بن قيس مما انتجع خالداً بقنسرين فأجازه بعشرة آلاف، وكان عمر لا يخفى عليه شيء في عمله كتب إليه من العراق بخروج من خرج ومن الشام بجائزة من أجيز فيها، فدعا البريد وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث؟ أمن ماله؟ أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، واعزله على كل حال، واضمم إليك عمله.

فكتب أبو عبيدة إلى خالد؛ فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر، فقام البريد فقال: يا خالد! أمن مالك أجزت بعشرة آلاف؟ أم من إصابة؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً؛ فقام بلال إليه، فقال إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته، وقال: ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ قال: لا، بل من مالي، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده؛ ثم قال: نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخم ونخدم موالينا.

وأقام خالد متحيراً لا يدري أمعزول أم غير معزول، وجعل أبو عبيدة لا يخبره حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذي قد كان، فكتب إليه بالإقبال، فأتى خالداً أبا عبيدة فقال: رحمك الله!! ما أردت إلى ما صنعت؟ كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم، فقال أبو عبيدة: إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً، وقد علمت أن ذلك يروعك، فرجع خالد إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه، وقال: لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر، فقال عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان، ما زاد على الستين ألفاً فلك، فقوم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفاً، فأدخلها بيت المال، ثم قال لخالد: يا خالد! والله إنك علي لكريم، وإنك إلي لحبيب؛ ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء».

موازنة وتمحيص

هذه رواية أخرى يسوقها أبو جعفر الطبري في صدد الحديث عن أسباب عزل عمر خالد بن الوليد عزلاً نهائياً عن العمل في الجيوش الإسلامية قاطبة، ونحن إذا أمعنا النظر في هذه الرواية ازددنا يقيناً بما بنينا عليه منهجنا في تصوير رجالات الإسلام وإخراج سيرتهم للناس لتكون لهم فيها القدوة الصالحة والعبرة النافعة؛ فالميزان الذي استقام لنا هو تعرف الشخصية في خطوطها الأولى ومقوماتها الأصلية، ورد كل ما يرد من رواية أو قصة إلى هذه الخطوط، وتلك المقومات، فما كان متفقاً منها مع تلك الخطوط والمقومات قبلناه، وما لم يتفق مع شيء منها شككنا فيه حتى يظهر لنا ما يزيفه.

هما روايتان يذكرهما شيخ المؤرخين أبو جعفر الطبري من طريقين

مختلفي الإسناد والرواة، ومختلفي الحوادث وأسلوب الأداء؛ وقد أريناك ما في الرواية الأولى من تلفيق وزيف ببعدان بها عن أن تكون حديثاً في سيرة عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد، لأنها اشتملت على ألوان لا توائم الخطوط الأولى والمقومات الأصلية لهاتين الشخصيتين العظيمتين في تاريخ الإسلام.

أما هذه الرواية الثانية فإنها تتحدث عن عزل خالد عن عمله الذي وليه وهو تحت إمرة أبي عبيدة، وهذا هو العزل الثاني الذي أبعد به خالد ابن الوليد عن الجهاد مع الجيوش الإسلامية إبعاداً كاملاً، أما العزل الأول فهو العزل عن الإمارة العامة كما عرفت، وهذا لم تتعرض له هذه الرواية.

بيد أنها ذكرت في صدد الحديث عن أسباب العزل الثاني ما لفقته الرواية الأولى مع غيره بأسلوبها وجعلته سبباً لعزل لا ندري متى كان؟ ولا عن أي عمل كان؟ والرواية الثانية تعين وقت العزل الذي تتحدث عنه وتذكر له سببه بأسلوب لا يردها عن حياة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، فأولاً: تذكر هذه الرواية أن خالداً كان والياً على قنسرين تحت إمرة أبي عبيدة وأنه توغل هو وصاحبه عياض بن غنم في أرض العدو فغنما أموالاً عظيمة وبلغ الناس كثرة ما أصابا من الأموال فانتجعهما أهل الآفاق، وكان فيمن انتجع خالداً رجل من رؤوس العرب هو الأشعث ابن قيس زعيم كندة. فأجازه خالد بعشرة آلاف درهم.

إلى هنا ليس في الأمر شيء يختلف مع طبيعة الوقائع والأشخاص، فخالد وهو بطل الإسلام وربيب الجهاد، وقائد جيوش الإسلام المظفرة، لا تستقر نفسه إلا في وجه عدو يجالده أو بلد يفتحه، وقد أصبحت الشام في يد المسلمين، وعلى أرباعها وأمهات مدنها أمراء وقادة من أنفسهم، فعلى حمص أبو عبيدة، وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان، وعلى الأردن معاوية أخوه، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز، وعلى الأهراء عمرو بن عبسة وعلى السواحل عبدالله بن قيس وعلى قنسرين خالد بن الوليد، فهل مما يوافق طبيعة خالد أن تطيب نفسه بالموادعة ويركن إلى الراحة، وحسبه أنه وال على قنسرين؟ ما أظن أن أحداً ممن قرأ شيئاً من سيرة خالد بن الوليد، أو عرف شيئاً من خلائق هذا البطل العبقري يفهم أنه يرضى بغير الجهاد مراحاً، وهو الذي

يقول: «ما ليلة يهدى إلي فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد» فإدراب خالد وتوغله في أرض العدو خليقة من خلائق ابن الوليد مفطور عليها، وظفره وغنمه عادة عوده الله إياها، وقصد الناس له طالبين لرفده، وقد سمعوا بما أصاب من الغنائم والأموال، وإغداقه العطايا عليهم، وإجازته سيداً من سادات العرب بما أنزله منزلته، ليس في شيء منها ما تنكره طبيعة الحياة والأشخاص.

ثانياً: تذكر هذه الرواية أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ وكان لا يخفي عليه شيء من عمله ـ بلغه إدراب خالد، وإجازته الأشعث بهذا القدر العظيم من المال، فكتب إلى القائد العام أبي عبيدة يأمره أن يحقق مع خالد في مصدر هذا المال الذي أعطى منه الأشعث هذا العطاء الغامر، وخالد وال من ولاة المسلمين، يجري عليه من سلطان الخلافة الإسلامية ما يجري على غيره من العمال والولاة، والخلافة الإسلامية على عهد الراشدين، سلطان مبسوط بالعدل بين الأفراد والجماعات، ومدرسة لتخريج نماذج من الفضائل في صور حية متحركة، تمشي بين الناس مثلاً لتطبيق شرائع الإسلام مكيفة بروحه ومعناه.

فمن حق الخليفة الراشد أن يعرف وجه كل تصرف من تصرفات ولاته وعماله، لأن شريعة الإسلام التي بسطت سلطانه عليهم تجعله مسؤولاً عن أعماله، وهذا وال من ولاته أعطى رجلاً واحداً لا تشفع له سابقة جهاد عطاء كان يكفي أن يقيم أود عشرات من الأسر الإسلامية في ذلك الزمان، وكان يكفي أن يجهز سرية تغدو مجاهدة في سبيل الله، فلا بد أن يسأل هذا الوالي عن مصدر هذا المال الذي تصرف فيه هذا التصرف، فيعلم إن كان من مال المسلمين أفاءه الله عليهم في جهادهم، فلا حق للوالي أن يجاوز فيه ما خوله الله من سلطان يبلغ الحقوق لأربابها؛ فإن فعل فإنه لم يؤد أمانة الولاية التي وليها؛ وحينئذ يكون قد خلع عن نفسه ما سربله الله من سلطان.

وإن كان ذلك المال الذي أعطي منه ذلك العطاء ملكاً للوالي فمن حق الخلافة الراشدة بما خولها من حق الإشراف على تخريج النماذج العليا

للفضائل الإنسانية أن تمد نظرها إلى تصرفات الأفراد، ولا سيما أفراد أرادهم الإسلام للأسوة لتطبيقها على سنن الشريعة، لا من وجهة الخطر والإباحة، ولكن من وجهة الكامل والأكمل، والفاضل والأفضل، ولا يتم نموذج الفضيلة إنساناً في الإسلام إلا إذا ترك بعض المباح خشية الوقوع في المكروه.

فتصرف خالد بن الوليد في إجازته للأشعث بعشرة آلاف لا يخرج في نظر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أن يكون واحداً من أمرين كلاهما يفوت مقصد القدوة في خالد، باعتباره نموذجاً أعلى للفضيلة في الإسلام، وذلك هو الشرط في الولاية عند الخلافة العمرية الراشدة فلم يبق إلا أن يعزل خالد عن عمله على كل حال، وهو عزل ليس عده مفخرة في تاريخ ابن الخطاب بأحق من عده مفخرة في سيرة ابن الوليد.

ثالثاً: ذكرت هذه الرواية قصة إقامة خالد، ونزع قلنسوته، وعقله بعمامته، ولم تذكر مقاسمته ماله، ولكنها أفرغت ذلك في قالب يختلف معدنه عن معدن قالب الرواية الأولى، فهذه الرواية ترى أن أبا عبيدة استقدم خالداً وجلس للناس على المنبر وهو ساكت لا يتكلم، وقد تولى البريد استجواب خالد فلم يجبه خالد فقام بلال وبين لخالد أن أمير المؤمنين هو الذي أمر باستجوابه على الصورة التي يجب لحق السمع والطاعة أن تتحقق. فنفذ بلال الأمر وسأل خالداً فأجابه، فأسرع إلى تعميمه بيديه تعظيمًا لحق الولاء بعد أداء حق السمع والطاعة.

وقد تكون هذه القصة كلها دخيلة على الرواية فلم يقم خالد، ولم تنزع عنه قلنسوته ولا عقل بعمامته، وقد تكون من الواقع التاريخي، وحينئذ فهي - على شدتها - لون من ألوان الزجر الذي تملكه على الناس الخلافة الراشدة، منتزعاً من البيئة التي تعطيه صورته التي يخرج بها إلى حيز التنفيذ، وقد يخفف من شدة هذا الزجر ما أحيط به في هذه الرواية من مظاهر التكريم للبطل العظيم، فموقف أبي عبيدة وسكوته وتركه الأمر إلى رسول أمير المؤمنين يتولاه، من الإكبار لم يفت خالد إدراكه، وكأنه في سكوته وعدم رده على أسئلة البريد يستطلع موقف قائده وأميره، أبي عبيدة؛ فلما رأى أنه يضيق بهذا التحقيق، ويقف منه موقفاً سلبياً هو منتهى ما يمكن أن يبلغه من المجاملة، سارع إلى إجابة بلال الذي كان في تصرفه مثلاً للتربية الإسلامية

الفاضلة، فهو قد رأى أن الخليفة قد أمر في أحد ولاته بأمر واجب التنفيذ، ولكنه يرى أن الأمير العام يقف من أمر الخلافة موقف الانتظار، والأمر جد خطير، لأنه يتعلق بسلطان الخلافة، فلم يطق أن يسكت، فقام إلى خالد ونفذ فيه أمر أمير المؤمنين، فرأى منه السمع والطاعة، ثم عاد إليه يعظمه ويكرمه، وكأنه يعتذر إليه بقوله: «نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا».

رابعاً: تذكر هذه الرواية أن أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه كان مثلاً كريماً في تكريم قائده وأميره بالأمس وجنديه اليوم، فقد أبت عليه مكارمه أن يسرع إلى خالد فيخبره بعزله، وبقي خالد لا يدري من أمره شيئاً، أمعزول أم غير معزول حتى طال الأمر على أمير المؤمنين ففطن إلى ما وقع، فكتب إلى خالد مباشرة بالإقبال عليه، وهنا فهم خالد حقيقة ما كان ينطوي عليه قائده وأميره أمين الأمة أبو عبيدة من التعظيم له والتجافي عن إبلاغه ما يسيء إليه ويؤلمه، وقد قدر خالد ذلك أحسن تقدير، فأتى أبا عبيدة فقال له: «رحمك الله!! ما أردت إلى ما صنعت؟ كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم» وهي كلمة عاتبة عتب الصديق الذي آنس من صديقه العطف والرحمة عند محنة ليس في استطاعته دفعها عن صديقه وكأنما كبر على خالد أن يرى نفسه في موقف مما يظن به الحاجة إلى الرثاء والعطف والاسترحام، فرد عليه الأمين أبو عبيدة مفصحاً عن مدى ما تبلغه استطاعته في موقفه منه بقوله: «إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً».

خامساً: تذكر هذه الرواية أن خالداً رجع إلى قنسرين مقر عمله فخطب فيها مودعاً وتحمل منها إلى حمص، فخطب أهلها وودعهم، ثم خرج إلى المدينة حتى قدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فعاتبه أجمل عتاب بقوله: «وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر» وشكاه إلى جماعة المسلمين، وهم السلطة العليا التي يحاكم إليها من ولتهم الأمة سلطانها، ولقد قبل أمير المؤمنين عتاب القائد البطل أحسن قبول، ولكن بعد أن أتم تحقيق القضية استيفاء لحق القوامة على سلطان المسلمين، وهو أقدس من كل حق بعده، وليس في نظر الخلافة الراشدة حق فوقه.

قال عمر لخالد: من أين هذا الثراء؟ قال خالد: من الأنفال والسهمان؟ وهذا السؤال وجوابه يتصلان أشد الاتصال بأصل القضية التي جرى فيها التحقيق وانتهت بعزل القائد العبقري، فقد كان رده على سؤال بلال عن إجازة الأشعث أنها من ماله الخاص، وبلغ ذلك عمر، وكأنه استعظم أن يكون هذا العطاء الغامر من مال يملكه ملكاً خالصاً أمير الجيوش الإسلامية في دولة الخلافة الراشدة، لأنه عطاء لا يجود به إلا ذو ثراء مذكور؛ وخالد بن الوليد إذا كان من بيت شهر في قريش بكثرة المال وسعة الثراء، فإن ما آل إليه من ذلك المال ـ إن كان ـ لم يكن ليعد به من أصحاب الثراء، فلا بد إذاً من معرفة مصدر هذه الثروة الخاصة، وصاحبُها كان قائد الجيوش الإسلامية وأميرها، وتحت يده جنود المسلمين وغنائمهم، وما أفاء الله عليهم؛ والخلافة الراشدة مسؤولة عن بث روح الطمأنينة في نفوس الأفراد والجماعات ، على أن سلطان العدالة مبسوط على الناس أجمعين، لا فرق في ذلك بين أمير ومأمور، ولا بين قائد عظيم وفرد من عامة المسلمين، وقد أجاب خالد أمير المؤمنين عن سؤاله جواب المطمئن إلى سلطان الإسلام في عدالة عمر، وقد جعله نموذجه الأول في ضرب المثل للحياة، ولم يقل كما يقول متشرعو الاحتيال: لا يسأل المالك من أين ملك؟ بل قال ـ وهو القائد المظفر ـ إن هذا المال من الأنفال والسهمان؛ ولعل خالداً ظن أن القالة في ماله أكثرت عليه، فأراد أن يدفع هذا دفعاً عملياً فقوم على نفسه جميع ما يملك بستين ألفاً، فإن زاد شيء عن ذلك فهو لبيت مال المسلمين، فلما قوم عمر عروض خالد خرجت إليه عشرون[1] ألفاً فأدخلها بيت المال، فلم يرفع خالد إليها رأسه، ولا تطلعت لها نفسه، ولكن عمر رضي الله عنه لم يقف بخالد عند هذا الحد الذي أراح به الحق إلى مكانه، بل التفت إليه أكرم التفاتة، وأعتبه بأجمل أسلوب، فقال له: «يا خالد والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء» وليس في استطاعة أحد أن يزعم أن عمر تملق خالداً بهذه الكلمة الفاصلة، لأن عمر هو عمر ابن الخطاب، وليس عمر آخر، وابن الخطاب إذا قال كلمة كان كل معنى تحت كل حرف منها مقصوداً له، يريد أن يفهمه الناس عنه، وهذه الكلمة

(١) لعل هذه الزيادة جاءت نتيجة لتعظيم الناس آثار خالد فتنافسوها في الشراء فزادت أثمانها على قيمتها في التعامل. كما يحدث دائماً في آثار العظماء.

مدحضة لكثير من الروايات الزائفة في قصة عزل عمر بن الخطاب خالد ابن الوليد.

الرواية الثالثة وبهرجتها

٣- قال ابن عساكر في سبب عزل عمر خالداً: إنهما تصارعا وهما غلامان فكسر خالد ساق عمر، فما زال بينهما البغض حتى تولى عمر فعزله.

هذه رواية نذكرها دليلاً على مبلغ تفاهة القصاص الذين يتعلقون بالسخف، ثم يحملونه على التاريخ فيجري على ألسنة المؤرخين وفي كتبهم، وإلا فما قيمة هذه الأقصوصة حتى يذكرها مؤرخ عظيم كابن عساكر، فهل من المعقول أن يظل أثر لعبة بين طفلين في الجاهلية بعد أن أكرمهما الله بالإسلام، فكان أحدهما ثاني اثنين في الإسلام كله بعد رسول الله ﷺ، وكان الآخر منهما أعظم ما أخرج الإسلام كله من قواد الحروب والجهاد في سبيل الله، فينتهي بهما وهما في ذروة الحياة ليس فوقهما في مكانهما أحد إلى هذا الصغار الذي يأنف منه آحاد الناس؟ هذا كلام فارغ ما كان ينبغي أن يسطر، ولكنا أردنا بذكره أن ننبه على ما حمله التاريخ من أوزار هو في حاجة إلى أن تماط عنه حتى لا تضيع فيما بينها الحقائق.

الرواية الرابعة وتزييفها

٤- قال ابن الأثير تحت عنوان «عزل خالد بن الوليد» بعد أن ذكر قصة إدرابه هو وعياض بن غنم: «ودخل خالد الحمام فتدلك بغسل فيه خمر فكتب إليه عمر: بلغني أنك تدلكت بخمر، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تمسوها أجسادكم؛ فكتب إليه خالد: إنا فتناها فعادت غسولاً غير خمر، فكتب إليه عمر: إن آل المغيرة ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه».

وسياق ابن الأثير لهذه القصة تحت العنوان المتقدم يفيد أنه يراها سبباً من أسباب عزل خالد، وهو في ذلك قد خالف أصله الطبري في سياقته وبعض ألفاظه، فالطبري ذكر هذه القصة بعيدة عن عنوان العزل وأسبابه، فهي عنده ليست من أسباب العزل مطلقاً، بل ربما كان في عبارته ما يفيد أنها لم تتصل بالعزل من قرب أو بعد، قال أبو جعفر: وبلغ عمر أن خالداً دخل الحمام فتدلك بعد النورة بثخين عصفر معجون بخمر، فكتب إليه: «بلغني أنك تدلكت بخمر، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه كما حرم

ظاهر الإثم وباطنه، وقد حرم مس الخمر إلا أن تغسل كما حرم شربها فلا تمسوها أجسادكم فإنها نجس، وإن فعلتم فلا تعودوا»، فكتب إليه خالد «إنا قتلناها فعادت غسولاً غير خمر» فكتب إليه عمر: «إني أظن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه» فهذا واضح في أن عمر ألقى إلى خالد ما بلغه، وذكره بحكم الشريعة في الخمر، ونهى خالداً عن العود إن كان قد وقع منه ما بلغه عنه، وذاد خالد عن نفسه بأنه قتل الخمر فأفسد خمريتها حتى عادت غسولاً غير خمر، فلم يبق حرج في استعمالها تدليكاً، وكأنما رأى عمر أن في هذا الرد شيئاً من صلابة الرأي فرد على خالد بأن هذه نحيزة معروفة في آل المغيرة يسأل الله أن يجنبها خالداً فلا يموت عليها، فأين في ذلك حديث العزل؟ وهي بعدُ قصة تعوزها الحجة على صدقها.

الرواية الخامسة ونقدها

٥ـ قال أبو جعفر الطبري: كتب عمر إلى الأمصار: إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بِعَرض فتنة» وقد ذكر أبو جعفر نحو هذا في حديث قنسرين، فقال: «ولما بلغ عمر ذلك ـ أي عمل خالد في فتح قنسرين قال: «أمر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني» وقد كان عزله والمثنى، وقال: إني لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما» فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عن رأيه.

وهاتان الروايتان تتفقان في أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عزل خالداً عن عمله وبيَّن للناس سبب ذلك بأنه رأى الناس فتنوا بخالد تعظيمًا له، فخاف عليهم الفتنة فيه وأن يوكلوا إليه ويبتلوا به فيغير الله ما بهم من النصر والظفر على أعدائهم، فأحب عمر أن يثبت عقيدة المؤمنين في الله تعالى، فيعلموا أن خالداً رضي الله عنه إنما هو رجل صنعه الإسلام الذي صنع غيره، فإذا لم يكن خالد وكان الإيمان الراسخ في جند الإسلام تحت إمرة من كانوا من القواد والأبطال كان النصر والظفر على الأعداء بحالهما، فالله تعالى هو الذي يؤيد جنده وينزل النصر عليهم سواء أكانوا تحت راية خالد وقيادته أم كانوا تحت راية غيره من أبطال الإسلام.

وتختلف الروايتان في أمور:

أولاً: في طريقهما إسناداً، فالرواية الأولى من طريق شعيب عن سيف عن عبدالله بن المستور عن أبيه عن عدي بن سهل؛ والرواية الثانية من طريق أبي عثمان وجارية.

ثانياً: الرواية الأولى تخص خالداً ولا تذكر معه غيره، والرواية الثانية تذكر مع خالد قائداً آخر، هو المثنى بن حارثة الشيباني صاحب الجولة الأولى في فتح العراق، وترى أن فتنة الناس التي خشيها عمر كانت بهما، لأن الناس عظموهما فعزلهما لا عن ريبة، ولكن تثبيتاً لقوة الإيمان في أنفس المؤمنين.

ثالثاً: تقول الرواية الأولى. إن عمر كتب بذلك إلى الأمصار، والرواية الثانية لا تذكر الكتابة إلى الأمصار، وإنما تقول: قال. إني لم أعزلهما عن ريبة.

رابعاً: تنفي الرواية الأولى أن يكون سبب العزل سخطة من الخلافة العمرية على القائد البطل، وتنفي أن يكون سبب العزل خيانة نسبت إليه، بل ترى أن سبب العزل فتنة الناس بخالد، فخاف عمر أن يوكلوا إليه ويبلوا به فأحب أن يعلم الناس أن الله هو الصانع حتى لا يكونوا معرضين للفتنة بشخصية القائد مما قد يؤدي إلى ضعف النفوس وفتورها في الجهاد وملاقاة الأعداء اتكالاً على أن النصر معقود بناصية خالد وهو قائدهم؛ وقد يؤدي افتتان الناس إلى منفذ للشيطان يصل به إلى بعض النفوس الثائرة أو التي تثور إذا تحركت عندها عوامل خفية عند أدنى المناسبات فيكون الخطر على الدولة ونظامها. وتنفي الرواية الثانية أن يكون سبب العزل ريبة في القائدين العظيمين وترى أن سبب العزل تعظيم الناس للقائدين، وخشية عمر أن يوكلوا إليهما.

فهل لنا أن نقول: إن هذا الاختلاف يفيد تكرر هذه القصة؟ وهذا يتمشى مع تكرر العزل كما دلت عليه الروايات الثابتة، وعلى ذلك تكون الرواية الأولى من هاتين الروايتين أنسب بالعزل الأخير الذي أبعد به خالد عن الجيوش الإسلامية إطلاقاً. والرواية الثانية تكون أنسب بالعزل الأول الذي كان عن الإمارة العامة.

وقد يؤيد هذا متابعة الطبري للرواية الأولى من طريق سيف عن مبشر عن سالم قال: لما قدم خالد على عمر قال عمر متمثلاً:

صنعت ولم يصنع كصنعك صانع   وما يصنع الأقوام فالله صانع

فأغرمه شيئاً ثم عوضه؛ وكتب فيه إلى الناس بهذا الكتاب ليعذره وليبصرهم. فإن حديث الأغرام كان بعد إدراب خالد، وإجازته الأشعث بعشرة آلاف؛ وذلك في السنة السابعة عشرة.

وقد ذكر الرواية الأولى ابن الأثير في ضمن ما ذكره تحت عنوان «عزل خالد بن الوليد» فقال: وكتب عمر إلى الأمصار: «وإني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وإلا يكونوا بعرض فتنة» وعوضه عما أخذ منه.

رواية راجحة

٦ـ قال ابن حجر في الإصابة: وكان سبب عزل عمر خالداً ما ذكره الزبير بن بكار قال: كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً، وكان فيه تقدم على أبي بكر، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر؛ أقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته فكره ذلك أبو بكر، وعرض الدية على متمم بن نويرة، وأمر خالداً بطلاق امرأة مالك، ولم ير أن يعزله.

وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد، وكان أثيراً عند أبي بكر بعثه إلى طليحة فهزم طليحة ومن معه، ثم مضى إلى مسيلمة فقتل الله مسيلمة.

ثم ذكر الزبير بن بكار أن عمر قال لأبي بكر: اكتب إلى خالد لا يعطي شيئاً إلا بأمرك، فكتب أبو بكر بذلك إلى خالد، فأجابه: أما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك، فأشار عليه عمر بعزله. . . فلما ولي عمر كتب إلى خالد: أن لا تعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمري، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر، فقال عمر: ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه فعزله، ثم كان يدعوه إلى أن يعمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما شاء، فيأبى عمر.

قال الزبير: ولما حضرت خالداً الوفاة أوصى إلى عمر فتولى عمر وصيته، وسمع راجزاً يذكر خالداً، فقال: رحم الله خالداً، فقال له طلحة ابن عبيد الله:

لا أعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

فقال عمر: إني ما عتبت على خالد إلى في تقدمه وما كان يصنع في المال.

وروى البخاري في تاريخه من طريق ناشرة بن سمي قال: خطب عمر واعتذر من عزل خالد، فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة: عزلت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ، ووضعت لما دفعه رسول الله ﷺ، فقال: إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك.

ورواية الإصابة هذه تفيد أن سبب العزل يرجع إلى ما كان في خلق خالد وسياسته من التقدم والاستقلال، بفعله أموراً لا يراها أبو بكر نحو قتله مالك بن نويرة ونكاحه امرأته وتصرفه في المال يقسمه في أهل الغنائم دون أن يرفع حساباً إلى الخليفة، وأن عمر كان ينكر على خالد هذا الاستقلال المطلق في تصرفاته ويشير على أبي بكر بعزله، فلم ير أبو بكر عزل خالد لأنه لم يجد في الناس من يجزي جزاءه سوى عمر وهو في حاجة إليه يبقى إلى جانبه، يعينه ويؤازره.

فلما تولى عمر الخلافة رأى من الحق عليه أن يعزل خالداً لما كان يرى أن يعزله لأجله أبو بكر أو يعدل خالد عن سياسته الاستقلالية، فلا يعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمر الخليفة، فأبى خالد إلا أن يدعه وعمله على ما كان عليه في عهد أبي بكر، فرأى عمر أنه لم يصدق الله إن كان قد أشار على أبي بكر بعزل خالد إن لم يتقيد بالرجوع في أمر المال إلى رأي الخليفة، ثم لا يعزله هو وقد أصبح صاحب السلطان، فعزله لهذا؛ ثم كان يدعوه إلى أن يوليه فيأبى خالد إلا على ما كان عليه من الاستقلال المطلق، فيأبى عمر إلا أن يرجع في أمر المال إلى الخليفة، ويؤكد هذا قول عمر في رده على طلحة ابن عبيد الله: ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال.

وقد اشتملت هذه الرواية على أمثل ما يقال في هذا الباب، وهو

حديث البخاري في التاريخ. وإذا كان بعد أجمل فيه اعتذار عمر فإن الرواية التي تذكر أن عمر كتب إلى الأمصار أنه لم يعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة هي التي يحمل عليها هذا الإجمال.

وليس معنى اعتذار عمر أنه رأى خطأ في عمله فاعتذر عنه، وإنما معناه أن عمر رضي الله عنه كان يقدر أكمل تقدير ما لهذا الحادث الجليل الذي ابتدأ به عمله في الدولة الإسلامية من أثر في نفوس المسلمين، ولا سيما أولئك الذين جاهدوا تحت لواء خالد رضي الله عنه، فقادهم من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح، فأراد أمير المؤمنين عمر أن يذكر للناس وجه سياسته وتصرفه في هذا الحادث حتى تطمئن قلوبهم ويفيئوا من غمرة إعظام الأشخاص والاتكال عليهم مهما بلغوا من العظمة إلى اليقين بالله تعالى، وأنه هو الصانع وما الأشخاص والأشياء إلا مظاهر لصنعه وتدبيره وآثار قدرته وحكمته.

تلك هي أهم الروايات التي تداولها المؤرخون خلفاً عن سلف، وإليها تنتهي أسباب عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد رضي الله عنهما.

الفصل الثالث عشر

رأي الدكتور هيكل في عزل خالد وبواعثه
عرض وتحليل ونقد

هيكل وأثر البحث الحديث في الناشئة - أثر الأفكار الغربية في فهم الإسلام وتاريخه - إتكاء هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة - تزيد في التاريخ - نقد وتزييف - غضبة أبي بكر على خالد وسببها - تعقيب غير موفق - مجانة نواسية لا تحسب في تحقيق التاريخ - أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب في تصوير هيكل - إلحاح في أقصوصة ابن نويرة - منطق مدخول - «الغاية تبرر الوسيلة» سياسة عمرية في نظر هيكل - أحقاد جاهلية حركت عمر نحو خالد في رأي هيكل - اضطراب البحث - هيكل يقرر أن عمر بن الخطاب تأثر بشعوره الخاص نحو خالد - عود إلى مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» - عمر ابن الخطاب يتملق الرأي العام في تصوير هيكل - هيكل يشك في صدق حزن عمر على خالد.

هيكل وأثر البحث الحديث في الناشئة

رأينا قبل أن نحرر رأينا في قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد أن نعرض إلى ما كتبه في هذه القضية التاريخية باحث معاصر له مكانة خاصة عند مثقفي هذا الجيل في الشرق العربي وبلدان الإسلام، ولآرائه في البحث تأثير على أفكار المتعلمين، ولها سيرورة مع الأثير إلى كل عقل يشدو حقائق التاريخ الإسلامي مصوغة في أسلوب يلائم ذوق الناشئة من الجيل الجديد.

وفي الحق إني لأحس إحساساً قوياً بأثر هذا الاتجاه الإسلامي في البحث من كبار باحثينا عند ناشئتنا التي كانت ولا تزال في حاجة ماسة إلى منبه قوي جذاب ينبهها إلى تاريخ الإسلام، أشخاصه وحوادثه، ويوجهها إلى النظر فيه لتجد بين صفحاته من أعلام الدنيا وعباقرة الحياة وكبريات الحوادث والأحداث الإسلامية ما هو جدير بالدرس والبحث لتستبين من أطوائه أبلغ العبر وأهدى السبل، ولتعلم أن للإسلام أعلامه وعباقرته وأن لتاريخه آياته وعبره، فلا تعيش في أحضانه بوجدان لا يحسه وضمير لا يشعر به وعقل لا يعرفه وأرواح تنكره.

أثر الأفكار الغربية في فهم الإسلام وتاريخه

بيد أن هذا الإحساس ينهد معه إحساس آخر فيه شيء من الأسف والألم، ذلك أن بعض هذه البحوث تستوحي باحثي الغرب في فهم مسائل الإسلام، وتأخذ الإسلام عن غير مصادره وتصوغه في غير أسلوبه، أو هي بعبارة أخرى تسلك مسلك الإستعمار الإقتصادي الذي يأخذ الخامات من أرضنا وبلادنا إلى أرضه وبلاده، ثم نستردها منه وقد حاكها على منواله

وصبغها ثم طبع عليها بخاتمه، فكانت شيئاً حراً جديداً علينا، لا تعرفه طبيعتنا ولا تستسيغه عقولنا، إلى أن نجرده من كل ما طرأ عليه بعيداً عن بيئتنا.

ومن هنا يتضح خطر الاستشراق والمستشرقين، وسوء أثر الاستغراب والمستغربين على عقول الناشئة من شباب الإسلام وأبناء المسلمين. وهذا الخطر كامن في كثير من هذه البحوث التي أحسنت ـ قاصدة أو غير قاصدة ـ فأخذت بأعضاد الشباب إلى النظر في تاريخ الإسلام، لأنها أرت هذا الشباب الإسلام بأسلوب وطرائق غريبة عن الإسلام فكان من اللازم أن تجرد أقلام إسلامية المظهر والمخبر تمشي إلى هذه البحوث بالنقد الممحص الذي يرد الحقائق إلى أصولها، ويترك الأصابع الأجنبية وما يتصل بها مجردة في أيدي أصحابها حتى يستطيع الشباب الإسلامي فهم الإسلام بروح الإسلام، وبأسلوبه المنتزع من طبيعته وبيئته.

ومن عجب أمر هذه البحوث المطعمة «بميكرو» الفكر الغربي في دراسة تاريخ الإسلام أنها تأخذ طريقها في يسر وسرعة إلى أيدي الناس في كتب ومقالات وإذاعات وأحاديث تجر على جامعها مغانم فادحة، وتعود على العلم والإسلام وأبنائه بمفاسد فاضحة، ثم لا تجد من بين علماء الإسلام وحملة أقلامه من ينهض ليكشف عن سوأة هذا الاتجاه الخطير على أفكار الناشئة إلا قليلاً ممن عصمه الله ووفقه.

ولست أدري ما سبب هذا التعامي؟ أهو الكسل البليد عن القراءة والتعمق فيها؟ ولكن هذه الكتب تأخذ طريقها إلى مكتبات البيوت والمدارس والمعاهد؛ أفيكون اقتناء هذه الكتب في تلك المكتبات لمجرد الزينة والتجمل؟ أم هو لون من النفاق العلمي يجامل به هؤلاء الذين وسمت تلك الكتب بأسمائهم، وهم من أولي الحول والطول ـ كانوا ـ في دنيانا اللعوب.

قد يكون هذا أو ذاك وليس أحدهما بأرجح في ميزان الشر والنكر من صاحبه!

* * *

عرض الدكتور «محمد حسين هيكل»، لهذه القضية، قضية عزل عمر

ابن الخطاب خالد بن الوليد وأسبابها في كتابيه «الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر» عرضاً مجملاً في كتابه الأول ومفصلاً بعض التفصيل في كتابه الثاني، وقد ذهب فيها مذهباً نرى ـ ونحن بصدد دراسة خالد ـ أنه لا يحسن السكوت عليه، بل ان حق العلم والتاريخ وحق الإسلام يوجبان التنبيه على ما فيه من أمور، بعضها يتصل بجوهر الموضوع، وبعضها من قبيل «الرتوش» والأصباغ والزخرف الذي يستهوي نفوساً لم تعمق في دراسة الإسلام وتاريخه، وحياة رجالاته الأولين.

إتكاء هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة

يتكىء الدكتور هيكل في تحقيق أسباب عزل خالد على أقصوصة مالك ابن نويرة وزواج خالد امرأته بعد قتله، وفي هذا الصدد يحاول الدكتور أن يبرز قصة مالك في أسلوب شعري، إذا حاز إعجاب الشعراء والقصاص من المتأدبين وذوي العواطف الجامحة، فليس بمستطيع أن ينال رضاء الواقع التاريخي الذي يجب أن يكونَ له المكان الأول في كتابة سيرة رجالات الإسلام، وكأنما شعر الدكتور بهذا ونحوه، فحاول أن يري قارئه أنه لا يقف عند هذا الأسلوب، فهو في كتابه «الصديق أبو بكر» بعد أن ذكر عبارة ابن خلكان في الحديث الذي دار بين خالد بن الوليد، ومالك بن نويرة، وفيه يراد مالك خالد، ويقول له: فقد كان صاحبك يقول ذلك ـ يعني النبي ﷺ ـ فيقول له خالد: أو ما تراه لك صاحباً؟ والله لقد هممت بقتلك؛ فقال مالك: أو بذلك أمرك صاحبك؟ فقال خالد: والله لأقتلنك.

تزيد في التاريخ

يقول الدكتور هيكل: يرجح بعضهم هذه الرواية على غيرها، على أن هؤلاء الذين يرجحونها يرونها ناقصة، ويرون أنها إن لم تكمل ناقصة تصرف ابن الوليد في أمر «قرة بن هبيرة» و«الفجاءة السلمي» و«أبو شجرة» وأمثالهم، فهو قد بعث بهؤلاء إلى أبي بكر ليرى فيهم رأيه؛ ولم يكن مالك بن نويرة أعظم من أيهم إثمًا، ولا أكبر جريرة... وتتمة القصة في رأيهم أن خالداً تزوج «أم تميم» زوجة مالك في يوم مقتله، وقبل أن يجفف التراب دمه، مخالفاً بذلك كل تقاليد العرب[1] وهم يرون أن يربطوا بين مقتل مالك

(١) لو كان الكاتب يكتب بروح تفهم الإسلام وتعتقده لقال: مخالفاً بذلك كل نصوص الشريعة الإسلامية في تحتيم عدة المتوفى عنها زوجها بنص القرآن الكريم؟!

وزواج خالد من امرأته، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب ذلك القتل؛ ولعلهم في ذلك على حق، ولعلهم مخطئون.

نقد وتزييف

ومن حق البحث أن يتساءل في هدوء هامس: من يكون هؤلاء الذين رأوا أن هذه الرواية ناقصة بعد ترجيحها؟ وكيف كان في رأيهم - إن كان لهم وجود - أن تتمة القصة هو زواج خالد من امرأة مالك؟ وكيف أثبتوا أن هذا الزواج - بهذا العنوان، عنوان زواج خالد - كان في يوم مقتل مالك، وقبل أن يجفف دمه التراب؟ وأنى لهم أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته لو لم يفرضوا أن بطل الإسلام خالد بن الوليد من طراز هذا الشباب المتمايع المترف الذي يختال على الأرض ليلتقط الشهوات الرخيصة التافهة، لا يشغله جد في أمر، ولا يردعه دين عن موبقة؟ وكيف مع ترجيحهم الرواية التي تنادي بكفر مالك بن نويرة بنفيه النبوة عن رسول الله ﷺ جعلوا هذا الزواج من امرأة هذا المرتد سبب ذلك القتل؟ أفلا كان يكفي عند هؤلاء كفر مالك مرتداً في الرواية المرجحة عندهم سبباً لمقتله؟

قد يبدو أنه ليس هناك أحد من الباحثين سوى الدكتور هيكل وأضرابه من تلاميذ المستشرقين يرى أن هذه الرواية التي حكاها ابن خلكان ناقصة؛ وقد يبدو أنه ليس هناك أحد من القدامى سوى نواسي الأدباء رأى أن تتمة هذه الرواية هو زواج امرأة مالك وأن هذا الزواج هو سبب ذلك القتل، ولو كان للمنطق حكم على أقلام هؤلاء الباحثين لكانت النتيجة أن يقول من رجح هذه الرواية: إن خالداً قتل مالكاً لأنه فهم منه عند محاولته الحديث البراءة من النبي ﷺ، وأنه ليس له بصاحب، فراءه خالد فأكد مالك عقيدته! فلم يبق لدى خالد شك في ردته وكفره، فقتله، ثم تزوج امرأته بعد تمام عدتها زواجاً شرعياً؛ فقامت عند بعض الناس شبهة في هذا الزواج الذي أقدم عليه خالد وكان معيباً عند العرب، وحينئذ يكون كل ذنب خالد عند هؤلاء أنه لم يحفل بعادات الجاهلية؛ ورأى أن له أسوة في رسول الله ﷺ، فيما ثبت ثبوتاً قاطعاً من أنه قتل زوج صفية بنت حيي وتزوج بها، فأصبحت من أمهات المؤمنين.

غضبة أبي بكر على خالد وسببها

وليس صحيحاً أن أبا بكر الصديق غضب على خالد في هذا الزواج لتعاير العرب به وكراهتها له، فما كان أبو بكر - وهو سيد المسلمين علماً

وفضلاً وديانة ـ بالذي يحفل بأمر الجاهلية وعادات العرب. وهو يعلم أن رسول الله ﷺ خالف تلك العادة وهدمها، وإنما غضب أبو بكر على قائده في زواجه من امرأة مالك بن نويرة لأنه كان يرى أن في هذا الزواج مشغلة للقائد عن عظائم الأمور التي يتطلبها موقف المسلمين في ذلك الحين ولما تتكشف حال المسلمين من أعدائهم المتربصين، وهو لون من السياسة كشف عنه أبو بكر عند زواج خالد ببنت مجاعة بن مرارة الحنفي بعد انتصار خالد في حرب اليمامة فعتب عليه أبو بكر ولامه على هذا الزواج، ودفع خالد عن نفسه هذا اللوم ولم يعتب الخليفة.

تعقيب غير موفق

ثم ما قيمة هذا التعقيب الذي عقب به الدكتور هيكل، وماذا يقصد منه؟ أيقصد أن يدخل على نفوس قرائه أن خالد بن الوليد لا يبعد عليه أن يقتل مالك بن نويرة ليتزوج من امرأته دون أن يكون مالك مستحقاً للقتل بكفره في نظر خالد، وأن عمر بن الخطاب عزل خالد بسبب هذا القتل؟ وإذا جاز هذا فماذا أبقى الدكتور هيكل لخالد بن الوليد من حرمات الإسلام، وهو أحد أعلام الصحابة، وسيف الله وبطل الإسلام؟

وهل كان عزل خالد عن إمارة الجيش كفاء هذه الجريمة النكراء؟ أو أن عمر بن الخطاب جبن فتراجع عن تنفيذ ما توجبه الشريعة، وهو بمقتضى منصب الخلافة القوام عليها؟

مجانة نواسية لا تحسب في تحقيق التاريخ

وماذا يقصد الدكتور هيكل من إيراد كلام اليعقوبي وكلام صاحب الأغاني، وهو كلام سخيف لا ينبغي لباحث يؤرخ لعباقرة الإسلام ورجالاته أن يعول عليه، فهو فوق أنه لا يعتمد على أساس صحيح يصور خالد ابن الوليد ـ وهو من أعظم رجالات الإسلام ـ في صورة من لا يبالي بسفك الدماء الحرام في سبيل شهواته ولذائذه؛ ألا ترى إلى حديث الهوى والساقين في عبارة الأغاني؟ ولا يستطيع الدكتور هيكل أن يتفلت من هذه الورطة بقوله بعد سوقه لعبارتي اليعقوبي وأبي الفرج الأصفهاني: «وقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعد صوراً أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ» وقوله: «لسنا نقف عند ما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل» لأن ذلك ينهار انهياراً تاماً بقوله: «ولكن الثابت الذي لا ريب فيه أن ليلى أعجبت

خالداً، وأنه لذلك أمسكها من بعد، ولم يسرحها مع ما جره عليه زواجها من متاعب».

أفليس هذا إمعاناً في النواسية الماجنة بتصوير بطل الإسلام خالد ابن الوليد في الصورة التي اختارها له النواسيون من أضراب أبي الفرج ورواته؟ ومن أين استقى الدكتور هيكل هذا الثابت الذي لا ريب فيه؟ أليس عمدته في ذلك كتاب الأغاني ومن نقل عنه من ضعفاء المؤرخين؟ ومما يؤكد تورط الدكتور هيكل في أسر هذا الاتجاه النواسي الخليع أنه آخر ما رآه صورة أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ ـ عن حديث الإعجاب والهوى وجمال السيقان في روايتي اليعقوبي وصاحب الأغاني وهذا السياق يفيد طبعاً أن الإعجاب والهوى وحسن الساقين من الوقائع التاريخية في هذا الحادث، وليست من الصور التي نسجتها الروايات التي هي أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ؛ فليقل لنا الدكتور هيكل ما هو السبب في تأخير هذه العبارة، وفصلها بعنوان خاص؟

أبو بكر وعمر ابن الخطاب في تصوير الدكتور هيكل

لا، بل إن الدكتور هيكل أصر إصراراً عارماً على أن يرسخ في أذهان قرائه أن سبب عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد هو قتله مالك بن نويرة وزواجه من امرأته، وهو في سبيل هذا الإصرار العارم يرد نصاً قاطعاً كتب به عمر بن الخطاب إلى الأمصار، وخطب به الناس معتذراً إليهم ومبيناً وجه صنيعه مع بطل الإسلام، وفي ذلك يقول الدكتور: «وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة فكان جواب عمر: ما عزلتك لريبة فيك، ولكن افتتن الناس بك، فخشيت أن تفتتن بالناس؛ وهذه حجة لها قيمتها؛ لكن إجماع المؤرخين منعقد على أن عمر بقي متأثراً برأيه في موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته، وأن هذا الرأي كان له أثره من بعد في عزل خالد».

هذا كلام الدكتور هيكل بنصه وفصه؛ والقارىء لا يحتاج إلى كثير من الذكاء ليفهم منه أن الأمر لا يخرج عن أن يكون عمر في كلمته التي يرد بها على عتاب خالد غير جاد فيها، بل قصد إلى نفاق خالد ومخادعته، أو هو لا يقصد منها إلى معنى يفهمه العقلاء، ولعل الدكتور رمى إلى أكثر من ذلك، لأنه يذكر أن إجماع المؤرخين منعقد على أنه كانت في نفس عمر ريبة جامحة

في خالد، تطعنه في دينه ورجوليته وبطولته ومروءته، فعمر في رأي الدكتور هيكل غير صادق في كلمته، وأنه قالها وهو يضمر في نفسه غير معناها، ولا ينقذ الدكتور هيكل من هذا التورط قوله عقب كلمة عمر: «وهذه حجة لها قيمتها» لأن الاستدراك عليها لا يترك مجالاً للإنقاذ، وينادي بأن هذه الكلمة وقعت هكذا بين عبارات الدكتور لغرض لم تستطع أن تؤدي إليه، وهذا الاتجاه في تصوير المسألة هو رأي الدكتور هيكل صراحة في عمر وموقعه من هذه القضية، فهو يقول: «الرأي عندي في هذا الخلاف ـ يقصد إلى خلاف أبي بكر وعمر في شأن خالد ـ أنه كان اختلافاً في السياسة التي يجب أن تتبع في هذا الموقف، وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين أبي بكر وعمر، أما عمر وكان مثال العدل الصارم فكان يرى أن خالداً عدا على امرىء مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها؛ فلا يصح بقاؤه في الجيش حتى لا يعود لمثلها، فيفسد أمر المسلمين ويسيء إلى مكانتهم بين العرب، ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلى، ولو صح أنه تأول فأخطأ في أمر مالك، وهذا ما لا يجيزه عمر ـ فحسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحد».

وليت الأمر في تصوير الدكتور هيكل وقف به عند هذا الحد، ولكنه تخطى عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق، فجعله رجلاً لا يبالي بإقامة حدود الله تعالى، بل جعله رجلاً يهدر كرامة الشريعة الإسلامية، ويعبث بحدودها، فهو ـ في نظر هيكل ـ يرى أن تطبيق الشريعة لا يتناول النوابغ والعظماء، وإنما يطبق على العامة والدهماء، ويقول في ذلك: «أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور ـ أي قتل المسلمين عدواناً وظلماً وغصب زوجاتهم ـ وزن، وما قتل رجل أو طائفة من الرجال لخطأ في التأويل أو لغير خطأ والخطر محيط بالدولة كلها..؟ وما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ـ على خلاف نص القرآن ـ إذا وقع من فاتح غزا فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبايا يصبحن ملك يمينه!! إن التزمت في تطبيق التشريع لا يجب أن ينال النوابغ والعظماء من أمثال خالد، أفمن أجل مقتل مالك ابن نويرة، أم من أجل ليلى الجميلة التي فتنت خالداً يعزل خالد؟».

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رجلان لم تعرف الحياة في تاريخها

مثلهما سمواً وجلالاً في أتباع الأنبياء والمرسلين، فهما المعجزة الكبرى بعد القرآن الكريم للإسلام وتربية نبي الإسلام للرجال وتخريجهم نماذج لمظاهر الوجود العليا، يصورهما الدكتور هيكل بهذه الصورة التي نقلناها للقارىء، فماذا بقي لهما في صفحات الفضائل الإنسانية؟ أتلك «الرتوش» الشعرية التي تنساب لغير معنى في العبارات الرقراقة، والأساليب المحبرة؟؟

وإن كل فضيلة وراء هذا التصوير تنتهي إلى رذيلة؛ أفكان هذا مقصوداً للدكتور أم كان من جموح القلم حين يفقد الكاتب السيطرة على أعصابه وتفكيره؟ لعل الذين يفهمون هذا من صنيع الدكتور على حق، ولعلهم مخطئون!

ولنترك كتاب «الصديق أبو بكر» ولنمض إلى كتاب «الفاروق عمر» فلعله ألصق بالموضوع، ولعل الدكتور هيكل كان فيه أصرح وأنطق مما يعتقده في هذه القضية، وأحب أن أنبه إلى أن الأسلوب الشعري أشيع وأظهر في كتاب عمر منه في كتاب أبي بكر، ولعل ذلك كان عن قصد من الدكتور، ولعله كان من غير قصد، وحسن الظن يقتضينا القول بأن كتاب «عمر» عالج بعض القضايا الإسلامية الخطيرة التي لا تواتيها الصراحة إلا ملفوفة في عبارات شعرية يتخفف بها الأسلوب من أثقال الريبة والتوجس.

لقد أريناك أن الدكتور هيكل كان يقبض بكلتا يديه على حديث الهوى في رواية النواسيين، ويرى فيه مفتاح قضية عزل خالد بن الوليد، ولم نكن متجنين في ذلك، ولكنا كنا أمام عبارات واضحة في غرضها ومرماها فأثبتناها بصورتها التي وضعها عليها كاتبها، وهذا كتاب «الفاروق عمر» يسعفنا بما يزيد في براءتنا من تهمة التجني على رجل يعد في طليعة كتاب الشرق المعاصرين، ومن حق البحث الذي يكتبه في الموضوعات الإسلامية وكتبه في تصوير حياة عظماء التاريخ الإسلامي على أهل العلم أن يجيلوا فيها النظر الناقد، وأن يذيعوا هذا النقد بين شباب الإسلام ما أمكنتهم الفرصة لتكون وقاية، عسى أن يتسرب إلى عقولهم الغضة وأفئدتهم الصافية.

إلحاح في قصة مالك ابن نويرة

في كتاب «الصديق أبو بكر» اعتمد الدكتور هيكل في بيان سبب عزل خالد على قصة مالك بن نويرة وزواج خالد من امرأته، وروى هناك قصة النواسيين التي تجعل من خالد رضي الله عنه مدنفاً تيمه العشق وأضناه الغرام

بليلى امرأة مالك بن نويرة التي كان يهواها ـ في زعم النواسيين ـ في الجاهلية، ورشح الدكتور ذلك بأحدوثة جمال ساقيها التي جاءت على لسان أحد الخلعاء من رواة أبي الفرج في أغانيه، وفي كتاب «الفاروق عمر» يذكر الدكتور هيكل حديث الهوى والغرام غير مسند إلى كتاب الأغاني أو غيره ـ ولهذا الصنيع اسم خاص عند علمائنا فيقول الدكتور: «غضب أبو قتادة الأنصاري لقتل مالك بن نويرة بعدما أظهر إسلامه، وظنها حيلة من خالد ليتزوج ليلى الجميلة، وكان يقال إنه يهواها في الجاهلية» ثم يصور موقف عمر من خالد بعد أن زجر أبو بكر أبا قتادة ورده إلى قائده جندياً يسمع ويطيع، وبعد أن حسم أبو بكر إلحاح عمر بكلمته القاطعة: لا يا عمر!! ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين، بقوله «فقد كان عمر ثائراً بخالد ثورة جعلته يبالغ في النيل منه فيجمع من حوله متمماً وأبا قتادة ومن لف لفهما، ويستنشد متمماً شعره في رثاء مالك، ويظهر الرضا عنه وعما يقول. وكيف لعمر أن تطيب نفسه فيسكت عن رجل قتل امرأ مسلماً ونزا على امرأته فوجب رجمه» وقوله: لم يتزحزح عمر عن رأيه فيما صنع خالد، وفي وجوب عزله، وكان لهذا الإصرار أثره من بعد، حين تولى عمر إمارة المسلمين فقد عزل خالداً عن إدارة الجيش أول ما تولى، ثم عزله من بعد ذلك عن عمله في الجيش كله».

منطق مدخول

أهذا منطق العقل؟ أم منطق العاطفة التي تهوى الاستشراق والمستشرقين؟ أم هو منطق الحرية الفكرية والتحليل العلمي كما يفهمه فريق من الباحثين والكتاب المعاصرين في هذا الشرق المسكين؟.

عمر بن الخطاب يرى ـ كما تزعم بعض الروايات التي رضيها الدكتور هيكل ـ أن خالد بن الوليد قتل رجلاً مسلماً محرم الدم لأخبث غرض، ونزا على امرأته التي كان يهواها في الجاهلية، أو التي أعجب خالد بحسن ساقيها كما يزعمه خلعاء النواسيين، ويطلب عمر من الخليفة أبي بكر الصديق في إلحاح صارم أن يقتل خالداً قصاصاً بمالك، أو يرجمه حداً للزنا بامرأته، فيهدر الخليفة حدود الله ويعطل أحكام الشريعة؛ ثم يتولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر ويصبح سلطان الإسلام والمسلمين بين يديه، فيكتفي من خالد صاحب تلك الآثام والجرائم التي أقامت عمر وأقعدته ـ في زعم روايات مريضة رضيها الدكتور هيكل ـ على عهد أبي بكر ثم لا يصنع عمر

بعد ذلك كله شيئاً إلا أن يعزل خالداً عن الإمارة؛ ثم عن الجندية العامة في الجيش كله؟.

هــذا كــلام لــه خــبــيء معنــاه ليست لنــا عــقــول

فأين ما كان يطالب به عمر أبا بكر من إقامته الحد على خالد قصاصاً أو رجماً؟ وما الذي جعل عمر ـ وهو من هو ـ يسكت على نفسه في أمر لم يرض أن يسكت عنه لأبي بكر؟ ولكن لا عجب أن يكون عمر بن الخطاب هكذا في رأي الدكتور هيكل لأن عمر يقول للناس ويكتب إلى الأمصار الإسلامية مبيناً في صراحة لا لبس فيها: إن السبب في عزله خالداً لا يرجع إلى ريبة في خالد، ولكنه عزله لأنه رأى الناس افتتنوا به فخشي أن يوكلوا إليه؛ فيقول الدكتور هيكل برد على عمر بن الخطاب: لا، يا أمير المؤمنين، فإن إجماع المؤرخين منعقد على أنك عزلت خالداً لأنه قتل امرأ مسلمًا، ونزا على امرأته التي يقال: إنه كان يهواها في الجاهلية.

هذا لون من ألوان المنطق العلمي الذي تجري عليه كتب الدكتور هيكل في البحوث الإسلامية. أفكنا مخطئين أو متجنين حينما قلنا إنه يجب التنبيه على هذا النحو من أساليب البحث ليكون قارئوه على بصيرة من أمرهم وأمره، وعمدة هذا اللون من منطق الدكتور هيكل إهدار كل رواية تاريخية تبرز أدب الإسلام في نماذجه الإنسانية الحيـة من رجالاته الذين رباهم في مدرسة النبوة تربية ترتفع بهم عن وصمات الأخلاق تحنثاً بالمكارم وتكرماً عن الشبهات.

«الغاية تبرر الوسيلة» ساسة عمرية نظر هيكل

وهناك لون آخر من المنطق يسري في كتاب «الفاروق عمر» نرى من حق البحث أن نعرض له؛ وعمدة هذا اللون تسقط الروايات التي تجعل من عظماء الإسلام وعباقرته جماعة من الناس تعيش في ظل مبدأ لا يقيم وزناً للقيم الخلقية ورقابة الضمير ذلك هو مبدأ «الغاية تبرر الـوسيلة» فعمر ابن الخطاب أعظم العظماء في الإسلام بعد النبي، يثور في ظل الإسلام لعبقري الإسلام وبطل أبطاله خالد بن الوليد، فيتسقط له هنات يحصيها عليه، ويطالب بإنزال أشد العقوبات به، ويحرض الخليفة على قتله أو رجمه؛ ثم يعزله عن إمارة الجيوش الإسلامية لإحن وأحقاد جاهلية؛ فأي قيمة لهذا

الإسلام أمام هذا المنطق الهيكلي أعظم من أنه كان وسيلة مكنت عمر من الكيد لخصمه في الجاهلية خالد بن الوليد؟ وأي قيمة للأخلاق والفضائل أمام هذا المنطق «العصري» إذا حالت دون إشباع أحقاد الجاهلية وإحنها في ظل هذا الإسلام؟

أحقاد جاهلية هي التي حركت عمر نحو خالد في نظر الدكتور هيكل

يقول الدكتور في هذا اللون من المنطق: «يرى بعضهم عجباً أن يثور عمر بخالد كل هذه الثورة، وخالد خال عمر، وخالد سيف الله، وناصر دينه، وقد يزيل من هذا العجب ما يرويه بعض المؤرخين من أن عمر كان سيء الرأي في خالد من قبل إسلامه، وكان سيء الرأي فيه حياته» وهنا ساق الدكتور في الهامش كلمة لليعقوبي ذكرها في تاريخه يقول فيها: «كان عمر سيء الرأي في خالد لقول كان قاله في عمر» وكأنما أدركت الدكتور بقية من الحياء العلمي حجزته أن يدون هذه الكلمة الفارغة في صلب الكتاب، ولكنها لا بد أن تذكر لأنها تغض من العظمة العمرية السامقة، وليكن ذكرها في الهامش، ولعل هذه الكلمة التي تلقفها اليعقوبي من رواية لمحمد ابن إسحاق صاحب المغازي هي التي يعنيها الدكتور هيكل بقوله: «ما يرويه بعض المؤرخين»، وفي الإبهام إيهام. وعلى هذه الكلمة بنى الدكتور ذلك الحكم القاطع بأن عمر بن الخطاب كان سيء الرأي في خالد قبل إسلامه، وظل سيء الرأي فيه حياته، والدكتور يؤكد ذلك في غير تحفظ بقوله: ومهما يكن من شيء فالثابت أن ابن الخطاب لم يحب خالداً» وإن كان عمر نفسه وعينه يقول لخالد ـ فيما رواه الدكتور ورضيه ـ حين عاتبه: «والله يا خالد إنك علي لكريم، وإنك إلي لحبيب» وماذا على الدكتور هيكل إذا قال يرد على عمر بن الخطاب: لا، يا أمير المؤمنين. ليس صحيحاً أن خالداً عليك كريم، وليس صدقاً أن خالداً إليك حبيب، فإن الثابت ـ على رغم قولك أنك لم تحب خالداً، وأن بعض المؤرخين ـ اليعقوبي أو غيره ـ قال إنك سيء الرأي في خالد؟..

ومن عجيب التحليل العلمي «العصري» أن تكون عبارة اليعقوبي ـ كما نقلها الدكتور هيكل ـ مطلقة مجملة فيفصلها هيكل كما يشاء ويهوى، ليجعل سوء رأي عمر في خالد راجعاً إلى ما قبل الإسلام، أي إلى إحن وأحقاد جاهلية موروثة. وهنا يصعق «الاستشراق» بكلتا يديه إعجاباً بما أثمر وأينع،

فقد نجح أحد تلاميذه في هدم قاعدة «أثر الإسلام في تهذيب النفس» لأن عمر بن الخطاب وهو التلميذ الأول في حساب التاريخ الإسلامي تكيفاً بآداب الإسلام، قد ثبت أنه عاش في ظل هذا الإسلام على إحن الجاهلية وأحقادها..

ويتابع الدكتور هيكل هذا الاتجاه فيقول: «لقد عرف الناس جميعاً سوء رأي عمر في خالد بن الوليد، وحرصه في حادث ابن نويرة على أن يقيد أبو بكر منه، ولم يتغير رأي عمر في خالد من بعد هذا الحادث ويقول: «يتساءل الناس إلى يومنا هذا عن السر في عزل عمر خالداً... أحقاً أن مقتل مالك ابن نويرة وتزوج خالد من امرأته بقي له من الأثر في نفس عمر ما حمله على هذا التصرف، أم خشي عمر أن يفتتن خالد بالناس كما افتتنوا به لانتصاره المتصل في الحرب، وقد يجر افتتانه على الدولة شراً. يرى بعضهم هذا الرأي الأخير، ويذكرون أن خالداً يرجع إلى المدينة يسأل عمر عن ما حمله على عزله فأجابه: «ما عزلتك لريبة فيك، ولكن افتتن بك الناس، فخشيت أن تفتتن بالناس» قال الدكتور: «وهذه رواية لا سند لها، فالثابت أن خالداً لم يذهب إلى المدينة بعد عزله وأنه بقي بالشام يتابع غزواته بإمرة أبي عبيدة حتى عزله عمر عن كل عمله بالجيش في السنة السابعة عشرة من الهجرة، ولا أحسب كذلك أن مقتل مالك بن نويرة كان سبب العزل، وعندي - الدكتور هيكل - أن عمر إنما عزل خالداً لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة قبل خلافة عمر ولا أثناءها».

اضطراب في البحث

أحب لقارىء هذا البحث أن يكون أقوى ذاكرة ممن جمع معلومات كتابي «الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر» لأن قوة الذاكرة قد تعيننا على أن نضع يدنا على مقدار العناية بالبحث في هذين الكتابين ونعرف قيمتها من الصدق العلمي، وندرك ما بين الكتابين من اتفاق أو اختلاف في الموضوع الواحد، فالدكتور هيكل ينفي في كتاب «الفاروق عمر» أن يكون مقتل مالك ابن نويرة سبباً في عزل خالد، ويرى أن رواية اعتذار عمر عن عزل خالد بقوله لخالد: «ما عزلتك لريبة فيك» لا سند لها، لأن الثابت في نظر هيكل أن خالداً لم يذهب إلى المدينة بعد عزله.

والدكتور هيكل عينه ونفسه يثبت في كتاب «الصديق أبو بكر» أن مقتل

مالك بن نويرة وزواج خالد من امرأته كان سبباً في عزله بإجماع المؤرخين ـ في نظره طبعاً ـ والدكتور هيكل عينه ونفسه أيضاً في كتاب «الصديق أبو بكر» يجعل كلمة عمر التي اعتذر بها إلى خالد في قوله: «ما عزلتك لريبة فيك» حجة لها قيمتها لا رواية لا سند لها.

وأما حديث ذهاب خالد إلى المدينة ولقائه عمر ومعاتبته واعتذار عمر فقد رواه جمع من المؤرخين الأثبات، وقد سقنا رواياتهم فيما قدمنا من حديث، وبعض الرواة عيَّن وقت ذهاب خالد إلى المدينة، فجعله بعد عزله عن عمله كله بالجيش وهو العزل الثاني، وكان قدومه إلى المدينة بطلب من عمر، فأنى يستقيم للدكتور هيكل قوله: «فالثابت أن خالداً لم يذهب إلى المدينة».

أهكذا يهجم العلماء على العلم والتاريخ؟.

لا، بل إن الدكتور يثبت في كتاب «الفاروق عمر» ذهاب خالد إلى المدينة، فيقول فيه: «بينما كان ذلك يجري بحمص كان عمر ينتظر بالمدينة مقدم خالد عليه معزولاً عن عمله... فلما طال به الانتظار وأبطأ خالد عليه ظن الذي كان وأدرك أن أبا عبيدة في لينه وتودده وتواضعه قدر ما ينزل بنفس خالد من الهم إذ يعرف المصير الذي أراد له أمير المؤمنين... فكتب إلى خالد يستقدمه... لم يبق لخالد إلا أن يرجع إلى المدينة معزولاً يلقى أمير المؤمنين، فخرج يريد قنسرين... فلما بلغها كظم غيظه وتجمل وخطب أهل عمله، وذكر مجيد فعاله معهم ولم يذكر عمر لهم بسوء، ثم ودعهم وعاد بأهله ومتاعه إلى حمص فخطب أهلها وودعهم وفصل عنهم منصرفاً إلى المدينة، فلما بلغها ولقي أصحابه بها ألفى أمر عمر فيه قد سبقه إليهم... ثم انه لقي عمر فقال له: «لقد شكوتك إلى المسلمين وبالله انك في أمري غير مجمل يا عمر».. ولعل عمر انما قسا على خالد وبالغ في القسوة عليه بعد عودته إلى المدينة معزولاً، لأنه رأى جماعة من المتعصبين لخالد يحاولون إثارة الفتنة» هذا كلام الدكتور هيكل.

أفبعد هذا يا سدنة العلم وغطارفة البحث الحر يبقى صحيحاً قول الدكتور هيكل: «فالثابت أن خالداً لم يذهب إلى المدينة»؟؟

أفبعد هذا يا زعماء التحليل العلمي يبقى قول عمر لخالد: ما عزلتك لريبة فيك. رواية لا سند لها؟. أم يجب أن يقال: فالثابت أن بعض الباحثين لم يتثبت في بحثه، فخلط وأثبت ما نفى، ونفى ما أثبت في موضوع واحد، ومسألة واحدة.. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ما يسود هذه الكتب «المفخمة» وعلى مقدار ما فيها من ضحالة البحث وتفاهة ما يزعمونه تحقيقاً علمياً وبحثاً عن وقائع التاريخ.

والدكتور هيكل يقول في كتاب «الفاروق عمر»: «وعندي أن عمر إنما عزل خالداً لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة» والدكتور هيكل يقول في كتاب «الصديق أبو بكر»: «الرأي عندي في هذا الخلاف أنه كان اختلافاً فى السياسة... أما عمر وكان مثال العدل الصارم ـ فكان يرى أن خالدا عدا على امرىء مسلم، ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها فلا يصح بقاؤه في قيادة الجيش».

أفرأيت إلى موازين العلم والتاريخ التي تكتب بها حياة عباقرة الإسلام؟ وقد شرح الدكتور هيكل «الثقة» التي لم تكن قائمة بين عمر وخالد، فأدى ذلك إلى أن يعزل عمر خالداً عن العمل في جيوش المسلمين، شرحاً رجع بها حديث سوء رأي عمر في خالد وقد أريناك خبيء أمره والدكتور هيكل يؤكد ذلك باعتراض يفترضه فيصوره في قوله: «إن الخليفة لا يلي الدولة لحسابه، بل لحساب المسلمين جميعاً، فكان من الواجب لذلك على عمر أن ينسى ما بينه وبين خالد». أفهمتم هذا الدرس الذي يلقيه محمد حسين هيكل على عمر بن الخطاب ليعرفه الواجب عليه في سياسة الدولة؟؟ أولى لك يا دكتور فأولى، ثم أولى لك فأولى. ومن غيرك لها..؟؟

وهذا الذي كان بين عمر وخالد، وكان يجب على عمر ـ وقد أصبح خليفة للمسلمين أن ينساه، هو أحقاد جاهلية، وإحن شخصية في زعم رواية ميتة ارتضاها الدكتور هيكل، وبنى عليها حكمه القاطع بأنها كانت سبباً في عزل عمر خالداً.

ولكن الدكتور هيكل لا يرضيه إلا أن يكون حفياً بعمر بن الخطاب، يلتمس له المعاذير في فلسفة الحياة وشاعرية الأسلوب، فيقول: «وهذا

هيكل يقرر أن عمر ابن الخطاب تأثر بشعوره الخاص نحو خالد

الاعتراض له وجاهته ـ ولكن في المنطق النظري ـ وهذه الوجاهة تتضاءل كل التضاؤل أمام الواقع من أمر هذه الحياة، فنحن معشر هذا الناس ـ وعمر واحد من هذا الناس طبعاً ـ لا نتصرف في شؤون الحياة بعقولنا وحدها، بل إن لعواطفنا علينا سلطاناً أي سلطان».

وهكذا راح الدكتور يبسط نظريته هذه في أسلوب شاعري يلف المعاني لفاً ثم ينفلت منها انفلات الرقطاء من مضايق الأحجار إلى النتيجة المقصودة فيقول: «ولا ريب أن قد تأثر عمر بشعوره نحو خالد، ولعله كذلك قد ظن أن خالداً حسده على الخلافة»؟

أفرأيتم إلى التحليل العلمي والتحقيق التاريخي في مؤلفات الباحثين العصريين؟ هذا التحليل، وذلك التحقيق الذي سداه ولحمته هدم ما بناه الإسلام من شخصيات فارعة العظمة، وتشكيك الناس في حقائق التاريخ التي تصور عظماء الإسلام في حقيقتهم العليا من الحياة.

لكن الحق يأبى أن يظل ملفوفاً في دثار الأباطيل، فهذا هو الدكتور هيكل عينه يقول في كتاب «الفاروق عمر»: «وكان العدل في فطرة عمر منذ نشأته، ثم نمت فكرة العدل في نفسه حتى بلغت الكمال، لأنه سما بعقله وقلبه فوق شهوات هذه الحياة فلم يجعل لها عليه سلطاناً» فأيهما نصدق؟ أنصدق الدكتور هيكل الذي يقرر أن عمر بن الخطاب تأثر شعوره فلم يقم للعقل ولا للعدل وزناً، بل تصرف مع بطل الإسلام وسيف الله تصرفاً أملته شهوات هذه الحياة الدنيا؟ أم نصدق الدكتور هيكل الذي يقرر وقائع التاريخ الصحيحة، فيجري على قلمه بقصد أو بغير قصد: أن عمر سما بعقله وقلبه على شهوات هذه الحياة فلم يجعل لها سلطاناً عليه؟!

إلى هنا كان الدكتور هيكل قد بلغ المدى الذي كان يريد أن يبلغه، وهو أن عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد إنما كان إرضاء لشهوة نفسية وحقد شخصي، يضرب بعروقه إلى ثرى الجاهلية الجهلاء: وقد ظل عمر حياته يتسقط لخالد الأخطاء التوافه وهنات الهفوات، ويتلمس له السقطات، ويحصي عليه السيئات، فيرميه بقتل امرىء مسلم حرام الدم، ويرميه بنزوه على امرأته، ويطالب بالقصاص منه أو رجمه، وإذا لم يظفر بكيد لخالد على

يدي أبي بكر، فليكن أول عمل له في دولة الإسلام عزل خالد عن إمارة الجيوش الإسلامية؟ بل عزله عن الجندية في تلك الجيوش التي قادها من نصر إلى نصر، وإنما يصنع عمر ذلك الصنيع ببطل الإسلام سيف الله خالد ابن الوليد لأن عمر واحد من هذا الناس الذين لعواطفهم عليهم سلطان يقسرهم على أن يهدوها قواعد العدل والصدق والمروءة والرجولية ومقتضيات الخلق الكريم، بله الدين، ودين الإسلام وشرائعه.

لو كان هؤلاء الباحثون يكتبون بروح إسلامية لقالوا في سماحة ويسر إن لعمر بن الخطاب سياسة معروفة في عزل الولاة والأمراء، اختطها في خلافته، فقد عزل جماعة من الولاة والأمراء بعد أن حاكمهم، لأن عمر كان يحرص على تركيز السلطة كلها في يديه، ويحب من أمرائه أن يرجعوا إليه في الصغير والكبير والقليل والكثير فأبى عليه خالد ذلك فعزله.

ولكن الدكتور هيكل يأبى أن يرد عزل خالد إلى هذه الخطة في سياسة الحكم، بل يجب أن يكون مرده سوء رأي عمر في خالد وفقدان الثقة الذي يجعل عمر ينسى العقل والدين والمروءة فيتصرف نحو خالد تحت تأثير العواطف الحاقدة وسلطانها والإحن الموروثة ونزواتها، ولا يفوت الدكتور أن يختم نتيجته بهذه الكلمة المدافعة» وبذلك تكشف السر في عزل خالد وتكشف مكان هذا السر من نفس عمر».

لم يشأ الدكتور هيكل أن تكون عبقرية عمر بن الخطاب بلونها الذي أراده رسول الله ﷺ حين نعته بها، ولا بالمعنى الذي عرفه الإسلام في عليا الفضائل ورفيع الأخلاق إذا تكاملت في رجل، ولا بالمعنى الذي أراده المسلمون وعرفوه واقعاً مشهوداً في تكيف عمر بروح الإسلام حساً ومعنى، ولا بصورتها التي اتفق الناس عليها في الشرق والغرب من عدل في الحكم وحكمة في السياسة كانت تستهدف روح الإسلام مما جعلها مضرب المثل في اقتدار هذا الدين القيم على صنع النماذج الحية لفضائل الإنسانية في شخصيات الرجال.

ولكن الدكتور هيكل شاء أن يضفي على عمر بن الخطاب لوناً من العبقرية إن لا يكن الإسلام يعرفه فإن الحياة غير الإسلامية تعرفه لعظمائها،

فهو لون ينظم عمر في سلك هؤلاء الغطارفة الذين تدوي بأسمائهم أرجاء الفضاء وآفاق الأرض من ساسة «قرنهم» العشرين، أو ليس من الوسائل التي تذرع بها هؤلاء الساسة في كسب الرأي العام إلى جانبهم أن يذيعوا في الناس إذاعة لا تعبر تعبيراً صادقاً عن آرائهم في الأحداث والحوادث خشية أن يثور الناس على تلك الآراء، أو إرادة تسكين الخواطر وتهدئة النفوس، فكانوا بذلك عبقريين وعظماء؟؟ فحسب عمر بن الخطاب عظيم عظماء الإسلام أن يجد كاتباً عصرياً يجعله نداً لسائس سواس الإنجليز أو الأمريكان أو حتى البلاشفة ولا عليه أن يعيش كما عاشوا في ظل حياة من الكذب والنفاق والخداع، وكانوا بعد ذلك عباقرة عظماء!!.

عود إلى مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»

لقد كان لعمر بن الخطاب ـ في رأي الدكتور هيكل ـ من هذه العبقرية «المنافقة» حظ وأي حظ، وإذا شئت أن تزداد علماً بحظ عمر من هذه العبقرية فاسمع إلى الدكتور هيكل يقول في فصل عقده تحت عنوان «مصير خالد بعد إخضاع الشام» من كتاب «الفاروق عمر»: «واطمأن عمر إذ برت يمينه ألا يلي له خالد عملاً أبداً؟ ثم لم تثر لعزل خالد عاصفة، ولم يمالىء خالد أحداً على إثارتها، فغلب جانب البر فيه جانب الشدة والبأس، فأذاع في الأمصار «إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه، ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع؛ وألا يكونوا بعرض فتنة» قال الدكتور هيكل معقباً: «أفتعبر هذه الإذاعة تعبيراً صادقاً عن رأي عمر في خالد، وتشهد أنه اقتنع بأن الرجل لم يرتكب إثم الخيانة، ولا إثم الإسراف حين أجاز الأشعث بعشرة آلاف؟ أم إذاعة سياسية قصد بها ابن الخطاب إلى تسكين الخواطر التي ثارت لما أصاب سيف الله تعصباً له وإعجاباً به وخشية أن يجري عمر في سياسته على تغليب الهوى والأخذ بالظنة في أمر بناة «الإمبراطورية» الناشئة!؟ أغلب الظن أنها كانت إذاعة سياسية أريد بها الاعتذار عن أمر أوشك حين وقوعه أن يحدث حدثاً».

هذا نص كلام الدكتور هيكل، ولو أردنا أن نضع النقط تحت الحروف أو فوقها لكان معنى كلام الدكتور الذي لا معنى له سواه، أن عمر ابن الخطاب أذاع في الناس كلاماً لم يقصد فيه، وعند علماء الأخلاق قدر عظيم من النعوت والأوصاف التي تنطبق على صاحب هذا الخلق في الناس، فهل

إلى ذلك قصد مؤلف كتاب «الفاروق عمر»؟. لعل من يفهمون ذلك من كلام الدكتور على حق فيما يفهمون، ولعلهم مخطئون؟. ولكنهم إن أخطأوا وأمعنوا في الخطأ فلن يكونوا مخطئين حين يفهمون أن الدكتور هيكلاً وأضرابه لا يفهمون الإسلام بروح الإسلام، وإنما يكتبون عن الإسلام بأقلام غريبة عن الإسلام أو على الأقل يكتبون بروح تتعبد بتقليد أساتذتهم المستشرقين. ألا ترى إلى هذا اللفظ الضخم الذي اجتلبه الدكتور هيكل من الغرب ليزين به سيرة عمر بن الخطاب إذ يسمي الدولة في عهده، وهو الخليفة الثاني في الإسلام «الإمبراطورية» الناشئة؟ والقارىء المسلم لا بد أن يجفل لسماع هذا الوصف، لا لغرابته على لغة الإسلام، بل لغرابته على حقيقة الإسلام كما يعرفها ذوو العلم من المسلمين الأحرار، ولكن السطحيين من أغرار المسلمين، والمتعمقين في الاستشراق من عبيد التقليد الغربي يهشون لهذا الوصف، ويرون أنه إبداع في التعبير الفخم المفخم لشأن الدولة في شخص «إمبراطورها» عمر بن الخطاب.

ونعود إلى كلام الدكتور هيكل لنجده يذكر بقصد أو بغير قصد في شيء من الصراحة السهوانة أنه يعتمد ويصحح رواية اعتذار عمر عن عزله خالداً وإذاعته في الأمصار أنه لم يعزله لريبة أو خيانة، وكان قد سبق له أنه قال: إنها رواية لا سند لها. وهكذا يكون التحقيق العلمي في وقائع التاريخ؟!

ويمضي الدكتور هيكل في هذا اللون من منطقه «العصري» فيشكك في كل رواية تاريخية تحمل معنى كريماً في تصرف من تصرفات عمر بن الخطاب نحو خالد بن الوليد فلم يرض الدكتور لقلمه أن تفلت منه بمنجى عن الشك والتشكيك روايات تحكي أن عمر بن الخطاب حزن لموت خالد، وخالد قريب لعمر قرابة دانية فهو ابن عم أمه على التحقيق وخاله في عرف الناس، وخالد بعد ذلك سيف الله وبطل الإسلام، يقول فيه عمر نفسه: «إنه كان ليحب الشرف وأهله، وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله» ويقول فيه: «كان والله سداداً لنحو العدو، ميمون النقيبة» فيقول له علي: فلم عزلته؟ فيقول عمر: ندمت على ما كان مني. ويسمع عمر أم خالد تندبه بقولها:

أنت خير من ألف ألف من القو م إذا ما كبت وجوه الرجال

فيقول لها: صدقت، والله إنه لكان كذلك. ويقول فيه: «على مثله تبكي البواكي».

ولكن الدكتور هيكل بعد أن يستعرض هذه العبارات الدامعة الدامية الصادقة في حزنها يقول: «أفكان عمر صادق الحزن على خالد حين خرج عن مألوف رأيه فترك نسوة قريش يندبنه، ثم أظهر الندم على عزله، وقال فيه كل ما قال؟ أم اقتضته مروءته أن يكون مجملاً مع ابن خاله في مماته، ولم يكن مجملاً معه في حياته، فترك النسوة يبكين لعل في البكاء ما يخفف لوعتهن، وقال ما قال ليعزي به بني خالد وأهله، والله أعلم بالسرائر».

يا قوم إلا تكونوا تتقون الله فاتقوا المروءة، وإلا تكون مروءة فاتقوا الشيطان. ثم ألا بقية من حياء؟ عمر بن الخطاب المحسود من أجله الإسلام يقوم في محسد الأبطال كلمات باكية يصف بها بعض حزنه فيأتي «محمد حسين هيكل» ليشكك في حزنه، ويشكك في صدقه؟

هذا في الحق بلاء من البلاء..

الحق أن قارىء كتاب «الفاروق عمر» يخرج من قراءته بصورة لعمر ابن الخطاب عبقري الإسلام وفاروقه وثاني خلفائه الراشدين، جديدة كل الجدة على معارف المسلمين التاريخية، تنكرها عقولهم وتنفر منها قلوبهم، فهل إلى هذا النشاز من الحديث قصد الدكتور هيكل؟ وهل إلى هذا النكر من لغو القول أراد؟ لعل من يفهم هذا على حق ولعلهم مخطئون.

ولسنا ندري ما الذي جعل عمر بن الخطاب يشغل مكانه الممتاز من نفس النبي ﷺ، ويحتل مكانه الخطير في دنيا الإسلام وفي تاريخه، ويتبوأ مكانه العظيم في قلوب المسلمين منذ دخل في الإسلام إلى يوم الناس هذا وإلى أن تقوم الساعة، إذا كان ـ في تصوير الدكتور هيكل ـ لا يعرف الصدق حتى في مقام الموت الذي يسمو بمن مات إلى مقام السيرة المبرأة عن الشماتة والحقد؟. وأيـة فضيلة من الفضائل الإنسانية بله الفضائل الإسلامية تبقى بعد ذلك صادقة الوجود في شخصية عمر بن الخطاب الذي يصوره للناس مؤلف كتاب «الفاروق عمر»؟؟.

إلى هنا ونغض من عنان القلم ليقف، فليس من قصدنا أن نتعرض الآن لغير قضية عزل خالد في كتابي الدكتور هيكل. وأسلوبه فيهما نموذج للطرائق التي عالج بها الدكتور هيكل القضايا الإسلامية في كتبه التي نعتقد أنها من وجهة النظر الإسلامي في حاجة إلى نظرات فاحصة ممحصة، وفي ظننا أننا قد استطعنا بهذا العرض لقضية العزل أن نضع في يد القارىء ما يرد عن الاندفاع وراء الأسلوب الشعري مأخوذاً بجمال التعبير وسبحات الخيال عن حقائق الحوادث من وقائع التاريخ، وبذلك نكشف السر في اتجاه الدكتور هيكل، ذلك الاتجاه في تصوير قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد، ونكشف مكان هذا السر من نفس مؤلف كتابي «الصديق أبو بكر» «والفاروق عمر» ونحن في طريقنا إلى جولة محتسبة في كتاب «حياة محمد» للدكتور الأديب.

الفصل الرابع عشر

تحرير قصة عزل خالد وتحقيق أسبابه

العزل عن الإمارة العامة ـ بين عمر وأبي عبيدة ـ بين خالد وأبي عبيدة ـ العزل عن الجندية إطلاقاً ـ تحرير وضع القصة ـ ليس لقصة ابن نويرة مدخل في العزل ـ تزييف أبطولة الحقد الجاهلي ـ رأي للأستاذ العقاد ـ الأسباب الجدية للعزل ـ حق الحاكم على ولاته ـ سياسة عمر وأبي بكر ـ ليست الحوادث أكبر من عقولنا ـ صلابة الطبع عند عمر وعند خالد ـ افتراق في السلوك والأعمال اصطدام بين طبيعتين ـ وقف الطبيعة الخالدية ضرورة سياسية ـ حقيقة دوافع العزل ـ فتح الباب أمام الكفايات ـ بدء التصادم بين عمر وخالد ـ خالد يأبى أن تقيد حريته في دائرة عمله ـ تقدير عمر لعبقرية خالد ـ طبيعة لا تغالب ـ العزل الثاني وأثره ـ اعتذار عمر ـ سياسة عمرية عامة ـ تسامي العبقريات عن الصغائر ـ عظمة خالدية ـ مظاهر الولاء بين عمر وخالد.

العزل عن الإمارة العامة

عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد مرتين ـ المرة الأولى عزله عن القيادة العامة وإمارة الأمراء بالشام، وكانت هذه المرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة غداة تولي عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق، وكان الكتاب بهذا العزل أول كتاب كتبه عمر مستهلاً به عمله في سياسة الدولة، وولى مكان خالد أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح.

بين عمر وأبي عبيدة

وكان أبو عبيدة حبيباً إلى عمر قريباً إلى طباعه وخلائقه المكسوبة ولا سيما خليقة التخشن والزهادة في الدنيا والتجافي عن مظاهرها، وهي أظهر خلائق عمر الإسلامية التي نبعت منها عظمته في العدل والسياسة، واستطارت جهارته في الحق قولاً وعملاً، وأمر أمير المؤمنين عمر قائده أبا عبيدة أن يسرح جند العراق الذين قدموا إلى الشام في حملة خالد إلى عراقهم تنفيذاً لوصية أبي بكر قبل وفاته، وأمر، أن يحتبس منهم من يحتاج إليه، وقال له: وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى لك عنه.

وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بحق خالد وأعظمهم تقديراً لعبقريته وفضل عقله وشجاعته وكان به حفياً، فقد أخفى عليه كتاب عزله إجلالاً له أن يدخل عليه ما يسوؤه ويروعه حتى علم به خالد من غيره فعاتبه على ذلك.

بين خالد وأبي عبيدة

وكان خالد يعظم أبا عبيدة ويعرف له فضله وسابقته، ورفعة مكانه في الإسلام. روى الإمام أحمد عن عبد الملك بن عمير قال: استعمل عمر أبا

عبيدة على الشام وعزل خالد بن الوليد، فقال خالد: بعث عليكم أمين هذه الأمة. سمعت رسول الله ﷺ يقوله، فقال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خالد سيف من سيوف الله. بفم فتى العشيرة». ولما ولى أبو بكر رضي الله عنه خالداً على جيوش الشام شق عليه فراق العراق وكانوا هابوه هيبة شديدة وكان إذا نزل بقوم عـذاباً من عـذاب الله عليهم وليثاً من الليوث. فلما قرأ كتاب أبي بكر ورأى أنه ولاه على أبي عبيدة، وعلى الشام تسخى بنفسه وقال: أما إذا ولاني على أبي عبيدة فإن في الشام من العراق خلفاً. وكتب إلى أبي عبيدة من بين الأمراء تمييزاً له كتاباً يعلمه بأمر أبي بكر له أن يقوم على جند الشام ويتولى أمرهم، فكان مما قاله خالد في كتابه لأبي عبيدة: «فأنت على حالك التي كنت عليها لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع أمراً دونك، فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك».

وكان أبو بكر قد كتب إلى أبي عبيدة يخبره بإمارة خالد عليه وعلى الأمراء الذين معه، وأمره بالسمع والطاعة لأمره، وقال له: فإني لم أبعثه عليك ألا تكون خيراً منه عندي، ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك. فقابل ذلك أبو عبيدة بالغبطة والابتهاج، وشكر لأبي بكر صنيعه وجزاه الخير وهتف محيياً القائد العبقري بطل الإسلام خالد بن الوليد

العزل عن الجندية اطلاقاً

وقد ظل هذا الود القائم على التقدير الصادق والاحترام والثقة متبادلاً بين القائدين العظيمين لم تكدره شوائب الأثرة التي تصطدم بين المتنافسين على التعظم ببحبح الرياسة وسلطان الإمارة. بل زاده الإيثار الصادق الذي قامت عليه صداقتها قوة ورسوخاً.

ومن الشواهد على هذه الروح العالية ما روي أن أبا عبيدة دفع كتاب توليته وعزل خالد إلى خالد بعد وصوله إليه بنحو عشرين يوماً: فلما قرأه خالد أعظم ذلك فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال له: يغفر الله لك: أتاك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك؟ فقال أبو عبيدة: وأنت يغفر الله لك، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري، وما كنت لأكثر عليك حزنك حتى ينقضي ذلك كله، ثم قد كنت أعلمك ان شاء الله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وإن ما

ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن أخوان وقوام بأمر الله عز وجل، وما يضير الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ودنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعه في الخطيئة لما تعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل، وقليل ما هم».

وقد ظل خالد رضي الله عنه قائد فرقة يعمل تحت امرة أبي عبيدة حتى فتح الله عليه «قنسرين» فولاه أبو عبيدة عليها، وكتب إلى أمير المؤمنين يصف له الفتح وبلاء خالد فيه، فقال عمر قولته المشهورة: «أمر خالد نفسه، رحم الله أبا بكر. هو كان أعلم بالرجال مني».

وقد يتبادر إلى بعض الأفهام من قول عمر: «أمر خالد نفسه» أن خالداً اقتحم إلى هذا الفتح اقتحاماً دون أن تكون هناك خطة موضوعة تحت سمع وبصر القائد العام أبي عبيدة. وهذا بعيد جداً أن يكون من خالد وأن يقبله أبو عبيدة ويرضى به، وإنما يريد عمر رضي الله عنه: أن خالداً فيما أتى به من أفانين الشجاعة وضروب البطولة قد وضع نفسه في موضعها الذي ألفته في المواقع الخطيرة من الإقدام والمخاطرة، ولم ينزل به عن خوالده ألا يكون أمير الأمراء، وقائداً ليس عليه أمير، ومن هنا كانت خصيصة أبي بكر في أعلميته بخصائص الرجال.

وكأنما يعني عمر بذلك أن استمساك أبي بكر بخالد وعدم موافقته على عزله برغم الإلحاح عليه إنما كان عن يقين في مقدرة خالد وعبقريته العسكرية التي لا يغني غناءه فيها إلا آحاد الأفذاذ من أبطال الأمم، وخالد هو خالد في عبقريته وبطولته، سواء أكان أميراً أم جندياً يعمل تحت راية الأمراء، فتأميره حق يفرضه الموقف لخصائصه التي لا تتغير بتغيير العنوان.

وفي «قنسرين» جاء العزل الثاني لخالد، وذلك في السنة السابعة عشرة، فقد بلغ أمير المؤمنين أن خالداً وعياض بن غنم أدربا في بلاد الروم وتوغلا في دروبها ورجعا بغنائم عظيمة، وأن خالداً أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف، فكتب أمير المؤمنين إلى قائده العام أبي عبيدة يأمره بالتحقيق مع خالد في مصدر المال الذي أجاز منه الأشعث تلك الاجازة الغامرة، وعزله عن

العمل في الجيش إطلاقاً، واستقدمه إلى المدينة.

أخذ أبو عبيدة كتاب أمير المؤمنين فتحير في الأمر، لحرصه أشد الحرص على أن لا يحزن خالداً أو يسيء إليه، ولحرصه أشد الحرص على تحقيق واجب السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين، فروى ثم رأى أن حق الطاعة آكد من حق خالد في مودته وصادق جهاده، ولا سيما بعد محنة العزل الأول فقد رأى منه أنبل وأشرف ما تنطوي عليه نفس إنسانية من كريم الخلائق، ورأى منه أصدق آيات الشجاعة وأروع مظاهر العبقرية، فلم تضعف نفسه ولم تفتر عزيمته وقد أصبح قائد فرقة بعد أن كان أمير الأمراء.

ولكن أبا عبيدة لم يكن أقل نبلاً وكرماً من خالد. فقد كان في موقفه هذا حفياً بخالد أبلغ ما تكون الحفاوة، معظمًا له أرفع ما يكون التعظيم. لم يرض أن يلي التحقيق مع خالد بل جلس للناس على المنبر، واستدعى خالداً، وترك بريد الخلافة يتولى التحقيق وترك بلالاً مولى أبي بكر بقوم بالتنفيذ، وانتهى الأمر ببراءة خالد أن يكون مد يده إلى غنائم المسلمين فأجاز منها بعشرة آلاف، ثم ترحل خالد إلى المدينة فودع أهل عمله، وقدم على أمير المؤمنين وعاتبه أجمل عتاب، فأعتبه عمر أكرم إعتاب وقال له: «والله يا خالد إنك عليّ لكريم وإنك إلي لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء».

تحرير وضع القصة

هذه هي وقائع التاريخ التي لا تختلف فيها رواية عن رواية، ولا يماري فيها باحث استشرق أو استغرب، وعلى ضوئها في بساطتها بعيدة عن «الرتوش» وشاعرية الأساليب يجب أن يجري البحث عن أسباب عزل عمر خالداً أولاً وثانياً، ليعلم الناس حقيقة الدوافع العليا في تصرفات رجل كان الحقيقة الكبرى في معجزات التكوين الإنساني مكيفاً بروح الإسلام، ذلك الفحل لا يقدع أنفه، الفاروق عمر بن الخطاب، أول حاكم في الإسلام جعل الشريعة الإسلامية عملاً في واقع الحياة، كان هو نفسه نموذجه الأعلى في أمثلة التطبيق وشواهد التكييف. وإذا أردنا أن نحرر قضية العزل في وضعها الصحيح جاءت على هذه الصورة:

أولاً: عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائد جيوش الشام خالد بن الوليد

عن الإمارة العامة لتلك الجيوش، وأنزله إلى مرتبة قائد فرقة، فعمل تحت إمرة القائد الجديد أبي عبيدة بن الجراح زهاء أربع سنوات.

ثانياً: عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد قواد الكتائب خالد ابن الوليد عن عمله في الجيش كله، وحاكمه في تصرف من المالية.

فما ذلك العزل أولاً وثانياً؟

وما أثر ذلك في نفسي الرجلين العظيمين؟

* * *

ليس لقصة ابن نويرة مدخل في العزل

ليس من المعقول بداهة أن يكون سبب العزل الأول ما زعمه بعض الرواة وتهالك عليه بعض الباحثين من قصة مالك بن نويرة، وزواج خالد امرأته لأمرين:

الأول: أننا زيفنا الروايات التي تعزو إلى عمر بن الخطاب مقالات في هذه القصة لا تتفق مطلقاً مع واقع التاريخ، ولا تتفق كذلك مع أخلاق الرجلين العظيمين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد.

الثاني: أن ذلك ـ على الصورة المزعومة معزوة إلى عمر ـ لو كان هو السبب أو بعض السبب الذي حمل على عزل خالد لما كان هناك وجه مطلقاً في إبقاء خالد أمير فرقة في الجيش، كان يقوم بأمرها أعظم القواد بعد خالد، وكان هو الذي خلف خالداً في الإمارة العامة، بل كان الواجب يقضي بعزل خالد عزلاً نهائياً عن الجيش كله، ثم إقادته بمالك بن نويرة، أو رجمه لنزوه على امرأته.

وإذا كانت إقامة الحد على وجهيه قد فاتت بحكم أبي بكر وتأوله لفعل خالد، فالذي لا يفهم ولا يعقل هو عزل عمر بن الخطاب صاحب تلك المقالات المزعومة خالد بن الوليد صاحب تلك الأفاعيل المزعومة أيضاً، عزلاً جزئياً بتنزيله من منصب الإمارة العامة فقط، وإبقائه عاملاً في الجيش، بل أميراً من أمرائه، وقائداً من قواده، وعمر ـ في زعم ضعفة الرواة ونواسي الباحثين ـ يتهم خالداً في دينه وأخلاقه، ومروءته ورجوليته بتلك التهمة الخطيرة، وهي قتله رجلاً مسلماً معصوم الدم لينزو على امرأته، فلا يصلح

لحمل شرف الجندية في جيوش الإسلام، بله منصب الإمارة فيها، لأن صاحب هذا الخلق لا يؤمن على دم أو عرض أو مال.

وهذه الروايات السقيمة المهلهلة التي هلل بها بعض الباحثين تنسب إلى عمر بن الخطاب أقوالاً توعد بها خالداً إذا صار إليه أمر الخلافة، وها هو ذا يصبح خليفة المسلمين، بيده سلطان الإسلام، يقضي به ما يشاء على من شاء، فلا ترفع بالإنكار عليه رأس، ولا تطرف به عين، فأين ذهبت تلك الإيعادات المرعدة، والأقاويل المهددة؟ أيجوز في زعم هؤلاء أن يزن عمر ابن الخطاب، وهو من هو في الجاهلية والإسلام، بالجبن عن إقصاء خالد وعزله عزلاً كلياً ما دام يتهمه بتلك التهمة الخطيرة؟ وهذا العزل الكلي أدنى ما يستوجبه الحق والعدل، لو صحت تلك التهمة على خالد، أو لو صح اعتقاد عمر صحتها؟ أم يقول هؤلاء: إن عمر بن الخطاب كانت له قبل أن يلي الخلافة سياسة في فهم الدين وتطبيق الشريعة ومعاملة الأشخاص، والحكم على الأشياء، نسيها أو تناساها بعد أن أصبح خليفة المسلمين؟ لم لا؟ أفليس كذلك يصنع الحكام والوزراء في الشرق والغرب في هذا العصر التقدمي؟ بل؛ أو ليس عمر واحداً من هذا الناس الذين لعواطفهم سلطان عليهم يغلب على عقولهم في تصرفاتهم في شؤون الحياة، ولو كانت تلك التصرفات لحساب المسلمين ـ كما يقول بعض الباحثين؟

أم الأمر لا هذا ولا ذاك، ولكنها روايات زائفة صنعها أعداء الإسلام وتلقاها ضعفاء الرواة، وقبلها من تلقوا تاريخ الإسلام بعيداً عن روح الإسلام ومصادر الإسلام؟

تزييف أبطولة الحقد الجاهلي

وإذا كان باطلاً من الباطل أن يكون مقتل مالك بن نويرة وما يستتبعه من سخف نواسي له مدخل أي مدخل في أسباب العزل الأول أي عزل خالد عن الإمارة العامة، فأشد منه إيغالاً في الزيف والعبث ما زعمته بعض الروايات وفرطحه بعض الباحثين من رد أسباب العزل إلى حقد قديم وضغائن جاهلية، سواء أكان مردها ـ في زعم رواتها ومقلديهم ـ تلك الأقصوصة الصبيانية في اصطراع عمر وخالد وهما طفلان يلعبان مع لداتهما من الأطفال، أم كان مردها إحناً أسرية وأحقاداً قبلية. لأن ذلك يبطله ما يبطل مدخلية مالك بن نويرة وزواج امرأته في أسباب العزل.

وإلا فهل قال لنا أصحاب نظرية الحقد الجاهلي بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد لماذا أبقى عمر على خالد قائداً في قواد الجيوش الإسلامية، وأميراً من أمرائها وهو يحقد عليه حقداً موروثاً منذ الجاهلية، وقد واتته الفرصة أحسن ما تكون ليضرب خصمه القديم ضربة تشفي نفسه من أحقادها؟ لعلهم يقولون: إن عمر ذهب في ذلك مذهب كبار الساسة بعيدي النظر وعميقي الغور في الدهاء، فهو يعلم مكانة خالد في الجيش فلم يهجم على عزله نهائياً ليبعده عن العمل إطلاقاً، خشية ثورة الجيش انتصاراً لقائده العبقري سيف الله خالد بن الوليد، ولكن الدكتور هيكل يتبرع بالرد على هؤلاء فيقول: «إن خالداً لم يحقق ما ندبه أبو بكر لتحقيقه، وإذن فهو لا يزال في غمرة الامتحان فلا ثورة تخشى، بل يقول الدكتور هيكل: «إن عمر عزل خالداً في موقف لا يظلمه فيه من يأمر بعزله» أفلا كان هذا الموقف أنسب بالعزل النهائي ما دام الباعث على العزل أحقاداً جاهلية وسوء رأي لا يتصل بالإسلام من قريب أو بعيد؟

رأي للأستاذ العقاد

يقول صاحب «عبقرية خالد»: «وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة في نفس عمر أو لتلك المنافسة التي تستحكم بين الأشباه والنظراء؛ أو لغير سبب من تلك الأسباب التي كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة.

«وأسخف من هذه الظنون أن يسبق إلى الوهم كما سبق وهم بعض المؤرخين أن عمر قد عزل خالداً لبغضاء قديمة، مرجعها إلى الصراع بينهما في أيام الصبا وأن خالداً صرع عمر وكسر ساقه، فلم يزل بقية حياته واجداً عليه، وأجهل الناس بأخلاق عمر من يجمح به الوهم إلى ظن من هذه الظنون.

«فليس بين رجال التاريخ من هو أصعب تخطئه من عمر بن الخطاب؛ لأنه ليس بينهم جميعاً من هو أشد حساباً لنفسه ومراجعة لنياته منه، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس في نفسه نية دخل أو ثأر قديم لكان أثر هذا الإحساس أن يؤجل عزل خالد، ولا يُعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه».

ويقول في كتاب «عبقرية عمر»: «على هذا الوجه وحده ينبغي أن

نتلمس التأويل في محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل، وقل في محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره، وحسابه لنفس أعسر من حسابه للآخرين.

«ففي جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة في موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادمة كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضي الله عنه.

«ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذاً عن خطته مع جميع القادة والولاة لأن الذي صنعه فيها عمر هو الذي كان ينتظر أن يصنعه سواء كان القائد خالداً أو كان رجلاً غيره.. وهذا الذي ينفي الشذوذ والحيف، أو ينفي المعاملة الخاصة التي تكيل للناس بكيلين، وتزن بميزانين، وتنظر إليهم بنظرين مختلفين.

«عزل عمر خالداً وهو سيف الإسلام وبطل الجزيرة والشام، وإذا كان لا بد لخالد من عازل أو قاض عادل فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر ابن الخطاب... هو على قدر عزله بلا مراء وهو قدر كبير.

«فقال أناس: منافسة الند للند: والشبيه للشبيه، وقال أناس: عزله لغير خطأ أتاه، وقال أناس: إنها ترة قديمة، ولولاها ما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله، وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده.

«والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها إلى حدسهم، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خلق، وخلق، توحي الظن بالتنافس والملاحاة، وكانت مشابهة خالد لعمر في خلقته تلتبس على بعض الناس، فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد.

«فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته، وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة، ويعلمهم «أنه لم يعزله لسخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به»... قال: «فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة».

ولما سأله خالد في ذلك قال له؟ «إن الناس فتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس».

«فمن شاء أن يخبط بالظن هنا فليخبط ما شاء، وله شبهة فيه، ولكنه لا يرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه، ويوقن أن عمر لم يحاسب خالداً بميزان غير الذي حاسب به جميع القادة والولاة، وإن المدهش الحق أن يبقيه في الولاية والقيادة بعدما أخذه عليه، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين».

وهذا كلام جيد جداً، يقوم على تحقيق في البحث ودراسة الشخصيات من طريق تعرف خصائصها الثابتة حتى تكون تلك الخصائص ميزاناً صادقاً لنقد الروايات المتضاربة، ومن ثم يكون الباحث بمنجاة من الحيرة في التصويب والتزييف، ويكون أيضاً أقرب إلى العصمة عن الانزلاق إلى تلقف الأقاصيص والروايات التي قد توافق هوًى خفيًّا في النفس، وإن كانت تخالف وقائع التاريخ. وخاصة هذا المنهج - في نظرنا - استقراء مقومات الشخصية عن طريق واقعها التاريخي، والموازنة بين الروايات على أساس تلك المقومات، ولا يتم الاستقراء والموازنة إلا بعد الإحاطة بجميع ما ردده التاريخ حول تلك الشخصية في سيرتها من الحياة، وهو منهج في دراسة الشخصيات يعطيك الحقائق التاريخية من أقرب طرائقها، حتى ليخيل إليك قبل التأمل أن البحث يعوزه الاستقصاء الروائي، ولو كانت النتيجة لا تتغير. وهو منهج - كما فهمناه - يزيدنا إيماناً بما أسسنا عليه طريقتنا في هذه البحوث.

الجدية للعزل

وإذا انتهى البحث إلى إقصاء قصة مالك بن نويرة ولواحقها من الهذر النواسي، وكذلك إقصاء قصة الحقد الجاهلي عن أن تكون واحدة منها لها مدخل من قريب أو بعيد في أسباب عزل عمر خالداً فلنبحث عن الأسباب الجدية التي أدت إلى ذلك العزل، ومن هنا يتصل الكلام في العزل الأول بالكلام في العزل الثاني، ويصبحا أمام البحث حادثاً واحداً ظهر في صورتين.

حق الحاكم على ولاته

كان من اليسير أن نقول إن من حق كل حاكم جديد يقوم بأعباء الحكم في أمة من الأمم ألا يلزم بالعمل مع عمال سلفه في الحكم، وألا يلتزم نظمه وطرائقه في الحكم، ما دام قائمًا في حكمه على حدود النصوص

التي لا مدخل للاجتهاد فيها، لأن لكل حاكم عقلاً وتفكيراً وتوجيهاً، وتقديراً للأمور، وفهمًا للحوادث والأشياء، ووزناً للأشخاص، يختلف كثيراً أو قليلاً عن خط سلفه من هذه الأمور، وهذا الاختلاف بين الحاكمين في سياسة الحكم، له يد كبرى فيما يطرأ على الأمم من تقلبات، وما يمر بها من أطوار اجتماعية، تنقلها من مرحلة في التاريخ السياسي والاجتماعي إلى مرحلة أخرى، تعلو بها أو تسفل تبعاً لروح الحاكم واستعداد الأمة إلى أن تبلغ مداها المقدر لها في الحياة، ثم يعتريها الفناء على صورة من الصور التي تجدد بها الجماعات والأمم.

سياسة عمر وأبي بكر

تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر الصديق، وهما من طبيعتين مختلفتين في خصائص الحاكمين، تمثل كل طبيعة منهما لوناً من السلطان والحكم في سياسة الأمة، ولكنه لون لا يخرج بصاحبه عن طبيعة الإسلام وروحه كما فهمه ورآه وسمعه تطبيقاً عملياً من رسول الله ﷺ.

ذكر الطبري: أن أبا بكر دعا في مرضه الذي توفي فيه عبدالرحمن بن عوف، وقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب؟ قال عبدالرحمن: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلمنا به، قال أبو بكر: وإن؟ قال عبدالرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة، قال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقاً» وهذا تصوير دقيق صادق لاختلاف طبيعتي الخليفتين، وكانت مظاهر اختلافهما تبدو في حياة النبي ﷺ فيحسم الأمر بما يريه الله تعالى، ومن أوضح شواهده موقف الشيخين في قصة أسرى بدر، وموقفهما في صلح الحديبية. ذكر القرطبي من رواية يزيد بن هارون عن عبدالله بن مسعود قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك؛ استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: انظر وادياً كثير الحطب فاضرمه عليهم، فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك، فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً؛ فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه، وقال أناس: يأخذ بقول عمر؛ وقال أناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى

تكون ألين من اللبن، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك أبا بكر مثل إبراهيم، قال: «فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم». ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق».

ولما تولى أبو بكر الخلافة وأصبح في يده حكم الأمة وسياستها وازره عمر أصدق المؤازرة، ولكنه كان يختلف معه في بعض الأمر فيرجع إليه أبو بكر تارة وتارة، ويرده إلى سلطان الحكم مرة ومرة؛ اختلفا في قتال المرتدين، فكان أبو بكر يوجبه ويتشدد فيه، وكان عمر لا يراه، فرده أبو بكر إلى رأيه في حزم وقوة، وكان من أظهر مواضع اختلافهما مدى السلطة التي تعطى للعمال والولاة والقواد في الأنحاء التي يكونون عليها حاكمين باسم الخلافة. فأبو بكر كان من سنته مع عماله وأمراء عمله أن يترك لهم حرية التصرف كاملة في حدود النظام العام للدولة مشروطاً ذلك بتحقيق العدل كاملاً بين الأفراد والجماعات، ثم لا يبالي أن يكون لواء العدل منشوراً بيده أو بيد عماله وولاته، فللوالي حق يستمده من سلطان الخلافة في تدبير أمر ولايته دون رجع في الجزئيات إلى أمر الخليفة، وكان أبو بكر لا يرى أن يكسر على الولاة سلطانهم في مال أو غيره ما دام العدل قائماً في رعيتهم.

وأما عمر بن الخطاب فكان يرى أنه يجب على الخليفة أن يحدد لأمرائه وولاته طريقة سيرهم في حكم ولاياتهم، ويحتم عليهم أن يردوا إليه ما يحدث حتى يكون هو الذي ينظر فيه ثم يأمرهم بأمره، وعليهم التنفيذ، لأنه يرى أن الخليفة مسؤول عن عمله وعن عمل ولاته في الرعية مسؤولية لا يرفعها عنه أنه اجتهد في اختيار الوالي. فلما تولى الخلافة خطب الناس، فقال: «إن الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني بعد صاحبي فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن الجزء والأمانة، ولئن أحسنوا ـ الولاة ـ لأحسنن إليهم، ولئن أساؤوا لأنكلن بهم» وكان يقول: لو

أن عناقاً بشط العراق ضاعت لحسبت أني مسؤول عنها، وكان يقول: أيما عامل لي ظلم أحداً وبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته، ويقول: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما علي؟ قالوا: نعم. قال: لا، حتى أنظر في عمله ، أعمل بما أمرته أم لا؟

ثم نظر عمر فرأى عمال أبي بكر وأمراءه يسيرون على السيرة التي عودهم إياها أبو بكر من الاستقلال في الرأي وحرية التصرف فيما تحت أيديهم من عمل الدولة وأموالها، فأراد أن يكفهم، ويعدل بهم إلى سيرته ومذهبه، فرضي بعضهم وأبى آخرون، وكان ممن أبى عليه ذلك خالد ابن الوليد.

روى ابن حجر في الإصابة عن مالك بن أنس. أن عمر لما ولي الخلافة كتب إلى خالد ألا تعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمري، فكتب إليه خالد إما أن تدعني وعملي، وإلا فشأنك بعملك، فقال عمر: ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه، فعزله، ثم كان يدعوه إلى العمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما شاء فيأبى عليه.

فعزل عمر خالداً من وجهة سياسة الحكم وحق الحاكم في تصريف شؤون الدولة ومسؤوليته عنها، طبيعي يقع كل يوم مثله في الحياة، ولا يبدو فيه شيء غريب يحتاج إلى بيان أسباب تجاذبها روايات وآراء وميول وأهواء ونزعات. فعمر بن الخطاب خليفة المسلمين في عصر كان الناس فيه ناساً لا يزالون يستروحون روح النبوة، له من الحقوق الأولية أن يختار من الولاة والقادة من ينسجم معه في سياسته ومذهبه في الحكم ليعمل في سلطانه ما دامت الأمة غنية بالكفايات الراجحة. فليس لعامل ولا قائد أن يتأبد في منصبه، ولا سيما إذا اختلفت مناهج السياسة بين الحاكم والولاة، ما كان هناك من يغني غناءه ويجزي عنه.

وقد أثبت الواقع التاريخي أن عمر رضي الله عنه كان موفقاً أتم التوفيق وقد نجح في سياسته هذه نجاحاً منقطع النظير، فعزل وولى، فلم يكن من ولّاه أقل كفاية ممن عزله، ومرد ذلك لروح التربية الإسلامية التي قامت على أن تضمن دائماً للأمة رصيداً مذخوراً من البطولة والكفاية

السياسية الفاضلة. وكان يسيراً على البحث أن يذهب في قصة عزل خالد هذا المذهب ولكن التاريخ شاء وشاء معه ميل في بعض الناس أن ينظر لهذه القصة نظراً يبعد بها عن البساطة واليسر؛ ويدخل بها في مضائق «التعليل» الذي لا يرضى بتبرئة عمر إلا بتأثيم خالد، ولا بتبرئة خالد إلا بتأثيم عمر، كأنما التأثيم ضربة لازب لواحد من الرجلين العبقريين.

ولسنا ندري ما الذي يضير الحياة إذا انتهى البحث بالرجلين العظيمين إلى مكانهما من السمو والعبقرية؟ لا شيء سوى أن البحث حينئذ لا يكون - في نظر تلامذة الاستشراق - بحثاً «حديثاً» مشمولاً برعاية «الحرية الفكرية». وأهون بذلك - عندنا - داهبا مع همسات النسائم أو لفحات السمائم إذا بلغ بنا البحث مستقره من اليقين.

* * *

ليست الحوادث أكبر من عقولنا

فليمض البحث في طريقه، ولينظر إلى عزل خالد كحادث يجب أن يوضع موضع المحاكمة، ولنباعد من تفكيرنا أننا أصغر من أن نحكم بين فذي العبقرية الإسلامية عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد؛ لأننا في الحق إنما نحكم على حادث من حوادث التاريخ ولا نحاكم عمر ولا خالداً؛ ولأنه لا يضير عمر ولا يضير خالداً أن يكشف البحث عن وجه الحق في حادث يرتبط بهما، وإنما يضيرنا نحن ويضير التاريخ معنا أن نسكت عن الحادث التاريخي تتجاذبه الأهواء والروايات الزائفة كما يضيرنا ويضير التاريخ معنا أن نخطىء في تقدير عمر وخالد. فالحادث كيفما كان ليس أكبر من تفكيرنا، لأن إسلامنا الذي هو مادة الفكر للشخصية الإسلامية، فتح للعقل البشري أبواب البحث في الوجود كله على مصاريعها، ولا شك أن الوجود أعظم من الحوادث والأشخاص. بل إن الإسلام رقي بالعقل البشري إلى معارج أسمى من هذا الوجود المنظور، رقي به إلى النظر في جلال الله وصفاته القدسية.

فالذين يقفون بالعقل الإسلامي عند سفح الحوادث التاريخية استكباراً للشخصيات المرتبطة بها يغلطون، فيخلطون بين الحوادث والناس؛ وينزلون بذلك العقل عن منزلته ولا يقدرونه حق قدره، بل هم يخطئون في فهم روح الإسلام بوضعهم حوادثه التاريخية وأشخاصه موضع القداسة التقليدية التي تخشى البحث وتفرق من النقد، وهذا طرف في الاتجاه ليس بأقل خطراً من

الطرف الآخر الذي لا يرى أن يرفع حادثاً أو شخصاً عن مزالق التأثيم والتجريح، وليس هذا ولا ذاك من النصفة في البحث المستقيم.

صلابة الطبع عند عمر وخالد

كان بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد تقارب شديد في الطبائع الأصيلة الثابتة، وكان بينهما اختلاف شديد في الأخلاق المكسوبة، فيجمعهما الصلابة، والأيد في الطبع المركوز، ويفرق بينهما السلوك في الحياة.

وصلابة الطبع عند عمر تجلت في مواقف عديدة على عهد النبي ﷺ، فقد تجلت في موقفه من الإسرار بالدعوة، وفي طريقة إعلان إسلامه للملأ من قريش وفي الطريقة التي هاجر بها من مكة إلى المدينة، وفي موقفه من أسارى بدر ورأيه فيهم، وفي موقفه من النبي ﷺ وقد تهيأ للصلاة على عبد الله بن أبيّ بن سلول، وفي موقفه من صلح الحديبية وحديثه مع رسول الله ﷺ، ثم مع أبي بكر في شأن هذا الصلح حتى قال عمر نفسه: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به.

وتجلت صلابة طبعه في موقفه من أمهات المؤمنين وكن حول رسول الله ﷺ يطلبن إليه ويكثرن عليه في النفقة وزينة الحياة الدنيا. وفي موقفه في بيعة أبي بكر من الأنصار وبني هاشم وفيهم عليّ وبجانبه فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

في كل موقف من هذه المواقف مثل من أمثلة الطبع الصليب والأيد الذي لا يلين عند عمر. وقصة إسلامه مثل كامل يجمع بين مثلين في تصوير صلابة الطبع. مثل في مبدئها يصور عمر في جاهليته المتغطرسة. ومثل في نهايتها يصوره في إسلامه الشامخ بعزة الإيمان وقوة الاعتداد بالعقيدة التي دان لها بقلبه وعقله وروحه وجسمه.

وقد كان هذا الخلق في عمر معروفاً مشهوراً حتى قال طلحة ابن عبيد الله لأبي بكر حين عهد إلى عمر: استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه. فكيف به إذا خلا بهم؟.

ووصفه عبدالرحمن بن عوف حين سأله أبو بكر عنه فقال: هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة. وكان عمر نفسه يحس هذا الشعور نحوه من الناس. فكان يقول على ملئهم: اللهم إني غليظ فليني.

وبلغ من هيبة الناس له أن الرجال تفرقوا عن مجالسهم بالأفنية لما تولى الخلافة حتى ينظروا ما يكون من أمره، فخطب الناس فقال: «بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا. ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه. فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك فقد صدق. فقد كنت مع رسول الله ﷺ، فكنت عبده وخادمه. وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة. وكان كما قال الله: ﴿ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ﴾ فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض. والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد. ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه فكنت خادمه وعونه. أخلط شدتي بلينه. فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد. ثمْ إني وليت أموركم أيها الناس. فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين. فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض. ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق. وإني بعد شدتي في تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف والكفاف».

أما صلابة الطبع وقوة الأيد عند خالد بن الوليد. فقد كانت حياته كلها مثلاً واحداً لها فهو رجل نهد على الحرب لم يفارقها في جاهلية أو إسلام. شب وفي يده أعنة الخيل. وقيادة الجند، ألفت نفسه القتل والقتال في الهجوم والدفاع وألفت نفسه الدماء تسيل. والرؤوس عن الأعناق تميل. وهو الذي يقول لما رأى صبر أهل «أليس» وشدة كلبهم في حربه: «اللهم إن لـ علي إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نـ رهم بدمائهم» ولما نزل أهل «قنسرين» على رأيه ـ وكانوا قد اعتاصوا عليه وتأبوا ـ فطلبوا منه الصلح. أباه عليهم إلا على إخراب مدينتهم فأخربها ولما أمره أبو بكر بالتوقف عن الهجوم، وهو في الحيرة، ليستجم جنده ويدبر أمر ما فتح من البلاد. ويحمي ظهره. أقام سنة لا يقاتل. فقال: ألا إنها سنة

كأنها سنة نساء.

وقد فرقت الحياة بين عمر وخالد في السلوك والأعمال.

افتراق في السلوك والأعمال

فعمر بن الخطاب كان مع النبي ﷺ وزيراً ومشيراً. وكان مع أبي بكر سنداً ومعيناً. ثم كان بعده خليفة يرعى أمور المسلمين ويسوسهم بسلطان الله. فهو رجل سياسة وتفكير.

أما خالد فسلوكه في الحياة وعمله فيها لم يختلفا في شيء عن طبعه الأصيل. فقد ظل حياته في الإسلام كما كان في الجاهلية قائداً عسكرياً يخوض الغمرات ويقتحم الميادين يقاتل ويقتل. وهي حياة تتجاوب مع ما له من طبع صليب وخلق أيد، ينفر من القيود، ويميل إلى الحرية. ولم يتعود أن يؤمر فيطيع، ولكنه تعود أن يأمر فيطاع. يقوم أمره على السرعة الحاسمة والضربة القائمة. لا يتلبث للعقبات يداورها أو يحاول التفادي منها ولكنه يواجهها مواجهة المحارب حتى يهزمها. صريح صراحة يحسبها من لم يرزه جفوة وغلظة. تزدهيه الشدائد وتطربه. ويحرص على الموت في مظانه ويطلبه. يصف نفسه ويذكر أحب شيء إليه في الحياة فيقول: «ما ليلة يهدى إلي فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام، أحب إليَّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح فيها العدو، فعليكم بالجهاد».

وهو إذ يعزم السير إلى مالك بن نويرة بالبطاح بعد فراغه من أسد وغطفان، وتتوقف الأنصار عن متابعته، وهم كتيبة الإسلام في الصبر عند اللقاء لا يثنيه توقفهم عن عزيمته. ولكنه يمضي قدماً فيقولون له: ما بهذا عهد إلينا الخليفة. بل عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا. فيجيبهم جواباً ينتزعه من طبعه الأصيل في تقديس الاستقلال في الرأي وحرية التصرف فيقول: «إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إلي أن أمضي، وأنا الأمير وإلي تنتهي الأخبار. ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها. وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا به لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به». وفي خطبته التي جمع بها الأمراء يوم اليرموك تحت لوائه لون من ألوان ذلك الطبع الأصيل.

أما سلوك عمر في حياته فكان يتطلب منه طبيعته الصليبة. فوجه ذلك إلى قهر رغائبه من الحياة الدنيا وزينتها. واشتد في ذلك بما يناسب ما انتهى إليه أمره من تبوئه أرفع مكان في الإسلام يرنو إليه أعظم أملاً في تاريخ الحياة. فكان يرى أنه المثل الأعلى في التأسي به. ولو خاض غمرات الدنيا لخاض وراءه الناس. فملك أمره، وساس نفسه قبل أن يسوس الناس. وكان يرى أن يكون ولاته وأمراؤه في أقطار الإسلام على سنته زهادة في الدنيا وتجافياً عن زخارفها. وكان يقول لهم: «يا معشر الأمراء: إن هذا المال لو رأينا أنه يحل لنا لأحللناه لكم. فأما إذا لم يحل لنا وظلفنا[1] أنفسنا عنه فاظلفوا عنه أنفسكم». فكان حريصاً أشد الحرص على تعرف أحوالهم والاطلاع على تصرفاتهم اطلاعاً كاملاً وتقييدهم بأوامره.

وليس من شك في أن للبيئة الخاصة، أي البيت والأسرة، أثراً في سلوك كل من عمر وخالد. فعمر بن الخطاب لم ينهد في بيت ثراء وسعة في الرزق وكثرة في المال. بل شب على التقشف وخشونة العيش. فلما بلغ في الإسلام ما بلغ راض نفسه على أشد مما كان عليه في بيئته الخاصة، بيته وأسرته، استجابة لمقتضيات منصبه من التأسي به باعتباره مثلاً أعلى للفضيلة الإسلامية.

أما خالد فقد نهد في بيئة يكنفها ثراء المال وعز الجاه، وهما من أهم أسباب الاعتداد بالنفس الذي يبدو لأول نظرة أنه لون من ألوان الزهو والخيلاء، ينال المتعة من أدنى سبلها، فلما بلغ في الإسلام ما بلغ لم يمنعه وهو في مكانه من الإسلام أن يستجيب للمتعة إذا رضي عنها الإسلام وقرت بها عين شريعته، فإذا انضم هذا إلى خصائص خالد الذاتية عرفنا مقدار ما بين الرجلين العظيمين من تباعد في وسائل الاتفاق.

وأدنى ما بينهما في التمثيل أن عمر بن الخطاب يمنع نفسه طعاماً شهياً ليس فيه أدنى شبهة مخافة أن يقال له يوم القيامة «أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها». وخالد بن الوليد لا يبالي أن يدخل الحمام فيتدلك بغسل فيه خمر فتتها وأذهب خمريتها، أو أن يعرس ببنت مجاعة بن مرارة

(١) ظلف نفسه: منعها.

الحنفي، وجراحه لا تزال تنطف دماً من سيوف قومها.

اصطدام بين طبيعتين

ومن هنا بدأت طلائع الافتراق بين عمر وخالد، لأن طبيعة خالد العسكرية ظلت على صلابتها وإلفها للاستقلال الكامل وحرية التصرف في عمله الذي أسند إليه، وعمر لا يرضيه ذلك استجابة لطبيعته وسلوكه في الحياة، فكان اصطدامهما أشبه باصطدام الحديد بالحديد، لأنه اصطدام طبيعتين من نوع واحد اتجها في الحياة اتجاهاً مختلفاً، فأرادت كل طبيعة منهما الاحتفاظ بخصائصها، وقد كانا في مكانين من الدولة ليس فوقهما مكان فعمر خليفة المسلمين وخالد قائد جيوش المسلمين، فلا مفر إذاً من أن تقف إحدى الطبيعتين عن سيرها ليفرغ الأفق للأخرى حتى تأخذ مجالها الحيوي في النهوض بالأمة.

وقف الطبيعة الخالدية

وكان طبيعياً بمقتضى منصبي الرجلين العظيمين أن تقف الطبيعة الخالدية لتترك المجال للفاروق، لأن خالداً كان قد بلغ مداه في مكانه من الدولة؟ أما عمر فكان قد بدأ أشواطه، ولما يبلغ المدى المقدر له في مكانه من الدولة، ومن عجائب التوفيق في تاريخ هذه الأمة أن عمر بن الخطاب لم يعوض في مكانه إذ خلا منه، ولكن خالداً لم يفرغ مكانه من مثله أيام عمر، وكأنما كانت عبقرية خالد الغامرة حجاباً انسدل دون عبقريات فياضة بالبطولة، حتى إذا وقفها ابن الخطاب وهي مستولية على الغاية القصوى في العظمة انكشف الحجاب وتراءت شمائل في القيادة العسكرية لعديد من أبطال الإسلام، كانوا كلهم خالد بن الوليد في قوّته وبطشه وظفره ويمن نقيبته.

حقيقة دوافع العزل

فحقيقة المسألة في دوافع عزل عمر خالداً أن طبيعتي الرجلين العظيمين كانت من نوع يعسر معه أن تستجيب إحداهما للأخرى، وليس هناك شك ولا تخون ولا سوء رأي، ولا ضغائن جاهلية، ولا اتهام بانتهاك حرمات الشريعة، وشرائع الحق والعدل والتقوى، وإنما هناك قوة مسيطرة بسطت الخلافة الراشدة سلطانها على الأمة الإسلامية في شخص عمر بن الخطاب؛ صادفت هذه القوة أمامها قوة أخرى مسيطرة بسطت الوقائع المظفرة سلطانها على الأمة الإسلامية في شخص خالد بن الوليد، وحق الخلافة في بسط سلطانها مستمد من الأمة بوحي الدين والشريعة، وحق القيادة الظافرة في

بسط سلطانها مستمد من الوقائع في ميادين القتال، والأمة قد استوحت دينها وشريعتها فمنحت حق السيطرة عليها بسلطان الخلافة الراشدة لعمر بن الخطاب، وهذا حق لا يتعـدد، فليس من الجائـز أن تمنح هذا الحقل لغير عمـر ما دامت يد عمر مبسوطة به في كفاية وغناء، بيد أن حق الوقائع المظفرة في منح السيطرة للقيادة الناجحة حق يتعدد بتعدد الكفايات والاستعداد، أو هو حق يجب أن يتعدد، ويأبى التفرد عند الأمم الناهضة، فالأمة الحية الناهضة تتسع لعشرات الأبطال من القـواد ذوي الوقائع الظافرة، ولكنها لا تتسع لغير خليفة واحد يسوس أمرها بميـزان واحد من العدل.

فتح الباب أمام الكفايات

وإذا كان خالد بن الوليد قوة باهرة من الكفاية والغناء في باب البطولة والقيادة العسكرية، فليس من الخير لأمة ناشئة ناهضة أن توكل إلى كفاية رجل وغنائه مهما بلغ من العبقرية، بل الخير كل الخير أن يفتح الباب لغيره من أهل الكفايات والغناء حتى يكون للأمة رصيد من البطولة تنفق منه عند الحاجة.

وقد يتساءل الباحث: أليس من الخير للأمة أن تتجمع لها هذه الكفايات في العمل متياسرة لتكون نتائج أعمالها في سواد عظمتها مجتمعة؟!

قلنا نعم، إذا أمن الإصطدام بين القوى المسيطرة على مقومات الدولة، والعاملة على تشييد صرح الإسلام، ولكن الاصطدام وقع بين أعلى قوتين في الدولة، قوة الخلافة والحكم ممثلة في الطبيعة العمرية، وقوة القيادة العسكرية ممثلة في الطبيعة الخالدية، وما من شك في أن هذا الاصطدام بين هاتين القوتين لو مد في حبله لأدى إلى كارثة لا يعلم مدى ما تصيب من كيان الأمة ونظام الدولة إلا الله تعالى، فكان من الخير والمصلحة تنحي إحدى الكفايات عن مكانها ليتخرج في ميدانها أقرانها.

بـدء التصادم بين عمر وخالد

وقد بدأ التصادم بين عمر وخالد في خلافة أبي بكر، لأن عمر ـ وكان وزير أبي بكر ـ كان يريد أن يطبق سياسته المستمدة من طبيعته في سلطان أبي بكر، ولا نقصد ـ طبعاً ـ هنا إلى شيء مما تناقلته روايات زائفة محمولاً على لسان عمر في قصة مالك بـن نويرة، ولا إلى ما تخيله النواسيون في أقصوصة زواج خالد بامرأة مالك بعد قتله بكفره وإلحاده ـ وإنما نقصد إلى ما هو ثابت

في روايات هي أرجح عندنا ميزاناً، لأنها لا تخرج بالخلاف بين الرجلين العظيمين عن حقيقته الجدية إلى ضرب من السخف الصبياني أو عبث الفارغين من أرباب البطالة المترفين، بل هي روايات ترد الخلاف بينهما إلى خلاف بين طبيعتين قويتين، وقوتين عظيمتين مما يلائم حياة عمر وحياة خالد في خطوطهما الأصيلة الثابتة الخالدة.

قال ابن حجر في الإصابة: وكان سبب عزل عمر خالداً ما ذكره الزبير ابن بكار قال: كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً، وكان فيه تقدم على أبي بكر، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر؛ أقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته، فكره ذلك أبو بكر، وعرض الدية على متمم بن نويرة، وأمر خالداً بطلاق امرأة مالك، ولم ير أن يعزله؛ وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد.

فالذي كرهه عمر من خالد هو قسم المال في أهل الغنائم، دون أن يرفع إلى الخليفة حساباً بما صنع، وأنه كان يفعل أشياء لا يراها الخليفة، مثل قتل مالك بن نويرة وزواجه بامرأته، وقد أسلفنا وجه ما صنع أبو بكر في مؤاساة متمم أخي مالك بإعطائه شيئاً من قبيل الترضية، وتسمية ذلك في عبارات الرواة دية توسعة في اللفظ، وفي أمر أبي بكر خالداً بطلاق امرأة مالك إقرار لصحة هذا الزواج، وإلا فما معنى الطلاق لو لم يسبقه زواج صحيح؟! وما معنى إقرار صحة الزواج لو لم يكن قتل مالك في نظر الخليفة - على الأقل - لا تأثيم فيه على خالد؟! وإنما أمر أبو بكر خالداً بطلاق امرأة مالك تأديباً وزجراً له على تقدمه في أمور لها منافذ من التأويل.

خالد يأبى أن تقيد حريته في دائرة عمله

فلما تولى عمر بن الخطاب الخلافة وأصبح مسؤولاً عن كل حركة في الدولة الإسلامية كتب إلى خالد يأمره ألا يتصرف في شيء من المال قل أو كثر إلا بأمره وإذنه، فرد عليه خالد أمره وجعل حريته عدل منصبه، وكتب إليه بمثل ما كتب إلى أبي بكر: إما أن يدعه وعمله مطلق اليد، مستقل الرأي، حر التصرف في دائرة عمله، وإلا فشأنه وعمله يولي عليه من يشاء، فأبى عليه عمر، وقال: ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه، فعزله عن الإمارة العامة، وجعله أميراً على فرقة أكبر القواد وأمثل الأمراء وقائد القواد.

وقد عرف الناس ما بين عمر وأبي عبيدة من انسجام كامل في السلوك والأخلاق المكسوبة، على ما بينهما من اختلاف في الطبع الأصيل، لأن أبا عبيدة كان من لون الطبيعة الصديقية ليناً ورحمة، ودعة ودماثة، وهذا الاختلاف كان عوناً على الانسجام في السلوك والأعمال، فقد كان أبو عبيدة رجل سلم وتسليم، ما لم تنتهك حرمات الله، لا يبالي الدنيا وسلطانها وزخارفها، ومن ثم كان عمر شديد الإعجاب به والحب له.

تقدير عمر لعبقرية خالد

وفي هذا التصرف من عمر حكمة سياسية عظيمة نعتقد أنه قصد إليها؛ ذلك أنه أظهر بهذا التصرف الحكيم تقديره الصادق لعبقرية خالد الحربية، ولا شك أن عمر في منصب الخلافة إنما يعمل لحساب المصلحة العامة التي تستهدف خير الإسلام والمسلمين، وأظهر خلائق عمر بن الخطاب العملية التي انفرد بها في التاريخ أنه جعل من شخصه وأسرته «وسيلة إيضاح» لتحقيق المصلحة العامة في نصوص الشريعة الإسلامية من وجهة التطبيق العملي.

والمصلحة العامة التي استهدفها عمر هي التي جعلته يقف بعزل خالد عند عزله عن الإمارة العامة، ويترك له مجال العمل - فيما هو من خصائص عبقريته - متسعاً. لأن الباعث الحق على العزل هو تجنب اصطدام القوتين الأساسيتين في نظام الدولة بالحد من حرية خالد، وخاصة في التصرف المالي، وكان أهم الأعمال عند عمر، فيكفيه أن يجعل فوقه أمير يرجع إليه، فلعله بذلك يضمن عدم اندفاعه فيما لا يوافق سياسة الخلافة الجديدة.

وفي استمرار خالد يعمل قائداً تحت لواء أبي عبيدة وإمرته زهاء أربع سنوات بالروح التي كان يعمل بها وهو أمير الأمراء، فتبلغ عمر عجائبه ومعجزات شجاعته فيثني عليه ويقرظه أبلغ تقريظ، ويمجده أعظم تمجيد، أوضح دليل وأبلغه على أن عمر رضي الله عنه، إنما قصد بتنحية خالد عن الإمارة العامة الحد من طبيعته الفوارة المندفعة لينسجم معه في سياسته العامة في وقت بدأت تستقر فيه معالم الدولة، فهي في حاجة إلى أناة مسالمة، فإن لم تغن أغنت عنها كتائب الأبطال من جند الإسلام.

ولذلك لم تحدث تلك التنحية أثراً في نفوس المسلمين، ولم يرفع أحد

رأسه بإنكارها والاحتجاج عليها، لأنهم رأوها عملاً من أعمال الخلافة التي تقصد منها إلى حفظ التوازن بين القوى العاملة في بناء الدولة، ولم يروا فيها عملاً يقصد إلى الحط من شأن القائد البطل خالد بن الوليد، ولا إلى حرمان جيوش المسلمين من عبقريته الجياشة المظفرة لأن خالداً لا يزال في مكانه من ميدان الجهاد، وهو إذا كان «رسمياً» قد وضع تحت إمرة أبي عبيدة فإن ذلك لم يغير من مكانه في إدارة دفة الحرب، فأبو عبيدة يعرف قدره، فكان لا يخطو إلا برأيه، وكان عمر نفسه حريصاً على أن يقف أبو عبيدة من خالد موقف التقدير لعبقريته، فقد أمره أن يحبس خالداً عن الرجوع إلى العراق مع جنده الذين وفدوا معه، لإغاثة جند الشام، وقال له: «إنه لا غنى بك عنه».

ولم يكتف عمر بذلك، بل كان يرى أن يلازم خالد أبا عبيدة، فيكون معه أينما توجه؛ ذكر أبو جعفر الطبري: أن أبا عبيدة كتب إلى عمر يستشيره أيبدأ بالهجوم على «فحل» وفيها جموع المنهزمين من الروم، أم يبدأ بدمشق وقد أمدها هرقل بمدد من أهل حمص؟ فكتب إليه عمر يقول: «أما بعد فابدأوا بدمشق، فانهدوا لها، فإنها حصن الشام، وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل «فحل» بخيل تكون بإزائهم في نحورهم؛ فإن فتحها الله عليكم قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على «فحل» فإن فتحها الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمراً، واخلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته». فهذا الحرص من عمر بن الخطاب على أن يكون خالد إلى جانب أبي عبيدة يلازمه من بين الأمراء، وأبو عبيدة هو القائد العام وتحت لوائه القوة العظمى في جيوش الشام دليل قاطع على سمو المكانة التي يحتلها خالد بن الوليد في تقدير عمر ووزنه.

طبيعة لا تغالب

بيد أن طبيعة خالد العسكرية لم تسكن إلى روح الهدوء التي ساد بها أبو عبيدة الجيوش الإسلامية، فقد كثر في عهده الصلح والمسالمة، وقلت عنوة الفتوحات والمغالبة، فانتهز خالد فرصة ولايته على «قنسرين» ـ وكان فتحها إحدى معجزاته الحربية، وكانت كلمة عمر التي قرظه بها حين أبلغه أبو عبيدة شأن خالد في فتحها قد مشت إلى مسامعه، ورأى فيها شهادة من عمر بفضل

أبي بكر في موقفه من خالد «أمر خالد نفسه، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال» - فعاد إليه طموحه، وجاشت نفسه بغوارب البطولة، فخرج هو وعياض بن غنم في صائفة فأوغلوا في دروب الروم، وغنموا غنائم كثيرة عادوا بها إلى ولاياتهم، فانتجعهم طلاب الجدي ورواد الجود، فأعطى خالد فأغدق، وكان ممن غمره خالد بعطائه الأشعث بن قيس الكندي، أجازه بعشرة آلاف درهم، فبلغ أمر هذا العطاء عمر بن الخطاب - وكان لا يخفى عليه شيء من أمر الناس - فأعظمه ورأى فيه مظهراً من طبع خالد الأصيل، وجنوحاً إلى ما كان يكره منه من التقدم وحرية التصرف في المال، والاندفاع بالمسلمين في الإدراب، وتبين لعمر أن ما صنع مع خالد من العزل عن القيادة العامة لم يكن حاسماً لأمره وعاد الأمر كما بدأ، فهل من المصلحة العامة أن يسكت عمر بن الخطاب، فيتجدد ما كان يخشاه من اصطدام بعدما أقر في الأمة سياسته وأشرب الناس مذهبه في الحكم، والتزمه أمراؤه وولاته.

رأى عمر أنه ليس من المصلحة في شيء أن يسكت على تصرف خالد، وأنه لا بد من حسم الأمر بصورة قاطعة تقف بخالد موقفاً ينأى به عن مباشرة عمل يعرضه للاصطدام بالسياسة العامة في الدولة، وتكون زجراً عاماً يمشي في الناس فيحسبون لمثله حساباً.

* * *

العزل الثاني وأثره

أصدر عمر أمره بعزل خالد نهائياً عن العمل في الجيش كله، ولم يكتف بذلك بل أمر بمحاكمة خالد والتحقيق معه، واستقدمه إلى المدينة، وهذا هو العزل الثاني، وهو يحمل معه سببه صريحاً، وتمت المحاكمة والتحقيق، وقد ناقشنا الشكل الذي قالت الروايات إن المحاكمة جرت عليه، وهو شكل إن صح فتأويله ما عرف في طبع عمر، وأغلب الظن أن عمر رأى أن خالداً في قوة رجوليته أقوى على احتمال شدته الزاجرة من غيره، فضربه للناس مثلاً حتى لا تحدثهم أنفسهم بمخالفة السياسة العامة التي وضعها وسارت عليها الخلافة العمرية لنظام الدولة الإسلامية الناشئة.

اعتذار عمر

وهذا العزل الثاني هو الذي تحركت له بعض النفوس بالعطف على خالد والإشفاق على جيوش الإسلام، وقد أبعد عنها قائدها المظفر سيف الله خالد بن الوليد، وأحس عمر هذه الحركة، فأراد أن يبين للناس الدوافع

التي حملته على هذا التصرف مع خالد، فكتب إلى الأمصار ما خطب به الناس فقال: «إني لم أعزل خالداً عن سخطة، ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة».

ولما قال له طلحة بن عبيد الله: ما لك عزلت خالداً؟ قال له: ما عتبت على خالد إلا في المال؛ وخطب الناس فقال: «إني أعتذر إليكم عن عزل خالد بن الوليد، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطى ذا البأس، وذا الشرف، وذا اللسان، فأمرت أبا عبيدة».

والمتأمل في اعتذار عمر وتصرف خالد في المال، يرى لخالد وهو في موقفه الحربي أصدق العذر وأقومه، لأنه قائد يحرص على النصر بكل ما يستطيع من بذل في الأنفس أو المال، وما قيمة المال إذا كان ثمناً للنصر؟ وخالد وهو يباشر الحرب يعلم أن فيمن معه من ذوي البأس من لم تكن له كبير نية في الجهاد ولم تخلص نيته لمحض ثواب الله، فهذا في حاجة إلى ما يقوي عزيمته، ويثير حماسته من هذا المال، ولم تشرع الأنفال واختصاص المقاتلين في الجهاد بسلب المقتولين مهما عظم قدره إلا لمثل هؤلاء، فكان خالد يعطي ذا البأس، وذا الشرف، وذا اللسان على هذا الأساس القويم وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يعطي من غنائم الحرب ذا البأس، وذا الشرف وذا اللسان، ولما رجع من حنين ظافراً أعطى الطلقاء من رؤوس قريش، وأعطى أشراف الأعراب من أضراب الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والعباس ابن مرداس وغيرهم مائة، مائة، وخمسين، خمسين وترك سادة المسلمين من المهاجرين والأنصار.

وكأنما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يرى أن الإسلام قد استقر وضرب بجرانه فلا حاجة به إلى تألف الناس بالدنيا فليوكل الناس إلى إيمانهم وضمائرهم حتى تؤدي التربية الإسلامية رسالتها وتحدث أثرها في تخريج نماذج للفضيلة في أرقى معانيها.

سياسة عمر عامة

كانت هذه السياسة هي سياسة عمر مع ولاته وأمرائه عامة لم ينفرد بها خالد بن الوليد؛ ولكن التاريخ ـ كما قلنا ـ أفرده بفصل منه إعظاماً له.

وقد ورد أن عمر أشرك المثنى بن حارثة الِشيباني مع خالد بن الوليد في سبب واحد لعزلهما؛ روى ابن عساكر: أن عمر رضي الله عنه كان يقول قبل خلافته: «أما والله لئن صير الله هذا الأمر إليَّ لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق، وخالد بن الوليد عن الشام، حتى يعلما أن الله هو الذي نصر، ليسا هما». وكذلك عزل زياد بن أبيه، واعتذر بنحو عذره في عزل خالد والمثنى؛ قال ابن الأثير في أسد الغابة: لما عزل عمر زياداً قال له: يا أمير المؤمنين! أخبر الناس أنك لم تعزلني لخزية؛ فقال عمر: «ما عزلتك لخزية، ولكني كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك». وعزل المغيرة بن شعبة عن كتابة أبي موسى الأشعري، فقال له المغيرة: أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين؟ فقال: «لا عن واحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على العامة».

وهذا المذهب في تربية الأمم من أحكم المذاهب وأفضلها، فإن الأمة إذا وكلت إلى عبقرية فرد أو أفراد، وحملها الراعي على فضل عقل بعض أبنائها ماتت فيها جذوة التنافس، وارتاحت إلى الكسل والتواكل، وضعفت عن سلسلة العبقرية وفضل العقل؛ وهذا أمر مشهود محسوس في واقعنا من الحياة حتى أصبح من أكبر عيوب الشرق أن زعماءه وقادة الإصلاح فيه لا يعنون بتدريب من يخلفهم في مراكزهم، ويركزون جهودهم حول أشخاصهم، وإن جادت الحياة بآحاد من ذوي الاستعداد الفكري الرفيع من طينة الزعماء والقادة تنكر لهم هؤلاء، وأبوا عليهم تسديدهم وإرشادهم وتشجيعهم، حتى إذا فقدت الأمة قادتها تولى أمرها من ليس هناك.

تسامي العبقريات عن الصغائر

أما أثر هذا الحادث في نفسي الرجلين العظيمين: عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد فكان نفحة من نفحات التربية الإسلامية التي جعلت من رجال الصدر الأول مدرسة لتخرج نماذج حية للفضائل الإنسانية في مثلها العليا.

تلقى خالد رضي الله عنه أمر العزل الأول راضياً أحسن ما يكون الرضا، وسلم الأمر إلى القائد الجديد أجمل ما يكون التسليم، وعمل تحت إمرته نحواً من أربع سنوات، فلم يعرف عنه أنه اختلف عليه مرة واحدة.

ولا ينكر فضل أبي عبيدة وسمو أخلاقه في تخفيف وقع الحادث على خالد، فقد كان لحفاوته به وعرفانه لقدره، وملازمة صحبته، والأخذ بمشورته وإعظامه لآرائه وتقديمه في الوقائع التي حدثت بعد إمارته الجديدة، أحسن الأثر في صفاء قلبه صفاء جعله يصنع من معجزات العبقرية والشجاعة، ويظهر من براعة التفكير والسياسة ما أربى على عجائبه وهو أمير الأمراء، وعمله في فتح دمشق وقنسرين وفحل شاهد صدق على روحه السامية التي قابل بها حادث العزل، وكان في حاليه سيف الله خالد بن الوليد.

أما العزل الثاني فقد تلقاه خالد في رضاء أسيف، وأسف خالد لم يكن على فائت من سلطان الدنيا، ولو كان أسف خالذ على عظمة زائلة لكان موضع ذلك الأسف العزل الأول، وقد ثبت أن سلوك خالد يوم العزل الأول يقطع بأنه لم يأسف على شيء، لأنه ببقائه جندياً يصول في مجال عبقريته قد بقي له كل شيء يحرص عليه في هذه الحياة.

وإنما كان أسفه على حرمانه من ميادين الجهاد، وهي مطارح آماله ومسارح عبقريته، ومظاهر طموحه، فهو رجل حبيب إليه الحرب حباً لم يترك عنده موضعاً للذة في سواها، فهي قرة عينه، ومضمار أنسه، وملهى نفسه، فمن حقه أن يأسف وأن يحزن إذ يرى أنه أبعد عنها فلا يشهدها ولا تشهده، ومن حقه أن يأسف إذ يرى ثمرات عبقريته وهي يانعة يتعهدها غيره، وهو منها بمكان لا يرتضيه العباقرة من أبطال الجهاد وعشاق الحروب.

عظمة خالدية

يؤمن التاريخ إيماناً لا ريبة فيه أن خالد بن الوليد كان يوم عزله قد بلغ قمة العظمة التي ليس فوقها لأمثاله من العباقرة مكان، وأنه بلغ من قلوب المسلمين ومحبتهم وتعظيمهم مكاناً جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلن إلى الناس أنه يخشى عليهم الفتنة به، وبلغ من قلوب أعدائه أن كان ينصر عليهم بالرعب منه، ورجل هذا شأنه كان يستطيع لو مال برأسه هكذا لأشعل نار الثورة في كل مكان يذكر فيه اسمه من أقطار الإسلام والمسلمين، ولكن خالد بن الوليد رجل ملأ الإيمان قلبه، وامتزجت روح الإسلام بحلمه ودمه، واستنارت روحه بنور النبوة وهديها، فهو منذ آمن بالله ورسوله شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله. فكان جندياً من جنود الإسلام أبت عليه طبيعة الجندية وحبه العميق للإسلام أن يكون سبباً لوقف تياره المندفع بالفتوحات

التي كان قطب رحاها، وقائد قواها وبطل أبطالها.

عزل عمر خالداً في المرة الثانية، واستقدمه إلى المدينة، فخطب خالد أهل عمله مودعاً، فكان أقصى ما سمحت به نفسه في إظهار أسفه على هذا العزل الذي فرق بين القائد وجنوده أن قال للناس: «إن أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى إذا كانت بثنية[1] وعسلاً عزلني» فقام إليه رجل فقال: أصبر أيها الأمير، فإنها الفتنة. فقال خالد: «أما وابن الخطاب حي فلا» وهذا لون من الإيمان القاهر الغلاب، لم يرزقه إلا المصطفون من أخصاء أصحاب محمد ﷺ: فأية قوة روحية سيطرت على أعصاب خالد في الموقف الخطير؟ وأي إلهام ألقى على لسان خالد ذلك الرد الهادىء الحكيم؟

إنها قوة الإيمان، ووحي الإيمان بعظمة الإسلام الذي يسمو بصاحبه إلى آفاق لا يحسب فيها للأشخاص والأشياء حساب، آفاق لا تعرف الغل ولا الضغينة، ولكنها مشارق للإخاء والمحبة والإخلاص، فالأشخاص فانية. والأشياء زائلة، والحوادث منقضية، والإسلام خالد لا يزول.

سكن الناس وهدأت نفوسهم بعد أن سمعوا كلمة خالد في توطيد قواعد الخلافة العمرية، وعرفوا أن قائدهم المعزول ليس من طراز الرجال الذين يبنون عروش عظمتهم من أشلاء الفتن والثورات الهدامة، وإنما هو طرز في الرجال من أولئك العباقرة الذين خلقوا للبناء والتشييد، فإن أرادتهم الحياة على هدم ما بنوا تساموا بأنفسهم أن يذلها الغرور المفتون.

تحمل خالد إلى المدينة فقدمها حتى لقي أمير المؤمنين، فعاتبه عتاب الأسيف، فقال له: «لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر» فأعتبه أمير المؤمنين أحسن إعتاب وأكرمه، فقال له: «والله يا خالد إنك عليّ لكريم، وإنك لي لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء أبداً».

---

(١) البثنية: الأرض السهلة اللينة. قال في لسان العرب: وقول خالد بن الوليد لما عزله عمر عن الشام حين خطب الناس فقال: إن عمر استعملني على الشام وهو له مهم، فلما ألقى الشام بوانيه وصار بثنية وعسلا عزلني واستعمل غيري: فيه قولان، قيل البثنية حنطة منسوبة إلى بلدة معروفة بالشام... والآخر أنه أراد البثنية الناعمة من الرملة اللينة. أي سكن وذهبت شوكته.

وفي الطبري: أن خالداً لما قدم على عمر قال عمر متمثلاً:

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع   وما يصنع الأقوام فالله صانع

مظاهر الحب والتقدير

وحسبنا في إخلاص عمر لخالد ومحبته له وتقديره لكفاءته ما ورد في حديث الثوري، وقد قيل لعمر: استخلف، فقال: ولو أدركت خالد ابن الوليد ثم وليته، ثم قدمت على ربي؛ فقال لي: من استخلفت على أمة محمد؟! لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: خالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين.

ولما بلغ عمر موت خالد قال: «قد ثلم في الإسلام ثلمة لا ترتق، وليته بقي ما بقي في الحمى حجر، كان والله سداداً لنحور العدو، ميمون النقيبة» وروى ابن عساكر: أن هشام البختري دخل على عمر في ناس من بني مخزوم، وكان هشام شاعراً، فقال له عمر: أنشدني ما قلت في خالد، فلما أنشده قال له: قصرت في الثناء على أبي سليمان رحمه الله، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله، وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله ثم تمثل بقول بعض الشعراء:

فقل الذي يبقى خلاف الذي مضى   تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

فما عيش من قد عاش بعدي بنافعي   ولا موت من قد مات يوماً بمخلد

رحم الله أبا سليمان! ما عند الله خير له مما كان فيه، ولقد مات فقيداً وعاش حميداً، ولكن الدهر ليس بقائل[1]».

هذا موقف عمر من خالد بعد عزله عن العمل في جيوش الإسلام، وهو موقف غني عن كل تعليق، أما موقف خالد من عمر فقد سقنا كثيراً من دلائل شرفه ونبله وإخلاصه، وحسبنا أن نختتم هذا الفصل بحديث يرويه ابن عساكر، وفيه يبسط خالد بن الوليد نفسه حجة عمر بن الخطاب في عزله بأبلغ بيان وأوضح معذرة، قال: «دخل أبو الدرداء على خالد في مرضه الذي مات منه، فقال له خالد: يا أبا الدرداء، لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها؛ فقال أبو الدرداء: وأنا والله أرى ذلك، فقال خالد: «قد وجدت

---

(١) ليس بقائل: أي ليس بتارك أحداً يخلد في هذه الدنيا، فهو من الإقالة في المعنى، مادته: قاله قيلاً، قال في اللسان: وحكى اللحياني أن قلته لغة ضعيفة.

عليه في نفسي في أمور لما تدبرتها في مرضي هذا، وحضرني من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل، كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث إليَّ من يقاسمني مالي حتى أخذ فرد نعل، وأخذت فرد نعل، فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ومن شهد بدراً، وكان يغلظ عليّ وكانت غلظته على غيري نحواً من غلظته عليّ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لا يبالي قريباً ولا لوم لائم في غير الله، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه، وكان يكثر علي عنده، وما كان ذلك إلا على النظر، كنت في حرب ومكايدة، وكنت شاهداً وكان غائباً، فكنت أعطي على ذلك فخالفه ذلك في أمري».

فهل رأى الناس احتجاجاً أفضل وأبين من هذا؟

ولم يكتف خالد بذلك في إخلاصه لعمر، بل ختم حياته بالوصية إلى عمر فقال: «وقد جعلت وصيتي وتركتي وإنفاذ عهدي إلى عمر بن الخطاب».

نهاية عبقري

يستشعر الباحث في سيرة خالد بن الوليد قوة خفية في حياة هذا البطل العظيم أرفع في معناها الدافع من القوى المشهودة فيه كعبقري من عباقرة التاريخ، فهو رجل عسكري من الطراز الأول في العبقرية العسكرية له جميع خصائصها ورزاياها.

فإذا ذكر التاريخ العسكري بطولة الإسكندر وهانيبال ونابليون مثلاً للنبوغ الحربي المظفر جاء اسم خالد بن الوليد في السطر الأول من صفحة العبقرية العسكرية على أنه كلمة الإعجاز المنزلة من سماء الأمة العربية لتحدي الطبائع في أجناس البشرية.

وسيرة خالد بن الوليد كتاب من أسلوب الإسلام ومنطقه في تربية الرجال، يجب أن تتعبد الأمة الإسلامية في شتى أقطارها بآياته وسوره في هذا العصر الذي يعرف لغير القوة معنى في هذه الحياة.

والتعبد بسير الأبطال ضرب من إعادة الحياة إليهم في أشباههم من سلالة دمائهم، فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تحيا حياة كريمة فعليها أن تتطهر من دنس الضعف والاستضعاف في صوره كلها، ولا سيما تلك الصورة الخبيثة التي تغلف لها في أغلفة «التسامح» على ألسنة العبيد وربائب الاستعباد من المزورين على طبيعة الإسلام وتاريخه في النسب الجغرافي الدعي، ولتدخل بعد هذا التطهر إلى محراب البطولة، وبيدها كتاب «خالد بن الوليد» على طرته قول الله تعالى: ﴿ فإما تثقفنَّهم في الحرب فشرد بهم مَنْ خَلْفَهُمْ لعلهم يذَّكرون. وإما تخافَنْ من قوم خيانةً فانبذْ إليهم على سواءٍ إن الله لا

يحب الخائنين. ولا يحسبن الذين كفروا سَبَقُوا إنهم لا يُعجِزون. وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرْهِبونَ به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم».

عدل وقوة هما جماع سياسة الإسلام!!

في سيرة خالد بن الوليد أمران؛ أمر ينبع من الطبع العربي كخصيصة على امتياز هذا الجنس من البشر في ولادة البطولة المقدامة، ومثل خالد في هذا مثل غيره من أبطال التاريخ العربي قبل الإسلام، وسواء في ذلك التاريخ الأسطوري في نحو سيرة «عنتر» العبسي وأضرابه، والتاريخ الواقعي في نحو سيرة عمرو بن ود العامري وأقرانه من فوارس الشجعان.

والأمر الثاني في سيرة خالد ينبع من طبيعة الإسلام، وروحه وتربيته، الإسلام في نصاعته وقوته كما فهمه أبو بكر الصديق غبَّ وفاة رسول الله ﷺ، وقد تألبت عليه العرب قاطبة مرتدين عن دين الله؛ وكما فهمه عمر بن الخطاب عملاً في حياة الناس الواقعية، يسود حركاتهم وسكناتهم، ويدخل معهم في بيوتهم، ويصنع لهم صغار الأمور وكبارها، فإذا خرجوا به نماذج في أشخاصهم إلى حياة الناس كانوا به مثلاً بأوضاعهم المختلفة في شؤون الحياة على خلائقه وآدابه التي يريد أن تكون عليها أمته في عالمها الواقعي.

لا الإسلام الذي وجهته الفتن العاصفة على مشيئتها أو مشيئة الفاتنين المفتونين من أحلاسها بعد عهد الخلفاء الراشدين.

ولا الإسلام الذي اتخذه المستبدون أداة إذلال للأمة، وإفساد لأخلاقها ومسخ لطبيعتها.

ولا الإسلام الذي ادعاه مفرطحو الرؤوس، عراض الأكمام والجيوب، فجعلوه ذريعة للترهل الأبله والنفاق الذليل.

فهم خالد الإسلام ذلك الفهم العميق دون تفلسف أو شطح في التأويل. ولكنه فهم كانت الفطرة الصافية والطبيعة القوية، والبطولة الجريئة من أعظم وسائله، فكان نموذجاً للعبقرية فريداً في خصائصه المكسوبة التي

وجهته في وقائعه الإسلامية، ومن هنا كانت الميزة العظمى لخالد على أقرانه من أبطال التاريخ العربي قبل الإسلام، فكثير منهم واجه من الوقائع مثل ما واجه خالد، ولكنهم لم يظفروا بمثل ما ظفر خالد، وكثير منهم لهم عوائق وعقبات فلم يخلصوا منها بمثل ما خلص خالد.

وليس من الحق أن يزعم زاعم أن خالداً كان أقواهم بنية، وأصلبهم عوداً، وأشجعهم جناناً وأجرأهم إقداماً، فكل ذلك كان لأولئك منه حظ لا يقل ـ إن لم يزد ـ عن حظ خالد، ولأبطال الأساطير تصوير من صنع الخيال.

وإنما امتاز خالد على أقرانه بتقمصه روح الإسلام من وجهها القاهر الغلاب منذ رأى رسول الله ﷺ ينفث في روعه يوم إسلامه وحي البطولة الإسلامية، فلم يعدل به فيما حزبه أحداً من أصحابه، وهناك آمن خالد بالله ورسوله إيماناً سما به عن الحياة، فما كان يكترث لشيء فيها أو يأسى على فائت منها، فكانت مبدؤه الذي عاش في إسلامه عليه تلك الكلمة الخالدة التي ألقى بها إلى جنوده في موقف لا يقفه ولا يقدم عليه إلا خالد بن الوليد في إسلامه: «إن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له».

وعلى هذا المبدأ، وبهذه العقيدة كان خالد يخوض وقائع الجهاد مثلاً مضروباً لجنده، فلم تنكس له راية، ولا سقط له لواء، ولا عرف الهزيمة منذ كان قائداً مستقلاً، وعلى هذا المبدأ وبهذه العقيدة ودع خالد جنده وودع ميادين الجهاد يوم عزله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن عمله في الجيش كله إلى حيث يختم كتاب حياته بفصل من الإعجاز لا يوحي به إلهاماً إلا لمن كان على إيمان خالد وثقته في الله تعالى، وصادق حبه للإسلام.

إيمان يذهب بخالد في التضحية والإيثار مذهباً لم تعرفه الحياة لغيره من الأبطال، إيمان يسوقه إلى نهاية تنكرها حياته، وينكرها هو على نفسه، فهو قد اقتحم وخاطر، وقاتل وقتل، وإذا به يودع المدينة عائداً إلى حمص ـ على أرجح الروايات ـ مرابطاً بها أكثر من أربع سنوات، ثم يأتيه الموت وهو على فراشه، فيبكي؛ إي وربي إن البطل خالد بن الوليد بكى ساعة حضرته الوفاة؟؟ مم تبكي أيها البطل المغوار؟ أتهاب الموت وتخشى الردى؟ وأنت

الذي طالما فرّ من لقائك الموت، وأوردت الأبطال موارد الردى؟! لا، وعبقرية خالد! ما بكي خالد خشية الموت أو خوف الردى، ولكنه بكي لأنه يموت بغير السيف في حومة الوغى.

بكى خالد وهو يقول: «لقد حضرت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء»!!

«ولقد طلبت القتل في مظانه، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي».

«وما من عمل أرجي عندي بعد لا إله إلا الله من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين بتها وأنا متترس والسماء تنهل عليّ وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار، فعليكم بالجهاد».

حياة عريضة ملء سمع الدنيا وبصرها، ونهاية هادئة هدوء الإيمان إذا استقر في قلوب الصديقين.

رضوان الله وسلامه على خالد في العبقريين.

تم والحمد لله.

الفهرس